الحيَاة الأدَبيّة

في العصْر العبَّاسِي

تصوير صادق للحياة الأدبية في هـذا
العصر العظيم ، وترجمة لأعلامه ونابغيه

دكتــور
محمد عبد المنعم خفاجي

الطبعة الأولى
٢٠٠٤م

النــاشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية



الحيـاة الأدبيــة

فى العصر العباسى

الناشــــــر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
العنـــــوان: بلوك ٣ ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد - مساكن درباله - فيكتوريا - الإسكندرية.
تليفــــاكس: ٥٢٧٤٤٣٨/ ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل/ ٠١٠١٢٩٣٢٣٣
الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress@yahoo.com
dwdpress@biznas.com

Websitc

http:/ www.dwdpress.com

عنوان الكتاب: الحياة الأدبية فى العصر العباسى
المؤلــــف: د. محمد عبد المنعم خفاجى
رقم الإيداع: ١٠٩٩٧/ ٢٠٠٣
الترقيم الدولى: 5 - 372 - 327 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

" إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ
وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ علماً "

سورة طه آية ٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير :

العصر العباسى عصر الحضارة الإسلامية ، وامتداد الثقافة العربية فى جميع بقاع العالم ، ثقافة الفكر والعلم والتجديد فى كل فروع المعرفة ، وكل جوانب الحياة، التى تتلمذت عليها الأمم والشعوب من شرق آسيا إلى غرب إفريقيا وإلى جنوب أوربا ومن أواسط أفريقيا ومدغشقر حتى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وفى هذا العصر ظهرت أئمة الفكر الإسلامى العربى وأعلام الأدب العربى شعره ونثره ، وصار فيه الأدب العربى أدب الثقافة الرفيعة ، والذوق العالى فى جميع أنحاء الدنيا ، وظهرت المؤلفات القيمة فى كل فروع الثقافة ، وفى مختلف علوم الدين ، فى جميع جوانب العلم . وانتشرت الجامعات والمدارس والمعاهد فى كل عواصم العالم الإسلامى من الأندلس حتى حدود الصين .

والعصر العباسى عصر البلاغة العربية والأدب العربى ، فى أوج ازدهارها وعظمة تجديداتها .

وحين عزمت على تأليف هذا الكتاب " الحياة الأدبية فى العصر العباسى " تذكرت البحر المحيط الذى لا يستطيع النزول فيه إلا السبَّاح الماهر ، وتذكرت الأئمة والكتاب فى الفقه والشريعة وعلوم الدين ، وتذكرت الخالدين من أعلام الأدب العربى مثل " الجاحظ - أبى حنيفة الدينورى - ابن قتيبة - أبى حيان التوحيدى - القاضى الفاضل " وآلاف النوابغ فى الأدب ، وتذكرت أئمة الشعر مثل " بشارا - أبو تمام - البحترى - المتنبى - أبا العلاء - الشريف الرضى - ابن القاضى .. وغيرهم " . ومن الذى يستطيع الإحاطة بكل جوانب الأدب العربى فى هذا العصر أو البحر المتلاطم الأمواج .

وكان من أهدافى أن أكمل الحلقة التى بدأتها بكتبى " الحياة الأدبية فى العصر العباسى - الحياة الأدبية تعيد ظهور الإسلام - الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام - الحياة الأدبية فى عصر بنى أمية - الحياة الأدبية فى الأندلس " ، وأن

أبحث عن الينابيع التى أمدت الأدب العربى فى العصر العباسى بالنمو والازدهار والشموخ وسرت بعون الله فى الطريق حتى جاء هذا الكتاب ثمرة مجهود شاق وعمل متواصل ، وبحث طويل ، وكان بحثًا به موسوعة أدبية شاملة ، ترجمت فيها لأعلام الكتاب والأدباء والشعراء والنقاد وشيوخ الأب شعره ونثره على السواء .

وبالله التوفيق ، عليه توكلت ، وبه استعنت ، وما التوفيق إلا بالله .

المؤلــف

القسم الأول

مقدمات العصر العباسي



كـان العصـر العباسـي (١٣٢ - ٦٥٦ هـ = ٧٥٠ - ١٢٥٨م) حـافلاً بشـتى التيارات الفكرية والعلمية والأدبية ، وهو عصر النهضة والازدهار في الآداب العربية: وقد ورث العباسيون بني أمية بالغلبة والقهر وثلو اعرشهم بيد صنائعهم من الأعجام . ولكن كان البون ساسعاً والفرق بعيداً بين ما هنا وهناك في شتى المظاهر ، في نظام الخلافة وأساليب الحكم ومظاهر الحياتين الفكرية والاجتماعية ، وما إلى ذلك كله مما كان أثرا محتوماً لسيطرة العنصر الفارسي على أعنة الشئون الداخلية والخارجية صغيرها وكبيرها في المملكة الإسلامية ، فهذه المداخل العنيفة نقلت الحكم الإسلامي من طور إلى طور ، وأثرت في الحياة العربية تأثيراً كسروياً خالصاً ، وأورث العرب من من ضروب المدنيات ما هضموه وتمثلوه ، فاضافوا إليه كثير من ألوان ومظاهر التجديد . ولقد كان عصر نفوذ الخلافاء العباسيين عصر ازدهار في النهضة الفكرية والأدبية ، بعامل تشجيع الخلفاء للعلوم والآداب .. وفي عصر اضمحلال نفوذ الخلافة العباسية أخذ العلم والأدب في الازدهار كذلك ، بسبب تشجيع الدويلات التي انشعبت من المملكة الإسلامية واستقلت ، فقد كان لكل دولة عاصمة تنافس بغداد النفوذ والسلطان والحضارة ، وما لبثت بغداد نفسها أن عادت إلى سيرتها الأولى ، حين سيطر البويهيون عليها ، وبذلك كان في انقسام الدولة وتقطعها ، قوة للعلم ، ورواج للأدب ، وإن كان فيه ضعفها السياسي .. فقد تعددت مراكز العلم والأدب وكثرت أمام المنتجعين الموارد ، وبعد أن كان لا يذكر في هذا المقام إلا بغداد ، صار يضارعها في الذكر القاهرة ، وحلب ، والري ، وبخارى ، ونيسابور ، وغيرها ، وأخذ ملوك هذه الدول ، وأمراؤها ، ووزراؤها ، يتسابقون إلى اجتذاب العلماء والأدباء ، ويتبارون في الاحتفال بهم ، وإجزال العطاء لهم ، بدفع ما كان بينهم من تنافس ، وما يستكن في نفوسهم من حب الشهوة ، وحسن الأحدوثة ، وما في طبائع أكثرهم من ميل للأدب وتعلق به ، فقد كانوا بين عرب ، ومتعربين هم إلى العروبة أقرب ، وحسبنا أن نذكر الفاطميين والحمدانيين ، والبويهيين ، ففضلهم على الأدب لم يقف عند حد التشجيع والمكافأة ، بل تعداه إلى المشاركة في ميدانه ، مشاركة جد وسبق ، فعد في الشعراء تميم بن المعز الفاطمي ، وأبو فراس الحمداني، وعضد الدولة البويهي .

وكان من نتائج هذه المنافسة أن كثر عدد الشعراء والكتاب والعلماء كثرة لم نرها من قبل ، ولم تكن من بعد . وكان حب العباسيين للعلوم والآداب ، وبذلهم بسخاء في هذا السبيل ، مما جعل عاصمة الخلافة مهبط العلماء من كل فج وصوب .

سواء فى ذلك بغداد أو سامرا ، فانتقلت إلى المسلمين علوم الأمم القديمة المتمدينة فهضموها وتمثلوها وأجادتها قرائحهم ، وعملوا على تنميتها ، فألف العلماء كتبا كثيرة بعد ذلك ، امتزج فيها العقل الشرقى بالعقل الغربى . فلما اضمحلت الخلافة وقامت دول وإمارات فى أطرافها وعلى أنقاضها أخذ ملوكها وسلاطينها يشجعون العلم والمعارف ويكثرون من العلماء لتنافس عواصمهم مدينة بغداد ، وأقيمت المدارس والمكاتب ذوات الأثر البعيد فى التهذيب والتثقيف الإسلامى ، وتسربت إلى أوربا عن طريق المسلمين فى الأندلس الذين نقلوا إليها حضارة الشرق الروحية منها والمادية .

ولم تقف حركة النقل من اليونانية عند هذه الكتب ولا عند هؤلاء المؤلفين، بل امتدت إلى كتب كثيرة فى علوم متنوعة فى الهندسة والحساب والنجوم والميكانيكيات لإقليدس وأرخميدس وابلونيوس ومنالاوس وبطليموس القلوذى وابرخس ، ثم نقلت كتب أخرى من الفارسية مثل كليلة ودمنة ومزدك والتاج فى سيرة انوشروان والأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة وسير الملوك ، وكذلك من الهندية كتب فى الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسمار والتواريخ : مثل كتب مختصر الهند فى العقاقير والعلاجات للهند والتوهم فى الأمراض والعلل ورأى الهند فى احتباس الحيات وسمومها وجوامع الموجود لخواطر الهنود فى حساب التنجيم وخيال الكسوفين عند الهند .. بينما كانت الممالك الغربية مغمورة إذ ذاك فى بحور من الجهالة والظلمة ، ثم انتقلت هذه الحضارة الإسلامية إلى شتى الأقطار عن طريق مدينة القسطنطينية وسواها .

ولاتزال النهضة الأدبية فى العصر العباسى محل بحث الباحثين ، ودرس الدارسين ولم تكشف عقول العلماء حتى اليوم عن أسرارها وأسبابها .

وفى هذه الفصول حديث طويل عن الحياة الأدبية فى العصر العباسى ، بشىء من التفصيل ، ولون من التحليل ، مع تراجم واسعة لأعلام الأدباء والكتاب والشعراء والمفكرين ، ومع شرح مظاهر هذه النهضة وألوانها ، والحديث عن صورها وفنونها . والإفاضة فى النقد والدراسة والبحث والتحليل ، والترجمة لأعلام الأدباء والكتاب والنقاد والعلماء والشعراء والخطباء ، على نمط واسع من التعمق والاستيعاب، مما سيلمسه القارئ لهذا الكتاب .

تنقسم الفترة الأولى من تاريخ الدولة العباسية (١٣٢ - ٣٣٤ هـ) إلى عصرين: العصر العباسى الأول ، و العصر العباسى الثانى [١]

وإذا كان العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) يمتاز بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدولة ، وبنفوذ الفرس فيه . فإن العصر الثانى (٢٣٢ [٢] - ٣٣٤هـ) ، يتسم بضعف الخلافة ، وضياع هيبة الخلفاء وفساد شؤون الدولة ، وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذى بلغ حدًا كبيراً فى هذا العصر .

وأول من استخدم الأتراك فى الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام ١٥٨ هـ، ولكنهم كانوا شرزمة صغيرة لا شأن لها فى الدولة بجانب الفرس والعرب [٣] ، وألف المأمون فرقة صغيرة منهم لبسالتهم كانوا بعيدين عن شئون الدولة وسياستها لميل المأمون إلى الفرس أخواله .

وكانت أم المعتصم " ماردة " تركية من السغد ، فنشأ ومعه كثير من طبائع الأتراك مع الميل إليهم لأنهم أخواله ، وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاولهم على الخلافة بعد قتل الأمير [٤] فصار يخافهم على نفسه وضاعت ثقته بهم ، كما ضاعت ثقته بالعرب ، فأخذ يتقوى بالأتراك ويتخير منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم حتى اجتمع لديه آلاف من قبل أن تفضى إليه الخلافة [٥]

ولما مات المأمون سنة ٢١٨هـ كان هوى الحزب الفارسى مع ابنه العباس ونادوا به خليفة ، ولكن العباس بايع لعمه المعتصم فسكن الجند [١] ، فكان ذلك أيضاً مما زاد من تقريب المعتصم للجند وإيثاره لهم .

---

(١) يسير على هذا التقسيم كثير من الباحثين (ص ٩ جـ ٢ تاريخ آداب اللغة لزيدان ، و ٥جـ ٤ التمدن الإسلامى ، ٢١١ تاريخ الأدب العربى للزيات ، ص ب جـ ١ ضحى الإسلام) . ويجعل بعض الباحثين العصر عصراً واحداً (٣ آداب اللغة فى العصر العباسى للأسكندرى ، ١٦ تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى لمحمود مصطفى ، ١٦٥جـ ١ المفصل) .

(٢) ويرى بعض الكتاب أن ابتدائه الفعلى بمقتل المتوكل عام ٢٤٧ .

(٤) ١٦٧جـ٤ التمدن الإسلامى .

(٤) قال طاهر بن الحسين وهو فارسى :

أيسومنى المأمون خطة عاجز ... أو ما رأى بالأمس رأس محمد ؟

(١/١٥٧ العقد الفريد) وينسب لدعبل (٧/٢٦٦ مهذب الأغانى ، ٢/٥٢ آداب اللغة لزيدان ، ٣٥٠ الشعر والشعراء) .

(٥) ٤/١٦٨ التمدن الإسلامى .

وفي عام ٢٢٠هـ استقدم المعتصم عدداً كبيراً من الأتراك ، اشتراهم وبذل فيهم الأموال ، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفاً [٢] ثم ازداد عددهم في جيشه حتى بلغوا السبعين ألفا [٣] . ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت الخصومات بينهم وبين الجمهور ، وبينهم وبين الفرس أتى المعتصم سامرا على شاطئ دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكراً لجيشه وحاضره لملكه ، منذ عام ٢٢١[٤]هـ ، وأصبحت مدينة عظيمة في مدة وجيزة[٥] ، وصارت من أجمل الحواضر الإسلامية وظلت مقر الخلافة حتى عام ٢٨٩[٦]هـ .. أسلم الأتراك ، وأخذوا يتعلمون العربية ويتكلمون بها ، وثاروا موضع ثقة الخليفة وإيثاره ، وكان ذلك ضربة قاضية على العرب ونفوذهم في الدولة ، وكتب المعتصم إلى عماله باسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ، وأنزلهم عما كان لهم من قيادة الجيوش ومنعوا الولايات [٧] :

وانتقلت سياسة الدولة من أيدي الفرس إلى أيدي الأتراك[٨]، الذين أخذوا ينكلون بالفرس والعرب جميعاً ، وسعوا في قتلهم ، وموقف الأفشين من أبي دلف وأمره بقتله لولا أن أنقذه ابن أبي دؤاد معروف [٩].

ولم يمض غير قليل حتى كامن لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة والخلفاء ، وخاصة بعد فتح عمورية وقتل بابك عام ٢٢٣هـ ، وثار أكثر الوزراء وجميع قادة الجيش منهم ، واشتهر من بينهم الأفشين م ٢٢٦هـ واشناس م ٢٣٠هـ ، وإيتاخ م ٢٣٥ هـ وسواهم ، وتغلغل نفوذهم في جميع مناصب الدولة لكثرتهم وبسالتهم وتأييد الخلفاء لهم . حتى أن الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ) استخلف عام ٢٢٨هـ اشناس التركي على السلطنة وألبسه وشاحين وتاجاً[١٠]، وفي عهده نكل بغا الكبير وجيشه بكثير من العرب[١] .. ولما مات الواثق عام ٢٣٢هـ ، سعى الأتراك إلى ترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم للخلافة لأن أمه " شجاع " خوارزمية تركية ، فتم لهم ما أرادوا ، واستبدوا في عهده بأمور الدولة وشئون الخلافة ، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثرهم فارسيون ، وزاد في رعاية الأتراك وتقديمه لهم ، فزاد طمعهم في الدولة ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم كثيرون الدسائس والمؤمرات ، كثيرو الطمع في الأموال ، والعبث بالأمن .

---

(١) ١٠/٣٠٤ الطبرى (٢) ٢/٢٣٣ النجوم الزاهرة (٣) ٤العصر العباسي للسباعي بيومي (٤) ٤/٥٤ وما بعدها مروج الذهب (٥) ٥٢و٥٣ تاريخ الحضارة لبارتولد (٦) ١/١٠٠ ظهر الإسلام (٧) ٤/١٤٤ التمدن ، ١٦٥ حضارة الإسلام في دار السلام (٨) ١٧٠ جـ ٤التمدن (٩)الأذكياء لابن الجوزى (١٠) ١٣٥ تاريخ الخلفاء .

(١) ١٢ جـ١١ الطبرى (٢) ٦٥-٦٧ جـ ٤ مروج الذهب .

(٣) راجع مقتل المتوكل ومراثي الشعراء فيه في (٢٦٠-٢٦٤ جـ ١ زهر الآداب) . ومرثية يزيد المهلبي فيه في (٣١١ جـ ٢ وما بعدها من الكامل للمبرد . ١٨٦ جـ ٢ العقد ، ٢٦٣ جـ ١ زهر الآداب) .

ندم المتوكل على ما فرط ، وأخذ يعمل على كبح جماح الأتراك ، فحبس إيتاخ حتى مات عام ٢٣٥هـ ، وأراد عام ٢٤٣هـ نقل العاصمة من سامرا إلى دمشق ، لكن ذلك لم يتم له ، ثم عزم على قتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ، ولكنهم كانوا يحكمون تدبير آخر لقتل الخليفة[٢] ، وتقدم باغر التركى حارس المتوكل ، ومعه عشرة غلمان من الأتراك . ومعهم المنتصر الذى كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد،ودخلوا على الخليفة فقتلوه فى قصره الجعفرى ، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان،وذلك فى أواخر عام٢٤٧هـ[٣].

وكان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين وكانت هذه الحادثة مصرع الخلافة ومجد الأتراك . وفى ذلك يقول البحترى :

أكــان ولى العهــد أضــمر غــدرة	فمــن عجــب أن ولى العهــد غــادره
فـلا ملـك الـباقى تـراث الـذى مضـى	ولا حملــت ذاك الدعــاء مــنابره

ويقول المهلبى :

لا حــزن إلا أراه دون مــا أجــد	وهــل لمــن فقــدت عيناى مفــتقد
ومنها : فلـو جعلتم على الأحرار نعمتكم	حمــتكم الســادة المذكــورة الحشــد

ورأى يـزيد المهلـبى هـذا الشبـه رأى اسحاق بن إبراهـيم المعصبى م ٢٣٥هـ[١]فى الأتراك حين شكا المعتصم غدر من اصطنعهم من قوادهم مع وفاء من اصطنعهم أخوه المأمون من الرجال له[٢].

ويقول على بن الجهم :

عبــيد أمــير المؤمــنين قتلــنه	وأعظــم آفــات الملــوك عبــيدها
بــنى هاشــم صــبرا لكــل مصــيبة	سـيبلى عـلى وجـه الـزمان جديدهـا

وإذا كان الشعب يكره الأتراك من بدء اصطناع المعتصم لهم ، فإن هذه المأساة المؤلمة كانت سبباً فى زيادة كراهية الرأى العام لهم ، ونقمته عليهم .

ازداد عقب ذلك نفوذ الأتراك فى عهد المنتصر (٢٤٧-٢٤٨هـ) ، ثم فى عهد المستعين (٢٤٨-٢٥٣هـ)[٣] ، ثم عادوا فخلعوه من العرش ثم قتلوه وأقاموا مكانه فى الخلافة المعتز بالله بن المتوكل عام ٢٥٢هـ .

---

(١) ٩٥/ ٤ مسعودى.

(٢) راجع ٨ ج ١١ ، الطبرى.

(٣) خفف الاضطهاد عن آل أبى طالب ١٣٥/ ٤، مسعودى.

كان المعتز يكره الأتراك ، ويريد أن يثأر منهم لأبيه ، ففى عهده قتل وصيف عام ٢٥٣هـ ثم بغا عام ٢٥٤هـ ، وفى مصرعه يقول البحترى من قصيدة مدح بها المعتز بالله :[1].

أضحى بغا وأقربوه وحزبه	وكأنهم حلم من الأحلام
طاحوا فما بكت العيون عليهم	بدموعها ومضوا بغير سلام

وبعد قليل سار الأتراك إلى المعتز فوبخوه وطالبوه بالأموال ، ثم عذبوه وضربوه بالدبابيس ، وجروه برجله إلى باب الحجرة ، وأقاموه فى الشمس حافياً ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ، فخلع المعتز نفسه عام ٢٥٥[2]هـ ، ثم حبسوه وقتلوه ، وولوا مكانه المهتدى بن الواثق ، الذى لم يعجبهم زهده وورعه وحبه للعدالة ، فخلعوه عام ٢٥٦هـ . ومات بعد خلعه بأيام .

وفى عهد المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ) اشتد الخلاف بين فرق الأتراك ، فطلبوا أن يكون القائد الأعلى للجيش أحد إخوة الخليفة ، وألا يرأسهم أحد منهم ، فولى المعتمد أخاه الموفق أمر الجيش والولايات عام ٢٥٧هـ ، وبعد قليل أصبح السلطان الفعلى للموفق لا للمعتمد ، وصارت كلمته هى العليا على الأتراك وقوادهم ، فكبح غير قليل من جماحهم وأثر ذلك فى حسن الأحوال قليلا .

وسار المعتضد بن الموفق فى خلافته (٢٧٩-٢٨٩هـ) سيرة أبيه ، فعمل على رفع شأن الخلافة ، والحد من نفوذ الأتراك بقدر ما استطاع ، ولم يحابهم على حساب القانون والعدالة، فاقتص من تركى ارتكب معصية[3]، وقتل قائداً تركياً قتل غلاماً له ومدحه ابن الرومى على ذلك[4] وفى المعتضد يقول ابن المعتز من أرجوزته فى تاريخه :

قام بأمر الملك لما ضاعا	وكان نهباً فى الورى مشاعاً
وكل يوم ملك مقتول	وخائف مروع ذليل
وكل يوم شغب وغصب	وأنفس مقتولة وحرب
وكم فتاة خرجت من منزل	فغصبوها نفسها فى المحفل
ويطلبون كل يوم رزقاً	يرونه ديناً لهم وحقاً

---

[1] راجع ٢٣٤-٢٣٦ جـ ٢ديوان البحترى .

[2] ١٦٢ جـ ١١ طبرى ، ١٣٠ جـ ٢ شذرات الذهب ، ١٢٠ جـ ٤ مروج الذهب .

[3] راجع نشوار المحاضرة جزء ١ ص ١٥٢

[4] ديوان ابن الرومى ص ٣٠٣ .

كــذا حــتى أفقــروا الخلافــة وعودوهــا الرعــب والمخافــة

ومات المعتضد،فصار ابنه المكتفى (٢٨٩-٢٩٥هـ) فى خلافته لسيرة والده من الحزم والعزم والأخذ على يدى الأتراك .

وبعد وفاته ولى الأتراك أخاه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلاً صغيراً ، وأيدوا عرشه ببطشهم وظل خليفة إلى عام ٣٢٠هـ .

وهكذا كانت أمور الدولة فى العصر العباسى الثانى تسير فى طريق بعيد عن المألوف وتتجمع كل سلطة ونفوذ فى يدى الأتراك،الذين لم يبالوا بشىء فى سبيل أهوائهم وشهواتهم،واعتدوا على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء. وكانوا كثيراً ما ينهبون الدور ،ويتعرضون للحرم والغلمان،فكرههم الناس كرهاً شديداً،وكان نفوذهم فى الدولة جرحاً دامياً يألم كل عربى صميم،حتى هجا دعبل المتوفى ٢٤٦ هـ المعتصم لشدة تعصبه لهم :

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمــك تــركى علــيه مهانــة فأنــت لــه أم وأنــت لــه أب

ويقول العلوى صاحب الزنج م ٢٧٠هـ :

بــنى عمــنا وليــتم الــترك أمــرنا ونحــن قديمــاً أصــلها وعمودهــا
فمـا بـال عجـم الـترك تقسـم فيئـنا ونحـن لديهـا فـى الـبلاد شـهودها
فاقســم لا ذقــت القــراح وإن أذق فــبلغة عــيش أو يــباد عمــيدها[1]

وقد قام الشعب بعد ثورات ،أهمها ثورة عام ٢٤٩هـ التى اشترك فيها الجند الشاكرية،وقضى عليها الأتراك بعنف وقوة . وقد حاول بعض زعماء الأتراك التخفيف من حدة شعور الرأى العام وبغضه لهم،وقاموا بدعايات كثيرة،كان من أبرعها رسالة كتبها الجاحظ بإيحاء الفتح بن خاقان وحاول بها إيجاد جو من الثقة والتفاهم والألفة بين الأتراك وجمهور الشعب،وقد قدمها الجاحظ إلى الفتح، والظاهر أنه كتبها فى أيام المعتصم،لكنها لم تصل إليه بفعل حاشيته من الفرس والعرب فأعاد كتابتها من جديد فى عهد المتوكل،ودعى فيها إلى وحدة الأجناس والعناصر وأشاد فيها بالأتراك وبطولتهم إلى حد بعيد[2]. وهذه المحاولة وسواها من المحاولات قد فشلت جميعاً فى الوصول إلى الغرض المنشود .

---

[1] زهر الآداب جـ ١ ص ٣٣١ .

[2] راجع رسالة الجاحظ فى مناقب الترك وهى فى أول رسائل الجاحظ .

وامتاز العصر بنفوذ الغلمان فيه،وخاصة في آخره وفي عهد المقتدر،الذي كان عنده أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان[1]، وتولى كثير من الخدم قيادة الجيوش وأهم الأعمال في الدولة، كبدر غلام المعتضد،الذي تولى قيادة الجند ونقش اسمه على الأعلام،وأبلى في خدمة مولاه بلاء حسناً،حتى قتل في سبيله عام ٢٨٩هـ.

ونشطت النساء،وكثر نفوذهن أيضاً في الدولة،وكان معظم ذلك في عهد المقتدر لتصلت الخدم والحجاب .

وفي ظلال هذه الفوضى السياسية،استقلت كثير من البلاد عن خلفاء بغداد،وأهم هذه الدول المستقلة : الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤-٢٩٢هـ) وهي تركية والدولة الإخشيدية بمصر (٣٣٢-٣٥٣هـ)، وهي تركية أيضاً والدولة الظاهرية بخراسان (٢٠٥-٢٥٩هـ) وهي فارسية ، والدولة السامانية في ما وراء النهر (٢٦١-٣٨٩ هـ) وهي فارسية أيضاً ، والدولة الصفارية بفارس (٢٥٤-٢٩٠هـ) والدولة الدلفية بكردستان (٢١٠-٢٨٥هـ) وهي عربية ، والدولة العلوية بطبرستان (٢٥٠-٣١٦هـ) .

كما حفل العصر العباسي الثاني بكثرة ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة مما تجد أخباره ونتائجه في مقتل الطالبيين، وسبب ذلك راجع إلى اضطهادهم واضطهاد شيعتهم .

فقد كثر اضطهاد الشيعة في هذه الفترة الحافلة ، وأسرف في ذلك المتوكل على الله فإنه لما تولى الخلافة اضطهد الشيعة، وشدد النكير عليهم،وصادر أموال العلويين وشيعتهم وغالى في تشريدهم، وأمر في عام ٢٣٧هـ بهدم قبر الحسين بكربلاء[2]

وكان الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم[3]، من حيث كان المأمون يرعى العلويين ولا يأذى أحداً منهم[4].

وكان المتوكل يبغض المأمون والمعتصم والواثق لمحبتهم لعلي[5]، وكان شديد البغض لعلي وأهل بيته، وذلك راجع لموضع خؤولته من الترك وسلطان

---

(1) راجع التمدن جـ ٤ ص ١٧٥ ، آداب اللغة لزيدان جـ٢ ص ١٥٤ .

(2) ٢٨٩جـ ٣ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى بك ، ١٩جـ ٧ وما بعدها ابن الأثير .

(3) العقد جـ١ ص ٢٤٩ .

(4) راجع مناظرة المأمون للفقهاء في تفضيل علي (٢٧٩-٢٨٦جـ٣ العقد) .

(5) ظهر الإسلام ص ٤١ جـ ١ .

الأتراك فى الدولة، وتاريخ الأتراك مملوء بكرههم للتشيع والشيعة، وبالحروب المتصلة بينهم وهم سنيون وبين الفرس وهم شيعة .. وبذهاب الشيعة ونفوذهم من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها، وغلبت السنة على الدولة فى ذلك الحين .

وسرت فى الدولة بعد المتوكل موجة اضطهاد العلويين والشيعة، فالمنتصر كان يقاوم العلويين كأبيه[1] ، وتذكر بعض المصادر أنه أراد أن يحسن صلته بالبيت العلوى ولكن لم تطل مدته[2] .

ولكن عهد المعتضد كان عهد خير على العلويين، فى أنه لم يتعرض فى أيامه لهم ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً[3].

وكان البعض يشنع على آل أبى طالب عند المكتفى فنهاهم[4] .. وعلى الجملة فإن أغلب هذا العهد كان عهد محنة واضطهاد للعلويين ومن والاهم .

أما الفترة الثانية فى حياة الدولة العباسية فتبدأ من عام ٣٣٤هـ وتنتهى عام ٦٥٦هـ ، وتمتاز بنفوذ الإمارات الإسلامية فى العالم الإسلامى وقد بدأت هذه الفترة بدخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤هـ ، حيث سيطروا على الحكم بدلاً من الأتراك،وهم من الجنس الفارسى، وبذلك عاد الفرس إلى السيادة، وأقاموا ببغداد يتصرفون باسم الخليفة، ولكنهم لم يكونوا كأسلافهم، يرعون للخلفاء حرمتهم، ويحفظون لهم جلالهم وهيبتهم، بلى حذوا حذو الترك فى التنكيل بهم، والاستهانة بأقدارهم .

وكانت تضرب أسماء البويهيين على الدينار والدراهم، ويخب لهم على المنابر ويفوض إليهم الخلفاء كل ما وكل الله إليهم من شئون الرعية، وتدبيرها فى جميع جهاتها مما يلى أمره الخليفة، ولكن هذا لم يقنعهم فضيقوا عليهم فى الرزق وقدروا لهم النفقات، وصادروهم على أموالهم، وخلعوهم، وسملوا عيونهم، وقد احتاج بهاء الدولة إلى مال، فدبر خلع الطائع، فاستأذنه فى الحضور لتجديد العهد، فلما دخل قبل الأرض بين يديه وجلس، وتقدم بعض الديلم كأنهم يريدون تقبيل يد الخليفة، فلما مدها إليهم، جذبوه عن سرير الملك، وهو يستغيث، ونهبوا داره، وامتهنوا من كانوا بحضرته من القضاة والأشراف، وسلبوهم ثيابهم .

---

[1] الإدارة الإسلامية لكرد على ط ١٩٣٤ ص ١٧٣ .

[2] ظهر الإسلام ص ٤٤ جـ ١ .

[3] الفرج بعد الشدة ص ١٣٣ جـ ١ .

[4] الأغانى ص ١٤٣ جـ ٩ .

وقد اشتد في بدء هذه الفترة نفوذ الإمارات الإسلامية المستقلة المتباينة ومن أهمها.

١- الدولة السامانية بفارس وما وراء النهر (٢٦١-٣٨٩هـ) .
٢- الدولة الزيارية بجرجان (٣١٦-٤٣٤هـ) .
٣- الدولة الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧-٣٩٤هـ) .
٤- الدولة البويهية بفارس ثم العراق (٣٢٠-٤٤٧هـ) .
٥- الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣-٣٥٨هـ) .

ولقد كانت حال الخلفاء مع البويهيين مثل ما كانت عليه من قبل، فظل البويهيين يستبدون بكل شيء، ويعاملونهم بقسوة وعنف حتى دالت دولتهم، وتغلب السلاجقة عليهم، ودخلوا بغداد عام ٤٤٧هـ .

ورث السلجيوقيون الإمارات الشرقية، ماعدا مصر والشام، واستولوا على ديوان الخليفة ببغداد حتى أصبح لا حل له ولا عقد، واستمر ذلك إلى زوال الخلافة حيث أغار عليها التتار بقيادة زعيمهم " هولاكو " فاستولوا على بغداد سنة ٦٥٦هـ ١٢٥٨م، بمساعدة " مؤيد الدين بن العلقمي " وزير المستعصم آخر خلفاء بغداد وقتلوا الخليفة وأهله ومثلوا بهم . وبموت المستعصم سقطت الخلافة العباسية من بغداد، وفر بعض الخلفاء إلى مصر في زمن الملك الظاهر بيبرس، فأنزلهم وخصص لهم بعض وظائف لمعاشهم، وبقوا فيها إلى أن انتقلت الخلافة إلى العثمانيين سنة ٩١٢هـ - ١٥١٧ م .

وفي خلال حكم السلجوقيين لم يعد شمل الدولة الإسلامية جميعاً كما كان قبل ظهور الأتراك، بل ظلت مفككة العرى مقطعة الأوصال ومن ضعفت شوكته في ولايته، تلقفها منه غيره، بدل أن تعود إلى حوزة الخليفة بالعراق، وظهر في المشرق الإسلامي من الدول غير ما ظهر على أيام الأتراك ومن أشهر هذه الدول :

١- الدولة الغزونية في السندو أفغانستان (٣١٥-٥٨٢هـ) .
٢- الدولة الفاطمية في مصر والشام (٣٦٢-٥٦٧هـ) .
٣- الدولة العقيلية في ديار بكر والجزيرة (٣٨٦-٤٨٩هـ) .
٤- الدولة المزيدية من بني أسد في الحلة (٤٠٣-٥٤٥هـ) .
٥- الدولة المرداسية من بني كلاب في حلب (٤١١-٤٧٢هـ) .

هذا غير ما تفرع من الدولة السلجوقية نفسها، وتوزع منها، من ممالك وإمارات، لأحفادهم، ومماليكهم، وقوادهم، كالخوار زمشاهية، والأرتقية، والاتابكية، وسواها . وكذلك غير حلول الأيوبيين محل الفاطميين ...

وبعد فقد دامت الخلافة العباسية خمسة قرون ، وكان عرش العباسيين فيها ملعباً للأهواء، وتنقسم التطورات التى مرت بها إلى خمسة أدوار سياسية :

١- فالدور الأول : دور القوة المركزية، أى قوة الخلافة، يمتد من بدء الدولة إلى أواخر حكم المتوكل، فيشغل أكثر من قرن من الزمان ٢٣٢-٢٤٧هـ وقد بلغت فيه الخلافة أقصى قوتها وأزهى مظاهر مجدها، وفى هذا الدور كانت بغداد عاصمة لسلطنة واحدة تمتد مما يقرب من الهند إلى تونس .

٢- والدور الثانى : دور الجندية (٢٤٧-٣٣٤ هـ) حيث كانت الخلافة تحت سيطرة الجند الأتراك الذين نظمهم المعتصم، وقد نقل ديوان الخلافة إلى سامرا حيث بقى فيها نحواً من ٥٨ سنة قبل أن يعاد إلى بغداد .

٣- والدور الثالث أو الدور البويهى (٣٣٤-٤٤٧ هـ) وكانت فيه السلطة بيد بنى بويهة وكان الخليفة لا يملك من المال إلا راتباً يتقاضاه، ولو أن البويهيين أبقوا للخلافة نفوذها الأسمى، وصاروا يحكمون فى الدولة ظاهراً بإمرة الخلفاء . وبقوا كذلك إلى أن ضعفوا ثم زال ملكهم بقيام السلاجقة. وقد دام هذا الدور أكثر من قرن حتى سنة سبعة وأربعين وأربعمائة للهجرة .

٤- والدور الرابع أو الدور السلاجوقى (٤٤٧-٦٥٦ هـ) : وينقسم إلى عهدين :

(*) عهد قوة السلجوقيين : وينتهى عام ٥٩٠هـ وفيه كانت السلطة للسلاجقة، وهم قوة من الأتراك سلكوا مسلك البويهيين فى المحافظة على مظهر الخلافة وإبداء التبجيل لصاحبها .

(*) عهد الاحتضار : ويبدأ باحتضار دولة السلاجقة فى بغداد أيام الناصر حتى داهم المغول الخلافة سنة ست خمسين وستمائة للهجرة، فنهبوا بغداد وقتلوا آخر خلفائها ومحوا ما كان قائماً من معالمها .. هذا والعصر العباسى عامة يتميز بعدة مظاهر من أهمها :

١- التنافس على السيادة بين العناصر الجنسية وأخصها العربى والفارسى والتركى .
٢- ضعف الخلافة وتجزؤها على إمارات مستقلة .
٣- الحركات الهدامة الداخلية .
٤- غارات الروم والإفرنج على أطرافها .

ثانياً الحياة الاجتماعية :

وكانت الدولة الإسلامية فى ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها :

الأتراك : وكان لهم النفوذ السياسى فى الدولة، وقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعاً. وتولوا شتى المناصب الرفيعة فى الحكومة . وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة[1]، وكان فيهم عبث بالأخلاق ، وشراهة فى جمع الأموال[2]، وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة ، فكثرت الجوارى الأتراك فى قصور الخلفاء والأثرياء ، حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ، وطابع الترك حب الجندية والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل فى الدين ، وحب المال وجمعه من أية سبيل. ومع عدم الرغبة فى الإصلاح .

العنصر الفارسى : كانوا عماد النظام السياسى والإدارى للدولة ، ولكن الأتراك أقصوهم عن منزلتهم فى العصر العباسى الأول ، فأخذوا يدسون الدسائس ، ويدبرون المؤامرات ، ويرمون إلى الاستقلال ببلادهم عن الخلافة ، وكانت الدولة تتأثر بهم فى حياتهم العقلية الخصبة ، وعاداتهم وتقاليدهم العامة ، وكانوا دعاة الترف والمجون والحضارة ، وطابعهم حب السيادة والبذخ والقدرة على تنظيم إدارة الدولة وتشجيع العلوم والظهور بمظهر التشيع .

العنصر العربى : أقصى عن النفوذ فى الدولة والخلافة ، وكان للمعتصم فى ذلك أثر معروف ، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون فى الشام والجزيرة حيث كونوا لهم هناك دويلات كثيرة . وطابع العرب الزهو والاعتزاز بالنفس والفضائل والميل إلى الأدب والرغبة فى السيادة .

وهناك عنصران آخران كان لهما أثرهما فى الحياة الاجتماعية فى هذا العصر وهما :

الزنج والروم : أما الروم فقد كثر أسراهم فى بيوت الخلفاء والأغنياء ، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات روميات . وكانت الجوارى الروميات والغلمان الروم يملأن القصور ، وتعشقهم الشعراء ، فكا للبحترى غلام رومى اسمه نسيم[3]، وكذلك كان لسواه من الشعراء ، ومن هذا العنصر : ابن الرومى م ٢٨٣هـ .. أما الزنوج أو السود فكانوا يجلبون من سواحل أفريقيا الشرقية ، وكانوا يعملون فى الزراعة

---

(1) ظهر الإسلام جزء أول ص ٣٢.

(2) المرجع نفسه ص ٣٤ ، ٣٥ .

(3) معاهد التنصيص ص ١/١١٠ – مهذب الأغانى جـ ٧ ص ٩٤ .

والصناعة وفى بيوت الطبقات المتوسطة ، وليس أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التى هددوا بها الدولة (٢٥٥- ٢٧٠هـ) ، وكانت حرباً بين الأجناس ، وظلت حتى قضى عليها الموفق عام ٢٧٠هـ .

وكان الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً[1]، والنفوذ والثروة فى يد الخاصة من الناس مما يستلزم الترف واللهو والمغالاة فى البنيان ، فقد أنفق المعتصم على بناء " سامرا " أموالاً طائلة ، وكذلك فعل المتوكل فى بناء الجعفرى وسواه من المبانى التى أنفق عليها نحو خمسة ملايين من الدنانير ، وبنى المعتضد قصر التاج فى الجانب الشرقى من بغداد وأتمه ابنه المكتفى ، وبنى المعتضد على بعد ميلين منه قصر الثريا الذى بلغ طوله ثلاثة فراسخ وأنفق عليه نحو نصف مليون من الدنانير، ووصله بالقصر الحسنى بسرداب تحت الأرض بلغ طوله ميلين وكانت تمشى فيه جواريه وحرمه[2]. وفى تهنئة المعتضد بقصر الثريا نظم ابن المعتز قصيدته:

سلمت أمير المؤمنين على الدهر ... ولازلت فينا باقياً واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل ... فلا زال معموراً وبورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مشبه ... ولا ببناء الجن فى سالف الدهر

ويصف فى أرجوزته فى المعتضد قصر الرباب فيقول :

فمن رأى مثل الرباب قصراً ... كم حكمة فيه تخال سحراً
أبنية فيها جنان الخلد ... لكل ذى زهد وغير زهد
تخبر عن عز وعن تمكين ... وحكمة مقرونة بالدين
ومظهرات قوة الإسلام ... على أعاديه من الأنام

وهكذا كان الترف والنعيم حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس وبعض رجال التجار والصناعة . حين كان الفقر والبؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس[3].

وكان من مظاهر الترف فى هذا العصر - كما ذكرنا - كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور ، فكثر نسل الجوارى واختلطت الدماء ، وأشاع هؤلاء الجوارى فن الغناء ، كما نشرن اللهو والمجون بين شتى الطبقات ..

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضاً للنحل ، ومجالاً لدعاية الجماعات السرية وأصحاب المذاهب الذين

---

(1) راجع الطبقات الاجتماعية وحياتها فى هذا العصر فى التمدن الإسلامى (٢٠-٥/٥٩ ، ١٠١-٥/١٢٩)
(2) التمدن الإسلامى ص ٩٣، ٩٤/ ٥ وظهر الإسلام ٩٩/ ١.
(3) ظهر الإسلام جزء ١ ص ٩٧

كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة .

فكان فيها التشيع برجالاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف أقوالها ، والفلسفة بمذاهبها ، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوائف الأديان الأخرى بمبادئهم وآرائهم .

وقد قامت جماعات تكافح الشك في الدين والمجون في المجتمع ويدعون إلى الحياة الإسلامية بأخلاقها ومبادئها وسلوكها : ومنهم الحنابلة الذين كانوا يقومون بثورات كثيرة في بغداد لمحاربة المجون والإلحاد .

أساس الحياة الاجتماعية[1] الحالة الاقتصادية ، التي تسيطر على الناس من حيث لا يشعرون . والحياة الاقتصادية في العصر العباسي الثاني كانت شديدة الاضطراب والفوضى إلى حد بعيد .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للمقربين لدى الخلفاء والوزراء[2] وكان كبار الملاك يستقلون باقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين حالة الناس .. وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين ، حتى الوزراء الذين كانوا يسوغونها أمام ضمائرهم وأمام الخلفاء ، كما فعل سليمان بن وهب أمام المهتدي[3]. وعمت المصادرة بين طبقات الناس ، وأصبحت بتوالي الأيام المصدر الرئيسي لبيت المال[4]وأنشيء لها ديوان مخصوص[5] .. وكانت ضرائب الأطيان أساس دخل الخلافة[6]، ويدل على حالة الدولة أن متوسط جبايتها كان في أواسط القرن الثالث كما ذكر ابن خرداذبة نحو ثلاثمائة مليون درهم[7]، بعد أن كان في عهد الرشيد والمأمون أكثر من ٣٩٠ مليون[8] وفي عهد المعتصم ٣٨٨[9].

---

[1] يراد بالحياة الاجتماعية ما يؤلف بين أفراد الأمة من الصلات والأسباب .

[2] ٥٤ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد .

[3] ٧/١٥٦ مهذب الأغاني

[4] ٤/١٨٠ التمدن الإسلامي ، ١٦٩ الإدارة الإسلامية .

[5] ١/٣٥ ظهر الإسلام ، ١٦٩ الإدارة .

[6] ٥٣ بارتولد ، ٥/٦٩ التمدن

[7] ٢/٦١ التمدن

[8] ١٧٩-١٨١ مقدمة ابن خلدون ، ٢/٥٣ التمدن ، ١٥٢ حضارة الإسلام في دار السلام

[9] وذلك وفق ما ذكر قدامة في كتاب الخراج (٢/٥٩ التمدن) – ومتوسط الجباية في العصر الأول كان نحو ٣٦٠ مليوناً في العام ، ينفق منها على مصالح الدولة نحو ٥٠ مليوناً والباقي يظل في بيت المال تحت تصرف الخليفة يصرف منها المرتبات والمكافآت (٦٩ ، ٥/٧٠ التمدن) .

وكانت نفقات المعتضد سبعة آلاف دينار في اليوم[1]، وذلك نحو مليونين ونصف مليون من الدنانير أو خمسين مليون ن الدراهم في العام[2]، فالباقي من مجموع الجباية هو الذي يبقى في بيت المال تحت تصرف الخليفة[3].

وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة[4] حتى ترك المنصور أربعة عشر مليوناً من الدنانير - أي ٦٠٠ مليون من الدراهم - وترك الرشيد واحدًا أو عشرين مليونا[5]، وترك المعتضد في خزانة الدولة أموالاً طائلة فوق ما ترك من ثروة خاصة .

وفي بعض مظاهر هذا الترف والبذخ ، يقول علي بن الجهم واصفاً قصر الجعفري الذي بناه الخليفة المتوكل على الله :

ومـــا زلـــت أسمـــع أن الملـــو	ك تبـــني عـــلى قـــدر أقدارهـــا
وأعـــلم أن عقـــول الـــرجا	ل يقضـــي علـــيها بآثارهـــا
فـــلما رأيـــنا بـــناء الإمـــا	م رأيـــنا الخلافـــة فـــي دارهـــا
بدائـــع لم تـــرها فـــارس	ولا الـــروم فـــي طـــول أعمارهـــا
ولـــلروم مـــا شـــيد الأولـــو	ن وللفـــرس آثـــار أحـــرارها
وكـــنا نحـــس لهـــا نخـــوة	فطامنـــت نخـــوة جـــبارها
وأنشـــأت تحـــتج للمســـلمـ	ـــين عـــلى مـــلحديها وكفارهـــا
صـــحون تســـافر فـــيها العـــيو	ن إذا مـــا تجلـــت لأبصـــارها
وقـــبة ملـــك كـــأن الـــنجو	م تفضـــي إلـــيها بأســـرارها
نظمـــن الفســـافس نظـــم الحـــلي	لعـــون النســـاء وأبكارهـــا
لـــو أن ســـليمان أدت لـــه	شـــياطينه بعـــض أخـــبارها
لأيقـــن أن بـــني هاشـــم	تقدمهـــا فضـــل أخطارهـــا

ولضيق ابواب الرزق على كثير من الناس ، وقصور وسائل الكسب عن أن تفي لهم بمطالب الحياة ، اتخذ بعضهم تكفف الناس حرفة ، وقعدوا للسؤال كل مقعد، وقد أنفذ ملك الروم إلى المنصور رسولاً ، فاسترعاه من على جسر الرصافة من الزمنى والسؤال ، وقال لعمارة بن حمزة - وكان يرافقه من قبل المنصور في تطوافه

---

[1] ٣/٣٥٥-٣٥٣ الخضري بك .

[2] ٢/٦٦ التمدن .

[3] ٢/٦٧ التمدن .

[4] ٥/١٠١ التمدن

[5] ٢/٣٣ التمدن .

بغداد - إنى أرى عندكم قوماً يسألون ، وقد كان يجب على صاحبك أن يرحم هؤلاء، ويكفيهم مؤنهم وعيالاتهم ، فاعتل له عمارة بوجه ، واعتل المنصور بسواه .. فلا غرابة - إذن - أن يكثر أهل الكدية ، من الطبقة الدنيا ، بل لا غرابة إذا وجد بعض الناس فى التكدية أهنأ سبيل ، تدر عليهم فيها أخلاف الرزق ويأمنون معها بوائق الغدر ، وهذا ما نراه ، ونرى معه كيف كانت وسائل الكسب على أيام الحريرى ، من قوله فى المقامة الساسانية : " سمعت المعايش إمارة ، وتجارة ، وزراعة وصناعة ، فمارست هذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أحمدت منها معيشة ولا استرغدت عيشة ، ولم أرى ما هو بارد المغنم ، لذيذ المطعم ، وافى المكسب ، صافى المشرب ، إلا الحرفة التى وضع ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ، وأضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها ، فشهدت وقائعها معلماً ، واخترت سيماها لى ميسماً، إذا كانت المتجر الذى لا يبور، والمنهل الذى لا يغور، والمصباح الذى يعشى إليه الجمهور ، ويستصبح به العمى والعور ، وكان أهلها أعز قبيل، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف ... " .

الحيـــاة العقليـــة[1]

فى العصر العباسى الأول (١٣٢-٢٣٢هـ) ازدهرت الحياة العقلية ازدهاراً كبيراً ، وتلاقت فى الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التى تمثل حضارات الأمم العريقة فى أثرها ، فى العلم والثقافة .. كانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر الثقافات والوراثات .

كان النفوذ فى دولة الخلافة للفرس ، وانتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيراً على يد الوزراء وكتابهم الفارسيين ، ونقل المثقفون من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية - إلى العربية تراث الفرس القديم فى الحضارة والثقافة ، وانتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادراً عن عقليتين وثقافتين ، وكان رجال العلم فى هذا العصر أكثرهم فارسيون ، حتى قال ابن خلدون : إن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم[2]، ودخلت الثقافة اليونانية فى هذا العصر على الفكر الإسلامى بامتزاج الجنسين فى الحياة الاجتماعية وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية ، وإذا كان خالد بن يزيد ٨٩

---

[1] يراد بالحياة العقلية حركة النفس الإنسانية فى جميع أنواع العلوم والفنون والثقافات والآداب .

[2] ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون

هـ أول من ترجم – أو ترجمت لـه – كتب النجوم والطب والكيمياء[1]، فقد عنى المنصور م ١٥٨هـ بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها ، وبث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بما لديه من كتب الفلاسفة واستخار لها مهرة التراجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها[2]. بل كان المنصور أول خليفة قرب المنجمين وترجمت لـه الكتب من اليونانية والرومانية والفهلوية والفارسية والسريانية[3]. وكذلك فعل الرشيد ، وأوفد المأمون الرسل إلى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانية ونسخها بالخط العربى وبعث المترجمين لذلك[4]. وأنشأ فى بغداد مدرسة لتخريج المترجمين[5]، وهى مكملة لدار الحكمة التى بناها الرشيد للترجمة ، وإذا كانت الدولة قد قبلت التقاليد الإيرانية فى أمور الدولة فقد أخذت فى مساحة الحضارة والثقافة أموراً كثيرة من بيزنطة[6].

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الإسلامى مباشرة وبواسطة الفرس أيضاً ، أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية ، وليس لهم ثقافة ، وبعد أن تعلموا العربية لم ينبغ منهم فى الأدب والشعر والعلم إلا قليل ، كأحمد بن طولون والفتح بن خاقان .

وكان للإسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة فى الدين واللغة والأدب والشعر ، كانت هى أهم شىء أثر فى الفكر الإسلامى وكانت المورد الأول للناس جميعاً .

تجمعت هذه الثقافات فى العراق فى العصر العباسى الأول وأحدثت أثرها فى العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل فى امتزاج هذه الثقافات[7] وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدموا معانى للأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها.

---

(1) ١/٢١٣ البيان والتبين للجاحظ ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم .

(2) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون ،٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ، ٢١ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، وراجع حركة الترجمة فى (٢٢٩–٢٣٣ الأدب العباسى لمحمود مصطفى ، ١٧٧ وما بعدها و ٢٦٤ ،٢٦٨–١/٢٧٠ ضحى الإسلام .

(3) ٤/٢٤١ وما بعدها مروج الذهب

(4) ٤٨٠ ،٤٨١ مقدمة ابن خلدون .

(5) ٢٣٠ الأدب العباسى لمحمود مصطفى

(6) ٣٨ تاريخ الحضارة الإسلامية .

(7) ٣٨٠ جـ ١ ضحى الإسلام .

وفـى العصـر العباسـى الـثانى (٢٣٢-٣٣٤ هـ) زاد امـتزاج هـذه الـثقافات واتصالها ، بتطاول الزمن وتلاقح العقول وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم فى البلاد الإسلامية .

وكـان العصر العباسى الأول تغلب عليه نزعة الاعتزال[1] التى أيدها المأمون بكـل مـا يستطيع ، ولكـن العصر الثانى وهو عصر النفوذ التركى كان مصحوباً بمظاهر جديـدة أهمها إلغاء سلطان المعتزلة وإعلاء شأن المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجـدل فـى القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة ، كمحمـد بـن أبـى الليـث فـى مصر وأحمـد بـن أبـى دؤاد فـى العراق ، مـن حيـث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أئمة المحدثين ، وكان هذا الاتجاه يحظى بتأييد الأتراك ويعملون له[2].

ومراكـز الحـياة العقلـية فـى العصـر الـثانى كانـت كـثيرة مـتعددة ، فنشـطت الدراسـات الدينية واللغوية فى مصر ، وتفوقت الشام فى الشعر والأدب واللغة[3]، وكان للعـراق الصـدارة فـى العـلم والأدب والفلسـفة ، فكانـت بغـداد والبصـرة وحـران أ م مراكـز العـلم والحضـارة ، فالجـاحظ والكـندى بصريان ، والبتانى الرياضى الفلكى م ٣١٧ هـ مـن حـران . وكانـت بغـداد تجـذب العـلماء إلـيها مـن كـل أرجـاء العـالم الإسـلامى، واشتهرت بلـخ وخـوارزم واصفهان فـى ميدان التفكير والثقافة . فنبغ منها أبـو يـزيد البلخى م ٣٢٢ هـ أحـد تلاميد الكـندى المشهور وأبـو موسـى الخـوارزمى صـاحب المـؤلفات القـيمة فـى الجـبر والحسـاب ، ثـم أبـو الفـرج الأصـفهانى مـؤلـف الأغانى ، وسواهم من العلماء .

وبعـد فالعصر العباسى الثانى كان زاخراً بالعلوم ، قديمها وحديثها ، كما كان حـافلاً بالعـلماء والمفكـرين والفلاسفة .. وكانـت العلـوم المترجمـة شرطاً فـى تكويـن ثقافة الكاتب والأديب ، وراج علم النجوم حتى انتشر بين الخاصة وجمهور الناس[4] والأدبـاء ، وعـلى أى حـال فـلم تكـن مناهج التفكير واحدة عند جميع الناس ، وكان الخـلاف بين هذه المناهج على أشده فى العراق ، ويثور ابن قتيبية (٢١٣-٢٧٦ هـ) فـى مقدمـة كـتابه " أدب الكـتاب " عـلى الحالـة فـى عصره حيث أهمل الناس علوم

---

[1] ٢٠٣-٢٠٦/٤ مسعودى .

[2] راجع ١/٤١ ظهر الإسلام

[3] راجع ١/٨ اليتيمة للثعالبى ، ١٧٧ جـ ١ وما بعدها ظهر الإسلام .

[4] واشتهر على بن جور الفارسى – وكان كاتباً مترسلا ذا علم بالنجوم – بادخالها فى شعره (٢٩٣ معجم الشعراء) .

الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق[1]، وكانت جماعة الأدباء يضجرون من الثقافات المترجمة وعلومها حتى قال بن المعتز يصف من يؤثره بصداقته :

فـــإن تطلـــبه تقتنصـــه بحانـــة	وإلا ببســـــتان وكـــــرم مظلـــــل
ولســت تــراه ســائلا عـــن خلـــيفة	ولا قـــائلاً مـــن يعـــزلون ومـــن يـــلى
ولا صـــائحاً كـــالعير فـــى يـــوم لـــذة	يـــناظر فـــى تفضـــيل عـــثمان أو عـــلى
ولا حاســباً تقويــم شمــس وكوكــب	لـــيعرف أخـــبار العلـــوم مـــن أســـفل
يقـــوم كحـــرباء الظهـــيرة مـــائلا	يقلـــب فـــى اصطر لا بـــه عـــين أحـــول
ولكـــن فـــيما قـــد عـــناه وســـره	وعـــن غـــيره مـــا يعنـــيه فهـــو بمعـــزل

وقد ازدادت الحركة العقلية ازدهارا بعد ذلك ، وظهر أفذاذ من الفلاسفة والمفكرين الذين يعتز بهم العقل الإسلامى ، ومن بينهم ابن سيناء المتوفى عام ٤٢٨ هـ والغزالى المتوفى عام ٥٠٥ هـ والرازى المتوفى عام ٦٠٦ هـ وسواهم ..

من أعلام المفكرين فى العصر العباسى :

نبغ فى جميع ألوان الثقافة الدينية والأدبية والفكرية فى العصر العباسى كثير من أئمة العلماء .

أ- ففى التشريع الإسلامى : نبغ مالك بن أنس ٩٠-١٧٩هـ وأبو حنيفة ١٥٠ هـ والشافعى ١٠٤هـ، وأحمد بن حنبل م ٢٤٠هـ، والكرابيسى م ٢٤٥ هـ ، والزعفرانى م ٢٦٠هـ ، وداود الظاهرى (٢٠٢-٢٧٥ هـ)[2]، وإسماعيل بن إسحاق قاضى بغداد م ٢٨٢هـ ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل م ٢٩٠هـ ، والحربى م ٢٨٥هـ ، ويوسف بن يعقوب القاضى (٢٠٨-٢٩٧هـ) ومحمد بن داود الظاهرى م ٢٩٧ هـ[3] . ومن العلماء : المدائنى ١٣٥-٢٣٤هـ والواقدى (١٣٠-٢٠٧هـ) والزهرى كاتب الواقدى ٢٣٠هـ، والليث بن سعد ٩٢-١٧٥هـ، وابن السماك ١٨٣هـ.

---

[1] راجع ص٢ وما بعدها أدب الكاتب بهامش المثل السائر ، وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع ثقافته اليونانية وسواها (راجع ٤٠٢ ، ٤٠٦ جـ ١ ضحى الإسلام).

[2] راجع ترجمة فى ٢٦٥ وما بعدها من كتاب نظرات عامة فى الفقهة الإسلامى ، ١/٢١٣ وفيات الأعيان .

[3] راجع ترجمته فى : ٢٧٢-٢/٢٧٣ وفيات الأعيان ، ١٥٩ وما بعدها تزين الأسواق ، وله كتاب الزهرة ، وهو مخطوط بدار الكتب ومنسوب لداود والده (٣٥٤٨ أدب مخطوط)

ب- وفى التصوف : المحاسبى ٢٤٣ هـ والبسطامى م ٢٦١ هـ وسهل التسترى م ٢٨٣ هـ وأبو سعيد الخزاز م ٢٨٦هـ وهو أول من تكلم فى الفناء والبقاء ، ثم إمام الصوفية الجنيد م ٢٩٧ هـ[١] ، ثم الحلاج وقتل عام ٣٠٩ ببغداد[٢] .

ج- وفى علوم اللغة والأدب المفضل الطبى ١٧٠هـ ، والخليل ١٧٥هـ ، وسيبوية ١٨٨ هـ ، والاصمعى ٢١٦هـ ، وأبو زيد الأنصارى ٢١٤هـ ، وأبو عبيدة ١١٠-٢٠٨هـ ، وأبو محمد اليزيدى ٢٠٢هـ ، والقاسم بن سلام ١٥٠-٢٢٣هـ ، وابن الأعرابى ١٥٠-٢٣١هـ ، وابن سلام الجمحى ٢٣١هـ ، ومصعب الزبيرى م ٢٣٦هـ[٣]، والتوزى م ٢٣٨هـ ، وأبو العميثل م ٢٤٠هـ ، وابن السكيت م ٢٤٤هـ ، ومحمد بن حبيب م ٢٤٥هـ)[٤]، والمازنى م ٢٤٩ هـ، وأبو حاتم السجستانى م ٢٥٥ هـ[٥]، والزبير ابن بكار م ٢٥٦[٦] هـ، والرياشى أبو الفضل العباسى بن الفرج م ٢٥٧هـ[٧] والأشناندانى م ٢٥٧هـ وعمر بن شبة ١٧٣ - ٢٦٢ هـ، وابنه أحمد م ٢٧٢هـ[٨] ، والطلحى م٢٧١ [٩]هـ، والسكرى م٢٧٥ [١٠]، وأبو العباس اليزيدى م ٢٧٨ هـ ومحمد اليزيدى ٢٢٨ - ٣١٠هـ، وأبو حنيفة الدينورى م ٢٨٢ هـ[١١] وابن قتيبة ٢١٣ - ٢٧٦هـ وابن أبى الدنيا ٢٨ - ٢٨١هـ والمبرد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ[١٢]، وثعلب (٢٠٠ - ٢٩١هـ)[١٣]، والزجاجى البغدادى النحوى م ٣٣٧هـ. وابن السراج تلميذ المبرد والمتوفى عام ٣١٦هـ[١٤]، والزجاج م٣١١هـ [١٥]،

---

[١] ١/٢٠٨ وفيات .

[٢] راجع ٩١ و ٢٣١ الكشكول فى مقتل الحلاج .

[٣] وهو شاعر راوية (٤٠٢ معجم الشعراء) .

[٤] ١٥٥ فهرست ، وكان من علماء بغداد بالأنساب والأخبار والشعر والقبائل (١٩٣/ ٢ آداب اللغة لزيدان).

[٥] وله كتاب المعمرين وكتاب الفصاحة (٨٧ الفهرست)

[٦] ١٦٠ الفهرست ، وله كتاب أخبار توبة وليلى (١٦١ فهرست).

[٧] ٨٦ فهرست، وكان عالما راوية ثقة عارفًا بأيام العرب وروى عن الأصمعى وأبى عبيدة وقتل بالبصرة فى فتنة الزنج.

[٨] كان شاعرا مجيدا راوية (١٦٣ فهرست)

[٩] وهو بصرى نادم الموافق وكان راوية أخباريا (١٦٤ الفهرست)

[١٠] وهو الذى جمع شعر مزاحم وأبى نواس (١١٧ الفهرست)

[١١] وله كتاب الفصاحة وكتاب الشعر والشعراء (١١٦ فهرست)

[١٢] راجع ٣١٤ - ٣٢٠/ ١ ضحى الإسلام، ٨٧ وما بعدها من الفهرست ١٨٦/ ٢ آداب اللغة لزيدان.

[١٣] راجع ١١٠ وما بعدها من الفهرست.

[١٤] ٩٢ وما بعدها من الفهرست.

[١٥] من تلامذة المبرد وصار مع المعتضد يعلم أولاده وكان أولا يؤدب القاسم بن عبيد الله (٩٠ وما بعدها من الفهرست. ٢٨١/ ٢ آداب اللغة لزيدان).

والأخفش م٣١٨ ونفطويه م٣٢٣هـ، وابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١هـ[1]، ثم ابن الأنبارى (٢٧١ - ٣٢٨هـ) وابن درستومه ٣٤٧هـ. والسيرافى ٢٨٠ - ٣٦٨هـ وابن خالويه ٣٧٠هـ، والحاتمى ٣٨٨هـ ، وابن جنى ٣٩٢هـ والرمانى ٣٨٤هـ. ثم الزمخشرى ٥٣٨هـ وسواهم.

د - وفى علم الكلام ظهر من المعتزلة : بشر بن المعتمر م٢١٠هـ. وثمامة بن أشرس م٢١٣هـ، والنظام (١٨٠ - ٢٢١هـ)، وابن أبى دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠هـ)، ويحيى بن أكثم م٢٤٢هـ، وأبو الهذيل العلاف البصرى م٢٣٥ هـ، وابن الراوندى م٢٤٥هـ، والجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥هـ)، وأبو على الجبائى (٢٣٥ - ٣٠٣هـ[2]). ثم ظهر أبو الحسن الأشعرى (٢٧٠ - ٣٣٣هـ) [3]؛ وقد استمر المعتزلة فى العراق يعلمون ويدرسون على يد الجبائى وتلميذه فى الاعتزال محمد بن عمر الصيمرى[4].

هـ - ومن المفكرين والفلاسفة وأقطاب العلماء :

ابن ماسويه الطبيب م ٢٤٣هـ، وابن سهل الطبيب م٢٥٥ هـ، ومحمد موسى ابن شاكر م٢٥٩هـ [5]، والكندى م٢٦٠هـ [6]، وبنو المنجم، وأبو موسى الخوارزمى وهو مذيع الحساب الهندى وأرقامه بين العرب، والفارابى م٣٣٩هـ، ثم ابن سينا م ٤٢٨هـ، والغزالى م٥٠٥هـ، والرازى المتوفى ٦٠٦هـ وسواهم .. ومن صدور الفلاسفة والمفكرين والرياضيين والمترجمين الذين كان لهم أثر فى الفكر العباسى : حنين بن

---

[1] ولد بالبصرة ونشأ بعمان ثم رحل إلى فارس وورد بغداد عام ٣٠٨هـ وأقام بها وكان إمامًا فى اللغة والأنساب والشعر وهو شاعر راوية (٤٦١ معجم الشعراء، ٢٣٨ ج ١ ظهر، ٣٧١ الزيات).

[2] معتزلى بصرى وإليه انتهت رياسة البصريين فى زمانه وكان إمام المعتزلة ببغداد وتتلمذ عليه الأشعرى (ص٦ تكملة الفهرست لابن النديم).

[3] نثقف بثقافة المعتزلة ثم عاداهم وأعلن تركه لمبادنهم، وصار رئيسًا لمذهب الأشعريين، والأشعرى يمثل الموجة الحديثة التى بدأت تهاجم المعتزلة وتنصر المحدثين وأهل السنة منذ عصر المتوكل.

[4] ٢٢٢/ ١ ظهر الإسلام.

[5] وهو وإخوته : أحمد والحسن كان لهم مكانة كبيرة فى الفلسفة والميكانيكا (٣٧٨ وما بعدها من الفهرست، ٦٤ طبقات الأمم)؛ وكان مطهر بن أحمد بن موسى من ندماء المعتضد (٣٧٩ فهرست).

[6] هو يعقوب بن اسحق كان متحققًا بعلوم الأوائل (٥٠٧ معجم الشعراء)، وهو أول فيلسوف عربى درس الفلسفة اليونانية وشرحها وبنى عليها (راجع ٣٥٧ - ٣٦٠ الفهرست، ٥٩ وما بعدها طبقات الأمم)؛ ووشى به إلى المتوكل محمود وأحمد ابنا موسى بن شاكر فضربه وأخذا كتبه بأسرها حتى أكرههما سند بن على أخيرًا على ردها إليه (١٩٥ و١٩٧ المكافأة).

اسحاق (١٩٤ - ٢٦٠هـ [1])، وأبو معشر الفلكى م٢٧٢هـ[2]. والبلاذرى م ٢٧٩هـ[3]، وابن خرداذبة المتوفى نحو عام ٢٧٨هـ[4]، وأبو حنيفة الدينورى م٢٨٢هـ[5]، والسرخى م٢٨٦هـ[6]، وثابت بن قرة (٢٢١ - ٢٨٨هـ[7])، وإسحاق بن حنين م٢٩٧ هـ[8]. والرازى م٣١١[9]هـ، والبتانى الرياضى الفلكى م٣١٧هـ، وأبو زيد البلخى م٣٢٢ هـ، وسواهم من أعلام المفكرين.

---

[1] أجاد العربية والفارسية والسريانية واليونانية ونقل هو ومدرسته إلى العربية زبدة آثار اليونان وجعلوا الثقافة اليونانية بين أيدى العلماء (٢٨٣- ٢٨٨/ ١ ضحى الإسلام، ٤٠٩ وما بعدها الفهرست)؛ ووشى به بختيشوع بن جبرائيل الطبيب إلى المتوكل فحبسه (راجع ١٣٧/ ٤ وما بعدها التمدن، ١/١٩٤ طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة).

[2] ٣٨٦ فهرست، ٤٧ بارتولد، ١/١٩٨ وما بعدها وفيات الأعيان.

[3] ١٩١/ ٢ آداب اللغة لزيدان؛ وكان أديبًا راوية وهو أحد النقلة من الفارسى إلى العربى (١٢٧ - ١٣٢/ ٢ معجم الأدباء لياقوت، ٧/ ١ فوات الوفيات.

[4] ونادم المعتمد، وله كتاب الشراب وكتاب المسالك والممالك (٢١٢ وما بعدها من الفهرست، ٢٠٢/ ٢ آداب اللغة لزيدان).

[5] كانت ثقافته الهندية واليونانية واسعة، وكان ملمًا بعلوم كثيرة، كما كان يقرن بالجاحظ فى بلاغته (٤٠٦/ ١ وما بعدها ضحى الإسلام و١١٦ فهرست، ٢/١٩٧ آداب اللغة لزيدان)، وله كتب فى النبات وكتاب الأخبار الطوال فى التاريخ العام وينتهى بوفاة المعتصم ٢٢٧هـ.

[6] هو أحمد بن مروان (٣٦٥ فهرست) أو أحمد بن الطيب (٢٠٠/ ١ زهر الآداب) السرخسى تلميذ الكندى كان متفننًا فى علوم القدماء والعرب، وكان أستاذًا للمعتضد ثم خص به، وله كتب كثيرة فى الفلسفة وغيرها وقتلة المعتضد لأنه أفضى إليه بسر فأفشاه (٣٦٥ - ٣٦٧ الفهرست، ٥١ / ٢ معجم الأدباء، ٦١ طبقات الأمم لصاعد). وله كتاب إلى المعتضد فى أدب النفس (٢٤٣ الفهرست).

[7] راجع ١٧٧ - ١٧٩/ ١ وفيات الأعيان.

[8] ٣٩٧ و٤١٥ الفهرست، ١١٦ - ١١٧ / ١ وفيات الأعيان.

[9] ٥٠٣ - ٥٠٥ / ٢ وفيات، ٦١ طبقات الأمم، ٤١٥ - ٤٢٠ الفهرست.

القسم الثانى

الحيـــاة الأدبـــية

إذا كانت آثار الثقافات المترجمة قد صبغت الحياة العقلية والاجتماعية فى العصر العباسى الأول والثانى بأصباغ جديدة، فقد كان أثرها فى الأدب واللغة متفاوتًا فظلت مناهج الأداء والأساليب ولغة الكتابة والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل، من حيث نضجت معانى الكتاب وخيالات الشعراء، وعمقت صياغتهم الذهنية، وتفكيرهم العقلى، إلى حد كبير.

وإذا كانت الثقافات الحديثة قد طغت موجتها على كثير من نواحى الحياة والتفكير، فإن العربية كانت أعز من أن تحنى رأسها للعواصف الجامحة التى تهدم من صرحها الشاهق، أو تزعزع من ثقتها القوية بالنفس. وظلت كما هى لغة التفكير والأدب، وإن سايرت حركة الرقى، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة.

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد وضعت موضع العناية بالترجمة. فإن الأدب اليونانى لم يترجم منه شىء، ولم يتأثر به الأدب والشعر فى نهضتهما الوثابة فى هذا العصر الحافل[1]. لتباين الأذواق، ولاعتداد العرب بنفسهم ولغتهم وأدبهم، ولاختلاف حياة العرب واليونان التى يصورها الأدب ويكون أوضح مثال لها. وعلى أى حال فإن الثقافة اليونانية قد صبغت عقلية الأدباء والشعراء بآثارها العميقة فى التفكير والخيال والمعانى[2] وطرافة التقسيم.

وتأثير الثقافة الهندية فى الأدب العربى كذلك كان طفيفًا لا يعدو تلك الأفكار التى كانت تتساقط من علم النجوم أو الرياضة فى الشعر، وهذه القصص الهندية التى أولع العرب بها، ونقلوها إلى العربية ككليلة ودمنة الذى نقلوه من الفارسية إلى لغتهم، وتلك الحكم التى تشبه الأمثال العربية، وهذه الألفاظ التى عربوها وأدخلوها إلى العربية.

وأثر الفرس فى الأدب العربى كبير فهم الذين أشاعوا فيه اللهو والمجون ووصف الراح، وأدب الزهد تأثر كثيرًا بنزعات الفرس، وعنهم نقلت آثار كثيرة من الأدب القصصى ككليلة ودمنة وهزار أفسانه، والتوقيعات كان للفرس فيها أثر كبير،

---

(1) ٤٥ بارتولد، ٦٦ الفن ومذاهبه، ٢٨٧ التوجيه الأدبى، ٢٣٥ الأدب العباسى لمحمود مصطفى ، ٢٨٠ ج١ ضحى الإسلام ، ٢٤٤ الزيات .

(2) وقد أفاد الأدب العربى من القصص والحكم اليونانية التى انتشرت فى الثقافة الإسلامية : وعربت كثير من الألفاظ اليونانية.

وقد ترجمت عن الفارسية توقيعات كسرى، هذا إلى أنه كان للفرس شعر وأمثال وأدب كثير وضع تحت أعين العرب، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير في الأدب كالعتابى وأبى نواس وبشار وسواهم، فأخرجوا أدبًا عربيًا فيه معانى الفرس وبلاغة العرب، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية، كان كسرى أبو شروان مشتهرًا بالنرجس "وكان يقول . هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر فقال الشاعر :

وياقوتـــة صـــفراء فـــى رأس درة	مركـــبة فـــى قـــائم مـــن زبـــرجد
كـــأن بقايـــا الطـــل فـــى جنـــباتها	بقـــية دمـــع فـــوق خدمـــورد[1]

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على كرسى زبرجد أخضر توسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات العطر، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر[2]:

كـــأنهن يواقيـــت يطـــيف بهـــا	زمـــرد وســـطه شـــذر مـــن الذهـــب
فاشرب على منظر مستطرف حسن	من خمرة مزة كالجمر فى اللهب

وأخذ ابن الرومى معنى حكمة لبهرام جور[3] فنظمه شعرًا[4]. وكان من الفرس كبار الكتاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء (الكتابة الفنية) فى الدواوين، وكان منهم شعراء أحدثوا آثارًا واسعة فى أغراض الشعر ومعانيه وأوزانه وقوافيه، ونقلوا للخلفاء والأمراء والوزراء كثيرًا من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وقصصهم وأسمارهم، مما ظهر أثره فى الأدب العربى واضحا. وإذا كان الأدب فى عهد بنى أمية عربيا خالصا فى المادة والمعنى، ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته، فقد كان فى عهد بنى العباس أثرهم أعمق لا فى الأسلوب البيانى، بل فى التفكير والخيال، وبتأثيرهم تنوعت الأغراض وظهر التأنق فى النثر والشعر، وطلبت الرقة والدماثة، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها.

---

(1) ٢٣٢ ج ٢ زهر الآداب.

(2) وينسب البيت الأول لعلى بن الجهم (٢٣ ج٢ ديوان المعانى) قال أبو هلال: وهو من قول اردشير : الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على كرسى زبرجد يتوسطه شذور من الذهب.

(3) فارسى قديم تعلم العربية فى الحيرة وشعر بها، ويقول شمس الدين الرازى فى كتاب "المعجم" إنه أول من نظم شعرا فارسيًا وأخذه عنه العرب وكان علماء الفرس يستهجنون منه قرض الشعر.

(4) ٢٧٨ ج٢ وما بعدها زهر الآداب.

ويمتاز الأدب في هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه، وبصدق تمثيله للحياة الاجتماعية، وبكثرة الحكم والقصص وأخبار الزهد والزهاد فيه، وبتأليف الكتب الجامعة في الأدب كالبيان والتبيين وعيون الأخبار والكامل والعقد، وبأن الأدب أصبح في هذا العصر صناعة علمية في الإنشاء والتأليف، وأظهر ما يتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال والمبالغة الشديدة والإكثار من الحكمة والمثل والبراهين العقلية. وقد أصاب الأدب كساد وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها مما يبسطه ابن قتيبة في مقدمة أدب الكاتب بوضوح.

ولقد كان ظهور الموالي، وعلو شأنهم[1] مما أحيا في نفوسهم الشعور القومي، وذكرهم بما كان لهم من مجد بائد، وعز قديم، فعلنت الشعوبية، تنفس عن غيظها المكظوم طول عهد الأمويين، وتمجد العجم بإعلان مآثرهم، وتزرى على العرب بتلمس المثالب لهم، وتسجل ذلك في الشعر، من أمثال بشار، والمتوكل، والخريمي، ومهيار؛ وفي الكتب يضعها أمثال أبي عبيدة، والهيثم بن عدي، وسعيد بن حميد وعلان الشعوبي، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم، ويدفع عن العرب، وينتصر لهم، أمثال محمد بن يزيد الأموي، والجاحظ، وابن قتيبة، بل لقد حاول الجاحظ أن يهدم العصبية الجنسية بما عالجه في رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة، حين استشرى شرها، وكاد يوقع الفتنة في صفوف الجند أيام المعتصم.

وتحيز المال في جانب الحكام والأمراء ، جعل الأدب يستمر اتجاهه القديم إلى ناحيتهم، ويسير في ركابهم، يعلي من شأنهم، ويتغنى بذكرهم، وغلب ذلك على أكثر أدب العصر، وبخاصة نتاج أولئك الذين اتصلت أسبابهم بالقصور، وذاقوا في رحابها حلاوة النعيم.

وانغماس الأدباء في الحضارة، ومشاركتهم في لهوها الخليع، ومجونها السافر، مكن لهم من تصويرها في جميع أوضاعها، فوصفوها في مظاهرها الرائعة وفي مباذلها الوضيعة، وملأ شعرهم بالتحريض على متع الحياة وتحسين الخلاعة والمجون، في صراحة مكشوفة، وعري فاضح، وابتذال مهين، ومن شاء فليرجع إلى الأغاني، أو يتيمة الدهر، أو دواوين كثير من الشعراء، ليستطلع طلع ذلك في شعر بشار، ومطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب، ومسلم بن الوليد، وأبي نواس، وحسين بن الضحاك، وابن الحجاج، وابن سكرة، وأبي الرقعمق، وغيرهم من الشعراء.

---

[1] الأدب العربي للأستاذ أحمد شعراوي.

والزهد ، وهو حركة تقاوم هذه المادية الجارفة، وتصد عنها بالتنفير من الدنيا والترغيب فى الآخرة، والتذكير بالموت والحساب : وجد له مجالاً فى نتف لبعض الشعراء والعلماء وفى كثير من شعر أبى العتاهية، وفى كل ما صدر عن الزهاد والمتقشفين من أقوال.

وقسوة الحياة وشقاؤها، وشظف العيش، ورنق المشرب، انعكست صورها فى كتب المقامات، قصصًا للكادحين، يحتالون على العيش بالمكر والخداع، وفى أدب المحرومين، كابن لنكك البصرى، وأبى حيان ، سخطًا على الزمان، وأنينًا من البؤس والحرمان.

واضطراب نظام الحكم، وفساد أداته، لم يعدم من ينعى عليه، ويندد به، مثل أبى العلاء أو من يروم علاجه، ويحاول إصلاحه كابن المقفع.

ولو رجعنا إلى ما وصفناه من معالم هذا العصر، نبحث عن أشد الظواهر الاجتماعية تأثيرا فى الحياة، ما وجدنا أقوى من التحام العرب بالموالى وامتزاجهم على الوجه الذى بيناه، من ظهور الموالى وقوة نفوذهم، فهم الذين أثروا فى المجتمع، ولونوا الحضارة، بما ورثوه عن دولهم الدائلة، وحضارتهم الزائلة، وصبغوا الدولة بصبغتهم، وأدخلوا فيها نظمهم وتقاليدهم، وقد تنبه إلى شىء من هذا بعض من عاصر العهد وشهد مجارى الأمور فيه، وهذا أبو حيان التوحيدى يصور ذلك كله فيقول " ضعف أمر الدين. وتحلل ركنه، وتداوله الناس بالغلبة والقهر، فتطاول له ناس من آل الرسولﷺ بالعجم، وبقوتهم، ونهضتهم وعادتهم فى مساورة الملوك وإزالة الدول، وتناول العز كيف كان .. ألا ترى أن الحال استحالت عجما كسروية وقيصرية؟. هذا الربيع – وهو حاجب المنصور – يضرب من شمت الخليفة عند العطسة. فيشكى ذلك إلى أبى جعفر المنصور ويقول : أصاب الرجل السنة، وأخطأ الأدب. وهذا هو الجهل ، كأنه لا يعلم أن السنة أشرف من الأدب، بل الأدب كله فى السنة، وهى الجامعة للأدب النبوى والأمر الإلهى، ولكن لما غلبت عليهم العزة، ودخلت النعرة فى آنافهم، وظهرت الخنزوانة بينهم، سموا آيين العجم أدبا، وقدموه على السنة التى هى ثمرة النبوة".

–٣–

وقد ضعفت الخطابة بزوال أسبابها وأعجمية رجال الدولة، ولأن الدولة قد توطدت دعائمها، وحكمت بالاستبداد، وبطلت الخطابة فى الجيوش، وضعفت الملكات. كذلك صار فى الكتابة - وقد تنوعت أساليبها وأغراضها - غنى عن

الخطابة، فضعف شأنها ولم يبق لها إلا مظهرها الدينى، حيث كان الخلفاء يخرجون للصلوات الجامعة ويخطبون الناس، وكان آخر خليفة خطب على المنبر هو الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩هـ)[1].

وقد بلغت كتابة الرسائل فى هذه العصر مكانة عالية، وقد كان للانقلاب العباسى أثر عظيم فى الميول والعقول، ظهر على أقلام الكاتبين، فاستنبطوا عيون المعانى، وتخيروا شريف الألفاظ مما لم يكن حوشيا ساقطا سوقيا، وفتحوا أبواب البديع وبذ الكتاب فحول الشعر فى عظمة الحياة والرياسة، وتسنموا أرفع المناصب فى الدولة، واشتهر منهم : محمد بن عبد الملك الزيات، وآل وهب، وسواهم، من أعلام الكتابة. كما نبغ فى الأدب والشعر جمهور كبير. ونهض الشعر فى هذا العصر نهضته العظمى .. مما سنتحدث عنه فى الدراسات التالية.

وقد كانت طبقات الأدباء فى صدر الدولة العباسية متعددة، ومن بينها : طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم، والذين التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا[2] ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم[3] وحكم مذهبهم فى نقد[4] البيان، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغتهم وبلاغتها ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شداة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م سنة ٢٠٥هـ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها : إن بشرا مر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه فى أصول البلاغة وعناصر البيان[5]، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد

---

[1] راجع ٢١٣ الزيات، ٥٤ وما بعدها الأدب العباسى لمحمود مصطفى، ١٠٤ وما بعدها العصر العباسى للسباعى بيومى.

[2] ١/١٠٥.

[3] ٣/٣٢٥.

[4] ١/٢٤٠.

[5] ١/١٠٤.

الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ[١]، وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صعدوا بفنهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب في الخلافة الإسلامية.

وقد استمرت الحياة الأدبية في النمو والازدهار، على الرغم من انقسام الخلافة وضعفها .. ويرجع هذا الازدهار إلى تنافس الدول والإمارات الإسلامية في تشجيع الأدباء والشعراء وتمثلهم لبغداد وخلافة بغداد في العمل على إحاطة عروشهم بالمفكرين وأعلام الشعر والأدب.

النـــثر الأدبـــي

كان عبد الحميد الكاتب وابن المقفع من أشهر الكتاب الذين وضعوا أصول النثر الأدبي الفني في الأدب العربي. وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الأموية. وشهد ابن المقفع جانبا من أول عصر الدولة العباسية، وخلفته طائفة من الكتاب تأثروا به تأثرًا واضحًا بعيد المدى في تطور النثر الأدبي والكتابة الفنية، ومنهم يعقوب ابن داود وزير المهدي، وأبو الربيع محمد بن الليث الذي كتب للمهدي والهادي والرشيد، والقاسم بن صبيح، وسهل بن هرون[٢] ١٧٥هـ ويحيى بن برمك، ثم ابناه : جعفر بن يحيى (١٤٢ - ١٨٧هـ) وأخوه الفضل (١٤٧ - ١٩٣هـ)، والحسن بن سهل[٣] وأخوه الفضل[٤] بن سهل ٢٠٢هـ[٥] وأحمد بن يوسف[٦] ٢١٢هـ، وعمرو بن مسعدة ٢١٤هـ[٧]، والعتابي م ٢٢٠هـ[٨]، ومحمد بن يزداد وزير المأمون[٩]، وإبراهيم بن العباس الصولي ٢٤٣هـ.

---

[١] ١٥١ / ١.

[٢] راجع : ٥٥ / ١ البيان، ٢٨٢ / ٢ زهر، ٢٦٠ / ٣ زهر الآداب أيضًا. توفي ٢١٥ هـ كما في بروكلمان ٣٤: ٣، وفي الإعلام للزركلي أن وفاته عام ١٧٣هـ وراجع ١٨: ١ البخلاء تحقيق الجارم.

[٣] يشيد به الجاحظ (٨٤ ج ١ البيان)، وله كلمة يعرف بها أنواع الآداب ١٩٥ ج١ زهر.

[٤] تبناه يحيى البرمكي وضمه إلى المأمون (٧٤ المكافأة) وأشا الحصري ببلاغته (١٦ - ١٩ ج ٧ زهر).

[٥] له ترجمة في الأوراق.قسم أخبار الشعراء (٢٠٦ - ٢٣٦) وكان عالي الطبقة في البلاغة ولم يكن في زمانه أكتب منه. وله شعر جيد (١٤٨ ج٢ زهر)، وكان ممن نبلوا بالكتابة (١١ ج٣ العقد)، وهو أول من افتتح المكاتبة في التهاني بالنيروز والمهرجان (٩٥ ج١ ديوان المعاني.

[٦] ١٢٧ - ١٣١ : ١٦ معجم الأدباء لياقوت.

[٧] راجع ١٧٥ فهرست ابن النديم، ٣٥٢ معجم الشعراء.

[٨] راجع ٤٢٤ معجم الشعراء.

[٩] ص٢ أدب الكاتب لابن قتيبة بهامش المثل السائر، ٤٢، ٤٣ رسائل الجاحظ حيث يقول الجاحظ : والناشيء من الكتاب إذا وطيء مقعد الرياسة يكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه وألا يرتضى من الكتب إلا

وفي القرن الثالث الهجرى بلغ النثر الفنى مرلة سامقة، وامتاز بسهولة العبارة وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب، كما امتاز بجودة المعانى واختراعها ودقة الأخيلة وابتداعها، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه، بل الاحتفال بها والطعن فيما سواها مما شكا منه النقاد، ومال الكتاب إلى الإطناب حتى قال ابن قتيبة : "ولو كتب كاتب إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان "أما بعد فإنى أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى إلخ" لم يعمل هذا الكلام فى أنفسهم عمله فى نفس مروان. ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدىء ويحذر وينذر"[1] والاطناب مذهب فارسى حتى فى الاساطير وكتابة التاريخ، ويقول ابن الأثير : "والعجم يفضلون العرب فى الإطالة فإن شاعرهم يذكر كتابًا من أوله إلى آخره شعرًا وهو شرح قصص وأحوال كما فعل الفردوسى فى نظم الشاهنامة وهو فى ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس. وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها[2]"، ولم يحفل الكتاب بالبديع، والتأنق الكثير فى الأسلوب، ويعيب البديع الجاحظ بأن "كلامه بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الاستعارات ليس له لفظة مصنوعة إلخ[3]"، كما عابه الباقلانى بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه[4].

وكان حامل لواء هذه الطريقة الجديدة إمام البيان الجاحظ، واقتدى به كتاب عصره كالصولى وابن الزيات والحسن وسليمان ابنى وهب وسعيد بن حميد وأحمد ابن إسرائيل والحسن بن مخلد وابن المدبر وسواهم من الكتاب الذين نشأوا فى هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهند وظهر أثر ذلك فى تفكيرهم وإنتاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الألوان.

آثر الجاحظ الطبع والبعد عن التكلف والتعقيد والحوشية والسوقية، كما آثر الوضوح وظهور الشخصية فيما يكتبه من رسائل أو مؤلفات ، واحتال على نشاط القارىء بالفكاهة ومزج الجد بالهزل وبالاستطراد وبراعة الأسلوب وسحره، وبالرواية

المنطق إلخ، ومثل ذلك يقول ابن قيتبة، وهذا ينفى رأى ابن الأثير من أن الكتاب والشعراء لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢٠ المثل السائر).

[1] راجع مقدمة أدب الكاتب.

[2] ٣٠٤ المثل السائر. وقد وجدت رسائل مطولة وكثيرة فى هذا العصر كرسالة الخميس (١٠٧ ١١١ ج١٢ ابن طيفور مخطوط).

[3] ٨٣ مقامات البديع - المقامة الجاحظية - ٢٠٩ ج٢ زهر

[4] راجع ١٩٤ إعجاز القرآن.

والنقد والتمحيص، والاطناب والانتباه العقلي والتغلغل الفكري ودقة الملاحظة والشرح والتحليل والتعمق .. وشمول الفكرة ونفوذها وإحاطتها بشتى جوانب الحياة أظهر سمات أسلوب الجاحظ، وهو مع ذلك متقد الحماسة للعرب والعربية، يفضل بلاغة العرب على كل بلاغة ويستشهد بكلمة العربي وبيت البدوي كما يستشهد بحكمة الحكيم ورأى المفكر. وفي إنشاء الجاحظ كثير من أساليب الخطابة والجدل. وكان من المعجبين بابن المقفع ونوه بذكره ولكنه لم يسلك مسلكه في الأدب لأنه رأى أفق الأدب أوسع من أن يقصر على الحكم والمواعظ.

حقًا لقد كان الجاحظ في سحر بلاغته[1] وسمو أسلوبه وشخصيته البارزة في كل فقرة من فقراته وثقافته الواسعة في شتى آثاره الأدبية نسيج وحده وفريد عصره كما يقولون، ورسالته "التربيع والتدوير" وكتابه "الحيوان" من مظاهر ثقافته الواسعة العميقة. وإذا كان ابن المقفع إمام المنشئين في عصر الترجمة؛ فالجاحظ إمامهم في عصر التأليف.

وقد تأثر بأسلوب الجاحظ الأدباء الذين آلت إليهم الزعامة الأدبية بعده، كابن المدبر والحسن بن وهب وابن المعتز الخليفة العباسي الشاعر الأديب المشهور. وقد ذاع في النثر في هذا العهد ألوان كثيرة : كأدب التهكم والسخرية، والرسائل الإخوانية، والرسالة الأدبية، والتوقيع، والمقامة، والأدب الوصفي، وأدب الطبيعة وأدب القصة، وسوى ذلك من فنون النثر الأدبي في هذا العصر الزاهر المتعدد الثقافات.

وقد ألفت في هذا العصر كتب أدبية جامعة : كالبيان والتبيين، والحيوان للجاحظ وأدب الكاتب وعيون الأخبار لابن قتيبة، والكامل للمبرد. وكذلك وضعت أصول النقد والموازنة والبيان على يد الجاحظ وابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وسواهم .. ولا عجب إذا قلنا إن النثر الأدبي قد بلغ غاية نهضته وعنفوان قوته في هذا العصر الحافل.

ولئن امتاز العصر العباسي الأول بالجاحظ والعصر الثاني بالعديد من الكتاب ممن ذكرناهم، فإن العصر الثالث يتميز بظهور ابن العميد والصاحب بن عباد، وكان ابن العميد غاية في علوم الدين واللغة ورواية شعار والفلسفة[2]، وكان الصاحب من ذيوع الشهرة وانتشار الصيت إلى حد بعيد، وكان يحتف به من نجوم الأرض وأفراد

---

[1] يقول الجاحظ من رسالة له إلى ابن الزيات : نحن أعزك الله نسحر بالقول ونموه بالبيان (٣٩١ دلائل الإعجاز).
[2] يقول الجاحظ من رسالة له إلى ابن الزيات : نحن أعزك الله نسحر بالقول ونموه بالبيان (٣٩١ دلائل الإعجاز).

العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، من أربوا في العدد على أدباء وشعراء الرشيد.. كما ظهر فيه كذلك البديع والخوارزمي وأبو الفرج الببغاء والبستي والصابي والجرجاني صاحب الوساطة. والعسكري صاحب الصناعتين والأصبهاني صاحب الأغاني والثعالبي والحصري والميكالي. وعرف إلى جانبهم من فحول الشعراء من تصدو للكتابة، كالمتنبي الذي اتهمود بمعارضة القرآن. وكالشريف الرضي وينسب النقاد إليه كثيرًا مما في نهج البلاغة. أنشاه بقلمه، ونحله الإمام على كما يقولون.

ويتميز العصر الرابع بظهور أبي محمد القاسم بن على الحريري المتوفى عام ٥١٦هـ صاحب المقامات، وكذلك الزمخشري والقاضي الفاضل م٥٩٦هـ صاحب الطريقة الأدبية المشهورة به، وعماد الدين الأصفهاني م٥٩٧هـ، وابن الأثير م٦٣٧هـ، والوطواط م٥٧٣هـ، وسواهم.

أعلام الكتاب وعلماء الأدب

نبغ كثير من الكتاب في هذا العصر ومن أعلامهم : محمد بن عبد الملك الزيات م ٢٣٣هـ [١]، وإبراهيم بن العباس الصولي م٢٤٣ [٢]هـ، وسعيد بن حميد ٢٦٠هـ[٣]، والحسن بن وهب[٤] م ٢٦٥ هـ[٥]، وسليمان بن وهب م٢٧٢هـ[٦]، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابه الكاتب م٢٧٧هـ [٧]، والمرثدي وكان يكتب للموفق[٨]؛ ونطاحة الكاتب أحمد بن إسماعيل بن الخصيب الانباري كاتب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر[٩] وكان بينه وبين ابن المعتز مراسلات وجوابات[١٠]، ومحمد بن مكرم الكاتب

---

[١] راجع : ١٧٧ فهرست، ٤٢٥ معجم الشعراء، ٢٧٨/ ٣ وما بعدها عصر المأمون، ٢٧/ ١١ وما بعدها الطبرى، ٣٩/ ٤ مسعودى، ٤٣ الرسالة العذراء.

[٢] راجع : ٥٦/ ٤ مسعودى، ١٧٦ فهرست، ٢١/ ٩ الأغاني وما بعدها ٢٠٠/ ١ المفصل، ٢٠٨ الوسيط، ٢/٤٢ ثمرات الأوراق، ٩٩ خاص الخاص.

[٣] راجع : ١٧٩ فهرست، وفيات الأعيان ٥٤ – ٥٧ / ٢ طبعة ١٣١٠، ١٧٧ ج٤، ٤/١٢٢ زهر، ٤/٩١ المسعودى، ٤٢/ ٢ ثمرات الأوراق.

[٤] راجع : ١٧٧ فهرست، ٥٠٦ سمط اللآلى، ٢٤٨ ابن الرومى للعقاد، ٣/٤٤ زهر، ٢٢١ - ٢٢٣/ ٣ معجم الأدباء.

[٥] وفي معجم الأدباء أنه ولد عام ١٨٦هـ ومات في آخر خلافة الموكل.

[٦] راجع : ٢٤٩ ابن الرومى، ١٧٧ فهرست، ١٥٤ – ١٦٠/ ٧ مهدب الأغاني، ٥٠٦/ ١ سمط اللآلى، ٤٨٥ معجم الشعراء، ٣٨٦ – ٣٨٨/ ١ وفيات الأعيان، ٣/٤٦ زهر ، وفي المسعودى أن وفاته عام ٢٧٠هـ/ ٢١٠/ ٤ مروج الذهب .

[٧] ١٨٧ و ١٨٨ فهرست، ٣٦ – ٢/٥١ معجم الأدباء .

[٨] ١٨٧ فهرست، ١٦٠ أدب الكتاب للصولي.

[٩] توفي عبيد الله عام ٣٠٠هـ.

[١٠] راجع : ١٨٠ فهرست، ٣٧٧ ج١ معجم الأدباء، ويروى عنه الصولي كثيرا جدا في أدب الكتاب وله كتاب طبقات الكتاب.

م بعد ٢٨٢هـ[١]، وإبراهيم بن المدبر م ٢٧٩هـ [٢]، وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٢هـ)، وعلى بن الحسن م بعد ٣١٠هـ وقد جاوز التسعين[٣]، وعلى بن العباس النوبختى م ٣٢٧ عن سن عالية[٤] وابن المعتزم ٢٩٦هـ؛ وأبو بكر محمد بن يحيى الصولى م ٣٣٦هـ[٥] وهو الذى جمع ديوان ابن المعتز[٦]، وأبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار الكاتب م ٣١٤هـ[٧] وحميد بن نصر الكاتب م٣٠٠هـ [٨]، وأبو الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة الكاتب وكتب للقاسم[٩] وأبو عبد الله محمد بن ثوابة الكاتب وكتب للمعتضد[١٠].

واشتهر هذا العصر بأعلام ذائعة فى الأدب العربى والتأليف فيه، ومنهم:

أ - الجاحظ م ٢٥٥ هـ وله كثير من المؤلفات الخالدة منها البيان والحيوان.

ب- أبو سعيد الحسن السكرى النحوى م٢٧٥هـ وكان رواية البصريين وجمع أشعار الجاهلية والإسلام.

ج - ابن قتيبة م٢٧٦هـ [١١]، وله عيون الأخبار وأدب الكاتب والشعر والشعراء وكتاب الشراب.

د - ابن أبى الدنيا عبد الله بن محمد م ٢٨١هـ وكان مؤدب المكتفى وله كتب كثيرة[١٢].

هـ- ابن طيفور أحمد بن أبى طاهر تلميذ الجاحظ (٢٠٤ - ٢٨٢هـ[١٣])، وله سرقات الشعراء وكتاب بغداد والجامع فى الشعراء واختيار المنظوم والمنثور[١٤].

---

[١] راجع ٤٤٤ معجم الشعراء.

[٢] ٤٥٢ معجم الشعراء، ٣٤٩ الموشح.

[٣] ٢٩٥ معجم الشعراء.

[٤] ٢٩٥ معجم الشعراء ١٤٥ ج٢ زهر.

[٥] ٤٦٥ معجم الشعراء، ١٧٤ ج٢ زيدان، ٣٤٣ - ٣٤٥ نزهة الالبا ومقدمة أدب الكتاب.

[٦] ١٧٥ ج٢ زيدان.

[٧] ٢٥٢ ج٤ تاريخ بغداد.

[٨] ٤٦٣ معجم الشعراء.

[٩] ٤١٧ ج٢ معجم الأدباء، ١٨٨ فهرست.

[١٠] ١٨٨ فهرست.

[١١] ١١٥ وما بعدها، فهرست و٤٤٩ - ٤٥٠/ ١ وفيات الأعيان،١٧٠/ ٢ وما بعدها زيدان.

[١٢] راجع ١٧٢/ ٢ زيدان.

[١٣] ٢٠٩ - ٢١٠ فهرست، ١٩٧ طبقات الشعراء لابن المعتز، و٣٥١ الموشح، ٢١١/ ٤ تاريخ بغداد، ١/١٥٢ معجم الأدباء، ٤٨ و٩٣ و١/٩٤ ديوان المعانى.

[١٤] أربعة عشر جزءاً يوجد منه بدار الكتب ثلاثة أجزاء فى مجلد مخطوط هى : الحادى عشر فى بلاغات النساء وقد طبع منفردًا فى مصر، والثانى عشر ويجمع قصائد ورسائل لا يوجد لها مثيل ومنها المعلقات، والثالث عشر ويجمع فصولا من رسائل مختارة.

و ومنهم أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد (١٩١ ٢٨٣هـ[١]).

ز- أبو على البصير الفضل بن جعفر بن يونس م٢٥١هـ[٢].

ح - جحظة أبو الحسن أحمد بن جعفر البرمكى (٢٢٤ - ٣٢٦)[٣].

ط - ومنهم ابن المعتز م ٢٩٦ هـ. وأبو خليفة الفضل بن الحباب الحمجى م٣٠٥هـ[٤]. وقدامة م٣٣٧هـ. والوشاء أبو الطيب محمد بن أحمد م٣٣١هـ. ويموت بن المزرع م بعد ٣٠٠ هـ وهو ابن أخت الجاحظ[٥]. وغيرهم من جلة الأدباء وأئمة علماء الأدب.

ولقد كانت مصادر الثقافة الأدبية فى هذا العصر كثيرة متعددة ومن أهمها:

أ - القرآن والحديث والكتب المؤلفة حولهما. مما يتصل بالأدب والدين كمجاز القرآن لأبى عبيدة وإعجاز القرآن للجاحظ والإعجاز لمحمد بن يزيد الواسطى م ٣٠٦هـ[٦].

ب- خطب الخطباء وحكم الحكماء ورسائل الأدباء.

جـ - كتب التاريخ التى جمعها أو ألفها المؤرخون فى هذا العصر والذى سبقه، كابن اسحاق وابن هشام والبلاذرى واليعقوبى والطبرى وسواهم.

د - كتب السياسة التى تأثرت بآثار الفرس أو كانت مترجمة من ثقافتهم ومنها : كليلة ودمنة والأدب الصغير[٧] والأدب الكبير والدرة[٨] اليتمية ورسالة الصحابة[٩] لابن المقفع وهى تصوير لسياسة الدولة وحاشية السلطان وأعوانه وجنده، ومنها رسالة

---

[١] ١٨١ فهرست، ٤/١٧٠ مسعودى، ٤٤٨ معجم الشعراء، ٣٢١ - ٣٢٤/ ٢ وفيات الأعيان. ٣١٦ و٣٢٢ - ٣٣٠ و ٣٣٢/ ١ زهر، ٢٦٥ ٢٧٠ نكت الهميان. ٣/١٧٠ تاريخ بغداد. ٢/١٨٠ شذرات الذهب. ٧/٦١ معجم الأدباء. ١٤٥ / ٣ سمط اللآلى، ٢١٨ - ١/٢٢١ أمالى المرتضى. ١٩٦ طبقات الشعر لابن المعتز.

[٢] ٢/٩٦ زهر، ٤/٩٢ مسعودى، ٣١٤ معجم الشعراء، ١٨٨ طبقات الشعراء لابن المعتز، ١٧٨ فهرست، ١/٢٧٦ سمط اللآلى.

[٣] ٢٠٨ فهرست، ١٥٧ و١٥٨/ ٢ زهر.

[٤] ١٦٥ فهرست، ٢٥٣/ ٣ زهر.

[٥] ٥١٠ معجم الشعراء ، ١٣٦ ج٤ مسعودى.

[٦] ولعبد القاهر الجرجانى شرح عليه (١/٩٤ كشف الظنون).

[٧] تجده فى رسائل البلغاء ١٧ - ٥٤، وطبع مستقلا عام ١٩١١.

[٨] ٥٥ - ٥٤ المرجع.

[٩] تجدها فى رسائل البلغاء ١٢٠ - ١٣١.

طاهر بن الحسين فى السياسة وقد أرسلها إلى ابنه عبد الله[1]، ومشاورة المهدى لأهل بيته فى خراسان[2].

هـ - كتب الأدب الجامعة، كالبيان وعيون الأخبار والكامل.

و - كتب البيان والنقد والكتابة، ومنها كتاب الفصاحة للسجستانى وللدينورى[3]، وكتاب البلاغة للمبرد[4]، وقواعد الشعر للمبرد ولثعلب، وأسرار البلاغة فى الكتابة لقدامة[5] ونقد الشعر ونقد النثر له أيضًا، وكتاب البديع لابن المعتز، وكتاب الصناعة لأبى جعفر أحمد بن محمد النحاس م٣٣٨هـ[6] والرسالة العذراء لابن المدبر م ٢٧٩هـ[7]؛ ومنها أدب الكتاب للصولى، ورسائل الأدباء فى النقد كرسالة ابن المعتز فى أبى تمام.

ز - كتب الشعر، ومنها مجموعات فى أشعار القبائل والأفراد ومنها المفضليات وحماسة أبى تمام وحماسة البحترى ودواوين الشعراء والكتب المؤلفة فى طبقاتهم.

وكذلك كتاب الأمالى للقالى م٣٥٦هـ، وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى م٣٥٦هـ، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه م٣٢٨هـ، وكتاب زهر الآداب للحصرى م٤٥٣هـ، ويتيمة الدهر للثعالبى م٤٢٩هـ، والمثل السائر لابن الأثير م٦٣٧ هـ. وسواها من مئات المصادر فى الأدب والشعر.

---

[1] تجدها فى ١٥١ - ١٥٤ الإدارة الإسلامية، ١٠٨ - ١١٧/ ٢ تاريخ آداب اللغة لمحمد بك دياب، ١٨٦ وما بعدها عن المطالعة التوجيهية.

[2] تجدها فى ٩٥ - ١٠٧/ ١ العقد؛ وقد أمر المهدى محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم وإثبات مقالتهم فى كتاب (١/٩٥ العقد) وكتبت عام ١٧٠ (١/١٠٧ العقد).

[3] ١٦٠/ ٢ كشف الظنون.

[4] ٨٨ فهرست.

[5] ٤٧٠/ ١ كشف.

[6] ٢/١٥٤ كشف.

[7] تجدها فى ١٧٦ - ١٩٣ رسائل البلغاء ونشرها مستقلة عام ١٩٣٠ زكى مبارك.

القسم الثالث

الشعـــر العـــربى



كان الشعر الجاهلي غنائيًا يفيض من القلب ويصور عاطفة الشاعر وشعوره، وكان ضخم الألفاظ، قوى الأسلوب، متعدد الأوزان والقوافي، معانيه فطرية مستمدة من صحيفة الحياة ومشاهد البيئة.

فلما جاء الإسلام ظل الشعر على حالته، أسر لفظ، وجزالة عبارة، وطريقة أداء، ولكن أغراضه تغيرت بتأثير الحياة الجديدة، ومعانيه استحكمت وألفاظه عذبت بتأثير القرآن وبلاغة الرسول.

وبابتداء القرن الثاني بدأ عهد جديد في الشعر العربي كان له أثره في شتى نواحيه الفنية. وظهر هذا الأثر على أيدى المخضرمين الذين عاصروا الدولتين الأموية والعباسية، كما ظهر منذ أواخر القرن الثاني الهجري على أيدى المحدثين - أو المولدين - الذين نشأوا في العصر العباسي، وتأثروا بالحياة الاجتماعية والفكرية التي كانت تسود فيه.

سار الشعر بخطوات كبيرة على يد بشار زعيم المحدثين، وعلى أيدى زعماء مدرسته الأدبية كأبي نواس ومسلم وغيرهما من الشعراء، وظلت هذه النهضة الفنية تزدهر حتى آتت أكلها في العصر الثاني.

وقد كان أبو تمام آخر من شهدهم العصر الأول من أمراء القريض، ولكن مدرسته الشعرية ظلت مسيطرة على دولة الشعر طول العصر الثاني كله، وهي التي وجهته توجيهًا جديدًا يجمع بين فن بشار ومدرسته، والآثار العقلية والاجتماعية والأدبية التي سادت العصر الثاني وذاعت فيه، مما خلق نهضة فنية لم يشهدها الشعر طول العصور الأدبية جميعها.

حدث تغيير واسع في تفكير الشاعر العباسي وعقله، فامتازت معاني الشعر بدقة التصور، واستنباط الدقيق والجديد من الآراء والأفكار، وبالإكثار من ضرب المثل واستخدام الآراء الفلسفية والبراهين والأقيسة العقلية، وبتحميص الأفكار وترتيب العناصر. وأخذ المنطق يتغلغل في الصياغة الذهنية، حتى لتجد القصيدة عند أبي تمام محكمة الأجزاء والعناصر والترتيب، وتبعه في ذلك كثير من الشعراء .. وأكثر الشعراء من الإبداع في التصوير والخيال والإغراق فيه، وتركيب التشبيهات والاستعارات والأوصاف، في جنوح إلى المبالغة والإغراق والغلو والاستقصاء والتغلغل في دقائق الأغراض والخيالات. وانصرف الشعراء عن المعاني البدوية أو الحضرية المتأثرة بالبداوة إلى معان حضرية صرفة. وبعد أن كان الشعر مرآة للطبع الخالص،

أصبح فى هذا العصر لا يصدر إلا بعد أن يسيطر عليه العقل وآثار التفكير؛ وندر فى هذا العصر من خلا شعره من آثار الحضارة العقلية؛ فمن لم تظهر فى شعره المعانى الفلسفية والآراء الطريفة التى سرت إلى المتأدبين من مذاكرة علم الكلام والعلوم المترجمة وخاصة الفلسفية؛ ظهرت فيه محسنات اللفظ والمعنى، وتفخيمات الفرس ومبالغاتهم، ولابدع فى ذلك فأكثر الشعراء فى هذا العصر كانوا رضاع أدبين ونشء حضارتين وولدان جنسيتين، مما كان له صداه فى أخيلة الشعراء وتصوراتهم وتأديتهم للمعانى، ولهذا اللقاح من الأثر فى الفكر والعقل ما يعلل لك وفرة المعانى الجديدة ودقة النظر ولطف الأخذ لها. "فالمحدثون أكثر ابتداعًا للمعانى وألطف مأخذًا وأدق نظرًا، لأنهم عظم الملك الإسلامى فى زمانهم ورأوا مالم يره المتقدمون"[١]. ومعانى الشعر فى هذا العصر : إما معان قديمة تناولها الشعراء فأحسنوا غالبًا صوغها وزادوا فيها، وإما معان جديدة استقل المحدثون بابتداعها، وإذا كان للمتقدمين متانة التعبير وصحة الأداء والسلامة من قصور الملكة، فإن للمحدثين مزية[٢] المعنى والتحليق فى سماء الخيال واتساق الفكر؛ وشاعت فى أشعارهم تلك الحكمة التى اشتهر بها صالح بن عبد القدوس وأبو العتاهية وأبو تمام وسواهم من الشعراء؛ وللمروزى أحمد بن محمد مزدوجة ترجم فيها أمثال الفرس[٣]. وكان المروزى مولعًا بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية[٤] وللأنبوردى قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس[٥] واشتهر على بن جور الفارسى – وكان ذا علم بالنجوم – بإدخالها فى شعره[٦] .. والحكمة اليونانية صاروا يدخلونها فى الشعر.

يقول الشاعر[٧]:

والفقــر فــى أوطانــنا غــربة والمــال فــى الغــربة أوطــان

وهو نظم لحكمة أرسطو: "المال فى الغربة وطن، والمقل فى أهله غريب[٨]".

---

[١] المثل السائر ص١٣٦.

[٢] ويرى ابن جنى أن المولدين يستشهد بهم فى المعانى (٢/٢٢٤ العمدة).

[٣] كان أكثر شعره فى الزهد والأمثال (١٢٢ جزء ١ الأغانى، ٢٣٨ جزء ١ الكامل).

[٤] اليتيمة ص٨٣ ج٤، والكشكول ص١٢٣ و١٢٤ اليتيمة ص٨٤ جـ٤.

[٥] اليتيمة ص٨٦ ج٤.

[٦] معجم الشعراء ص٢٩٣.

[٧] رسالة الغفران ٢٠٣.

[٨] وهى فى البديع لابن المعتز برواية أخرى منسوبة لمسلمة بن عبد الملك (٧٦ البديع).

وفنون الشعر وأغراضه القديمة من مدح وهجاء وفخر ورثاء ووصف وغزل بالمؤنث وزهد وحكمةومثل، نظم فيها الشعراء ولكنهم أكثروا منها وافتنوا فيها وصبغوها بصبغة تكاد تكون جديدة مبتكرة، فقد جدد التلقيح العقلي نماذج هذه الأغراض الشعرية، وأحدث ألوانا من ضروب الرقي الفني غير كثيرًا من جوانبها القديمة.

ونظموا مع ذلك في أغراض جديدة خلقتها البيئة وآثار الحضارة والحياة في العصر العباسي، فشاع فيه المجون والغزل بالمذكر[1] ووصف الخمر وتصوير الطبيعة ووصف الصيد والطرد ونظم الشعر في تأديب النفس وتهذيب النشء بنظم القصص كما فعل أبان وسواه من الشعراء، وضبط قواعد العلوم ونظم التاريخ كما فعل ابن المعتز في أرجوزته في المعتضد وسواه من الشعراء، ونظموه في وصف المصلوبين وهجاء المغنين والاتهام بالأبنة والذم بالرشوة ووصف شتى ألوان الطعام، وفي التصوف الذي أكثر منه الزهاد والمتصوفون، وفي الوعظ والأخلاق وفي شتى الأغراض وجديدها؛ ونظموه في العلوم والثقافات والمعارف الجديدة ولأبي القاسم الرومي من شعراء تونس قصيدة طويلة يتهكم فيها بالتنجيم والمنجمين[2].

وكان للغناء والحضارة والترف أثر في التجديد في أوزان الشعر وقوافيه، فأخذوا يلائمون بين الموضوعات والأوزاز والقوافي[3] وزهدوا في الأوزان الطويلة وآثروا عليها الأوزان السهلة الخفيفة القصيرة، بل إنهم جددوا أوزانا لم يسبقهم إليها المتقدمون، ونظموا على الأوزان التي لم تنظم منها العرب إلا قليلا كالمضارع والمقتضب والمجتث، وأكثروا من نظم المخمسات والمزدوجات، ونظم عليها بشار عبثا واستهتارًا بالشعر[4] وصنع ابن المعتز أرجوزة في ذم الصبوح وأرجوزة في سيرة المعتضد، واشتهر بالتخميس ابن وكيع والأمير تميم[5]، ونظموا الدوبيت والسلسلة والمواليا والزجل وقوما وكان وكان، والموشح، ويسروا على أنفسهم في القوافي

---

[1] نشأ هذا الفن على يد حماد ووالبة وأبي نواس والحسين بن الضحاك والبحترى وسواهم من الشعراء وإذا كان أبو نواس وحده أو مع فئة قليلة قد نظموا فيه في العصر الأول فقد كان أكثر الشعراء في العصر الثاني يطرقون هذا الباب ولم يبق شاعر في بغداد إلا واشتهر بغلام يعشقه ويتغزل فيه. وهو من مذاهب الفرس ومن نشأ في العرب من أصول فارسية، وينفي الجاحظ أن يكون الغزل بالمذكر مذهب العرب في أدبهم (٤١٧ و٤١٨ : ٢ أمراء البيان لكرد علي).

[2] ٥٢٣ و٥٢٤ المقدمة لابن خلدون ط القاهرة - المكتبة التجارية.

[3] راجع ٩ الكف عن مساوىء شعر المتنبي.

[4] العمدة ج١ ص١٥٧.

[5] العمدة ج١ ص١٥٨.

فاختاروا أيسر الألفاظ وأسهلها وأحبها إلى السمع، وتجنبوا عيوب القافية؛ كل ذلك حرصا على مسايرة الشعر للحضارة والغناء ومحاولة لنشره بين شتى الطبقات.

أما في أسلوب الشعر : فقد حافظ الشعراء على عربيته، وإن كان بعض الشعراء قد أدخلوا فيه بعض الألفاظ الفارسية دون تعريب أو معربة مصقولة، كما فعل أبو نواس وابن المعتز وسواهما من الشعراء ومن قبل كان الأعشى وأمية ابن أبي الصلت وكذلك يزيد ابن مفرغ وأسود بن أبي كريمة[1]. وقد حاولت بعض العناصر الفارسية إحياء أدبهم القومي ونظم الشعر بلغتهم الفارسية. ويروى أنه قدمت للمأمون حين دخوله "مرو" قصيدة فارسية نظمها شاعر يدعى عباس ويقول الشاعر في القصيدة إنه لم ينظم أحد بهذه اللغة قبله وقد يكون هو عباس ابن طرخان الذي نقل ابن خرداذبة في كتابة الجغرافيا شعرًا فارسيًا له ولكن لغة القصيدة تدعو إلى الشك في نسبتها لذلك العهد[2]، وكان هناك شاعر آخر هو محمد ابن البعيث كان يكتب أشعاره بالعربية والفارسية[3]، وكذلك الأمر في النثر فقد كان مسوى الأسواري يقص بالفارسية والعربية[4].

وقد ظهر أثر الحضارة وسلامة الذوق في تخير ألفاظ الشعر وأساليبه لاستعمال الروية وقلة الارتحال والأنحاء عليه بالتهذيب والميل به إلى جانب الرقة والسلاسة مع بقاء جزالته وفخامة عبارته في غير الهزل والمجون وفي الموضوعات التي تتطلبها، وانتقل ذوق الزخرف والترف من الحياة العامة إلى الحياة الفنية الخاصة فتجلت الدقة في انتقاء الألفاظ العذبة الممثلة للمعنى أتم تمثيل وظهر التكلف في صوغ العبارات والأساليب. ودعا النقاد كالجاحظ وسواه إلى إيثار ما لم يكن من الألفاظ ساقطا سوقيا ولا مستكرها وحشيا وإلى هجر الغريب والخشونة وإيثار الجمال الفني من وضوح العبارة وجمال الابتداء وحسن التخلص والانتهاء. وقد استعملوا بعض الألفاظ الكلامية واقتبسوا في الشعر من كتب الله العزيز، وقصدوا البديع وألوان الزخرف الفني قصدًا يوشون به شعرهم. فقل حظ الشعر من اليسر، وبعد عهده بالبداوة. وكثر حظه من التكلف الفني، وأصبح أثرًا من آثار الصناعة بعد أن كان وليد الطبع والفطرة الحرة المطلقة. وبذلك أصبح الشعر فنا حقا يسير الشاعر فيه وراء الترف والجمال، من حيث لم يكن الشاعر الجاهلي أو الإسلامي عادة صاحب فن،

---

[1] البيان والتبيين ص١٠٩ ج١.

[2] الحضارة الإسلامية لبارتولد ص٦٨.

[3] الحضارة الإسلامية لبارتولد ص٦٩.

[4] البيان ص٢٣٤ ج١.

بل كان الطبع قويا فيه. وما يقال عن زهير والحطيئة وطفيل الغنوى من أنهم كانوا أصحاب روية وأناة ليس معناه الصنعة أو التكلف الذى نراه عند المحدثين[1] فالمثل الأعلى للشعر عند القدماء ما جرى على السليقة والفطرة وما أوحت به إليهم حياتهم من المعانى. فأما عند المحدثين ففى العناية بالزخرف والتنميق[2]، فلم تكن العرب تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، فلما أقضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الألوان من الغرابة والحسن تكلفوا الاحتذاء عليها وسموها البديع[3]. ومع ذلك فقد كان هناك مذهب فى الشعر يتعمد الإغراب والغرابة والألفاظ الجاهلية وفى هؤلاء يقول ابن رشيق :

لعــن الله صــنعة الشــعر مــاذا	مــن صــنوف الجهــال مــنه لقيــنا
يؤثــرون الغريــب مــنه عــلها	كــان ســهلا للســامعين مبيــنا
ويــرون المحــال معــنى صــحيحًا	وحســيس الكــلام شــينا ثميــنًا

وقد حاول بعض المحدثين التجديد فى بناء القصيدة وأغراضها، فدعوا إلى ترك الأطلال ومساءلتها فى مبادىء القصيد؛ كما فعل أبو نواس ومطيع وابن المعتز، وسواهم من الشعراء، ويقول أبو نواس :

صــفة الطلــول بلاغــة الفــدم	فــاجعل صــفاتك لابــنة الكــرم

ولكن ابن قتيبة لم يرض عن ذلك، ودعا إلى الاحتفاظ بمنهج القصيدة الموروث[4]. ولكن ابن رشيق لم يرض عن ذلك المنهج والاتجاه، ورأى أنه "لا معنى لذكر الحضرى الديار إلا مجازًا"[5]، "لرغبة الناس فى الوقت عن تلك الصفات، وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها، والأولى فى هذا الوقت صفات الخمر والقيان[6]."

أما المذاهب الأدبية العامة فى فن الشعر فى القرن الثالث الهجرى وما بعده فيمكن إرجاعها إلى مذهبين:

فطائفة من الشعراء قد احتذت حذو القدماء، فهى لا تسير فى سبيل التجديد الفنى فى الشعر إلا بمقدار ما يتلاءم مع الروح العربية، فظلت على النهج

---

[1] ويجعل صاحب الأدب الجاهلى مدرسة مسلم وأبى تمام وسواهما من المصنعين امتدادًا لمدرسة زهير والحطيئة (٢٨٨ الأدب الجاهلى).

[2] تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص٩٩ وما بعدها.

[3] راجع ٣٨ الوساطة.

[4] راجع ١٤ و١٥ الشعر والشعراء، والعمدة ج١ ص١٩٧.

[5] العمدة ج١ ص١٩٩.

[6] العمدة ج٢ ص٢٧٩.

والصياغة القديمة، ومنهج : أشجع، ومروان بن أبى حفصة م١٨٢هـ، ودعبل م٢٤٦هـ، وعلى بن الجهم م٢٤٩هـ، والبحترى م ٢٨٤هـ، وسواهم.

وطائفة مالت إلى التجديد : كبشار م١٦٧هـ، وأبى نواس ١٤٥ - ١٩٩هـ، والعتابى م٢٢٠هـ، ومسلم ٢٠٨هـ، وأبى تمام م٢٣١هـ، وابن الرومى ٢٨٣هـ وابن المعتز ٢٩٦هـ.

ويرجع ذلك إلى التفاوت بين الشعراء فى الثقافة والتفكير والعقلية :

فالطائفة الأولى تثقفت بالثقافة العربية وحدها فسارت فى مذاهب الشعر وفنه وأخيلته ومعانيه على المنهج القديم.

والطائفة الثانية تثقفت بالثقافة العربية وبالثقافات الحديثة ودعت إلى أن يكون الشعر فنا يعبر عن هذه الثقافات جميعا ويوزن أسلوبه بميزان العقل والمنطق الدقيق.

وكان بين الطبقتين نضال أدبى واسع تمثله المعركة الأدبية التى نشبت بين البحترى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر م٣٠٠ هـ والتى نجد أخبارها فى المعارضات التى قامت بين الشاعرين[1]، وفيها يقول البحترى :

كلفتمونا حدود منطقكم	فى الشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق	ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفى إشارته	وليس بالهذر طولت خطبه

وقبل ذلك قال أبو تمام فى الحسن بن وهب :

لم يتبع شنع الكلام ولا مشى	مشى المقيد فى حدود المنطق
فى هذه خبث الكلام وهذه	كالسور مضروبا له والخندق

وكذلك انقسم نقاد الأدب وعلماؤه طبقات:

١ - فطائفة من النقاد تقف إعجابها وتقديرها على الشعر القديم، وتزرى بشعر المحدثين وفنهم لما فيه من إسفاف وإغراق وإحالة ونقص طبع وتفاوت نفس وتباين ملكات، - وهم علماء الأدب واللغة الذين تثقفوا ثقافة أدبية وعربية خالصة ولم يتزودوا بزاد آخر من الثقافات الحديثة.

---

[1] راجع هذه المعارضات فى ديوان البحترى ٣٢-٣٨/ ١.

ومن هؤلاء : أبو عمرو بن العلاء م١٥٤هـ وكان أعلم الناس بالعربية وجلس إليه الأصمعى عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامى[١] وكان يقيم الموازنة بين الشعراء على أساس عصورهم، لا على أساس شعرهم حتى قال : "لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا[٢]"، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين وسئل عن المولدين فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم[٣]، وكان كما يقول ابن سلام فى طبقات الشعراء: أشد الناس تسليما للعرب.

ومنهم ابن الأعرابى م٢٣١هـ. وكان يزرى بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء[٤]، فكان يقول فى شعر أبى تمام : "إن كان هذا شعرًا فكلام العرب باطل" وأنشده[٥] ابن الطوسى أرجوزه لأبى تمام على أنها لبعض شعراء هذيل فاستحسنها وكتبها فلما علم أنها لحبيب قال خرقوها، وكان ابن الأعرابى يعيب شعر أبى نواس فأنشده رجل شعرًا له وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجابًا شديدًا وكتبه فلما علم أنه لأبى نواس أنكره[٦]؛ وكان يستشهد فى كتابه النوادر بكثير من أشعار المحدثين ولعله لو علم بذلك ما فعله[٧]؛ وكان يقول : ختم الشعر بابن هرمة[٨]؛ وكان الأصمعى يقول: ختم الشعر بالرماح[٩]، وقال : بشار خاتمة الشعراء والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم[١٠]؛ وكان أبو حاتم يعيب شعر أبى تمام[١١].

ومنهم اسحاق الموصلى الذى كان فى كل أحواله ينصر الأوائل، وكان شديد العصبية لهم[١٢] فتعصب على أبى نواس[١٣]، وطعن على أبى العتاهية[١٤]، وكان

---

[١] الشعر والشعراء ص٧، البيان والتبين ١/٢٠٩، العمدة ٧٣ ج١.
[٢] تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص١٠٥.
[٣] العمدة ٧٣ ج١.
[٤] الموازنة ٨، الموشح ٣٠١؛ أخبار أبى تمام ٢٤٤.
[٥] التصحيف والتحريف ٨٥، المثل السائر ٣١٥، أخبار أبى تمام ١٧٥، ص٤٥ وما بعدها من الصناعتين، رسائل ابن المعتز ١٣؛ الموازنة ١٠، وراجع ٥٠ وما بعدها من الوساطة.
[٦] راجع ٢٨٩ ج١ زهر.
[٧] أخبار أبى تمام للصولى ١٧٧.
[٨] العمدة ٧٣ ج١.
[٩] البيان ١٩٧ ج٣.
[١٠] الأغانى ٢٣ ج٣.
[١١] الموشح ٣٠٤.
[١٢] أخبار أبى تمام ٢٢١.
[١٣] راجع ٢٦٣ و٢٦٤ من الموشح: الأغانى ٢٨ ج٣.
[١٤] موشح ٢٥٨.

لا يعتد ببشار ويقدم مروانًا عليه[١]، وسمع أبا تمام ينشد شعرًا له فقال : يا هذا لقد شددت على نفسك[٢]، ومع ذلك فقد كان إنتاجه الأدبى لا يرضى طبقة النقاد التى احتذى حذوها وذلك لأنهم يرونه محدثًا كما فعل الأصمعى معه حين استحسن بيتين أنشدهما اسحاق له فلما علم أن اسحاق صاحبهما عابهما[٣]، ولم يكن تعصب اسحاق للقدماء فى الأدب وحده بل كان كذلك فى الغناء أيضًا فكان زعيم طائفة تنكر تغيير الغناء القديم وتعظم الإقدام عليه[٤].

وكان المأمون - رغم ثقافته الواسعة - يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول انقضى الشعر مع ملك بنى أمية[٥]؛ ودخل عليه أبو تمام فى زى أعرابى فأنشده فجعل المأمون يتعجب من غريب ما يأتى به فلما انتهى إلى قوله:

هن الحمام فإن كسرت عيافة ... من حائهن فإنهن حمام

فقال المأمون : الله أكبر كنت يا هذا قد خلطت على الأمر منذ اليوم وكنت حسبتك بدويًا ثم تأملت معانى شعرك فإذا هى معانى الحضريين وإذا أنت منهم ففض به ذلك عنده[٦].

ومثل ذلك التعصب للقديم موجود فى الآداب الأخرى؛ فقد كان هوراس الشاعر الرومانى يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التى يجب أن تدرس ليلا ونهارًا، فإن الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه[٧].

واعتذر الباقلانى عنهم بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذى يجمع الغريب والمعانى[٨]، واعتذر ابن رشيق بحاجتهم إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون[٩].

ب- وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبى وحده فى الشعر وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهليًا كان أو إسلاميًا أو محدثًا كالجاحظ وابن قتيبة

---

[١] الأغانى ٢٨ ج٣.
[٢] الموازنة وتروى برواية أخرى (٣٢٧ الموشح).
[٣] الوساطة ٥٠، الموازنة ١٠.
[٤] الأغانى ٣٥ ج٩.
[٥] ديوان المعانى ٣٦٢ ج١.
[٦] ديوان المعانى ١٢٠ ج٢.
[٧] قواعد النقد الأدبى ص١٤٤ وما بعدها.
[٨] إعجاز القرآن ١٠٠.
[٩] العمدة ٧٣ ج١.

والمبرد وابن رشيق[١]، ونقد ابن المعتز تعصب العلماء على المحدثين لغير سبب[٢] وفضل، خلف لامية مروان على لامية الأعشى[٣]، ويشرح الجرجانى والباقلانى مذهبهم فى النقد[٤].

جـ- وطائفة أخرى حكمت الثقافات الحديثة فى النقد كما فعل قدامة فى نقد الشعر ومناهجه ولاسيما بعد اطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو فى نقد الشعر الذى نقله أبو بشر من السريانية إلى العربية[٥].

ولاختلاف مناهج النقاد فى نقد الشعر كان الشعراء يتشددون فى طلب العدالة الأدبية من النقاد حين يعرضون ما نظموه من شعر عليهم كما فعل ابن مناذر م١٩٨هـ، فقد أنشد أبا عبيدة قصيدته فى رثاء عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى[٦]:

كـل حـى لاقـى الحمـام فمـودى ... مـا لحـى مؤمـل مـن خلـود

وهى التى عارض بها قصيدة أبى[٧] زبيد الطائى :

إن طـول الحـياة غـير سـعود ... وضـلال تأمـيل طـول الخلـود

فقال له: احكم بين القصيدتين واتق الله ولا تقل ذاك متقادم الزمان وهذا محدث متأخر، ولكن انظر إلى الشعرين واحكم لأفصحهما وأجودهما[٨].

وفى العصر الثانى كف الخلفاء عن شد أزر الشعراء بالصلات، لغلبة الترك على أمور الدولة وضعف الخلفاء واضطراب الحياة السياسية، ولأن الدعاية السياسية خرجت كلها أو جلها من أيدى الشعراء إلى أيدى الكتاب والدعاة .. ولتوزع العناية بين الشعر والعلوم الحديثة، ولكثرة الشعر والشعراء، ولغلبة المنادمة على الشعر مما رجح صفة النديم على صفة الشاعر، ولقلة المبالاة بالمدح والذم حين استبحر العمران وشاعت الإباحة والمجون .. فلم يعد الشعر طريقا إلى الحياة، ووسيلة للعيش، كما كان فى العصر الأول، الذى أغدق فيه الخلفاء والوزراء والأمراء على الشعراء بأنفس الجوائز والصلات[٩].

---

[١] الحيوان ٤٠ ج٣، الشعر والشعراء ٧و ٨، الكامل ١٨ ج١، العمدة ٧٤ ج١.

[٢] أخبار أبى تمام ١٧٥ وما بعدها، رسائل ابن المعتز ١٤.

[٣] العقد ص٤٠٢ ج٣.

[٤] الوساطة ٣٧ وما بعدها، إعجاز القرآن ١٠٠.

[٥] زيدان ١٥٧ ج٢.

[٦] راجعها فى الكامل للمبرد ٢٨٨ و٢٩٠ ج٢، والمبرد شديد الإعجاب بها (٢٨٨ ج٢ الكامل)

[٧] راجعها فى (٢٨٦ وما بعدها جمهرة أشعار العرب).

[٨] ٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز .

[٩] راجع أصفاد الملوك على المدح فى ١٥٨ - ١٦١ ج١ العقد الفريد.

وكان من رواة الشعر العربي طبقة من العلماء من البصريين والكوفيين والبغداديين، الذين كانوا يروونه إشباعًا لنهم فطرهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة، من أمثال : خلف والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية[١] ومن عامة رواة الأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة - كما يقول الجاحظ - دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب، والأخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل، واللغويين الذين لا يروون إلا كل شعر فيه غريب[٢]. وبجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم في آفاق الأدب العربي أمثال ابن هرمة وبشار وصالح ابن عبد القدوس وأبي نواس وأبي العتاهية والسيد الحميري وأبان اللاحقي ومنصور النمري وسلم الخاسر وابن أبي عيينة ويحيى بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن يسير والعتابي ومسلم وأبي تمام[٣]، وغيرهم من رجال الأدب والبيان، من بيت بني هاشم وبني العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لاسيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء[٤].

ومهما كان فإن التجديد الشعري في العصر العباسي لم يتعد في الأغلب صناعة الشعر وأنه منحصر في الوجداني منه، وهو يظهر لنا في ثلاثة مظاهر : رقة العبارة، والتفنن في المعاني، والتوفر على البديع اللفظي، وقد يضاف إليها التوسع في المصطلحات اللفظية.

وقد كان نتاج الشعراء في العصر العباسي ممتازًا بالدقة، ومبنيًا على دراسة النفس ومعرفة طبائعها وخصائصها، وفهم حقائق الحياة، واستشفاف أسرارها، وقل أن يعرى أديب عباسي من نصيب في الحكم والأمثال، ومن أشهرهم في ذلك بشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس، وأبو العتاهية، وأبو الطيب المتنبي، وأبو العلاء

---

(١) ٢٠٦/ ١ البيان.
(٢) ٣/٢٢٤ البيان.
(٣) ١/٥٤ البيان.
(٤) ١/١٠٦.

المعرى، فقد كانوا أوفر من غيرهم حظا، وأحكم بناء، وأشعارهم مملوءة بالحكمة، وهذه أمثلة قليلة منها : قال بشار :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم

ويقول صالح بن عبد القدوس ١٦٧هـ وكان يجلس للوعظ فى مسجد البصرة[1]

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى فى ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله ... كذى الضنى عاد إلى نكسه
وإن من دأبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضرًا ... بعد الذى أبصرت من يبسه

ويقول مُحمد بن حازم الباهلى :

أشدُّ من فاقة وجوع ... إغضاء حر على خضوع
فارض من الدهر قوت يوم ... وأنت بالمنزل الرفيع
وارحل إذا أجدبت بلاد ... منها إلى الخصب والربيع
لعل دهرا أتى بنحس ... يكر بالسعد فى الرجوع

وجمع أبو العتاهية نحو أربعة آلاف مثل فى أرجوزة حكمية سماها ذوات الأمثال، ومنها:

حسبك مما تبتغيه القوت ... ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا ... من اتقى الله رجا وخافا
هى المقادير فلمنى أو فذر ... إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
ما انتفع المرء بمثل عدله ... وخير ذخر المرء حسن فعله
من جعل النمام عينا هلكا ... مبلغك الشر كباغيه لكا
ما عيش من آفته بقاؤه ... نغص عيشًا كله فناؤه
من لك بالمحض وليس محض ... يخبث بعض ويطيب بعض
إن الشباب حجة التصابى ... روائح الجنة فى الشباب

---

[1] ٨ - ١٠ : ١٢ معجم الأدباء لياقوت، ومن شعره : ليس من مات فاستراح بميت ** إنما الميت ميت الأحياء

ويروى أن الجاحظ أنشدت أمامه هذه الأرجوزة يومًا، فلما وصل إلى هذا البيت، استوقف المنشد، ثم قال : انظروا قوله : روائح الجنة فى الشباب، فإن له معنى كمعنى الطرب، الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة، إلا بعد التطويل وإدامة الفكر، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه.

ويمتاز كذلك الشعر العباسى[1] بكثرة استدلالهم لما يذهبون إليه من رأى أو فكرة، بالحجج العقلية أو البراهين الشعرية، وذلك لأنهم أفادوا من دراسة الفلسفة والمنطق، وأصبحت نفوسهم لا تقنع بالرأى من دون دليل، ولأنهم فى التعمق وراء المعانى كانوا يصلون فى كثير من الأحيان إلى الحكم على الأشياء بغيرالمألوف؛ ولابد للحكم حينئذ من برهان يد عمه، أو قياس يقربه من مألوف الناس، ولذلك كثر فى أدبهم حسن التعليل، والمذهب الكلامى، والتذييل المشتمل على التشبيه الضمنى، وقد مدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدته:

مـا فـى وقوفـك سـاعة مـن بـأس ... نقضـى حقـوق الأربـع الأدراس

فلما وصل إلى قوله :

إقـدام عمـرو فـى سماحـة حـاتم ... فـى حـلم أحـنف فـى ذكـاء إيـاس

قـال لـه الفيلسوف الكندى - وكـان حاضرًا بالمجلس- الأمير فـوق مـن وصفت، فاتكأ أبو تمام على ذكائه، واستنجد بديهته فأنجدته بقوله :

لا تـنكروا ضـربى لـه مـن دونـه ... مـثلا شـرودًا فـى الـندى والـباس

فـالله قـد ضـرب الأقـل لـنوره ... مـثلا مـن المشـكاة والنـبراس

وما أنكر الناس[2] تطويل الشعر فى المدح حتى ضاق ابن الرومى بأهل زمانه، فاستخرج منه معنى بغيضًا، هو تيقن المادح أن الكرم لا يملأ نفس الممدوح، وأنه غائر تحت طبقات من البخل وكزازة النفس، فلابد للوصول إليه من تطويل الأسباب كما يطيل الرشاء من يمتح من بئر بعيدة الماء:

وإذا امـرؤ مـدح امـرأ لـنواله ... وأطـال فـيه فقـد أطـال هجـاءه

لـو لم يقـدر فـيه بعـد المسـتقى ... عـند الـورود لمـا أطـال رشـاءه

---

[1] ٨- ١٠ : ١٢ معجم الأدباء لياقوت ، ومن شعره : ليس منمات فاستراح بميت * إنما الميت ميت الأحياء.

[2] مذكرة فى الأدب العربى للأستاذ أحمد شعراوى.

وما كان الناس يأبهون لبكاء الطفل ساعة الميلاد، ولكن ابن الرومى الذى كان يتلمس لتشاؤمه العلل: التفت إليه، واتخذه دليلا على ما تعج به الحياة من رزايا، وما ترصده للأحياء من آلام :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها	يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها	لأوسع مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه	بما سوف يلقى من أذاها يهدد

وما دام جمال الشيء أو قبحه بالدليل والبرهان؛ فقد تمكنوا من تحسين ما تعارف الناس على هجنته، وتهجين ما تواضع الناس على استحسانه. وقد كان البدر أسمى ما يشبه به وجه الحسناء فى البهاء، ولكن عبد الرحمن بن المنجم يجرى على لسان حبيبته محاجة يكتب لها فيها النصر على البدر حيث يقول:

شبهتها بالبدر فاستضحكت	وقابلت قولى بالنكر
وسفهت قولى وقالت : متى	سمجت حتى صرت كالبدر
البدر لا يرنو بعين كما	أرنو ولا يبسم عن ثغر
ولا يميط المرط عن ناهد	ولا يشد العقد فى نحر
من قاس بالبدر صفاتى فلا	زال أسيرًا فى يدى هجرى

وما سمعنا أحدًا احتج للحقد قبل هذا العصر، ولعل أول من حاول ذلك عبد الملك بن صالح بن على بين يدى الرشيد، وكان يجد عليه، ويتهمه بالتطلع إلى الخلافة، فأراد يحيى بن خالد البرمكى أن يضع من قدره تقربًا إلى الرشيد، فقال : يا عبد الملك، بلغنى أنك حقود، فقال عبد الملك : إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر؛ إنهما لباقيان فى قلبى، فقال الرشيد : تالله ما رأيت أحدًا احتج للحقد بأحسن مما احتج عبد الملك، وكان قول عبد الملك هذا نواة، أخذها ابن الرومى، فاستنبتها، ونماها، وأبداها كثيرة الغصون والأفنان فى قوله يزين الحقد أيضًا :

لئن كنت فى حفظى لما أنا مودع	من الخير والشر انتحيت على عرضى
لما عبتنى إلا بفضل إبانة	ورب امرىء يزرى على خلق محض
ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها	بل العيب أن تدان دينًا ولا تقضى
وخير سجيات الرجال سجية	توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع	من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
ولولا الحقود المستكنات لم يكن	لينقض وترًا آخر الدهر ذو نقض
وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى	وبعض السجايا ينتهين إلى بعض

فحيث ترى حقدًا على ذى إساءة ... فثم ترى شكرًا على حسن القرض

وقد نقض ابن الرومى ذلك فقال :

يا مادح الحقد محتالاً له شبهًا ... لقد سلكت إليه مسلكًا وعثًا
لن يقلب العيب زينا من يزينه ... حتى يرد كبيرًا عاتيًا حدثًا
قد أبرم الله أسباب الأمور معًا ... فلن ترى سببًا منهن منتكثًا
يا دافن الحقد فى ضعفى جوانبه ... ساء الدفين الذى أضحت له جدثًا
الحقد داء دوى لا دواء له ... يرى الصدور إذا ما جمره حرثًا
فاستشف منه بصفح أو معاتبة ... فإنما يبرأ المصدور ما نفثا
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت ... ولا تكن لصغير القول مكترثًا
فالعفو أقرب للتقوى وإن جرم ... من مجرم جرح الأكباد أو فرثا
يكفيك فى العفو أن الله قرظه ... وحيا إلى خير من صلى ومن بعثا
شهدت أنك لو أذنبت ساءك أن ... تلقى أخاك حقودًا صدره شرثا
إذن وسرك أن ينسى الذنوب معًا ... وأن تصادف منه جانبًا دمثًا
فكيف تمدح أمرًا أنت تكرهه ... فكن – هديت – تميز كل ما اغتلثا

ومن خصائص الشعر العباسى أيضًا براعة التصوير، والافتنان فيه، وسمو الخيال، واتساع آفاقه، ولاشك أن لما أطلعتهم عليه الترجمة من آداب الأمم الأخرى مدخلا فى ذلك، فقد عرفوا مسالك غيرهم فى تصور الأشياء وتصويرها، ورأوا مسابح للخيال لا تقف عند الجزء أو تجهد فى تصويره، بل تنظر إلى الكل نظرة شاملة، تعين على إخراجه فى صورة كاملة مترابطة، ولعل إفادتهم فى هذه الناحية كانت محدودة لغلبة التأثر بالأدب القديم، ولكنها على كل حال؛ تركت آثارًا لا نكاد نلمحها عند السابقين عليهم. والحضارة لها كذلك نصيب . فالشاعر إنما يستمد صوره مما يحيط به، وقد لام ابن الرومى من قال له لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز، وأنت أشعر منه؟. فقال ألا تنشدنى شيئًا من قوله الذى استعجزتنى عن مثله؟ فأنشده قوله فى الهلال.

انظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له زدنى، فأنشده قوله فى الآذريون الأصفر، وهو زهر أصفر، فى وسطه خمل أسود، وليس بطيب الرائحة :

كأن آذريونها ... والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب ... فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه؟ بالله لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ذاك انما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظر إذا أنا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس؟ هل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام:

وساق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم ... فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفًا ... على الجو دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر ... على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض

ومن بديع الخيال قول أبي اسحاق إبراهيم بن موسى، يصور تلاحظ العاشقين بصورة معركة، يظفر أحد الطرفين فيها بالنصر. ويبوء الآخر بالقتل أو الأسر:

غزتني بجيش من محاسن وجهها ... فعبى لها طرفي، ليدفع عن قلبي
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها ... يريد اغتصاب القلب قسرًا على الحرب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا ... جعلت فؤادى في يديها على العضب
وناديت من وقع الأسنة والقنا ... على كبدي : يا صاح مالي وللحب
فصرت صريعا للهوى وسط عسكر ... قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

وكذلك يقول ابن الرومي :

وقيان كأنها أمهات ... عاطفات على بنيها حواني
مطفلات وما حملن جنينا ... مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديا ... ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حافلات ... وهي صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى ... بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه ... وهو بادي الغنى عن الترجمان

ومن الآثار التي ظهرت في أدبهم ؛ طول النفس وامتداده[1]، واتساع القصيدة لمئات الأبيات، فقد أقدرتهم مطالعة الفلسفة والعلوم العقلية على التفسير والتحليل، وامتلأت أيديهم بالمعاني والأفكار يبسطونها، ويقلبونها على جميع وجوهها، ويضعون الصور الكثيرة لها، ويحتجون بما وسعهم من الدليل والبرهان، وبذلك انفسح مجال القول أمامهم، انفساحًا لم ييسر لمن كانوا قبلهم، بل كان أمام متأخريهم أوسع منه أمام المتقدمين منهم، لتكامل الأسباب وتوافرها، ومصداق ذلك

---

[1] الأدب العربي للأستاذ أحمد شعراوي.

فى الرجوع إلى ما قدمناه من الاحتجاج للحقد، فقد تركز فى قول عبد الملك بن صالح: واتسع عليه وانبسط عند ابن الرومى حتى ملأ الكثير من الأبيات؛ وطول النفس غير الهلهلة التى يخلقها العجز والحيرة فى أداء المعنى. أو بعبارة أخرى، لا نقصد به ذلك الإسهاب العيي الناتج من ضعف الملكات وقصورها عن توضيح المراد إلا فى فضول من اللفظ، وإنما نقصد به إلى إشباع المعنى، ومعاودته بالتحليل والتفصيل، ودعمه بالبرهان والدليل، وعرضه فى معارض مختلفة من الصور الجميلة، لا فى مباذل من العبارات المتكررة، والجمل المترادفة.

ومن خصائصه كذلك المبالغة دون تهيب، ومجاوزة الحد فيما يثبتون من صفات المدح والذم، فقد أخذوا عن الفرس ما ورثوه من المغالاة فى تعظيم الأكاسرة، والديانة بالحق الإلهى المقدس؛ وأخذ الخلفاء الأدباء بهذا المبدأ، وحملوهم على الإغراق فى مدحهم، فتباروا فى هذا الميدان، يحاول كل منهم أن يفتح قلب ممدوحه بما يفخمه ويضخم ما هو فيه، أو بما يختلقه ويدعيه مما ليس فيه. وبذلك دخلت المبالغة والادعاء جميع أبواب الشعر، وبخاصة الهجاء؛ لأنهما مكنا فيه من الإيجاع والإيلام. وقد قال منصور النمرى فى مدح الرشيد :

خليفة الله إن الجود أودية	أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت أمرأ فالله رافعه	ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصما	فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله	أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فلما اجتمع الشعراء بباب المعتصم بعث إليهم وزيره محمد بن عبد الملك الزيات يقول لهم : من يحسن قول النمرى : خليفة الله إلخ فليدخل، وإلا فلينصرف فقام محمد بن وهيب، وقال : فينا من يقول مثله، وأنشد قصيدة منها :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها	شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر
فالشمس تحكيه فى الإشراق طالعة	إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه فى الظلماء منبلجا	إذا استنارت لياليه به الغرر

ومنها :

فالخلق جسم له رأس يدبره	وأنت جارحتاه السمع والبصر

وأبو نواس يهجو الرقاشى بقوله:

رأيت قدور الناس سودًا من الصلى	وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
يبينها للمعتفى بفنائهم	ثلاث كنقط الماء من نقط الحبر

إذا مـا تـنادوا بالرحـيل سـعى بهـا	أمـامهم الحـولى مـن ولـد الـذر
ولـو جنـنها مـلأى عبـيطًا مجـزرًا	لأخرجت ما فيها على طرف الظفر

ويتصل بحديث المبالغة فى المعانى ظاهرتان لم تكونا قبل هذا العصر: إحداهما شيوع الخضوع والزلفى فى مخاطبة الرؤساء، فقد علوا بهم عن أن يوجهوا الخطاب إليهم، أو يصلوه بأسمائهم، واتجهوا إلى الحضرة والسدة وما أشبه ذلك، إرضاء لكبريائهم، ومظاهرة لغطرستهم. والأخرى: كثرة الألقاب التى تضاف إلى الأسماء، رغبة فى التفخيم من شأن أصحابها، والتهويل بأقدارهم، وما اتجه الناس قبل هذا العهد إلى أن يضيفوا للخليفة أو من يتصل به فى العمل لقبا يزيد على اسمه، حتى جاء أول خلفاء العباسيين فلقب نفسه بالسفاح، ففتح بذلك باب الألقاب للخلفاء، وكذلك صنع من كانوا يعاونونه، فقد افتنوا فى اختراع الألقاب الفخمة كالوزير، والسلطان، وذى اليمينين أو الرياستين، أو الوزارتين، أو الكفايتين، ورئيس الرؤساء، وما أشبه ذلك من الألقاب المركبة من إضافة الكلمات الضخمة إلى الدولة، أو الدين، والتى كثرت حتى فى عهود الضعف والانحلال، وأسبغت على من يستحق ومن لا يستحق، وما ألطف ما قال أبو بكر الخوارزمى فى أحد ذوى الألقاب:

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا	مـن الكـنى ومـن الألقـاب أبوابـا
ولقـبوا رجـلا لـو كـان أولهـم	مـا كـان يرضـى بـه لـلحش بوابـا
قـل الدراهـم فـى كفـى خليفتـنا	هـذا، فـأنفق فـى الأقـوام ألقابـا

ألوان من صنعة المحدثين فى الشعر

كان الشعراء المحدثون يقصدون إلى ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التى يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة وسحر الأداء، من استعارة وتشبيه وجناس وتطبيق ومقابلة وحسن تعليل وسوى هذه الألوان، التى يقصدونها قصدا ويفتنون فيها افتنانا، ويحرصون على توشية شعرهم وقصائدهم بها وتجميل آثارهم بزخرفها، كان الراعى مقدمة لهذا اللون من الصنعة "فكان كثير البديع فى شعره"[1].

وأول من فتق البديع من المحدثين بشار وابن هرمة[2]، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا منهما[3]، ثم اتبع بشارا وابن هرمة مقتديا بهما العتابى

[1] ٣/٢٤٢ البيان.
[2] ١/١١٠ العمدة.
[3] ١/٥٥ البيان.

والنمرى ومسلم وأبو نواس[1]، فالعتابى يذهب شعره فى البديع[2]، وكان يحتذى حذو بشار فى البديع[3]، كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين كالنمرى ومسلم وأشباههما[4] وأستاذه بشار أبو المحدثين وأستاذهم[5] وكانت تتباين طبقات شعره فيصعد كبيرها ويهبط قليلها بكثيرها وكذلك كان حبيب[6]، وكان نواس ثانى بشار فى منزعه لفظا ومعنى وكثيرا ماصب على قوالبه وجرى فى مضماره. حتى قال الجاحظ فيهما: معناهما واحد والعدة اثنان!. بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ولا تعب من عمل شعر؛ وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا إذن، وليس بعد بشار مولد أشعر من أبى نواس[7]، وكان أبو نواس يشبه بالنابغة[8]، وكان أسير المحدثين شعرا[9]. والصنعة واضحة بشكل ملموس فى ميميته :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه ... بحلمى عنه وهو ليس له حلم[10]

على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهذيبًا أدبيًا واسعًا للشعر ومذهبا جديدًا مأثورا إلا على يد المحدثين عامة[11] وعلى يد مسلم وأبى تمام على الخصوص، فمسلم أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبله إلا النبذ اليسيرة وهو زهير المولدين وكان ببطىء فى صنعته ويجيدها[12]، بل هو فيما زعموا أول من قال هذا الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف[13]، وأول من أفسد الشعر

---

(1) ١/١١٠ العمدة.

(2) ٣/٢٤٢ البيان.

(3) ١/٥٥ البيان.

(4) ١/٥٤ البيان.

(5) راجع ٣/٢٠٠ الأغانى، ١/١١٠ العمدة ٢/١٣ زهر؛ ٢٥٠ موشح، ص٣ طبقات ابن المعتز. وكان الأصمعى يقول هو خاتمة الشعراء (٣/٢٣ الأغانى).

(6) ٢٦٣ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف.

(7) ١٦١ العصر العباسى للاسكندرى.

(8) ١/١١٠ العمدة.

(9) ١/١٧٣ العمدة.

(10) وهى فى ديوانه، وتنسب لمعن بن أوس خطأ.

(11) ١/١٧٣ العمدة.

(12) ١/١١٠ العمدة.

(13) ١/٢٠ معاهد التنصيص.

بالبديع[1]، ويشيد به النقاد جميعا فى مذهب الصنعة والبديع منوهين بأثره فى هذا الباب[2]، وكان يتخذ الصنعة مذهبا يطبق عليه نماذجه بيتا بيتا فعنى بضروب التصنيع والزخرف المختلفة من جناس وطباق واستعارة ومشاكلة وأقام ألفاظه وتعابيره كما يقيم المثالون تماثيلهم، وحقا كان مسلم زعيم التصنيع فى عصره. فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه فالقصيدة عنده لا تعبر عن خواطر وإنما تعبر عن ألوان[3].

وعمت موجة التصنيع بعد مسلم، وعلى نمطه وحذوه سار أبو تمام والبحترى "فكانا يطلبان الصنعة ويولعان بها، فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتى للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة وتأخذها بقوة. وأما البحترى فكان أملح الناس صنعة وأحسن مذهبا فى الكلام يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة[4]، كان لأبى تمام مذهب فى المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء[5]؛ وربما أسرف فى المطابق وفى المجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها[6]، ولا تجتمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمه[7]، وهو أول من شرع البديع وأنبع عيون التقسيم والتصريع والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس[8]، وعلى أى حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفتها سابلة وأكثر منها فى أشعارهما تكثيرا سهلها عند الناس، على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفا[9]، كان أبو تمام يستخدم فى صناعة شعره وشى التصنيع الذى عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشاكلة وتصوير وأضاف إليها شيئا آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد فى تصويره على صبغ التدبيج وقد استوعب الفلسفة، والثقافة وحولهما إلى فن وشعر، فالطباق والجناس والمشاكلة كل ذلك وسواه تجتمع فى شعره فيجلله

---

[1] ٨ الموازنة.

[2] ٦٨ المثل السائر، ١٠٩ طبقات ابن المعتز، ٣٧٢ معجم الشعراء، ٢٤٨ رسائل البلغاء، ٤/١٣٢ زهر.

[3] ٨١ و ٨٣ الفن ومذاهبه.

[4] ١/١٠٩ العمدة.

[5] ٧/١٦٨ مهذب الأغانى.

[6] إعجاز القرآن.

[7] ٩٢ رسالة الغفران.

[8] ٣٠٥ الريحانة للشهاب من ظلامة أبى تمام التى ذكرها الشهاب الخفاجى فى - ريحانته٣٠٤ - ٣٠٩)، وقد صنفها الخالدى على لسان أبى تمام يشكو فيها الطائى من الواعظ الموصلى الذى كان يغير على شعر أبى تمام فى كلامه وشعره.

[9] ١/١١٠ العمدة.

الغموض في كثير من جوانبه وأجزائه وهو الغموض الفني الذي أخذه به النقاد فهو يبتكر أفكارا وصورا جديدة ولكنه يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تؤدي ما يريد، وجانب الغموض والمعاني العويصة في شعره هو الذي أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التي شبت في فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تفرع من مذهب البرناسيين؛ وكان أبو تمام يستخدم الطباق استخداما معقدا يلونه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد[1] وهو المقابلة .. وكان البحتري يتشبه بأبي تمام وينحو نحوه ويحذو حذوه في البديع[2].

وكان لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام[3] ويقل التصنيع له فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسنا رشيقا وتصنعه للمطابقة كثير حسن، وتعمقه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلامة[4]، والبحتري على أي حال لم يكن متفلسفا ولم يكن من رجال الفكر العميق، كان بدويا أعرابيًا فظلت أدوات الصناعة عنده ساذجة بسيطة[5]، كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقدا شديدا كما يقول الباقلاني، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلي كما يقول صاحب المثل السائر، بل كانت كالعسل حلاوة[6]، أما ابن الرومي فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على اللفظ فيطلبون صحته ولا يبالون حيث وقع من هجنه اللفظ وخشونته[7]، فكان يصنع شعره على طريقة المدرسة المحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة الحديثة مدرسة التصنيع[8]، فهو حديث في ثقافته ولكنه لا يستطيع أن ينهض في فنه بألوان التصنيع وزخارفه، وحقا قد شغف بالتصوير ولكن هذا الشغف لا يخرجه إلى مجال المصنعين[9]، وهو مع ذلك قد يأتي بألوان الزخرف الفني في شعره ولكن دون أن يتخذها مذهبا، وكان يستخدم

---

[1] راجع ١١٦ و ١١٥ و١٢١ و١٢٣ و١٢٤ و١٣١ الفن ومذاهبه في الشعر العربي.

[2] ٧/١٨٣ مهذب الأغاني.

[3] أي من إسرافه فيه.

[4] ٩٦ إعجاز القرآن.

[5] ٩٠ الفن ومذاهبه.

[6] ٣٥ طبقات ابن المعتز والآمدي يفضل ابتداءاته (١/٢٠٥ العمدة) وكان مقصرا في الخروج من النسيب إلى المدح (٤١ إعجاز القرآن) ، ويفضله الجرجاني بجودة الابتداء على حبيب والمتنبي، وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة (١/٢٠٥ العمدة).

[7] ١/١٠٦ العمدة ، وابن الرومي أكثر الشعراء اختراعا للمعاني (٢٣٢ ج١ العمدة، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة (١٦١ رسالة الغفران) .

[8] ٩٤ الفن ومذاهبه.

[9] ٩٥ المرجع.

الطباق والجناس فى شعره وهو يشبه البحترى فى ذلك إلا أن البحترى يكثر من الجناس، وقد استعار من أبى تمام صبغ التدبيج[1].

وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعتز وختم به[2]؛ وكان ابن المعتز هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن للفن وينظم الشعر ليلهو به وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين وكان متكلفا مجيدا فى تكلفة كما كان الوليد مطبوعا مجيدا فى طبعه، ويقول عبد القاهر فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ولم يكن من المطبوعين[3]، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعتز فيقول :

وما أعلم شاعرًا أكمل ولا أعجب تصنيعًا من ابن المعتز، فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا البصير بدقائق الشعر وهو عندى ألطف أصحابه شعرا وأكثرهم بديعًا وافتنانًا وأقربهم قوافى وأوزانًا ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب[4]؛ ولقد صدق ابن رشيق فى حكمه الأدبى على ابن المعتز وصنعته فإن له من رائع الصنعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاوة الصياغة فى صناعته ما يروع القارىء ويستبد بإعجاب المنصف من النقاد، "كان أبو تمام متكلفا للبديع وكان البحترى وابن المعتز يجريان مع الطبع وكان مسلم ينهج نهجًا وسطًا"[5]، ولا شك أن ذلك أثر لعصر ابن المعتز وبيئته وحياته ووجدانه وشعوره، وآية ناطقة بحبه للجمال السارى فى الحياة.

أشهر الشعراء العباسيين

فى صدر العصر العباسى نجد ابن هرمة وبشارا وأبانوس، والعديد من الشعراء من أمثال مسلم وسلم الخاسر وأبى العتاهية ووالبة ومنصور النمرى وبكر بن النطاح وعلى بن جبلة والعتابى وأبى الشيص.

---

[1] وكان يلتزم حركة ما قبل الروى فى أكثر شعره (١٣٣ و١١ العمدة) وكان يلتزم القافية ١٣٧ و١٣٨/ ١ العمدة، وقد يلتزم الجزء وحركته قبل الروى ١٧٢ سر الفصاحة.

[2] ١١٠ ج١ العمدة.

[3] ٢٦٢ أسرار البلاغة.

[4] ١٠٩ و١١٠ ج١ : العمدة.

[5] ١٧٠ ومابعدها الأسلوب للشايب.

كما نبغ كذلك الكثير من الشعراء، نذكر منهم : محمود بن الحسين الوراق ٢٣٠هـ وامتاز بالحكمة والأمثال[١]، وأبا تمام م٢٣١هـ. وديك الجن (١٦١ - ٢٣٥ هـ)[٢]. وعبد الصمد بن المعدل م٢٤٠هـ[٣]، وعمار بن عقلي م٢٤٠هـ[٤] وأبا العميثل م ٢٤٠هـ شاعر عبد الله بن طاهر وكاتبه[٥]، ودعبل (١٤٨ - ٢٤٦هـ)[٦]، وعوف بن محلم الخزاعى م٢٤٨هـ[٧]، وعلى بن الجهم م٢٤٩هـ[٨] والعطوى م نحو ٢٥٠هـ[٩]، والحسين بن الضحاك الخليع (١٦٢ - ٢٥٠هـ)[١٠] وبارق الكريزى وكان شاعر مكة فى أيام المتوكل وكان يتعصب على أبى تمام[١١] ومحمد ابن سلامة بن أبى زرعة الدمشقى وكان هو وديك الجن (١٦١ - ٢٣٥هـ) شاعرا الشام[١٢]، وأبا عيينة عبد الله بن محمد بن أبى عيينة، المهلبى[١٣].

---

[١] راجع ١/١٣٨ أزهر، ١٧٤ طبقات الشعراء لابن المعتز.

[٢] هو عبد السلام الحمصى شاعر الشام وكان أبو تمام يحتذيه راجعه (١/٨٣ عمدة) وكان ماجنا (١/٣١٦ الدميرى)، وشهد له أبو نواس (١/٣١٦ الدميرى، ١/٥٢٥ وفيات الأعيان) ويروى ذلك عن دعبل (١/١٩٣ العمدة) وعن أبى تمام (١٥١ حلبة الكميت) وتوفى عن بضع وسبعين سنة (٣٥ الكشكول) .

[٣] كان شاعر البصرة (٩٣ خاص الخاص، ٣/٧٤ زهر)، وأخوه أحمد شاعر كذلك (٣/٧٢ زهر).

[٤] ٢٤٧ معجم الشعراء، ١٤٩ - ١٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز.

[٥] ٢/١٣٣ الدميرى، ٧٢ و٧٣ فهرست، ١٣٥ - ١٣٦ طبقات الشعراء لابن المعتز، ١/٤٧٠ ابن خلكان.

[٦] ١٩٣-١٩٨/ ٤ معجم الأدباء، ١٢٤ - ١٢٧ طبقات الشعر لابن المعتز، ٢٤٨- ٧/٢٧٢ مهذب الأغانى. وله كتاب طبقات الشعراء (٢٣٩ فهرست) وكتاب فى شعراء بغداد (٦٧ المؤتلف) وكان شاعر علماء وعالم شعراء (٢٤٩ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف)، وكان يؤدب الفضل ابن العباس (٧/٢٥٦ مهذب الأغانى).

[٧] ٦٩ فهرست، ١٠١ خاص الخاص، ١/١٣٠ الأمالى.

[٨] ٢٨٦ معجم الشعراء، ١٥١ وما بعدها طبقات الشعراء لابن المعتز، ٣٩-٢/٤١ وفيات الأعيان، ٤/٦١ المسعودى، ٤٢٣ - ٢/٤٣٠ عصر المأمون، ٩٨ خاص الخاص وكان شاعر مفلقا مطبوعًا (١٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز) وعلمه بالشعر أكبر من شعره (١٦٣ أخبار أبى تمام)، وكان أحسن الناس علما بالشعر (١٠٠ إعجاز القرآن للباقلانى) ومن الفضلاء بالشعر وصناعة له (١/١٧٠عمدة) وراجع فيه (٤/٦١ مسعودى، ٩/١٠٥ الأغانى وما بعدها).

[٩] وكان له فن لم يسبق إليه ذهب فيه مذهب أصحاب الكلام (٢٠/٥٨ الأغانى) وكان أحد المتكلمين الحذاق (٤٣٢ معجم الشعراء)، وراجع ١٨٧ - ١٨٨ طبقات ابن المعتز، ٢/٢٣٢ الأمالى.

[١٠] ١١٣ المؤتلف، ٣٠ ج٤ معجم الأدباء، ٢٦٥ - ٣/٢٧٧ عصر المأمون، ١٢٧ - ١٢٨ طبقات ابن المعتز. وهجا المأمون ثم مدحه بقصيدة نالت استحسانه فعفا عنه (٢/٢٠٦ ديوان المعانى).

[١١] ٤٣٩ معجم الشعراء.

[١٢] ٤٢١ معجم الشعراء.

[١٣] ٢٧٥- ٧/٢٩٥ مهذب الأغانى، ١٣٦ - ١٣٩ طبقات ابن المعتز، ٢٦٧ معجم الشعراء.

وكذلك الأخيطل محمد بن عبد الله بن شعيب[1] توفى نحو عام ٢٥٠هـ، ومحمود بن مروان بن أبى الجنوب بن أبى حفصة مدح المتوكل ولزم المعتز وخص به فقلده اليمامة والبحرين[2]، ومحمد بن أبى الوليد الكلابى مدحه المتوكل وكان شاعر أوانه[3]، ويزيد المهلبى[4] وتوفى نحو ٢٥٦هـ، والحمدونى إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه البصرى[5]، وتوفى نحو عام ٢٦٠هـ، ومحمد بن دكين المتكلم ورثى المعتز وله أشعار يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد[6] توفى بعد عام ٢٥٥هـ، ويعقوب التمار وتوفى فى آخر أيام المعتمد[7]، والخليع الأصغر محمد بن أحمد م ٢٨٠هـ[8] وابن الرومى (٢٢١ – ٢٨٣هـ)[9]، والبحترى م٢٨٤، وأبو الحسين الخزاعى م ٣٨٣هـ[10]، ومحمد بن على بن حمزة العلوى م ٢٨٧هـ[11]، وأبو العباس عبد الله بن محمد الناشىء الأنبارى م٢٩٣هـ[12]، وعبيد الله ابن عبد الله بن طاهر (٢٢٣ – ٣٠٠هـ)، ويحيى بن على المنجم (٢٤١ – ٣٠٠هـ) وابن المعتز (٢٤٧ – ٢٩٦هـ)،

---

[1] يسلك مسلك أبى تمام ويحذر حذوه (٤٣٢ معجم الشعراء) وأنشد أبا تمام شعرًا له فقال له : اذهب إذا شئت فليس للناس بعدى غيرك (١٩٥ طبقات ابن المعتز).

[2] ٥٠٢ معجم الشعراء.

[3] ٤٣٩ المرجع.

[4] ٧/٢٩٥ وما بعدها مهذب الأغانى وص٣٤٣ الموشح.

[5] راجع ٢٢٣ و٢٥٦ – ٢/٢٦٠ زهر وله فى طيلسان ابن حرب أربعون مقطوعة لا تخلو واحدة منها من معنى نادر أو مثل سائر (٩٤ خاص الخاص، ١٧٦ طبقات ابن المعتز)؛ وله قصيدة لامية جيدة فى المطالب (٣٥ – ٢/٣٧ العقد).

[6] ٤٥١ معجم الشعراء.

[7] ٥٠٧ معجم الشعراء.

[8] ٤٥٢ معجم الشعراء وهو من ولد ابن قيس الرقيات.

[9] ٣٥٧ وما بعدها موشح، ٤١ – ٣/٤٤ وفيات الأعيان، ١٥١ – ١٥٦ مراجعات للعقاد، ٣١٣ – ٣٤٤ حصاد الهشيم للمازنى، وابن الرومى للعقاد.

[10] ٢٩١ معجم الشعراء، وهامش ١٤٤ ديوان ابن الرومى.

[11] وكان شاعرًا راوية عالمًا (٤٥٣ معجم الشعراء).

[12] ترجمته فى (٤٧١ – ١/٤٧٢ وفيات الأعيان، ١٩٨ طبقات ابن المعتز) وهو الناشىء الأكبر وكان فى طبقة ابن الرومى والبحترى وابن المعتز وكان نحويًا عروضيًا متكلمًا أقام ببغداد ثم خرج إلى مصر وأقام بها إلى آخر عمره وكان متبحرًا فى عدة علوم منها المنطق، وله قصيدة فى فنون من العلم تبلغ سبعة آلاف بيت (١/٤٧١ وفيات)، وله كتابه الموسوم بتفضيل الشعر (١/١٧٥ العمدة) وينقل عنه الحصرى (٤٩ – ٣/٥١زهر). وله منظومة فى الشعر كتبها إلى أبى الصقر (٢/١٠٨ العمدة)، وله منظومة أخرى فى الشعر (١٠٩– ٢/١١٠) عمدة، ٣/٥١ زهر)، وله كلمة فى تقسيم العلم عند الفلاسفة (١/١٢ العمدة)، وهو غير الناشىء الأصغر (٢٧١ – ٣٦٥هـ) الذى كان من شعراء سيف الدولة (٤٨ وما بعدها / ٢وفيات).

والبسامي على بن بسام م٣٠٢هـ[1]، ونصر بن أحمد بن نصر الخبز أرزى المتوفى عام ٣١٧هـ[2]، وأبو بكر الحسن بن على ابن أحمد بن بشار المعروف بابن العلاف الشاعر المشهور (٢١٨ – ٣١٨هـ[3]) وابن طباطبا العلوى الأصبهانى م٣٢٢هـ[4].

ثم ظهر المتنبي والشريف الرضى، وأبو فراس الحمدانى وكشاجم والرفاء ولو أواء الدمشقى، ومهيار الديلمى، وأبو طالب المأمونى م٣٨٣ هـ، وأبو العلاء المعرى والطغرائى م٥١٣هـ، وابن سنان الخفاجى م٤٦٦هـ، وابن التعاويذى م٥٣٨ هـ، والأرجانى م٥٤٤هـ، والأبيوردى م٥٧٧هـ، وابن سناء الملك م٦٠٨هـ، وابن النبيه م٦١٩هـ، وابن الفارض م٦٣٢هـ، وابن مطروح م٦٤٩هـ، والبهاء زهير م٦٥٦هـ. وسواهم من عديد الشعراء.

طبقات الشعراء العباسيين

– ١ –

الطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين فى الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا فى المنزع أو يدخلوا فى مناقضة أو يتزاحموا على باب ملك[5]، ومعنى الطبقة أنهم نظراء[6] وأنهم قريبون من بعض فى منزلتهم الأدبية العامة وإن اختلفوا فى اتجاهاتهم الفنية وإنتاجهم الأدبى؛ والشعراء أربع طبقات: جاهليون ومخضرمون وإسلاميون ومولدون وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بنى العباس[7]، ويضيف إليهم الشهاب الخفاجى

---

[1] يشبه الحطيئة فى الهجاء (٢٠٨ وما بعدها خاص الخاص، ٢/٤٤ وما بعدها وفيات، ٤/٢٢٦ المسعودى) وهجاه ابن المعتز (٣/٩٠ زهر، ١٨٠ ديوان ابن المعتز) وأمه أمامة (٢١٤ فهرست) أخت أحمد بن حمدون ابن إسماعيل النديم. وكان حسن البديهة شاعرًا أديبًا (٥/٣١٨ معجم الأدباء) وأغلب شعره فى الهجاء (راجع ٢٩٤ معجم الشعراء، وكان هو وإخوته يقرأون الشعر على فضل البريدى (١٧١ أدب كتاب للصولى).

[2] ٥٥–٣/٦٠ وفيات. وهو أحد المطبوعين المجودين وكان لا يعدل به أحد فى زمانه (١/٤٩٨ سمط).

[3] كان ينادم المعتضد وكان بينه وبين ابن المعتز صحبة أكيدة فلما قتل ابن المعتز رثاه بداليته:

يـــا هـــر فارقتـــنا ولم تعـــد وكنـــت عـــندى بمـــنزل الولـــد

وجعلها فى صورة رثاء هر له إخفاء على المقتدر (٢٤٥ – ١/٢٤٨ وفيات الأعيان. ١٣٩ نكت الهميان، ٣٣٦ و٣٣٧ ج٢ الدميرى) وعدد أبيات القصيدة ٦٥ بيتا وهى من أحسن الشعر وأبدعه كما يقول ابن خلكان.

[4] ٤٦٣ معجم الشعراء ، ٦/٢٨٥ معجم الأدباء، ١٠٦ خاص الخاص.

[5] ٤٠١ الأدب العباسى لمحمود مصطفى.

[6] ٨٤ تاريخ النقد الأدبى عند العرب.

[7] ٤٥ تاريخ الأدب العربى للزيات.

طبقات، هم المحدثون ثم المتأخرون والعصريون[1] .. والشعراء العباسيون يقسمون إلى طبقات.

فالطبقة الأولى من العباسيين هم مخضرمو الدولتين، كابن هرمة وأبى دلامة م١٦١هـ والحسين بن مطير وأبو حية النميرى وسديف بن ميمون ويحيى بن زياد وأبو الهندى وابن الخياط المكى[2] وبشار م١٦٧هـ وصالح بن عبد القدوس م ١٦٧هـ أيضًا[3] وحماد عجردم م١٦٨هـ ومطيع م١٦٩هـ والسيد الحميرى م١٧٣هـ ومروان بن أبى حفصه (١٠٥ - ١٨١هـ)، ومن رجازها أبو نخيلة السعدى ورؤبة م١٤٥ هـ.

وقد تأثرت هذه الطبقة ولاسيما بشار بالفرس وحضارتهم تأثرا قويا وكان تأثرهم بعلوم اليونان قليلا بالقياس إلى من بعدهم .. وزعيم هذه الطبقة بشار، وهو أشعرهم[4]، فهو أستاذ المحدثين[5] وتقدمه فى طبقاتهم ورياسته عليهم من غير اختلاف فى ذلك يغنى عن وصفه وإطالة ذكر محله[6]، وسمى أبا المحدثين لأنه فتق لهم أكمام المعانى ونهج لهم سبل البديع فاتبعوه[7]، وهو أستاذ المحدثين وبدرهم وصدرهم[8] .. ويجعل ابن رشيق أبا العتاهية م٢١١هـ من هذه الطبقة[9]. والصواب عده من الطبقة الثانية.

والطبقة الثانية : نشأت فى صدر الدولة، ومن شعرائها : والبة م ١٧٥هـ وسلم م١٨٦هـ[10]. والعباس بن الأحنف م ١٩٢هـ، وأشجع م ١٩٥هـ، وأبو الشيص م ١٩٦هـ[11]، وأبو نواس م١٩٨هـ[12]، والحكم بن قنبر، والفضل الرقاشى م٢٠٠هـ: وأبان

---

[1] ٣١٠ و٣١١ الريحانة.

[2] شاعر ظريف ماجن مدح المهدى (١٨/٩٤ الأغانى)

[3] وفى الدميرى أنه قتل عام ١٩٧هـ (١/٢٧ الدميرى) ولعله تحريف.

[4] ١/٨٣ العمدة.

[5] ٢٥٠ الموشح.

[6] ٣/٢٠ الأغانى.

[7] ٢/١٣٦ زهر.

[8] ٨٤ خاص الخاص.

[9] ١/٨٣ العمدة.

[10] ويعده بعض النقاد من الطبقة الأولى (١/٨٣ العمدة. ٢٨٠ العصر العباسى للسباعى بيومى).

[11] راجع ترجمته فى ٢٤٥ - ٧/٢٤٨ مهذب الأغانى.

[12] وفى الدميرى (١/٤٣) أنه توفى عام ١٩٤هـ.

م٢٠٠هـ[١]: ومحمد بن كناسة ١٢٣ – ٢٠٧هـ: وعلى بن جبلة العكوك (١٦٠– ٢١٣هـ)[٢]. وبكر بن النطاح، ومحمد بن يسير الرياشي: وأبو سعيد المخزومى[٣]؛ والعتابى م ٢٢٠هـ، ومنصور النحوى[٤]، ومسلم بن الوليد م٢٠٨هـ: وأبو العتاهية م٢١١هـ؛ ودعبل (١٤٨ – ٢٤٦هـ) ، وعمارة بن عقيل ٢٤٠هـ ، وهو ساقتهم[٥]؛ وعوف بن محلم الخزاعى م٢٤٨هـ، والحسين بن الضحاك م٢٥٠هـ، وليس فيهم نظير أبى نواس وليس يفضل عليه مولد سوى بشار[٦]، واشتهر منهم أبو العتاهية، وكان شيخ الطبع[٧]؛ وكان غزير البحر لطيف المعانى سهل الألفاظ كثير الافتنان قليل التكلف إلا أنه كان كثير الساقط المرذول وهو وبشار والسيد أطبع الناس[٨]، ويقول فيه ابن الأعرابى: ما رأيت أجمع ولا أقدر على بيت شعر منه وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر[٩]، وقال الأصمعى[١٠]: شعره كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف، وروى أبو حاتم عن أصحابه: لو أن طبع أبى العتاهية بجزالة لفظ لكان أشعر الناس، وشعره كالماء الجارى رقة ألفاظ ولطافة سبك[١١][١٢]، والبارد فى شعره كثير[١٣] ويقول المبرد فيه: وهو حسن الشعر قريب المأخذ .. وزعيم هذه الطبقة أبو نواس وتجد له من بهجة اللفظ ودقيق المعنى ما يتحير فيه[١٤] ويقول فيه النظام: كأنه جمع له الكلام فاختار أحسنه[١٥]؛ وامتاز بفحش مجونه وتصويره لأخلاقه ولبيئته ووصفه الخمر؛ وهو ثانى بشار فى منزعه لفظا ومعنى وبعد هذد الطبقة يختلف النقاد :

---

[١] ترجمته فى ١–٥٢ الأوراق قسم أخبار الشعراء.

[٢] ١٨: ١٠٠ – ١١٤ الأغانى، ١١: ٣٥٩ تاريخ بغداد للخطيب، ٢: ٣٠ شذرات الذهب.

[٣] تلميذ العتابى وراويته ووصف اسحاق الموصلى شعره وشعر مسلم أمام الفضل بن يحيى وصفا رائعا. (راجع ٦٥ –١٣/٦٩ تاريخ بغداد).

[٤] بغدادى كثير الشعر جيده، ومدح المأمون(١/٥٧٨ سمط اللآلى، ٢٦٠ معجم الشعراء، ١٣٩–١٤٠ طبقات ابن المعتز، وفى الأمالى قصيدة لامية له (١/٢٥٩ الآمالى).

[٥] ويعده بعض الباحثين فى الطبقة الثالثة (٤٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى)

[٦] ١/٨٣ العمدة.

[٧] ١/٨٢ العمدة.

[٨] ٣/١٢٢ الأغانى.

[٩] ٣/١٢٧ الأغانى.

[١٠] ٣/١٤٠ الأغانى.

[١١] ٣/١٥٢ الأغانى.

[١٢] ٦٨ المثل السائر.

[١٣] ٥٩ صناعتين.

[١٤] ١٧٢ إعجاز القرآن للباقلانى.

[١٥] ٢١٤/ ٧ مهذب الأغانى.

١- ففريق يجعل أبا تمام م٢٣١هـ والبحترى م٢٨٤هـ وابن الرومى م٢٨٣هـ وابن المعتز م٢٩٦هـ طبقة واحدة هى الطبقة الثالثة التى خلفت طبقة أبى نواس[1] ويقول ابن رشيق طبقة حبيب والبحترى وابن الرومى وابن المعتز طبقة متداركة وتلاحقوا وغطوا على من سواهم حتى نسى معهم بقية من أدرك أبا نواس ولم يذكر من أصحاب ابن الرومى وابن المعتز إلا من ذكر بسببهما فى مكاتبة أو مناقضة [2].

٢- وفريق يقسم هؤلاء ومن عاصرهم طبقتين فجعل فى الطبقة الثالثة: أبا تمام (١٩٠ - ٢٣١هـ)، وديك الجن (١٦١ - ٢٣٥هـ)، ومحمود بن الحسين الوراق م ٢٣٠هـ، وعبد الصمد بن المعذل م٢٤٠هـ وأخوه أحمد؛ والحمدونى إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه البصرى، وأبا العميثل كاتب ال طاهر ٢٤٠م هـ؛ والعطوى وعلى بن الجهم م٢٤٩هـ، ويجعل فى الطبقة الرابعة : محمد بن اسحق الصيمرى، وعلى بن يحيى المنجم م٢٧٥هـ، وابن الرومى (٢٢١ - ٢٨٣ هـ)؛ والبحترى (٢٠٥ - ٢٨٤هـ)؛ وأبا العباس الأنبارى م٢٩٣هـ؛ وابن المعتزم ٢٩٦هـ؛ والبسامى م ٣٠٢هـ؛ والخبز أرزى م٣١٧هـ[3].

٣- وفريق يقسمهم ثلاث طبقات : فيجعل فى الثالثة أبا تمام وديك الجن ودعبل وابن الجهم؛ ويجعل فى الرابعة البحترى وابن الرومى؛ وفى الخامسة ابن المعتز والبسامى[4].

وفى العصر العباسى الثالث والرابع اشتهر من المشارقة السلامى ت٣٣٩هـ. وابن نباتة السعدى م٤٠٥هـ، والشريف الرضى م٤٠٦هـ، ومهيار م٤٢٨هـ؛ وكانوا فى بغداد. كما اشتهر فى أمصار العراق أبو طالب المأمونى م٣٨٣هـ. والبستى م٤٠٠هـ. وصردرم ٤٦٥هـ، والباخرزى م٤٦٧هـ، والطغرائى م٥١٣هـ، وابن التعاويذى م٥٣٨هـ، والأرجانى م٥٤٤هـ، والابيوردى م٥٥٧هـ.

كما اشتهر من شعراء الشام ومصر: المتنبى م٣٥٤هـ، وأبو فراس الحمدانى م ٣٥٧هـ، وكشاجم م٣٨٠هـ، والسرى الرفاء م٣٦٦هـ، والوأواء الدمشقى م٣٩٠هـ، والببغاء م٣٩٨هـ، والنامى ٣٩٩هـ، وأبو بكر محمد الخالدى م٣٨٠هـ، وأبو عثمان

---

[1] ١/٨٣ العمدة.

[2] ٨٣/ ١ العمدة.

[3] ٤٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى، ٤٣ العصر العباسى الإسكندرى.

[4] ٣٨٠ العصر العباسى للسباعى بيومى.

سعيد الخالدى م٤٠٠هـ. ثم المعرى م٤٤٩هـ؛ وابن سنان الخفاجى م٤٦٦هـ؛ وابن حيوس م٤٧٣هـ؛ وابن الخياط الدمشقى م٥١٧هـ؛ وابن الساعاتى م٦٠٤هـ وابن قلاقس الإسكندرى م٥٣٢هـ، وابن سناء الملك م٦٠٨هـ، وابن النبيه م٦١٩هـ، وابن الفارض م٦٣٢هـ؛ وابن مطروح م٦٤٩هـ؛ والبهاء زهير م٦٥٦هـ.

من أئمة الشعر العباسى

كان أبرز شعراء القرن الثالث أبو تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز وقد علمت مما سبق طبقتهم الشعرية.

كان أبو تمام وابن الرومى يتعمقان فى الثقافة وينزعان إلى التفكير ويؤثران المعانى العميقة والآراء البعيدة فى الشعر، وكان أبو تمام مع ذلك يتخذ الشعر صناعة فنية دقيقة فهو يختار ألفاظه وأسلوبه اختيارًا دقيقًا، ويصوغه صياغة خاصة مصبوغة بألوان الترف والزخرف وأصباغ البديع المتعددة التى عرفها شعراء القرن الثالث بذوقهم وعقلهم؛ من حيث كان ابن الرومى قانعًا بالغوص على المعانى دون التفات أو إيثار لألوان الجمال فى الأسلوب؛ أما أبو عبادة البحترى فقد كان قريبًا فى أفكاره واضحًا فى أسلوبه، يحب الصنعة ولكنه يؤثر منها ما كان موائمًا للفطرة العربية السليمة وللذوق الأدبى الخالص الذى لم تفسده آثار لحضارة وألوان الثقافة ومذاهب الصنعة فى الشعر، وكان شعره صورة لهذا الاتجاه دون ما سواه؛ أما ابن المعتز فقد شغف بصناعة الشعر شغفا شديدًا، فتأنق فى ألفاظه وفى ألوان البديع وأصباغ الزخرف التى وشى بها شعره، وعنى بذلك عناية كبيرة، ومع ذلك فإنه لم يغفل نزعات التفكير التى كان يدفعه إليها عقله وبيئته وألوان الثقافات التى امتزجت بالحياة العقلية فى هذا العصر الخصب، فكان شعره صورة عامة لمدرسة أبى تمام ومدرسة البحترى، ومثلهما أدق تمثيل، مع ظهور شخصيته ووضوح أثره فى الحياة الأدبية وتطور الشعر فى عصره ..ونحن بعد ذلك لا غنى لنا عن عرض آراء النقاد فى أبى تمام والبحترى وابن الرومى عرضا واسعا يوقفنا على اتجاه ومنهج كل شاعر فى التفكير والإنتاج.

أما أبو تمام فشاعر مبدع ألقيت إليه زعامة الشعر من جميع الشعراء فى عصره وآثر فى نظم الشعر تجويد المعنى ودقته، فكان "لطيف الفطنة دقيق المعانى

غواصا على ما يستصعب منها[1]"، وهو "متكلف إلا أنه يصيب، وشغله المطابقة والتجنيس جزل المعاني، مدحه ورثاؤه لا غزله وهجاؤه، وطارت له أمثال وحفظت له أقوال[2]" "ولا يتعلق بجيده جيد أمثاله ورديئه مرذول مطروح[3]"، وكان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ متتبعة"[4]، "وهو رأس في الشعر ومبتدئ لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه[5]"، وقد شغف بجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب وبالصنعة وقصد الربيع فهو أكثر الشعراء بديعا وافتنانًا وصنعة في شعره إلا أن مصنوعه جيد يشبه أن يكون مطبوعًا ولحلاوة شعره ودقة أسلوبه خفيت الصنعة فيه كثيرًا، وهو من "المعروفين بجودة الرثاء[6]"، "ولم يكن له حلاوة توجب له حسن التغزل[7]، وكان يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك في شعره[8]، وكان يأتي في شعره برد الإعجاز وعلى الصدر لا يأتي به إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه[9]، وقصيدته "متى أنت عن ذهيلة الحي ذاهل؟ محشوة بالصنعة وتكلف فيها ألوان البديع مما عيب هو وأشباهه عليه[10]، وشعره مباين للشعر في عصره مباينة واضحة من حيث تصوره للشعر وشدة أخذه نفسه بتجويد المعنى ووحدة القصيد وفي كلفه بوصف الطبيعة وميله إلى المعاني الفلسفية يضمنها شعره أيا كان الموضوع الذي ينظم فيه، ويرى بعض المحدثين أنه يجيد في هذا المعنى وذاك ولكنه لا يعرض عليك العالم كله في حالة من الحالات[11]، ويرى آخر أن أبا تمام لا يعد في نظر أهل العصر الحاضر مثلا أعلى للشعر لأنه لم ينقل في شعره كثيرا من صور العواطف التي كانت تجيش بصدر المجتمع في ذلك الحين ولم يمثل الحياة القومية في عصره تمثيلاً صحيحًا ولم يكن كأبي العلاء حرًا في إبداء ما يختلج بنفسه من المعاني ولا شجاعا في بيان ما يعتقده حقا[12]. ومهما يكن فقد كان أبو تمام رأس طبقته، وأخمل هو والبحتري في زمانهما

---

[1] ٧/١٦٨ مهذب الأغاني.

[2] ٢٤٩ رسائل البلغاء من رسائل الانتقاد لابن شرف.

[3] ٢ الموازنة.

[4] ١٦٦ رسالة الغفران.

[5] ٣٧ أخبار أبي تمام للصولي. وراجع رد الآمدي عليه في ذلك ص٦ من الموازنة.

[6] ٢/٢٤١ العمدة.

[7] ٢/١١٣ العمدة.

[8] ١/١٨٢ العمدة.

[9] ١/١٨٣ العمدة.

[10] راجع ١٩٥ إعجاز القرآن.

[11] راجع مقالة للعقاد في الرسالة عدد ٤٥٨.

[12] ص٨ مقدمة مختصر شرح ديوان الحماسة.

خمسمائة شاعر كلهم مجيد كما يقولون، وتتلمذ عليه كثيرون كالبحترى وسواه، وكان البحترى يقدمه وكذلك ابن الرومى[1]، ولم يدركه ابن المعتز وإن كان تتلمذ على أدبه وشعره.

وأما البحترى فتلميذ أبى تمام، وكان يتشبه به فى شعره، ويحذو حذوه فى البديع وكان يراه صاحبا وإماما[2]، ترسم خطا أبى تمام ومضى على أثره فى البديع إلا أنه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى[3]، استمد معانيه من وحى الخيال وجمال الطبيعة لا من آراء العلم وقضايا المنطق والفلسفة، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته ورونقه حتى قال المتنبى فيه "أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى"، ويشيد النقاد بعذوبته وجمال لفظه وأسلوبه[4]، وهو فى عذوبة اللفظ وسهولته يسبق فى هذا الميدان، والكتاب يفضلون كلامه على كل كلام ويقدمون رأيه فى البلاغة على ما وصفه:

فى نظام من البلاغة ما شك	امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا	حك فى رونق الربيع الجديد
حزن مستعمل الكلام اختيارًا	وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركن	به غاية المرام البعيد[5]

وهو من المكثرين فى وصف الخيال المجيدين فيه[6]، وأحسن الناس طريقا فى العتاب[7]، وكان بعض النقاد يختم به الشعراء[8] ونوه به الآمدى فى الموازنة أعظم تنويه[9]، وكان يذكر أن أجود شعره "أهلا بذلكم الخيال المقبل"[10]، وكان ابن المعتز يشيد بشاعريته وبقصيدته فى وصف إيوان كسرى وقصيدته فى وصف بركة

---

[1] ٦٥ أخبار أبى تمام.
[2] ٧/١٨٣ مهذب الأغانى.
[3] ٣٠٢ المثل السائر.
[4] راجع : ٢٤٩ رسائل البلغاء، ٧٣ أخبار أبى تمام للصولى، وكان يقال لشعره سلاسل الذهب (١/٣٧٨ كشف الظنون). وكثر الغناء فى شعره استظرافا لما فيه من الحلاوة على طبع البداوة (١٢٨/ ١ العمدة).
[5] ١٠٠ إعجاز القرآن.
[6] ٩٩ ديوان الصبابة لابن حجلة.
[7] ٢/١٥٢ العمدة.
[8] ٧/١٨٣ مهذب الأغانى.
[9] راجع الموازنة، ١/٢٠٥ العمدة.
[10] ١٧٥ إعجاز القرآن.

المتوكل واعتذارياته[١]، وكان الصاحب يعجب بطريقة شعراء الشام المثلى التى هى طريقة البحترى فى الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة[٢].

وإنما يوازن شعر البحترى بشعر شاعر من طبقته ومن هو فى مضماره أو فى منزلته[٣] ونحن نفضل البحترى بديباجة شعره على ابن الرومى وغيره من أهل زمانه، ونقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة ألفاظه وقلة تعقيده فى قوله[٤]، والكتاب يفضلون البحترى على أهل دهره[٥]، ويطيل الآمدى فى الموازنة بينه وبين أبى تمام[٦].

وقد ترجم للبحترى ابن المعتز فى كتابه طبقات الشعراء ترجمة موجزة[٧]. وكان يشيد بشاعريته وبسينيته فى إيوان كسرى وهائيته فى بركة المتوكل[٨]، وكان ابن المعتز يجتمع به ويجلس معه[٩].

وأما ابن الرومى فشجرة الاختراع وثمرة الابتداع، وكان واسع العطن لطيف الفطن[١٠]، وهو أشعر أهل زمانه بعد البحترى وأكثرهم شعرا[١١]، ويمتاز بطول نفسه فى قصائده[١٢] ولم يجعل للفظ شغلا شاغلا فى صناعته[١٣]، وكان من مختلقى معانى الشعر[١٤] وهو أولى الناس باسم الشاعر[١٥]، وهو غريب الأخذ[١٦]، ويرى صاحب

---

[١] راجع ٣٣ رسائل ابن المعتز.

[٢] ١/٩ اليتيمة.

[٣] ١٩٠ إعجاز القرآن.

[٤] ١٩١ المرجع .

[٥] ١٩٢ المرجع .

[٦] راجع الموازنة وعلى الأخص ص٢ و١٨٠ و١٨١ ويقول الآمدى إن النقاد لم يتفقوا على أيهما أشعر ص٢ الموازنة.

[٧] ١٨٦ و١٨٧ طبقات الشعراء لابن المعتز وله تراجم فى ٩٦ - ٣/١٠٣ وفيات، ٧/١٨٣ ومابعدها مهذب الأغانى، ٣٣٠ الموشح وما بعدها.

[٨] راجع ٣٣ رسائل ابن المعتز.

[٩] ٦ مقدمة ديوان البحترى.

[١٠] ٢٤٩ رسائل البلغاء من رسائل الانتقاد لابن شرف.

[١١] ٢٨٩ معجم الشعراء.

[١٢] ٣٠٨ ابن الرومى للعقاد.

[١٣] ٣١٦ المرجع.

[١٤] ٤/٢١٤ المسعودى.

[١٥] ١/٢٥٥ العمدة.

[١٦] ٣/١٠٥ زهر، وكان يأخذ الحكم الفارسية فينظمها شعرا (راجع ٣/٢٧٨ زهر).

الوساطة أن قصائده على طولها لا تعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين[1] وهو على أى حال شاعر مجيد وعلم من أعلام القريض فى القرن الثالث، ويمتاز ابن الرومى بتفضيله للفظ على المعنى وباستقصائه واختراعه وتوليده فى معانيه.

كان ابن الرومى شاعرًا مكتهل السن وابن المعتز ما يزال يافعا شابا، وكان ذلك يضع ابن الرومى موضع الأستاذ لابن المعتز، ولكن الأمير لم يبال به ولا تأثر تأثرا واضحا بشعره، لأنه كان بين الشاعرين صلات مقطوعة، ففضلا عن تفاوت السن كان ابن المعتز سنيا وابن الرومى معتزليا. وكان ابن الرومى يحب المستعين ويكره المعتز. كما أحب المهتدى وهجا المعتز قبل قتله. وكان لذلك ولا شك أثره فى نفس الأمير، فنقم على ابن الرومى واعتزله، ورفض الاتصال به، ولم يترجم له فى كتابه طبقات الشعراء مع أنه ترجم للبحترى[2] ولأبى تمام[3] ولأبى العيناء[4] والناشىء م٢٩٣[5] وسواهم.

وأما ابن المعتز فشاعريته وشعره مفصل فى كتابى "ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان".

بين أبى تمام والبحترى

١- بزغت شاعرية أبى تمام فى آفاق الأدب العربى فى مشرق القرن الثالث الهجرى، فهتف الناس بها، وأنصتوا إليها، معجبين بهذا الرجل الذى سار بالشعر العربى فى مضمار جديد ونهج غريب. ترك أبو تمام الحلبة التى جرى فيها الشعراء قبله، وأخذ يتحدث عن العواطف البشرية والحياة الإنسانية بلغة تباين اللغة التى ألفها الناس وتحدث بها قبله الشعر والشعراء. لم يقف فى المجال الضيق الذى وقف فيه الشعر العربى فترة طويلة بشار وبعده، بل أضاف إليه ثروة طائلة من شتى الأخيلة الرائعة والمعانى الدقيقة والحكم الإنسانية العليا، فكان له قدم وطيدة فى المعانى، وإبداع نادر فيها، وإغراب فيما يستنبطه منها، وتجديد فيما يأخذه من مألوفها، فهو حين يصف الغناء يصفه بلهجة جديدة مبدعة:

---

[1] ٥٤ الوساطة.

[2] ١٨٦ طبقات ابن المعتز.

[3] ١٣٣ المرجع.

[4] ١٩٦ المرجع.

[5] ١٩٨ طبقات الشعراء لابن المعتز.

ومسـمعة تقـوت السـمع حسـنا | ولم تصـممه لا يصـم صـداها
مـرت أوتارهـا فشـجت وشـاقت | فلـو يسـتطيع سـامعها فداهـا
ولم أفهـم معانـيها ولكـن | ورت كـبدى فـلم أجهـل شـجاها

وحين يتحدث عن الغيث يتحدث عنه بنغمة ساخرة آخذة:

ديمـة سمحـة القـياد سـكوب | مسـتغيث بهـا الـثرى المكـروب
لـو سـعت بقعـة لإعظـام أخـرى | لسـعى نحوهـا المكـان الجديـب
لـذ شـؤبوبها فلـو تسـ | ـطيع قامـت فعانقـتها القلـوب
كشـف الـروض رأسـه واستسـر الـ | ـمحل مـنها كمـا استسـر المريـب

وحين يتحدث عن صلات الأدب التى تؤلف بين الأدباء، يتحدث وكأن معه لسان كل أديب وعاطفة كل شاعر:

إن يكـد مطـرف الإخـاء فإنـنا | نسـرى ونغـدو فـى إخـاء تـالد
أو يخـتلف مـاء الوصـال فماؤنـا | عـذب تحـدر مـن غمـام واحـد
أو يفـترق نسـب، يؤلـف بينـنا | أدبا أقمـناه مقـام الوالـد

وحين يشيد بذكر رجل تشيد معه الدنيا بذكره:

جـم التواضـع والدنـيا بسـؤدده | تكـاد تهـتز مـن أطـرافها صـلفا

وحين يبكى الراحلين من أحبابه ويصف عصف النوى بنفوسهم ومغانيهم، يبدع حتى لكأن الناس جميعا تبكيهم معه، فيقول:

شـهدت لقـد أقـوت مغانـيكم بعـدى | ومحـت كمـا محـت وشـائع مـن بـرد
وأنجـدتم مـن بعـد اتهـام داركـم | فيادمع أنجدنـى علـى سـاكنى نجد

أو يقول :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد | وعـاد قـتادًا عـندها كـل مـرقد
فأجـرى لهـا الإشـفاق دمعـا مـوردا | مـن الـدم يجـرى فـوق خـد مـورد
هـى الشـمس يغنـيها تـودد وجههـا | إلى كـل مـن لاقـت وإن لم تـودد

ثم يستمر فى توقيع لحنه الرائع :

ولكنـنى لم أحـو وفـرا مجمعـا | ففـزت بـه إلا بشـمل مـبدد
ولم تعطـنى الأيـام نومـا مسـكنا | ألـذ بـه إلا بـنوم مشـرد

وهو حين يبكى المجد الآفل والبطولة الشهيدة تبكى معه الإنسانية جميعًا:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر | فلـيس لعـين لم يفـض ماؤهـا عـذر

وهـو بعد ذلك كله رجل مرهف الشعور مشبوب العاطفة قوى الإحساس بالجمال تتجلى هذه الصفات جميعا فى أسلوبه الشعرى، فهو صاحب صنعة يطلبها ليرضى بها وجدانه ومشاعره وذوقه فتجيئه بعد نصب أحيانا وعفو الخاطر أحيانا أخرى. وهو فى أكثر ما يأتى به منها مبدع مجيد. ثم هو لا يرضى لمعناه الغريب الساحر. ولا لصنعته البديعة الآخذة إلا أسلوبًا عاليًا قويًا محكم النسج، يتأنق فى اختياره وطلبه تأنق المصور الماهر فى اختيار الألوان التى يجرى بها ريشته، ويبرز فيها لوحته.

ترجع هذه الروح الشعرية القوية التى تجلت فى شعر أبى تمام إلى أسباب بعيدة من الدم والعنصر، وأسباب قريبة من البيئة والثقافة. فأبو تمام رجل آرى نشأ فى بيئة عربية فكان له من العقلية الآرية حظ ومن الخيال السامى نصيب. يؤيد رأى هذا تلك الرواية التى ذاعت عن أبى تمام فى عصره وتناولها علماء الأدب بعد عصره، كالصولى والآمدى وابن خلكان[1] وياقوت وسواهما، وهى الرواية التى تؤكد لنا أن أبا تمام ولد فى الشام من أب نصرانى اسمه (تدوس). ولما نشأ فى طىء ادعى نسبه فيهم وحرف اسم والده فصار "أوسا" وإذا نظرنا إلى الشعراء الذين ساءت علاقاتهم بأبى تمام كمخلد بن بكار الموصلى والوليد، وجدناهم يتهكمون بدعوة أبى تمام تهكما لاذعا ساخرا. ألا نسمع قول مخلد فيه:

أنـــا مـــا ذنـــبى إذا خـــا	لفـــــنى فـــــيك الأنـــــام
أنـــــت عـــــندى عـــــربى	عـــــــربى والســــــلام

أو قوله أيضًا :

ويحـــك مـــن دلاك فـــى نســبة	قلـــبك مـــنها الدهـــر مذعـــور
إن ذكـــرت طـــاء عـــلى فرســخ	أظـــلم فـــى ناظـــرك الـــنور

أو قول الوليد فى التهكم به:

دع الهجـــاء فـــإن الله حـــرمه	واقصد إلى الحق إن الحق متسع
واذكر حبيب بن أوشونا ودعوته	فـإن طـيا إذا سـبو ابـه جـزعوا

ألا تراه يؤكد ذلك وينبه على أنه يتكلم كلمة حق؛ وأن فى الحق ميدانا متسعا للنقد والتهكم، وألا ترى الوليد يظهر لنا طيا فى صورة الجزع الهلوع إذا ما

---

[1] ص٥ - ٣٩ ابن خلكان ج٤.

ذكرت بدعوة أبى تمام فيهم! ولا يضيرنا هذا التغاير فى اسم والد أبى تمام وسواء أكان تدوس أم أوشونا فإن الغاية واحدة؛ والعربى كثيرا ما ينطق الاسم الأعجمى نطقا بعيدا عن أصله ومحرفا عن حقيقته. ثم ألا يكون لنا من ذلك دليل ملموس يؤيد ما نذهب إليه؟ على أننا لا ننكر أن تخرج الروح العربية السامية شاعرية كشاعرية أبى تمام، ولكننا نقول : إن عقلية أبى تمام العربية قد أتت بالبدع العجيب، وسما بها أن لقحت بثقافة أخرى استمدها الشاعر من عناصر الدم والجنس الذى كان له مظاهر نفسية وفكرية فى عقل أبى تمام فخرج فى ذكائه النادر وعقليته الناضجة وملكاته الشعرية الخصبة .. ثم وراء هذا السبب أسباب قريبة تأثرت بها روح أبى تمام وتلونت بألوانها : فنشأته فى طىء وتثقفه بثقافتها العربية، وسطوع نجم الأدب والشعر فى عصره حين كان الأدب عامة والشعر خاصة سمر المجالس وحديث الخاصة ووسيلة الثروة والجاه والمجد، ثم إقباله على الأدب والشعر يروى ظمأه ونهمه من مشارعهما العذاب؛ كل تلك الأسباب ساعدت على السمو بشاعرية أبى تمام إلى الذروة، وبلوغها الغاية التى ينشدها الشعراء؛ حتى كان لها الأثر البالغ فى الأدب والشعر فى عهد أبى تمام وبعده، وحتى شغل بها الناس جميعا على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم ومذاهبهم؛ ولقد بلغ من أثرها أن كان الشعراء لا يستطيعون أخذ جائزة إلا بإذنه، ولا ينالهم خير إلا بسببه؛ وكان جميع الشعراء فى عصره يعترفون بشاعريته ويقرون بأستاذيته، ويقتفون أثره فى صنعته ونهجه الشعرى[1]، وجرى على وتيرته الشعراء بعده، فنهلوا من منهله، وساروا على طريقته، كابن المعتز[2] والمتنبى وسواهما.

ب- وشاء القدر أن يظهر فى عهد أبى تمام وعلى يديه ومن قبيلته طىء، شاعر مطبوع : هو أبو عبادة البحترى، الذى نهج السبيل المعبدة التى نهجها الشعراء قبله، وآثر مذهب العرب الشعرى الموروث على مذاهب المحدثين المبتدعة، فعنى باستواء النظم، وصحة السبك، وحلاوة اللفظ، أكثر مما عنى بالمعانى والغوص على نافرها البعيد، فخرج شعره ساحر الرونق، صحيح الطبع، قريب المعانى واضحها قربه من مذهب العرب الشعرى وأسلوبهم فيه، أو كما يقول البحترى نفسه :

ومعـــان لـــو فصـــلتها القوافـــى	هجنـــت شـــعر جـــرول ولبـــيد
حـــزن مســـتعمل الكـــلام اختـــيارًا	وتجـــنبن ظـــلمة التعقـــيد
وركـــبن اللفـــظ القريـــب فـــأدرك	ن بـــه غايـــة المـــرام البعـــيد

---

[1] ويقول فيه صاحب الوساطة: وأراه قبلة أصحاب المعانى وقدوة أهل البديع.

[2] ٢٦٢ أسرار البلاغة.

حتى قال الناس : "نظم البحترى[1]" واتخذوه مثلا، وحتى قيل فيه إنه آثر اللفظ[2] على المعنى وأراد أن يشعر فغنى، وقيل : "أعرابى الشعر وما فارق عموده". وقد قال البحترى عن مذهبه هو ومذهب أبى تمام فى الشعر : "أبو تمام يغوص على المعانى، وأنا أقوم بعمود الشعر". وملك البحترى إمارة الشعر فى عهده كما ملكها أبو تمام من قبل، حتى روى أنه أخمل خمسمائة شاعر[3] فى زمنه، وذهب بجاه الشعر ومجده دون كثير من الشعراء، واتبعه فى نهجه الشعرى معاصروه ومن بعدهم من الشعراء.

جـ - أثر الشاعرين فى النقد الأدبى : ودفعت نقاد الشعر وعلماءه إلى العناية بشعر الطائيين أسباب كثيرة : من اتحاد بيئة الشاعرين وتقارب عصريهما، وغزارة شعرهما وجودته، وسمو إلهامها، وتباين نهجيهما فيه، فدرس الأدباء والنقاد شعر الرجلين فى عصرهما وبعد عصرهما، وعنوا بنقده، ولجوا فى الموازنة بينهما وتفضيل أحدهما على الآخر، وتعصب لهذا فريق ولذلك فريق: فأما من تثقف بالثقافة العربية المحضة، وطبع طبعه على حبها، واكتسب الأدب بذوقه، فلم ير الشعر إلا لامرىء القيس والنابغة، أو لجرير والفرزدق، أو لبشار وأبى نواس، وآثر منه ما كان كثير الماء صحيح الطبع قريب المأخذ والمعانى، مستوى الأسلوب غير مستكره اللفظ ولا معقد التراكيب. كأبى سعيد الضرير الشاعر وأبى العميثل شاعر آل طاهر م٢٤٠هـ وكالمبرد م٢٨٥هـ والآمدى م٣٧١ هـ فهؤلاء آثروا البحترى وقدموه، ودفعوا أبا تمام عن بلوغ غايته؛ وأما من تزود مع الثقافة العربية بنصيب من الثقافات الأخرى فأقبل عليها يدرسها ويتأثر باتجاهها ومنحاها العقلى، ومال إلى الفكرة البعيدة والمعانى الغريبة والمثل السائر والحكمة البليغة، فقد آثر أبا تمام وفضله تعصب له، كالصولى وقدامة[4]، وكعمارة ابن عقيل وسواهم، على أننا نجد طائفة قد تعصبت على الرجلين معا، وهم الذين لجوا فى معاداة المحدثين وشعرهم ولم يروا الشعر إلا ما كان قديما جاهليا أو إسلاميا أمويا، وختموا سجل الشعراء بابن هرمة وبشار، وهم رواة اللغة والأدب الذين عكفوا على الشعر الجاهلى وما قرب منه جمعا ورواية ودراسة كالأصمعى (٢١٣هـ) وابن الأعرابى ويحيى بن أحمد الشيبانى وسواهم ممن لا

---

[1] اليتيمة.

[2] ابن الأثير ص٣٠٤.

[3] ١٣٥ وساطة و٥ موازنة.

[4] ألف كتابا فى الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام .

يرى لمحدث فضلا ولا يقر لـه بإحسان، ينهجون فى ذلك نهج أستاذهم أبى عمرو بن العلاء الذى كان لا يحتج بيت إسلامى، وكان يقول فى شعر جرير والفرزدق: لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين؛ وسئل عن المولدين فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم - ٧٣ ج١ عمدة و٢٠٩ ج١ بيان - ألا ترى ابن العربى الأعرابى ينشده الطوسى أرجوزة هى لأبى تمام فيستحسنها ويستجيدها ويأمر بكتابتها وهو لا يعرف أنها له، فلما أخبره أنها لأبى تمام ذمها وأسقطها وقال : خرق يا غلام!

وهكذا كان المتعصبون على أبى تمام أحد رجلين: رجل لا يدفع فضل المحدثين ولكنه يؤثر اللفظ والأسلوب على المعنى والإغراق فيه والعناية باستنباط لطيفه؛ ورجل نقم على أبى تمام مكانته فراح يطعن فيه ويتعصب عليه كدعبل، ولم يعدم المتعصبون على أبى تمام وله حجة يؤيدون بها آراءهم وحكمهم، وأخذت حركة النقد تستعر، وأخذ المؤلفون يؤلفون الكتب فى نقد الشاعرين وتفضيل أحدهما، فألف ابن المعتز (م سنة ٢٩٦هـ) رسالة فى محاسن شعر أبى تمام ومساويه، وألف أبو العباس القطربلى[1] كتابا فى إحالة أبى تمام وخطئه، وألف أحمد بن طاهر سنة ٢٨٠هـ وأحمد بن عمار فى سرقاته، كما ألف أبو الضياء بشر بن تميم كتابا فى سرقات البحترى وأبى تمام، وفى القرن الرابع ألفت كتب كثيرة فى هذا الموضوع أهمها أخبار أبى تمام لأبى بكر بن محمد بن يحيى الصولى م سنة ٣٣٦هـ أشاد فيه بأبى تمام ورفع مكانته وتعصب له وقدمه، وكتاب الموازنة لأبى القاسم الحسن ابن بشر بن يحيى الامدى م سنة ٣٧١ عرض فيه شعر الشاعرين على ميزان النقد، ثم وازن وناقش وحكم، جانحا إلى إيثار البحترى وتفضيله، ولم تخل أمهات كتب الأدب وأصوله كالأغانى والمرزبانى ومعجم الأدباء وسواها من الكتب من الكلام على الشاعرين وشعرهما وإثارة حركة النقد والموازنة بينهما.

موازنات بين قصائد من الشعر العباسى

وهذه موازنات أدبية جديدة بين هؤلاء الشعراء الأربعة : أبى تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز، حيث ندرس كثيرا من الآثار الأدبية التى تجمعها وحدة واضحة فى الغرض أو فى الاتجاه؛ لنكون من هذه الدراسة رأيًا صحيحًا فى أحكامنا الأدبية على هؤلاء الشعراء.

---

[1] ٦٢ موازنة.

١ -قال أبو تمام فى الغيث :

ديمة سمحة القياد سكوب ... مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لإعظام أخرى ... لسعى نحوها المكان الجديب
لذ شؤبوبها وطاب فلو تسطيع ... قامت فعانقتها القلوب
فهى ماء يجرى وماء يليه ... وعزالى[1] تنشأ وأخرى تذوب
كشف الروض رأسه واستسر ... المحل منها كما استسر المريب
فإذا الرى بعد محل وجرجا ... ن لديها يبرين أو ملحوب
أيها الغيث حى أهلا بمغدا ... ك وعند السرى وحين تؤوب

وقال ابن الرومى :

سحاب قيست بالبلاد فألفيت ... غطاء على أغوارها ونجودها
حدتها النعامى مثقلات فأقبلت ... تهادى رويدا سيرها كركودها
غيوث رأى الإمحال فيها حمامه ... فرين حياة الأرض بعد همودها
أظلت فقال الحرث والنسل هذه ... فتوح سماء أقبلت فى سدودها
فأطفأ نيران الغليل مواطر ... مضرجة نيرانها فى وقودها

وقال البحترى :

ذات ارتجاز بحنين الرعد ... مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع بغير وجد ... لها نسيم كنسيم الورد
جاءت بها ريح الصبا من نجد ... فانتثرت مثل انتثار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد ... من وشى أنوار الربا فى برد

وقال ابن المعتز :

وغيث خصيب الترب تندى بقاعه ... بهيم الذرى أثواب قيعانه خضر
رحيب كموج البحر يلتهم الربا ... ويغرق فى أكلائه النعم الدثر
ألحت عليه كل طخياء ديمة ... إذا ما بكت أجفانها ضحك الزهر
فما طلعت شمس النهار ضحية ... ولا أصلا إلا ومن دونها خدر
كأن الرحاب الجون والفجر ساطع ... دخان حريق لا يضىء له جمر

---

[1] جمع عزلاء : مصب الماء من الراوية ونحوها.

وقال أيضًا :

وســــــارية لا تمـــــــل الـــــــبكا	جـرى دمعهـا فــي خـدود الـثرى
ســرت تقــدح الصــبح فــي ليــلها	بــــــبرق كهــــــندية تنتضــــــى
فــلما دنــت جلجلــت فــي الســما	ء رعـــدا أجـــش كجــر الــرحا
ضـــمان علـــيها ارتـــداء الـــيفاع	بأنوارهـــــا واعـــــتجار الــــربا
فمــــــا زال مدمعهــــــا باكــــــيا	علـى الترب حتى اكتسى ما اكتسى
فاضــحت ســواء وجـــوه الــبلاد	وجـــن النـــبات بهـــا والـــتقى

فتجد لأبى تمام الأسلوب الجيد والتصوير الجيد والاستعارات الرائعة والمعانى المبتكرة والمبالغة المقبولة والشعور العميق بأثر الغيث فى الأرض وحاجة الأرض للماء. ونجد ابن الرومى يصف الغيث بالكثافة والإطباق وكثرة الماء وحاجة الأرض إليه، مع تقصير عن أبى تمام فى التصوير والوصف والأسلوب، ومع اعتماد عليه وأخذ من معانيه كما تراه فى بيته الذى قبل الأخير. وتجد للبحترى أسلوبه الجميل وصياغته الفنية ولكنك لا تحس بأثر لشخصيته فيما وراء الأسلوب من معنى وتصوير وخيال، بل هو فى ذلك مقلد كسواه من الكثير من الشعراء. ولكنك تجد ابن المعتز قد ازدحمت فى أسلوبه الصياغة الفنية الدقيقة والصور الشعرية الكثيرة التى تغلب عليها روح الإيجاز وجزالة الأسلوب فى قطعته الأولى وعذوبته فى الثانية مع جمال التشبيه والاستعارة والطباق، وهو فى قطعته الثانية يقف بجانب أبى تمام فى المعانى والتصوير وظهور أثر شخصيته الواضحة فى الأسلوب والتعبير.

٢–وقال أبو تمام فى ذكرى فراق أحبابه له :

نســـــائلها أى المواطــــن حلــــت	وأى بــــلاد أوطنــــــتها وأيـــــت؟
ومــاذا علــيها لــو أشــارت فودعــت	إلـيــنا بأطــراف البــنان وأومــت
ومـا كـان إلا أن تولـت بهـا الـنوى	فــولى عــزاء القلــب لمــا تولــت
فأمــا عــيون العاشــقين فأســخنت	وأمــا عــيون الكاشــحين فقــرت
ولمـا دعـانى الـبين وليـت إذ دعـا	ولمــا دعاهـــا طاوعـــته ولبـــت
فـلم أر مثـلى كـان أوفـى بعهدهـا	ولا مثـلها لم تـرع عهـدى وذمـتى

ويقول فى موقف الوداع :

أمـا وقـد كتمـتهن الخـدور ضـحى	فـــأبعد الله دمعًـــا بعدهـــا اكتـــتما
لما استحر الوداع المحض وانصرمت	أواخـــر الصـــبر إلا كاظمـــا وجمـــا

رأيــت أحســن مــرئى وأقــبحه | مســتجمعين لى : الـتوديع والعــنما
فكــاد شــوقى يـتلو الدمــع منسـجما | إن كان فى الأرض شوق فاض فانسجما

وقال ابن الرومى :

لســت أنســى امتــناع صبرك للـتو | ديــع والــبين مــؤذن بشــتات
وانحـدار الدمـوع كـاللؤلؤ الرطـب | هــوى مــن مدامــع قــرحات
والــتفاتا نحــوى وقــد قبضــتنى | عنك أيدى الفراق حـال التفاتى
ومقالا جرى وللشوق فى الأحشاء | نــــار ألــــيمة الحــــرقات
حــاطك الله بــالكلاءة والصـنع | ووقــــاك أعــــين العــــاندات

وقال البحترى:

مــا أرى الــبين مخلــيا مــن وداع | أنفــس العاشــقين حــتى تبيــنا
وبــود القلــوب يــوم اســتقلت | ظعــن الحــى أن تكــون عــيونا
مــنزل هــاج لى الصــبابة والشــو | ق قريــنى فــيه فســاء قريــنا
يــوم كـان المقـام فـى الـدار شكا | يبعــث الحــزن والرحــيل يقيــنا

وقـال :

قــد أرتــك الدمــوع يــوم تولــت | ظعــن الحــى مــا وراء الدمــوع
عــبرات مــلء الجفــون مــرتها | حــرق للفــراق مــلء الضــلوع
إن تبــث وادع الضــمير فعــندى | نصــب مــن عشــية الــتوديع

وقال ابن المعتز :

لا مـثل مــن يعـرف العشـاق حـبهم | بل أنت من بينهم تشقى بمن تمق
نــأوا بلــيل فــزموا كــل يعملــة | ويعمــل جمــل فــى أنفــه الحلــق
إنــى وأسمـاء والحــى الذيـن غـدوا | بها على الكرم من نفسى وما وثقوا
لكالربــيط وقــد ســيقت قرينــته | يــنازع الحـبل مشـدودًا ويـنطلق
فطـيروا القلـب وجـدا بـين أضـلعه | وعذبـوا الـنفس حـتى مـا بهـا رمـق
مــا أنــس لا أنــس إذ قامت تودعنا | بمقلــة جفــنها فــى دمعهــا غــرق
تفــتر عــن مقلــة حمــراء موقــدة | تكـاد لـولا دمــوع العـين تحـترق
كأنهـا حـين تـبدو مـن مجاسـدها | بــدر تمــزق أركانــه الغســق

فتجد أبا تمام يتصرف فى المعانى المعروفة تصرف حسنا ويصوغها صياغة قوية فيها صنعة كثيرة أظهرها المقابلة. فهو فى البيت الأول يتساءل فى حزن عن

الديار التى أمتها محبوبته مع بعض القبح فى تكرير "أى وأيت" إذ لا فائدة لهذا التكرار ولا جديد وراءه. وفى البيت الثانى يتحسر لعدم توديع محبوبته له قبل سفرها البعيد ولو بإشارة عابرة بأطراف البنان، ويصور فى الثالث حزنه لفراقها، وكذلك فى الرابع إلا أنه يضيف فيه إلى ذلك فرح خصومه بهذا الفراق وفى البيتين الأخيرين يصور وفاءه لعهد الحب وخيانتها لهذا العهد المقدس؛ وكذلك هو فى أبياته الأخرى، معان واضحة معروفة يلم بها الشاعر فى كثير من تعقيده الفنى فى صياغته وصناعته الشعرية، ولكنك تجد لابن الرومى تصويرًا بارعًا، ينطق عن شعور صحيح بألم الوداع، وإدراك صادق لأحزان الفراق، وتأثر واضح بهذه الساعات الحافلة بالذكريات، والتى يعز فيها على الأحباب الصبر. فتنحدر الدموع من عيونهم القرحات، ويعزون أنفسهم بتتبع أبصارهم للحبيب الراحل حين رحيله، وبالدعاء له بأن يحوطه الله بالرعاية، وأن يحفظ عليه شبابه وجماله، ويمنع عنه أذى الحاسدين والعائدات، وينزل البحترى عن هذه الدرجة العالية التى بلغها ابن الرومى فى أبياته، فهو لا يشعر إلا بما يشعر به الناس، وإن أوتى عذوبة التعبير وجمال الأداء، بل إنه يخرج على أدب الحب فيعلن سخطه على حبيبه الراحل. وابن المعتز يصل فى أبياته إلى درجة ابن الرومى ولكن يهبط به أنه لم يتناول موقف الوداع وتصويره ببساطة ابن الرومى وصدق تصويره، ولكنه على أى حال فوق أبى تمام والبحترى فى قوة الشعور وتأجج العاطفة وظهور الشخصية ووضوح التصوير الذى يمتزج فيه الفن بالفكرة والشعور، ويتراءى فى ثوب من العذوبة والترف لولا بيته الثانى الذى أضعفه بيعملته ويعمله الجمل كما يقول :

٣-وقال أبو تمام فى الشيب :

لعب الشيب بالمفارق بل جد	فأبكى تماضرًا ولعوبًا
خضبت يدها إلى لؤلؤ العقد	وما أن رأت شواتى خضيبًا
كل داء يرجى الدواء له إلا	الفظيعين : ميتة ومشيبا

وقال :

فلا يؤرقك إيماض القتير به	فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب

وقال :

له منظر فى العين أبيض ناصع	ولكنه فى القلب أسود أسفح

وقال ابن الرومى :

قالوا المشيب نذير، قلت : لا وأبى	لكن بشير يجلى وجهه الكربا

ألــيس يخــبر مــن أرســى بسـاحته أن الـلحاق بحـب الـنفس قـد قـربا
يا حسن هاتيك بشرى عند ذى أسف علـى الشـبيبة والعيش الـذى نضـبا
لم يـرع حـق شـباب كـان يصـبحه مـن لم يحـب إلـيه فقـده العطـبا
لـو لم يجـب حفظـه إلا بـأن لـه حـق الرضـاع عـلى إخوانـه وجـبا
أخـى وإلفـى وتـربى كـان مولدنـا معـا وربتـنى الأيـام حيـث ربـا
يضـمنا حجـر أم فـى رضـاعتنا وملعـب حـين ناغـت بيـنـا اللعبا
إن الشـباب لمـألوف لصـحبته تلـك القديمـة، مـبكى إذا ذهـبا
والشـيب مسـتوحش مـنه لغربـته والشـى مسـتوحش مـنه إذا غـربا

وقال :

لا بـــدع أن ضـــحك القـــتير فـــبكى لضـــحكته الكـــبير

وقال :

قـد يشـيب الفـتى ولـيس عجيـبا أن يرى النور فى القضيب الرطيب

وقال البحترى :

عيرتـنى المشـيب وهـى بدتـه فـى عـذارى بالصـد والاجتـناب
لا تـريه عـارا فمـا هـو بالشـيب ولكـــنه جـــلاء الشـــباب
وبـياض الـبازى أصـدق حسـنا إن تأملـت مـن سـواد الغـراب

وقال :

عذلتـنا فـى عشـقها أم عمـرو هـل سمعـتم بالعـاذل المعشـوق
ورأت لمـة ألم بهـا الشـيب فريعـت مـن ظـلمة فـى شـروق
ولعمـرى لـولا الأقـاحى لأبصـر ت أنـيق الـرياض غـير أنـيق
أى لـيل يـبهى بغـير نجـوم أو سـحاب يـندى بغـير بـروق ؟

وقال ابن المعتز :

صـدت شـرير وأزمعـت هجـرى وصـغت ضـمائرها إلى الغـدر
قالـت : كـبرت وشـبت، قلـت لهـا هـذا غـبار وقـائع الدهـر

وقال : إن شيب الرأس نور الهموم

وقال :

قـــد أنكـــرت مشـــيبا عمـــر رأســـى واســـتعر
يـــا هـــند مـــا شـــاب قلـــبى وإنمـــا شـــاب الشـــعر

وقال :

رأت أقحوان الشيب لاح وأذنت	ملاحات أيام الصبا بوداع
فقالت: محاك الدهر فى صبغة الصبا	وكنت من الفتيان خير متاع

فنجد الصنعة تهجن من أبيات أبى تمام الأولى الثلاثة وتضع من قيمتها، ثم تخف وطأة هذه الصنعة فى الثلاثة الأخيرة فتعجبك، وتعجب بها وباحتجاجه للمشيب مع شعوره بالحزن منه.

ولكنك تجد عند ابن الرومى عمق شعور بالشباب وحزن عليه ووفاء له، وعمقا فى تصوير ذلك كله، يفوق كل حد، ويبلغ غاية الجمال، ويملك عاطفتك ويستبد باستحسانك؛ مع تعليل للنفس فى بيته الأخير. والبحترى فى أبياته يحاول إقناع حبيبته أم عمرو بالرضا بحالته ومشيبه، فاحتج بما أسعفه بيانه وتفكيره بالاحتجاج به، فى أسلوب مألوف ومعان قريبة؛ وبيته "وبياض البازى" قريب المعنى، إلا أنه جميل التصوير صادقه ساذج التفكير سهل الاستنباط. وأما ابن المعتز فينهج نهج أبى تمام والبحترى ولكنه لا يصل إلى مكانة ابن الرومى فى تصوره وتصويره للشباب والمشيب.

٤-وقال أبو تمام فى الربيع:

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر	وغدا الثرى فى حليه يتكسر
يا صاحبى تقصيا نظر يكما	تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه	زهر الربا فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا	حل الربيع فإنما هى منظر
من كل زاهرة ترقرق بالندى	فكأنها عين إليك تحدر
حتى غدت وهداتها ونجادها	فئتين فى حلل الربيع تبختر
مصفرة محمرة، فكأنها	عصب تيمن فى الوغى وتمضر

وقال ابن الرومى :

أصبحت الدنيا تروق من نظر	بمنظر فيه جلاء للبصر
أثنت على الله بآلاء المطر	فالأرض فى روض كأفواف الحبر
نيرة النوار زهراء الزهر	تبرجت بعد حياء وخفر

تبرج الأنثى تصدت للذكر

وقال البحترى :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا — من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى — أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها برد الندى فكأنه — ينث حديثا كان قبل مكتما
فمن شجر رد الربيع لباسه — عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة — وكان قذى للفين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته — يجىء بأنفاس الأحبة نعما

وقال. ابن المعتز :

انظر إلى دنيا ربيع أقبلت — مثل النساء تبرجت لزناة
وإذا تعرى الصبح من كافوره — نطقت صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر نرجس — قذيت وآذن حيها بممات

ويقول :

أتاك الربيع بصوب السبكر — ورف على الجسر برد السحر
ونفرت الأرض عن جوهر — فمنتظم منه ومنتثرا
وقد عدل الدهر ميزانه — فلا فية حر ولا فية قر

فترى فى قطعة أبى تمام شعورا واضحا قويًا بجمال الربيع وحياته ومناظره الفاتنة، وأسلوبًا باهرًا رائعًا قوى التعبير والتصوير. ونجد كذلك عند ابن الرومى شعورا وتصويرا صادقين للربيع والحياة والطبيعة فيه، ولكنه ينزل عن أبى تمام فى سمو التعبير وجودته وروح الفن التى تشيع فى أبيات أبى تمام.

أما أبيات البحترى فجميلة عذبة ممتازة فى أسلوبها ولكن تنقصها الروح والحياة وقوة الشعور التى تتدفق فى أبيات أبى تمام وابن الرومى، وتضعف من روح البحترى فيها قيود الصنعة التى تطغى عليه وتضعف من شعوره فيها.

وتجد عند ابن المعتز شعورا واضحا بالحياة وأسرار الطبيعة فى الربيع، إلا أن أسلوبه ضعيف لا يبلغ أسلوب أبى تمام، وأول أبياته مسروق من ابن الرومى.

٥-ويقول أبو تمام فى الفرس:

أو أدهم فيه كمتة أمم — كأنه قطعة من الغلس
مخلق وجهه على السبق — تخليق[1] عروس الأبناء للعرس

[1] التخليق : التلطخ بالطيب.

فهـو يسـر الـرواض بالـنزق ... السـاكن مـنه واللـين والشـرس
صهصـلق[1] فـى الصـليل تحسـبه ... أشـرج[2] حلقومـه عـلى جـرس

ويقول ابن المعتز :

وسـابح مسـامح ذو مـيعة ... كأنـه حـريق نـار تلتهـب
تـراه إن أبصـرته مسـتقبلاً ... كأنما يعلـو مـن الأرض حـدب
عـارى النسا ينتهـب الـتراب لـه ... حوافـر باذلـة مـا ينتهـب
تصـافح الـترب إذا مـا ركضـت ... لكـنها مـع الصـخور تصـطخب
تحسـبه يـزهى عـلى فارسـه ... وإنمـا يـزهى بـه إذا ركـب
أسـرع مـن لحظـته إذا ونـا ... طـوع مـن عـنانه إذا جـذب
يـبلغ مـا تـبلغه الـريح ولا ... تـبلغ مـا يـبلغه إذا طلـب
ذو غـرة قـد شـدخت جبهـته ... وأذن مـثل السـنان المنتصـب
وناظـر كأنـه ذو روعـة ... وكفـل ملمـلم ضـافى الذنـب
ومـنخر كـالكير لم تشـق بـه ... أنفاسـه ولم يخـنها فـى تعـب
قد خاض فى يوم الوغى فى حلة ... حمـراء تسـديها العـوالىو القضب

فترى فى أبيات أبى تمام وصفا للفرس تطيف به الحوشية والغرابة لاسيما فى بيته الأخير.

أما أبيات ابن المعتز فتفوق أبيات أبى تمام لكثرة معانيها وقوة تصويرها والجدة فى أساليبها، ولجمال استعارتها وتشبيهاتها الدقيقة مع المبالغة والعذوبة فى ألفاظها وأسلوبها مما يظهر بوضوح أمام النقد العادل النزيه.

٦–وإذا قرأت قطعة ابن الرومى فى وصف الأسد :

فمـا أسـد جهـم المحـيا شـتيمه[3] ... خبعثـنة ورد السـبال غضـنفر

التى جمع فيها كثيرا من المعانى والأوصاف التى تصور خلق الأسد وقوته أوضح تصوير، ثم قرأت قطعة البحترى فى الأسد :

غـداة لقيـت الليـث والليـث مخـدر ... يحـدد نابـا للقسـاء ومخلـبا

---

[1] أى شديد الصوت.
[2] أى شد.
[3] أى كريهه.

والتى ألم فيها بطرف مما ذكره بشر بن عوانة فى رائيته فى الأسد[1]، مع جمال فى الأسلوب وطلاوة فى السبك وجودة فى الصياغة وإن كانت معانيها واضحة محدودة قريبة.

ثم قرأت قطعة ابن المعتز فى الأسد :

وما ليث غاب يهدم الجيش خوفه ... بمشية وثاب على النهى والزجر
يجر إلى أشباله كل ليلة ... عقيرة وحش أو قتيلا من السفر
يزعزع أحشاء البلاد زئيره ... ويبطل أبطال الرجال من الذعر

إلى آخر هذه القطعة الرائعة .

وجدت ابن المعتز يربى على البحترى فيها بكثرة ما أتى به من معان، ولكنه لا يصل إلى ابن الرومى فى قطعته، ووجدته يحاول أن يعطيك صورة واضحة للأسد فى قوته وفزع الناس والبلاد منه، ولكنه لا يجىء سابقا بل يسير وراء رائد الركب موفور الإجادة والتصوير.

موازنات بين الشعراء العباسيين

قال مسلم بن الوليد - وهو معنى سبق إليه -:

لا يستطيع "يزيد" من طبيعته ... عن المروءة والمعروف إحجامًا

أخذ أبو تمام المعنى فكشفه وأحسن اللفظ وأجاده فقال :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ... ثناها لقبض لم تطعه أنامله

وقال أبو تمام يصف مغنية تغنى بالفارسية :

ولم أفهم معانيها ولكن ... شجت كبدى فلم أجهل شجاها

أخذه من قول الحسين بن الضحاك - على ما فى قوله من المناقضة -:

وما أفهم ما يعنى ... مغنينا إذا غنى
سوى أنى من حبى ... له استحسن المعنى

---

[1] رواها البديع فى مقاماته، وأولها :

أفاطم لو شهدت بطن خبت ... وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
إذا لرأيت ليثا أم ليثا ... هزبرا أغلبا لاقى هزبرا

وهى قصيدة من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثله.

لأنه قال : ما أفهم ما يعنى ، ثم قال : استحسن المعنى، وإنما أراد بالمعنى اللحن لا معنى القول ، وأجود من ذلك كله قول حميد بن ثور يصف الحمامة :

ولم أر مثلى شاقه صوت مثلها ... ولا عربيًا شاقه صوت أعجم

وقال الأخطل يصف الخمر :

تدب دبيبًا فى العظام كأنها ... دبيب نمال فى نقا يتهيل[1]

أخذه أبو تمام فأفسد المعنى فقال :

إذا الراح دبت فيه تحسب جسمه ... لما دب فيه قرية من قرى النمل

وقال أبو العتاهية :

كم نعمة لا يستقل بشكرها ... لله فى طى المكاره كامنة

أخذه أبو تمام فقال :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

وقد أحسن إذ جاء بالزيادة التى هى عكس المعنى الأول. وقال شاعر :

ما كنت أحسب أن بحرًا زاخرًا ... عم البرية كلها إرواء

أضحى دفينًا فى ذراع واحد ... من بعد ما ملك الفضاء فضاء[2]

وقال أبو تمام وأبر عليه وعلى كل من ذكر هذا المعنى :

وكيف احتمالى للسحاب صنيعة ... بإسقائها قبرًا وفى لحده البحر

وقال مسلم بن الوليد فى معنى بيت أبى العتاهية الأول :

أخ لى يعطينى إذا ما سألته ... ولو لم أعرض بالسؤال ابتدانيا

وأخذ أبو تمام معنى البيت ومعنى بيت أبى العتاهية الأول فقال :

ورأيتنى فسألت نفسك سيبها ... لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى[3]

أو لعله أخذه من قول منصور النمرى يمدح الرشيد :

رأيت المصطفى هرون يعطى ... عطاء ليس ينتظر السؤالا

---

[1] النقا : كثيب الرمل، يتهيل : ينهال.

[2] ضاء : أضاء .

[3] السيب : العطاء .

وأجود من هذا كله قول سلم الخاسر :

أعطـــاك قـــبل ســـؤاله ... فكفـــاك مكـــروه الســـؤال

وأخذ أبو تمام معنى بيت أبى العتاهية الثانى فقال :

كالغيـث إن جئـته وافـاك ريقـه ... وإن تحملت عنه لج فى الطلب[1]

وقال أبو تمام :

كـم مـن يدلـك لـولا مـا أخففهـا ... بـه مـن الشـكر لم تحمـل ولم تطـق

بـالله أدفـع عـنى ثقـل فادحهـا ... فإنـنى خـائف مـنها عـلى عـنقى

وهو من قول أبى نواس، والمعنيان مختلفان لأن أبا نواس قال :

أنـت امـرؤ جللتـنى نعمًـا ... أوهـت قـوى شـكرى فقـد ضـعفا[2]

لا تسـدين إلى عارفـة ... حـتى أقـوم بشـكر مـا سـلفا

فذكر أن نعم الممدوح قد غلبت الشكر فاستعفاه من نعمة أخرى حتى يقوم بشكر نعمته السالفة، وأبو تمام قال : لولا ما أخففها به من الشكر لم أطق حملها، ثم أحسن وألطف فى قوله : فإننى خائف منها على عنقى، ومعنى أبى نواس أجود وأبرع : وقال أبو تمام :

والشيب قـد طـرد الشباب بياضـه ... كالصـبح أحـدث للظـلام أفـولا

أراد قول الفرزدق مع تقصير عن بلوغه شأوه :

والشيب يـنهض فـى الشباب كأنـه ... لـيل يصـيح بجانبـيه نهـار

وقال أبو تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... مـا الحـب إلا للحبيـب الأول

أخذ المعنى من قول يزيد بن الطثرية إذ يقول :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصـادف قلـبا خالـيا فتمكـنا

وهذا أجود ، لأنه ذكر العلة .

وقال ابن الخياط قصيدة يمدح بها المهدى فأجازه بجائزة ففرقها فى الدار، فبلغه، فأضعف له الجائزة، فقال :

لمست بكفـى كفـه أبـتغى الغـنى ... ولم أدر أن الجـود مـن كفـه يعـدى

---

[1] ريق كل شىء : أفضله وأوله .

[2] جلله : غطاء، وجلل المطر الأرض : عمها وطبقا فلم يدع شيئًا إلا غطاه، أوهت : أضعفت.

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت، وأعدانى فأتلفت ما عندى[1]

أخذه أبو تمام فقال :

علمنى جودك السماح فما ... أبقيت شيئا لدى من صلتك

وقول ابن الخياط أبلغ وأجود، وقال العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا ... وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

أخذه أبو تمام فقال :

آالفة النحيب كم افتراق ... أظل فكان داعية اجتماع

وبيت عروة بن الورد أجود من بيتيهما، وهو قوله :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا ... ولم تدر أنى للمقام أطوف

وأخذ المعنى أبو الطيب فقال :

لعل الله يجعله رحيلا ... يعين على الإقامة فى ذراكا[2]

وقال توبة بن الحمير :

يقول أناس لا يضيرك نايها ... بلى، كل ما شف النفوس يضيرها[3]

أخذه أبو تمام وزاد فيه فقال :

لا شىء ضائر عاشق، فإذا نأى ... عنه الحبيب فكل شىء ضائر

وقال مروان بن أبى حفصة :

ما ضرنى حسد اللئام ولم يزل ... ذو الفضل يحسد ذوو التقصير

أخذه أبو تمام فقال :

لقد آسف الأعداء مجد ابن يوسف ... وذو النقص فى الدنيا بذى الفضل مولع

وقال أبو تمام :

فحيوا بالأسنة ثم ثنوا ... مصافحة بأطراف الرماح

---

[1] أفدت : استفدت : ونسبة هذين البيتين إلى ابن الخياط رواية كتاب "الموازنة بين أبى تمام والبحترى، للآمدى ص٢٩" وكتاب "الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص١٩١" والمشهور أنهما لبشار بن برد - أنظر الأغانى جزء ٣ ص٢٦.

[2] يقال : أنا فى ذرا فلان أى فى ظله وكنفه.

[3] ضاره يضيره : ضره.

أخذ قوله "فحيوا بالأسنة" من قول مسلم :

أخذ قوله "فحيوا بأطراف القنا وتعانقوا   معانقة البغضاء غير التودد

وأخذ قوله "مصافحة بأطراف الرماح" من قول أبى إسحق التغلبى:

دنوت له بأبيض مشرفى   كما يدنو المصافح للسلام

وقال أبو تمام :

أمن بعد طى الحادثات محمدًا   يكون لأثواب الندى أبدًا نشر!

أخذه من قول أبى نواس :

طوى الموت ما بينى وبين محمد   وليس لما تطوى المنية ناشر

وقال أبو تمام فى مصلوب :

قد قلصت شفتاه من حفيظته   فخيل من شدة التعبيس مبتسما

سبقه عبد السلام بن رغبان فقال :

وإذا شئت أن ترى الموت فى صو   رة ليث فى لبدتى رئبال[1]

فالقه غير أنما لبدتاه   أبيض صارم وأسمر عال

تلق ليثا قد قلصت شفتاه   فيرى ضاحكًا لعبس الصيال

وكذلك قال أبو تمام :

فلم أمدحك تفخيما بشعرى   ولكنى مدحت بك المديحا

أخذه من حسان بن ثابت فى مدحه للنبىﷺ حيث قال:

ما إن مدحت محمدا بمقالتى   لكن مدحت مقالتى بمحمد

ولا شك أن أبا بكر رضى الله عنه سمع قول حسان هذا حين استخلف عمر رضى الله عنه فقال له عمر استخلف غيرى فقال أبو بكر ما حبوناك بها وإنما حبوناها بك.

وقال عروة بن الورد :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا   من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرًا أو ينال رغيبة   ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

---

[1] الرئبال الأسد والذئب ومن تلده أمه وحده، والأول هو المراد.

أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

فعروة بن الورد جعل اجتهاده في طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح، وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد في لقاء العدو قائما مقام الانتصار، وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف ..

وقال مسلم بن الوليد :

كذلك الغيث يرجى في تحجبه ... حتى يرى مسفرا عن وابل المطر

أخذه أبو تمام فقال :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب

وقالت مريم بنت طارق ترثى أخاها في أبيات :

كنا كأنجم ليل بينها قمر ... يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

أخذ أبو تمام اللفظ والمعنى فقال :

كأن بنى نبهان يوم وفاته ... نجوم سماء خر من بينها البدر

أو أخذه من قول جرير يرثى الوليد بن عبد الملك:

أمسى بنوه وقد جلت مصيبتهم ... مثل النجوم هوى من بينها القمر

قال الآمدى : ولست أدرى أيهما أخذ من صاحبه. أمريم أخذت من جرير أم جرير أخذ منها ؟ وقال أبو الأسود :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

أخذه أبو تمام فقال :

أألوم من بخلت يداه وأغتدى ... للبخل تربا، ساء ذاك صنيعا

وهذا من العام الذى جعل خاصا، ألا ترى أن الأول نهى عن الإتيان بما ينهى عنه مطلقا، وجاء بالخلق منكرًا فجعله شائعًا في بابه، وأما أبو تمام فإنه خصص ذلك بالبخل وهو خلق واحد من جملة الأخلاق. وقال أبو تمام :

هو الصنع إن يعجل فنفع وإن يرث ... فللريث في بعض المواطن أنفع

أخذه أبو الطيب فأوضحه بمثال ضربه له، وذلك قوله:

ومن الخير بطء سيبك عنى ... أسرع السحب في المسير الجهام

وهذا من المبتدع لا من المسروق، وما أحسن ما أتى بهذا المعنى في المثال المناسب له. وكذلك قولهما في موضع آخر. قال أبو تمام :

قد قلصت شفتاه من حفيظته فخيل من شدة التعبيس مبتسما

فأخذه أبو الطيب المتنبي فقال :

وجاهل مده في جهله ضحكي حتى أتته يد فراسة وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث مبتسم

ومما ينخرط في هذا المسلك قول أبي تمام :

وكذاك لم تفرط كآبة عاطل حتى يجاورها الزمان بحالي

أخذه أبو عبادة البحتري فقال :

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلائق أصفار من الحسن خيب
وحسن دراري الكواكب أن ترى طوالع في داج من الليل غيهب

فإنه أتى بالمعنى مضروبا له هذا المثال الذي أوضحه وزاده حسنًا.

وقال أبو تمام :

كلف يرب المجد يعلم أنه لم يبتدأ عرف إذا لم يتمم

فقال البحتري :

ومثلك إن أبدا الفعال أعاده وإن صنعا المعروف زاد وتمما

فأبو تمام قال : إن الممدوح يرب صنيعه أي يستديمه ويعلم أنه إذا لم يستدمه فما ابتدأه، والبحتري قال إنه يستديم صنيعه لا غير، وذلك بعض ما ذكره أبو تمام :

وقال أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان :

عطاؤك زين لامرىء إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرىء بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

أخذه أبو تمام فقال :

تدعى عطاياه وفرا وهي إن شهرت كانت فخارا لمن يعفوه مؤتنفا
ما زلت منتظرا أعجوبة زمنا حتى رأيت سؤالا يجتني شرفا

فأمية أتى بمعنيين اثنين أحدهما أن عطاءك زين والآخر أن عطاء غيرك شين، وأما أبو تمام فإنه أتى بالمعنى الأول لا غير.

القسم الرابع

النقد الأدبي في العصر العباسي



بلغ النقد العربي في القرن الثاني مرحلة من مراحل تطوره ، تناسب ما بلغه العرب في هذا العهد من نضج ثقافي وأدبي كبير .

كان الرواة كالأصمعي وخلف وحماد وأبي عبيدة يهتمون برواية الشعر وجمعه وكان لخلف مكانة في النقد " وكان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف في حلبة هذه الصناعة _ النقد _ ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها ، وحذقه بها، وإجادته لها ، [1] ، وكان يجمع كثيرا من الأدب [2]،وكان عالما بالغريب والنحو والنسب والأخبار شاعرا كثير الشعر جيده [3] ، وأصلح للأصمعي رواية من بيت شعر جرير وقال: ارووه كذلك فلقد كانت الرواة قديما تصلح شعر الأوائل [4] ، وأعجب بنقد بشار للشعر [5] ،وعرض عليه مروان لاميته ففضلها على لامية الأعشى [6] ،وكان أبو عبيدة يرى أن أشعر الناس امرؤ القيس والنابغة وزهير [7] وأشعر الإسلاميين الفرزدق وجرير والأخطل لأنهم أعطوا حظا في الشعر لم يعطيه أحد في الإسلام [8] ، وكان الأصمعي يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ولطبعه ، وكان يشبهه بالأعشى والنابغة، ويشبه مروان بزهير والحطيئة [9]، وكان يفضل بشارا على مروان [10]، وكان يقول هو وأبو عبيدة : عدي في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها [11]، وعاب بين يدي الرشيد قول النابغة :

نظرت إليك، بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود لذكره السقيم[12]؛ وسئل المفضل عن الراعي وذي الرمة : أيهما أشعر فصاح صيحة منكرة، أي لا يقاس ذي الرمة بالراعي [13].

---

[1] ١/١٩٧ العمدة .
[2] راجع ٣/٢٢٤ البيان .
[3] ٣٠٨ الشعر والشعراء ، ١١ : ١٦٠ معجم الأدباء .
[4] ٢/١٣ زهر .
[5] ٣/٤٣ الأغاني .
[6] ٣/٤٠٢ العقد .
[7] ٤٤ الجمهرة .
[8] ٤٦ المرجع .
[9] ٣/٢٥ الأغاني .
[10] ٣/٢٥ الأغاني، ٢٥١ الموشح .
[11] ٢/١٧ الأغاني .
[12] ٢/٢٧٠ العمدة .
[13] ١٧٩ الموازنة : وكان ذو الرمة راوية للراعي ٢٠٧ طبقات إبن سلام .

وكذلك كان الأدباء ينقدون الشعر بفطرتهم وذوقهم : وكان بشار أجودهم وأدقهم في نقد الشعر ومذاهبه، وكان أبو عبيدة يعجب من " فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر [1]، وكان خلف يعجب من نقده للشعر ومذاهبه [2]، وغضب بشار علي سلم لسرقته معانية [3]، وكان مروان يعرض شعره عليه [4]، وكان أبو العتاهية يعتمد علي معاني بشار [5]، وكان أشجع يأخذ عنه ويشجعه [6]، وكان ابن الرومي يقدمه ويزعم أنه أشعر من تقدم وتأخر [7]، وكان كثير من الشعراء يجارون بشارا في هذا الميدان .

ولكن جهود علماء اللغة في النقد كانت أقوي وأظهر فوضعوا الجاهلين في طبقات ولم يتركوا شاعرا مشهورا من الجاهلين إلا رأوا فيه رأيا، ولا فنا من فنون الشعر إلا نقدوه ونوهوا بما فيه من جيد ورديء، وهم الذين جمعوا أقوال النقاد قبلهم في الشعر والشعراء ، ووازنو بين الإسلاميين والمتقدمين، ونقدوا رواية الشعر وبنيته ومعانيه وغير ذلك من الموضوعات .

– ٢ –

وفي القرن الثالث أخذ النقد يستقل بالبحث ،والتأليف علي أيدي النقاد وعلماء الأدب وسواهم ، كابن سلام ٢٣١ هـ ، والجاحظ م ٢٥٥ هـ ، وابن قتيبة م ٢٧٦ هـ ، وابن المدبر م ٢٧٩ هـ ، والمبرد م ٢٨٥ هـ ، وابن المعتز م ٢٩٦ هـ ، وسواهم من الأدباء وعلماء الأدب واللغة و أصحاب الثقافات الحديثة وغير هؤلاء الذين خاضوا في أصول الموازنات والبلاغة وموازين النقد :

أ – فمن الأدباء النقاد : أبو تمام م ٢٣١ هـ ووصيته للبحتري حول الشعر وفنه ومذهب الشاعر فيه مثال واضح من أمثلة النقد الدقيقة وأصل من أصوله

---

[1] ٢/٢٣ الأغاني .
[2] راجع ١/٤٣ الأغاني ، ٢١٠ الدلائل ، ٧٥ المفتاح ، ١٧ الإيضاح .
[3] ٣/٤٨ الأغاني .
[4] ٣/٥٨ الأغاني .
[5] ٣/١٣٤ الأغاني .
[6] ٣/١٣٧ الأغاني .
[7] ٣/١٣ زهر الآداب وكان بشار يقدم جرير أعلى الفرزدق (١٣٩ طبقات ابن سلام) من حيث كان البحتري يفضل الفرزدق (٢٤ صناعتين) ونقد بشار قول كثير، ألا إنما ليلي عصا خيزرانة . (٢/٨٠ الكامل).

الأولى[1]، ولـه آراء أخرى في النقد مفرقة في شتى المصادر[2]. ومنهم ابن المعتز وسواه .

وتميل هذه الطبقة الي العناية بأدب وشعر المحدثين ونقدهما ، وخاصة شعر أبـي تمـام والـبحتري ، ولعلـي بـن أحمـد المـنجم رسـالة في العـباس بـن الأحـنف والعتابى والموازنة بينهما [3].

ب – ومن علماء الأدب ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة :

أمـا ابـن سـلام فبصري راوية عالم بالشعر مؤلف في نقده . وعاش في النصف الأخير مـن القرن الثاني الهجري والثلث الأول مـن القرن الثالث ، ودرس وتثقف وأحـاط باللغـة والأدب والأشعار ، واهـتم بالـنقد مـع تأثـر بـروح عصـره في الاسـتيعاب والشـرح والتحلـيل ، ولـه كـتاب طـبقات الشـعراء الجـاهلين وكـتاب طـبقات الشـعراء الإسلاميين [4]، ولقد أدمجـا في بعض وطبعا مـن عهد قريب باسم " طبقات الشعراء " والمقدمـة المطـبوعة في أولـه هـي مقدمة كتاب طبقات الإسلاميين ، يرشد الي ذلك الكـثير مـن مقدمـته كقولـه : " ورتبـت هـذا المؤلف على عشر طبقات كل طبقة تجمع أربعة من فحول شعراء الإسلام [5].

وكـتابه أول مؤلـف في الـنقد[6]، كمـا يقولـون ،والصـحيح أنـه ألـف قـبلة في موضـوع كتابه نفسه كثير من الكتب كما سنذكره بعد قليل ، وبحوث كتابه تشمل ذكر أئمـة العربـية واتجاهـاتهم العلمـية ، وتـتناول شـرح الشعر العربي وأثره ونشأته وتطوره وتـنقله في القبائل وانتحاله ، ثم يذكر طبقات الجاهلين العشر وشعراء المراثى وشعراء القرى العربية . كمـا يذكـر طـبقات الإسـلاميين العشـر جـاعلا في كـل طـبقة أربعـة من الشـعراء ، مـع الدراسـة العمـيقة والتحلـيل الدقيق والنقد الممتع لرجال هذه الطبقات وحـياتهم ومذاهـبهم الفنـية في الشـعر ، والكـتاب بحـق مـن مصـادر ثقافتـنا الأدبـية في الـنقد ، ولا يكـاد يسـتغني عـنه باحـث أو دارس، وهـو ضروري في دراسـة النقد وجامع

---

[1] راجع الوصية في : ١/١٥١ زهر ، ٢/٢٠٩ العمدة ، ١٦٠ حديقة الأفراح لليمني ط ١٣٢٠ هـ ، ٢٧ المطالعة التوجيهية .

[2] راجع مثلا ص ١٩٢ طبقات لابن المعتز .

[3] ٩٢-٤/٩٤ زهر ، وهى فى الموشح (٢٩٣ و٢٩٤) منسوبة لأبى أحمد يحيى بن على المنجم م ٣٠٠هـ

[4] ١٦٥ فهرست .

[5] ص١٦ طبقات الشعراء لابن سلام .

[6] ٢/١٠٨ زيدان ،٧٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب .

لكثير الآراء فيه ، وقد رواه عن ابن سلام ابن أخته أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي م ٣٠٥ هـ والذي يشيد الحصري بأدبه وبلاغته [1].

وأما الجاحظ فعلم من أعلام الأدب والنقد والبيان ،وفي كتابة " البيان " وسواه من مؤلفاته ثروة كبيرة في النقد الأدبى ، فتجده يحلل في دقة وتفصيل مذهب الطبع والصنعة في الشعر [2]،ويشير إلى سرقات أدبية [3]،وموازنات أدبية [4]، ويستجيد بعض آثار للشعراء فيقول مثلا : وكان أبو حية أشعر الناس لقوله الخ [5]، ويقول : ومن جيد محدث أشعارهم الخ [6]، ويقول : ومن جيد الشعر قول جرير إلخ [7]. ويثني على أبي نواس وشعره وخمرياته [8]، ويري ي أنه ليس هناك مولد إلا وبشار أشعر منه ولا مولد أشعر من بعد بشار من أبي نواس [9] وأبو نواس عنده أشعر الناس في قوله : " كأن ثيابه أطلعن من أزراره قمرا " [10].

ورأى أن بيتي عنترة " وخلا الذباب بها الخ " من المعاني العقم [11]؛ ومثله قول أبي نواس " قراراتها كسرى إلخ " [12]، وينقد أبا العتاهية ذاهبا إلى [13] أن شعره أملس المتون له عيون أخرى الخ ، ويعجب بقوله " رائح الجنة في الشباب " إعجابا كبيرا [14]، ويعجب بجدة أشعار طرفة وعبد يغوث وقت إحاطة الموت بهما [15]، ويذكر

---

[1] ٢٥٣ج ٣ زهر .

[2] ٥٤ و٥٥ و١٥٠ ج ١ و٢١-٢٦ ج ٢ البيان .

[3] ٨٩ و١١٦ و١٧٩ و٢٥٥ ج ١البيان .

[4] ٢٤٣ ج ٢ البيان .

[5] ١٦٦ ج ٢ و ٢٠٥ و٢٠٦ ج٣ .

[6] ١٧٥ ج ٣ البيان .

[7] ١٣٣ ج ٣ البيان ، وتجد شرحا لبيتي جرير اللذين ذكرهما الجاحظ في هذا الموضع في ص٢٠٨ طبقات الشعراء لابن سلام .

[8] ٤٢ جزء ٤ العقد .

[9] ٩١ ج١ العمدة ،٤٥٧/٤ حيوان .

[10] ١٨٥ ج ٣ زهر .

[11] ١٨٤ ج٣ البيان .

[12] ١٦٦ ج ٣ زهر ، وراجع شرح البيت في العمدة ٢٧٥ ج ١ وكذلك ذهب المبرد في الروضة في بيت أبي نواس ، ونقدهما ابن الأثير في ذهابهما إلى أن بيت أبى نواس من المعاني المبتكرة ورأى أنه من المعاني المشاهدة . وأن فصاحة هذا الشعر هى الموصوفة لا هذا المعني (١٢٢ المثل الثائر) .

[13] ٥٢ ج ٣ زهر .

[14] ٣٨ج٣ الأغاني ،٣٦٦ج٢ عصر المأمون .

[15] ١٩٣ج٢ البيان .

حوار إبراهيم بن عبد الله لأبيه في شعر كثير[1] ،وأن الناس كانوا يستحسنون بيت الأعشى " وبات على النار الندى والمحلق " حتى قال الحطيئة :

متي تأتـه تعشـو إلى ضـوء نـاره   تجـد خـير نـار عـندها خـير موقـد

فسقط بيت الأعشى[2] . وينقد الكميت لقوله في رسول الله :

لج بتفضـــيلك اللســـان ولـــو   أكـثر فـيك الـلجاج والصـخب

كما ينقده لقوله في رثائه :

لقـد غيـبوا حـزما وعـزما ونـائلا   عشـية واراه الصـفيح المنصـب

لأنه يصلح في عامة الناس[3]، وقد دافعوا عنه بأنه إنما أراد في البيت الأول آل الرسول فورى عنهم يذكر النبي خوفا من بني أمية [4]، ويذكر مناهج الرواة[5] وتعصب أبي عمرو بن العلاء على الإسلاميين[6]، وأن الرواة كانوا[7] يحرصون على نسيب العباس بن الأحنف حتى أورد عليهم خلف نسيب الأعراب فعنوا به وزهدوا في نسيب العباس ، والجاحظ ينكر غلو المتعصبين على الشعراء المحدثين فعلهم، ويرى أنه لو كان لهم بصر لعرفوا موضع الجيد ممن كان ، وفي أي زمان كان[8].

وأما ابن قتيبة فهو عالم ملم بالثقافات في عصره ، مجدد في التفكير ، ولكنه مع ذلك محافظ كل المحافظة في الأدب، ينعى على الأدباء انصرافهم إلى المنطق وشغفهم به عما سواه من علوم الدين واللغة[9]، ويرى وجوب اتباع منهج المتقدمين في نظم القصيدة[10] ،ولكنه مع ذلك لا يتعصب للقديم ولا للمحدث تعصبا أعمى ولكن يعطي كلا حقه من العدالة والإنصاف ، وكتاب الشعر والشعراء وعلى الأخص

---

(1) ١٤٦ج٢ البيان .

(2) ٣٦ جزء ٢ البيان .

(3) ١٧٢ و١٧٣ ج ٢ البيان ، ١٧٠ ج ٥ الحيوان ط ١٩٤٣ ،١٤٥ ج ٣ العمدة .

(4) ٢٠ الموازنة ، ١٣٦ ج٢ العمدة .

(5) ٢٢٤ج٣ البيان ،٤ ،٥ الكشف عن مساوئ المتنبي .

(6) ٢٠٩ ج ١ البيان .

(7) ٢٢٤ ج ٣ البيان .

(8) ٤٠ ج ٣ الحيوان ، وذلك مما يردده ابن المعتز الذي حكم عدالة الحكومة الأدبية وحتم ألا يدفع إحسان محسن عدوا كان أو صديقا (١٣و١٤ رسائل ابن المعتز) ، وكذلك رأي ابن قتيبة (٧و٨ الشعر والشعراء) ، وابن رشيق (٧٤ ج ٢ العمدة).

(9) ص٢ أدب الكتاب .

(10) ١٤ وما بعدها الشعر والشعراء .

مقدمته دراسة عميقة للشعر وأقسامه وعناصره وللطبع والصنعة فيه وللخصومة بين القدماء والمحدثين ولدواعي الشعر ونظمه وأسباب اختلاف شعر الشاعر .

والكتاب مظهر لثقافة واسعة[1] واطلاع واسع وذوق سليم ،وفيه عرض لنحو مائة وستين شاعرا من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين وصدور المحدثين، وقد عني في دراسته لهم ببيان مذاهبهم وخصائصهم واتجاهاتهم وذكر آراء النقاد في شعرهم وسرقاتهم وما يستجاد لهم من حكمة أو تشبيه أو وصف وما سبقوا إليه من معان ، وسرد الشعراء سردا دون ترتيب لطبقاتهم أو لهم بحسب عصورهم بعكس ابن سلام ، وقد اهتم بدراسة لغة الشعراء، وأثر البيئة فيها[2]، وتكلم على بعض النساء الشاعرات كالخنساء[3] وليلى الأخيلية[4]، وهو حريص على ذكر زلات الشعراء من ناحية العقيدة[5]، ويعني بتحقيق نسبة الشعر لقائه عناية كبيرة .

وأما طبقة علماء اللغة فأثرهم في النقد واضح جليل ،يتجلى في آرائهم وكتبهم ، وكان هؤلاء كلهم أو جلهم يؤثرون الشعر القديم؛ ومنهم : أبو العميثل المتوفى ٢٤٠هـ ،وابن السكيت م ٢٤٤هـ ،وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥هـ ،وأبو الفضل الرياشي ٢٥٧هـ ،والسكري م ٢٧٥هـ ، والمبرد م ٢٨٥هـ ،وثعلب م ٢٩١هـ وأظهرهم أثرا في ذلك المبرد[6] الذي حفظ " الكامل " كثيرا من آرائه في النقد :

وأهم ما في الكامل للمبرد دراسته للتشبيه وعرضه لكثير من شواهده[7]، وهذا الباب كله نقد أدبي جيد ،ويذكر المبرد كثيرا من السرقات الأدبية في كتابه، ويذكر من آراء القدامى في النقد والموازنة، ويشيد بابن مناذر ومرثيته " كل حي لاقي الحمام فمودي "[8]،والمبرد لا يتعصب لقديم على محدث ويرى أنه " ليس لقدم العهد يفضل القاتل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ولكن يعطي كلا ما يستحق "[9] ،ولذلك ضمن كتابه كثيرا من شعر المحدثين ،وعقد بابين لأشعارهم

---

(1) راجع مثلا شرحه للمشكل من شعر أبي نواس (٣١٥و٣١٦و٣٢٠و٣٢٥ الشعر والشعراء) وسوى ذلك .

(2) راجع رأيه في عدي وأميه بن أبي الصلت وأبي دؤاد (٦٣و٦٩و١٧٦ الشعر والشعراء ، ٧١ ج٢ الأغاني مثلا) .

(3) ١٢٢ الشعر والشعراء .

(4) ١٧٠ المرجع .

(5) راجع مثلا ٣٢١و٣٢٢ المرجع .

(6) راجع ٤٤١-٣/٤٤٧ وفيات العيان – تحقيق محي الدين .

(7) الكامل ص ٣٥-١٠١ ج٢ .

(8) الكامل ص٢٨٨ ج ٢.

(9) الكامل ص ١٨ ج ١.

خاصة[1]، ورأى أنها أشكل بالعصر[2]، ويروي شعرا لأبي تمام ويقول : " وليس بناقصه حظه من الصواب أنه محدث[3] " ،وذكر مكانة الخنساء . وليلى الأخيلية في الشعر[4]، ونقد قول الشماخ :

إذا بلغتني وحملت رحلي عرابة فاشرقي بدم الوتين[5]

وإجماع النقاد على نقد قول نصيب :

أهيم بدعد ما حييت وإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدي[6]

ويذكر مجد آل حسان وأبي حفصة في الشعر[7] ،كما يذكر بعض المعاني الجديدة في شعر أبي نواس[8] ،ويعيب [9]قوله :

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره

ويذكر وجها لتخريجه :

وعلى أي حال فثقافة اللغويين في النقد[10] كانت قليلة بالنسبة لأدباء الكتاب وعلماء النقد ؛ وسئل البحتري عن مسلم وأبي نواس أيهما أشعر ، فقال : مسلم لأنه يتصرف في كل فن ،فقيل له إن ثعلبا لا يوافقك على هذا ،فقال ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ،وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه[11]، وقال البحتري لصديق له أراد التوجه لأبي العباس[12] ليقرأ عليه شيئا من الشعر : رأيت أبا عباسكم هذا فما رأيته ناقدا للشعر ولا مميزا له ورأيته يستجيد شيئا وما هو بأفضل الشعر [13].

---

(1) الكامل ٣٠٧-٣١٢ج٢وص ٢٣٣ - ٢٦١ ج١ .

(2) الكامل ٢٣٣ ج١ .

(3) الكامل ٢٦٠ ج٢ ،وللمبرد مناقشة أدبية بينه وبين ابن درستويه حول معنى لأبي تمام (زهر الآداب ص٢٣٩ و٢٤٠ ج ٢) .

(4) الكامل ص٢٧٩ ج ٢ .

(5) الكامل ص٧٧ ج ١.

(6) المرجع نفسه ص١٠٦ ج١ ،ويذكر الجاحظ أن صالح بن سليمان قال : أحمق الشعراء الذي قال : " أهيم بدعد - البيت " (البيان ص ٢١٧ ج٣) .

(7) الكامل ص ١٥٤ ج ١ .

(8) الكامل ص ٩٤ ج ٢ .

(9) الكامل ص ٢٤٣و٢٤٤ ج ١.

(10) راجع كلمة للجاحظ في ذلك في ص ٤و٥ الكشف عن مساوىء شعر المتنبي .

(11) دلائل الإعجاز ص ١٩٥ والكشف ص٥ وإعجاز القرآن ١٠١ والعمدة ٩٩ج٢ .

(12) لعله يريد ثعلبا ، وأبو العباس لقب المبرد وثعلب .

(13) الدلائل ص ١٩٥ .

وأما النقاد من ذوي الثقافات الحديثة في النقد والذين تأثرو بالثقافة اليونانية فأشهرهم قدامة بن جعفر ، (٢٧٦ – ٣٣٧) هـ[١] ،وله كتاب " نقد الشعر " الذي فصل فيه مذهبه في النقد أدق تفصيل مما أحتذى فيه حذو أرسطو في كتاب الخطابة الذي ترجمة إسحاق بن حنين في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري ،ونجد أثر أرسطو واضحا عند قدامة في كلامه على الصفات النفسية التي جعلها أمهات الفضائل وذكر أن المدح الجيد لا يكون إلا بها[٢] ، وفي سوى ذلك من بحوث الكتاب . ويرى قدامة أن الرثاء كالمديح في وقوعه بهذه الصفات[٣] ،وأن الهجاء ضد المدح ولا يكون إلا بأضدادها[٤]، وهذا وغيره من كثير من بحوث الكتاب أثر لثقافة قدامة العقلية التي تزل في مواضع الذوق والإحساس والشعور في النقد وفهم الشعر والأدب ،وعناصر الشعر عند قدامة اللفظ و المعنى والوزن والقافية وما تركب منها[٥]، ثم يذكر أسباب الجودة التي تلحق بكل عنصر من هذه العناصر في نظم الشعر، ويرى أن أضداد هذه الأمور هي أسباب الرداءة في النظم ،ويحتم على الشاعر أن ينظم الشعر متبعا لأسباب الجودة وحذرا من الرداءة وأسبابها ،والناقد يحكم علي ضوء هذا النهج نفسه فيرى مواطن الجمال والعيب في شعر الشاعر سواء في ألفاظه وأساليبه أو في معانيه أو في أوزانه أو قوافيه أو في سوى ذلك مما تركب منها، فيحكم عليه أوله بالرداءة أو الجودة و الإحسان ؛ وهذا نهج عقلي واضح ولكنه في تقييده الشعر بهذه القيود الثقيلة وفي تطبيقه على هذه الأصول التي رسمها في كتابه يخطىء كثيرا ... ولقد ألف الآمدي كتابا في " تبيين غلط قدامة في نقد الشعر، وأهداه لأبي الفضل محمد ابن الحسين بن العميد وقرأه عليه وكتب خطه عاله ٣٦٥ هـ[٦]،كما نقده كثير من علماء النقد والأدب في شتى العصور ...

---

[١] أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء وممن يشار إليهم في علم المنطق وأسلم على يد المكتفي (٢٠٣ – ٢٠٥ ج ٦ معجم الأدباء ،١٨٨ فهرست) ، وله ترجمة مشابهة كذلك في تاريخ بغداد ،وله تفسير بعض المقالة الأخرى لأرسطو (راجع كشف الظنون ص ٣٤ ج٢) وكثير من المؤلفات .

[٢] نقد الشعر ص ٣٩ – ٤١ .

[٣] نقد الشعر ص ٥٩ ، الصناعتين ص ١٢٦ .

[٤] نقد الشعر ص ٥٥ ،ويقول عبد الصمد بن المعزل م ٢٤٠ هـ : الشعر كله في ثلاث لفظات وليس كل إنسان يمكن تأليفها : فإذا مدحت قلت أنت ،وإذا هجوت قلت لست ،وإذا رثيت قلت كنت (العمدة ص١٠٣ ج ١)، وهذا أساس نظرية قدامة .وأيدها أبو هلال وابن رشيق في كتابيهما : الصناعتين والعمدة .

[٥] راجع نقد الشعر ص١٣ ،ومثل ذلك في العمدة ص ٩٩ ج ١ .

[٦] معجم الأدباء في ترجمة الآمدى ص ٥٨ ج ٣ .

وقد بلغ النقد الأدبي في القرن الرابع حدا كبيرا من النضوج والقوة ،شأنه في ذلك شأن الأدب والبيان وسائر ألوان العلوم والثقافات ،وذلك برغم ما كان يغشى الحياة الإسلامية إبان ذاك من ضعف سياسى بعيد الأثر في مستقبل العالم الإسلامي ،وحين كانت رقعة الدولة الإسلامية تمزق أديمها الحوادث العاصفة ، وتتداولها أيدي الملوك الغاصبين ،والدول الصغيرة الناشئة : كالإخشيدية والفاطمية والحمدانية والبويهية وغيرها من مختلف الدويلات والعروش ،وكان رجال العلم والأدب والفن جادين في إقامة الحياة الإسلامية على أسس وطيدة من التفكير المثمر والإنتاج الصحيح والتجديد المستمر فى شتى ألوان الثقافة ومناحي الحياة ، وكانت رعاية الملوك لهم ،وتعضيد الأمراء وقادة العلم الإسلامي إياهم ،سببا من أسباب استمرار هذه النهضة الفكرية والعلمية والأدبية ،كما كانت حركة البعث العقلى التى غذاها الرشيد والمأمون قد أتت أكلها ،وهضمتها عقول المسلمين ،وأحالتها غذاء عقليا أنتج نتائجه العظيمة في القرن الرابع الهجري ،فكان أحفل عهد برجال الفكر والعلم والأدب والنقد والبيان ،وأمجد عصر شهدته العربية وأدبها الرفيعة ،وذاعت في آفاقه شهرة كثير من الأدباء والكتاب والشعراء وأئمة النقد وفحول البيان ،وظهرت فى خلاله مؤلفات كثيرة ناضجة في علوم الدين والدنيا، وفي علوم التفكير والفلسفة، وفى علوم العربية وأدبها ،سواء في اللغة أم في الأدب أم في النقد أم في البيان ، ومازالت هذه المؤلفات أعظم المصادر وأجلها في الثقافة الإسلامية ، ومازلنا ننشد السير علي آثارها فى الابتداع والتجديد والإنتاج ،ولعل من أظهر خصائص الثقافة الإسلامية في هذه الحقبة الرائعة بلوغ النقد الأدبي أبعد الغايات ،وكثرت ما ظهر فيه من مؤلفات، تجمع بين سلامة الذوق ودقة الحكم وتحري الأنصاف وعمق التفكير ، وتحاول جاهدة أن تضع أسس النقد وأصول الموازنة على دعائم ثابتة ، تقوم مقام الحكومة العادلة والحكم المنصف كلما تشعبت الآراء واختلفت الأذواق ، فى شعر شاعر أو منزلة أديب .

والنقد الأدبي بدأ بحوثه علماء اللغة والأدب ،واتجه أولا – في عهود كانت فيها الملكات العربية ما تزال علي سلامتها وصحتها – إلى البحث عن الأسلوب وسلامته من الخطأ في اللغة أو الإعراب أو التصريف، للحفاظ على العربية وكتابها الحكيم ،ودفع عادية الفساد الذى نجم على يد المستعربين من الموالى ، ثم على يد من أختلط بهم من العرب، ولما فرغ النقد من هذه البحوث عاد إلى بحث الأسلوب

نفسه وما يتصل به مما يمس صميم البيان والأداء، تلافيا لأخطاء الملكات التي بدأ يدب إليها العي والقصور والعجز بسبب المستعربين والاختلاط بهم ،وأخذ علماء الأدب والنقد كابن سلام ؛ م ٢٣١ سنة والجاحظ م ٢٥٥ سنة ،وابن قتيبة م ٢٧٦ سنة وأضرابهم كأبي عبيدة م ٢٠٦ سنة وسواه، في عرض المشكلات الأدبية والتعليق عليها وإبداء آرائهم فيها .

ثم كان القرن الرابع فاتحة علماء الأدب في مشرقة إلى الكتابة في الأدب والنقد :ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان ،ثم أفادوا من دراسات النقد فائدة جلى انتقلت بهم إلى البحث في مظاهر البيان ،ومشكلات البلاغة، فاتجه تأليفهم في أخر هذا القرن إلى بحوث البيان نفسه .

ونقاد الأدب والشعر في القرن الرابع فريقان : فريق كتب ونقد ووازن وحكم متأثرا بذوقه الأدبى وطبعه العربي وثقافته الخالصة من شوائب الثقافات الأخرى التي جرت جداول إلى يم الثقافة الإسلامية الصميمة المتدفقة ،ومن هؤلاء الحاتمي م ٣٨٣ سنة " صاحب الرسالة الحاتمية " في نقد شعر المتنبي وبيان سرقاته من حكمة أرسطو الفيلسوف ،والحسن ابن بشر الآمدى م سنة ٣٧١ صاحب الموازنة بين الطائيين ،وعلي بن عبد العزيز الجرجاني م سنة ٣٩٢ صاحب الوساطة " بين المتنبى وخصومه " وابن وكيع م سنة ٣٩٢ صاحب " المنصف " في سرقات المتنبي، وأبو بكر الباقلاني م سنة ٤٠٢ مؤلف " إعجاز القرآن " وقبلهم أبو بكر الصولي م ٣٣٦ هـ صاحب " أخبار أبي تمام " وأبو الفرج الاصبهاني م سنة ٣٥٦ مؤلف كتاب"الأغاني"، وفريق آخر كتب بروح أدبي هذبته فكرته ووسعت أفقه الثقافات الأخرى التي هضمها القرن الرابع ،وأسالها غذاء عقليا لكل من توسع في الدراسة والبحث العميق، ومن هذا الفريق جعفر بن قدامة سنة ٣١٩ وقدامة بن جعفر م سنة ٣٣٧ صاحب "نقد الشعر " وابن العميد م سنة ٣٦٠ ؛ والصاحب بن عباد م سنة ٣٨٥ صاحب رسالة " الكشف عن مساوىء شعر المتنبي " وأبو هلال العسكري م سنة ٣٩٥ صاحب "الصناعتين " و " ديوان المعاني " ، وهذا الفريق الأخير يختلف نقده قوة وضعفا بحسب تمكن الطبع العربي من نفوس رجاله وأعماله ، وتتفاوت منازلهم في الإجادة والإحسان بتفاوتهم في الذوق الأدبي الذي يعتد به في الحكومات الأدبية العادلة ،ودعنا ممن نقدوا الأدب والشعر بدون تمكن الطبع الأدبي في نفوسهم،من: النحويين علماء اللغة ،والمعنويين رجال العقل والفلسفة ،الذين جاء حكمهم بعيدا عن الذوق المطبوع والفطرة السليمة ،والذين نقدهم الجرجاني في "وساطته" نقدا لاذعا، وطرح آراءهم في النقد والبيان فلم يعتد بها ولم يعرها نصيبا من البحث

والمناقشة اللهم إلا حيث أراد أن يبرر موقفه منهم فذكر بعض أخطائهم في النقد لتكون حجة له في هذا الإهمال .

ومن الجدير بالالتفات أن كثيرا من نقاد القرن الرابع وجهوا عنايتهم الأولى إلى شعر شاعرين لهما أثرهما وخطرهما في الشعر العربي : فأبو بكر الصولي وابن بشر الآمدى اتجها إلى أبى تمام وشعره، فدافع عنه الصولي دفاع المعتد به المعتز بقيمته، وحشد كل ما رآه سببا لقبول هذه الحكومة من : شعر الشاعر ،ونقد الناقد، وحكومة من قبله من رجال الأدب والنقد، ووازن الآمدى بينه وبين البحتري عارضا شعره وما عليه من مؤاخذات ترجع إلى سرقة المعاني أو الخروج عن النهج العربي في أساليب التعبير والبيان ،متجها إلى تفضيل البحتري عليه لطبعه وقلة ما أخذ عليه من مؤاخذات ،والحاتمي وابن عباد والجرجاني وابن وكيع كتبوا في نقد المتنبي وشعره ،فندد به الحاتمي ،وأشاد بمساوىء شعره ابن عباد ،ووقف الجرجانى موقف القاضي النزيه يفهم ويقرر ويحكم وينصف الشاعر من جور المتعصبين عليه ،والمتعصبين له معا ، ولا نشك أن أباتمام والمتنبي كانا جديرين بكل ما دار حول شعريهما من ضجة ،وما كان لهما من دوي في حياة الشعر العربي ومذاهبه : فأبو تمام صاحب مذهب جديد في الشعر العربي ؛حاول أن يرضي به عقله ،بالغوص علي المعاني البعيدة ،والتؤدة في طلبها ،والتعمق فيها ،كما حاول أن يرضي به ذوقه وطبعه ،بإيثار الألفاظ القوية ،والأساليب الجازلة ،التي تحاكي أساليب العرب الأولى وجزالتهم ونهجهم في الصياغة والإعراب ،ثم بطلب شتى ألوان الجمال في الأداء والنظم من استعارة رائعة أو تشبيه بليغ أو حكمة بعيدة أو مثل نادر أو طباق ساحر أو تجنيس جميل، وأبو الطيب المتنبي هو الشاعر الذي عصف في حياته بخصومه وأقرانه فى مصر والشام والعراق وإيران ،وذهب شعره في أرجاء العالم العربي إذ ذاك ثائرا مدويا :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق   وغرب حتى ليس للغرب مغرب

فردده الناس وشدت به الحياة، وتمثل به الدهر، وكان أبو الطيب يفرغ من نفسه على شعره روح القوة والحرية والحياة، مصورا فيه خلجات نفسه، وخفاقات قلبه في قوة شخصية ، وقوة تأثير ، راسما الحياة الإسلامية في عصره ، داعيا إلى مذاهب جديدة فيها عزة النفس وكرامة الفرد وحرية الحياة ،ثم لا تكاد تجد شاعرا اختلف النقاد في منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء كأبي الطيب ،ولا شاعرا كثرت حول شعره الدراسات الأدبية كثرتها حول المتنبي ،وحسبك أنه قد شرح ديوانه فحول العلماء كابن جني م سنة ٣٩٢ ومحمد الهروي م سنة ٤١٤ والمعري م سنة

٤٤٩ وابن الافليلي م سنة ٤٤١ والواحدي م سنة ٤٨١ وعبد القاهر الجرجاني م سنة ٤٧١ والتبريزي م سنة ٥٠٢ والعكبري م سنة ٦١٦ ، ثم اليازجي والبرقوقي في عصرنا الحديث ،كما نقد شعره كثير من النقاد كالحاتمي وابن عباد والجرجاني وكابن وكيع م سنة ٣٩٣ في كتابه " المنصف " في سرقات المتنبي الشعرية والثعالبي م سنة ٤٢٩ في كتابه " يتيمة الدهر " والعميدي في كتابه " الإبانة عن سرقات المتنبي " وابن حسنون المصري في كتابه " نزهة الأديب في سرقة المتنبي من حبيب " ومحمد ابن أحمد المغربي راوية المتنبي في كتابية " الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي " و " التنبيه المنبي عن رذائل المتنبي " إلي غير ذلك الكثير من نقد المتنبي وشعره ،وهذا فضلا عمن كتب عن حياة أبي الطيب أو عرض لشعره من الكثير من رجال الأدب والنقد والبيان .

هذا هو شأن النقد الأدبي في القرن الرابع ؛ولا شك أن ظهور قدامة في أول هذا القرن : ورجوعه إلى البيان اليوناني وما فيه من موازين للنقد ومناهج للبيان يلقح بها البيان العربي ويضع بها أسس النقد الأدبي جاعلا لألوان الترف في الأداء التي تمس الفكرة وتشبع المعني حظا كبيرا في النقد ،كان تطورا جديدا في بحوث النقد والبيان ،وكان قدامة المنطقي يغلب ذوقه الأدبي ،فزل أحيانا في نقده من حيث قوم ذوق ابن العميد والصاحب بن عباد وأبي هلال العسكري أحكام عقولهم في النقد والحكومة الأدبية ،وإن تبعوا منهج قدامة وجروا في فهم الشعر وتذوقه ونقده مجراه الذي ندوقه في كتابه نقد الشعر ،الذي يرجع إلى البحث في عناصر الشعر الأساسية من : اللفظ والوزن والقافية والمعنى.

وجاء الآمدى فرسم منهجا جديدا في النقد ،فجعل الطبع والسليقة العربية ومذاهب العرب في البيان هي الحكم في كل مشكلة ،والفاصل في كل شبهة ،ونقد قدامة في كثير من آراءه ،بل ألف كتابا بين فيه أخطاءه في " نقد الشعر " وأهداه لابن العميد ،وبالرغم من ذلك كله فقد تأثر كرها ببعض أراء قدامة .

وقد استحال النقد إلى علم البلاغة العربية المعروف علي أيدي علماء النقد، وقد بدأ التدوين في البلاغة على يد ابن المعتز الذي ألف كتابه القيم " البديع "[١] وثعلب الذي ألف كتابه " قواعد الشعر "، وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى عام ٣٣٧ هـ ،ثم كتاب الصناعتين لأبي هلال المتوفى عام ٣٩٥ هـ ، ثم كتاب الموازنة للآمدي، والوساطة للجرجاني، وإعجاز القران للباقلاني،

---

(١) على نهجة ألف ابن منقذ المتوفى عام ٥٨٤ " البديع " .

وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي والعمدة لابن رشيق وهما أكثر الكتب اتصالا بالبلاغة ،ثم جاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجاني شيخ البلاغة والمتوفى عام ٤٧١ هـ ، فألف في البلاغة كتابين جليلين هما :

١- أسرار البلاغة، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع .

٢- دلائل الإعجاز؛ وفيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني ،كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضا .

وبعد عصر الجرجاني بحث الزمخشري في تفسيره؛ والرازي في كتابه "نهاية الإيجاز "، وابن الاثير صاحب المثل[1] السائر، وبدر الدين ابن مالك صاحب المصباح، والتنوخي صاحب " الأقصى القريب". وكثير من العلماء :في البلاغة والفصاحة .

ومن أهم هؤلاء العلماء في هذا الطور أبو يعقوب السكاكي المتوفي في عام ٦٢٦ هـ تلميذ الحاتمي ، والذي ألف كتابه " المفتاح " وجعله أقساما ، وخص البلاغة بالقسم الثالث ، وقسمها إلى ثلاث أقسام : المعاني - البيان - البديع ، وبذلك تميزت علوم البلاغة ،ومباحث كل علم منها بالتفصيل ،والفلسفة والمنطق يغلبان علي السكاكي إلى حد كبير ،من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر .. وبذلك تنتهي مراحل التأليف والابتكار في بحوث البلاغة وتدوينها كاملا .

وجاء الخطيب القزويني المتوفي عام ٧٣٩ فألف في البلاغة كتابيه : تلخيص[2] المفتاح والإيضاح . وقد ألف الإيضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر والسكاكي في شيء من التنظيم والشرح .

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشي والتقارير وفي مقدمتها الأطول للعصام ؛والمطول [3] للسعد ،وشرح التلخيص وسواها .. وهذه أهم كتب البلاغة وشروحها في هذا العهد : قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادي م ٦٢٩ هـ والتباين لابن الزملكاني م ٦٥١ هـ ،والمعيار للزنجاني م ٦٥٤ هـ ،وبديع القرآن لابن

---

[1] شرحه عز الدين بن أبي الحديد م ٦٦٥ هـ في كتابه " الفلك الدائر علي المثل السائر " .

[2] لزكريا الأنصاري م ٩٢٦ هـ ط مختصر تلخيص المفتاح " : وللعباسي م ٩٦٣ شرح لشواهد التلخيص سماه معاهد التنصيص .

[3] عليه كتاب في شرح شواهده اسمه عقود الدرر في حل أبيات المطول والمختصر ،وهو مطبوع طبعة حجر عام ١٣٠٧ هـ في ٦٦ صفحة .

أبي الإصبع م ٦٥٤ هـ والفوائد الغيائية للعضد م ٧٥٦ هـ وشرحها الكرماني م ٧٨٦ هـ، التبيان لشرف الدين الطيبي م ٧٤٣ هـ ،والطراز ليحي بن حمزة العلوي م ٧٤٩ هـ ، وعروس الأفراح للسبكي م ٧٧٣ هـ ؛والسمر قندية للسمر قندي وهي رسالة في الاستعارات ،وتوفي السمرقندي عام ٨٨٠ هـ ،وسواها .

نشـــأة البيان العربي

١ - كان للعرب في حياتهم الأولي ذوق ،وفيهم طبع ،كانوا بهما في غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد ولأصول البيان العربي ومذاهبه، وكذلك كانت أصول البيان بعيدة عن البحث والدراسة والتقرير .

وفي ظلال الحياة الإسلامية اختلطت العناصر ، وتمازجت الثقافات ؛ فلقحت العقول، وأصابت الألسنة آثار من اللكنة واللحن ، وأخذ أئمة العربية يعملون في صبر وعزيمة في وضع أصول النحو العربي، وجمع مواد اللغة الغزيرة .. وصحب ذلك وتلاه دراسات أخرى تتناول البيان العربي وأصوله ومذاهبه بالبحث والتحليل . وأخذت تتكون من تلك الدراسات النواة الأولى للبيان العربي ،وظل التقدم الفكري والنضوج الأدبي والعلمي يسير بهذه البحوث والدراسات نحو الكمال المنشود بخطوات كبيرة .. وكانت الثقافة البيانية تنمو حين ذاك بجهود ثلاث طبقات:

أ - الأولى طبقة رواة وعلماء الأدب من البصريين والكوفيين والبغداديين ، من أمثال: خلف والأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة ويحي بن نجم وعمرو بن كركرة، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية [1]، ومن عامة الرواة الذين لا يقفون ألا على البليغ الساحر من الأساليب كما يقول الجاحظ دون النحويين واللغويين والإخباريين الذين لم يتجهوا هذا الاتجاه [2] .. وبجوار هؤلاء أئمة الشعراء [3] وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب الذين تثقفوا بالثقافة العربية .

ب- والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل أمثل طريقة في البلاغة منهم الذين التمسوا من الألفاظ مالم يكن وحشيًا ولا سوقيًا[4] ، ورأي الجاحظ

---

(١) ١/٢٠٩ البيان .
(٢) ٣/٢٢٤ البيان .
(٣) ١/٥٤ البيان .
(٤) ١/١٠٥ البيان .

البصر في هذا الجوهر من الكلام فيهم أعم [١] ، وحكم مذهبهم في النقد [٢]؛ ومثلهم المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء ،وأبلغ من كثير من البلغاء [٣] ، وكان بعضهم من عناصر عربية وتثقفوا بثقافة أجنبية ، والآخرون من عناصر أجنبيه تثقفت بالثقافة العربية ، ومما كان أثره في أصول البيان وفي توجيه دراسته وبحوثه وفي الدعوة إلي آراء في الأدب توائم ثقافتهم وعقليتهم ،وكان بعضهم يلقن مذاهبه الأدبية العامة للتلاميذ وشداة الأدب ،كما نرى في محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلي م ٢١٠ هـ في أصول البلاغة [٤] ،والتي يقول الجاحظ عنها إن بشر أمر بإبراهيم بن جبلة بن محزمة [٥] وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه فى أصول البلاغة وعناصر البيان [٦] ؛ومن رجال هذه الطبقة : أبو العلاء سالم مولى هاشم وعبد الحميد الكاتب أبو الأكبر كما يقول الجاحظ [٧] وابن المقفع وسهل بن هارون [٨] والحسن والفضل [٩] ابن سهل ويحي البرمكي وأخوه جعفر [١٠] وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة [١١] وابن الزيات وسواهم.

وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام .. ونستطيع أن نعرف أثار هاتين الطبقتين في دراسات البيان بالرجوع الي آرائهم المثبتة في شتى أصول الأدب ،والتي يمكننا أن نذكر لك هنا طرفا منها ،وإن شئت فاقرأ جواب صحار لمعاوية حين سأله عن البلاغة [١٢] ، ويروى قبل بهذا بكثير أن عامر بن الظرب سأل جمعه بن رافع من أبلغ الناس ؟ ، فقال، من حلي المعني المزيز باللفظ الوجيز وطبق

---

[١] ٣/٢٢٥ البيان .

[٢] ١/٢٤٠ البيان .

[٣] ١/١٠٦ البيان .

[٤] ١/١٠٤ وما بعدها البيان ،٢٢٨ وما بعدها صناعتين .

[٥] يعده الجاحظ من الخطباء الشعراء ١/٥٥ البيان .

[٦] ولبشر كتاب في نظم كليلة ودمنة .

[٧] ١٥١/ البيان .

[٨] كان سهل يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة (١٤٤/ البيان ،٣/٣٣ العقد) .

[٩] ذكر الحصري كثيرا من بلاغته (١٦- ١٩ ج٢ زهر) .

[١٠] وصف الجاحظ بلاغته وأشاد به (٨٥و١/٩١ البيان ، ٢/٨١ زهر ، وكان يؤثر الإيجاز (١/٨١ البيان ،١/١٧٧ الكامل) ،ونوه به سهل بن هرون (٢/١١ زهر) .

[١١] نوه المأمون ببلاغته (٣/٢٦٤ زهر) .

[١٢] ١/٨١ البيان ،وراجع ٢/١٨ الكامل .

المفصل قبل التحزيز [1] واقرأ تحديد المفضل الضبي للإيجار [2]، وتفسير ابن المقفع للبلاغة [3] . وحوار الشمرى لعمرو ابن عبيد في البلاغة [4]، وتعريف الأصمعي للبليغ[5]. ورأي إبراهيم ابن محمد في البلاغة [6]، وتعريف جعفر البرمكي للبيان [7]، وتعريف العتابي للبلاغة [8]، وتفضيل الجاحظ لرأيه [9]، ووصف الرشيد للبلاغة [10]. ورأي شبيب ابن شيبة في تفضيل بلاغة جودة القطع أو القافية علي جودة الابتداء[11] ووصف ابن المقفع كلام الإعراب [12]؛ الذين أعجب الجاحظ ببلاغتهم[13] ووصف الحسن بن وهب بلاغة أبي تمام [14]، وتعريف المأمون للبليغ بأنه من كان كلامه في مقدار حاجته ولا يجيل الفكرة في اختلاس ما صعب عليه من ألفاظ ولا يتعمد الغريب الوحشي ولا الساقط السوقي[15] . وقول خالد بن صفوان : أبلغ الكلام ما لا يحتاج إلي كلام [16] ، وتعريفه للبلاغة بأنها التقرب إلى المكان البعيد ،والتباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالكبير علي الكثير ،وتعريف ابن عتبة لها : بأنها دنو المأخد وقرع الحجة والاستغناء بالقليل عن الكثير ،وعرفها الخليل : بأنها ما قرب طرفاه وما بعد منتهاه ،وعرفها إبراهيم الإمام : بأنها الجزالة والإصابة ، وعرفها ابن المقفع بأنها قلة الحصر والجراءة على البشر ، إلى غير ذلك شتى هذه التحديدات[17]، ويقول أبو دواد الإيادي ، رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام وحليها الإعراب الخ [18]، ويقول الخليل : كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة فإن

---

[1] ١/٢١٦ العمدة ،٢/٢٨٠ الأمالي للقالي .

[2] ١/٨١ البيان .

[3] /٩١ البيان ،١/٢١٤ العمدة ،١٥-١٧ صناعتين .

[4] ١/٩٠ البيان ،١/١٤٢ زهر ،و٤٧ الرسالة العذراء .

[5] ١/٨٦ البيان ،١/٢٢٠ العمدة .

[6] ١/٧٥ البيان .

[7] ١/٨٥ البيان ،٤٢-٤٧ صناعتين .

[8] ١/٩٠ ،و١/١٥٧ البيان .

[9] ١/١٢١ البيان .

[10] ٣/٢٦٤ زهر .

[11] ١/٨٩ البيان .

[12] ٢/١١٨ زهر .

[13] ١/١١٠ البيان .

[14] ٣/٢٦٣ زهر .

[15] ٤٢٣ صناعتين .

[16] ٣٥و٣٦ الرسالة العذراء .

[17] راجع ٤٤-٤٦ الرسالة العذراء ،١/٧٥ البيان ،٢و٣و٢٢ ،٣/٢٣ العقد ؛١٤٠-١/١٥٠ زهر ؛٨٧-٢/٩١ ديوان المعاني ؛١٠٩و٢٠٢ اعجاز القرآن ؛٢١٣-١/٢٢١ العمدة .

[18] ١/١٤٧ زهر ؛١/٥١ البيان .

استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ولتلك الحال وفقا وآخر كلامك لأوله مشابها وموارده لمصادره موازنة فافعل ،واحرص أن تكون لكلامك منهما وإن ظرف[1] .
ووصية أبي تمام للبحتري تدخل في هذا الباب [2] ،ويقول ابن عبد الملك بن صالح م ١٩٩ هـ :البلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه [3] ،وقال ابن الرومي : البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة عند الإطالة [4]، ويقول البحتري : خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل [5] ،ويقول الثعالبي بعد : خير الكلام ما قل ودل وجل ولم يمل[6]، ويقول ابن الأعرابي: البلاغة التقرب من البغية ودلالة قليل على كثير [7] .

ج – وأما الطبقة الثالثة فهي طبقة المفكرين والمثقفين الذين تثقفوا بثقافة أجنبية واسعة ، وتأثروا كل التأثر بأدب الأمم الأخرى ، وترجموا آراءهم في البيان ومناهجه إلى اللغة العربية ، أو ألفوا كتبًا تبحث في هذه الاتجاهات ،وهؤلاء قد عاشوا في البيئة الإسلامية وأثروا في النقد والأدب والبيان ودراساته وتطوراته تأثيرا واضحا كبيرا ،ويمكننا أن نذكر شيئا عن مجهود هذه الطبقة في خدمة البيان :

أهم عمل علمي قامت به هذه الطبقة : هو ترجمة كتابي الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية ،أما الخطابة فهو أصل كبير من أصول البلاغة ودراساتها ،وقد "أصيب بنقل قديم ونقله إسحاق بن حنين م ٢٩٨ هـ وكذلك نقله إبراهيم بن عبدالله وفسره الفارابي م ٣٣٩ هـ " [8] ؛وأما كتاب الشعر فقد اختصره الكندي م ٢٥٣ هـ ونقله يحي بن عدي ومتى في القرن الرابع من السريانية إلى العربية [9] .... وقد

---

(1) ٤٨ الرسالة العذراء .
(2) ١/١٥١ زهر .
(3) ٣/٢٦٨ البيان .
(4) ٤٥ صناعتين .
(5) ١/٣٦ المستطرف .
(6) ١/٢١٨ العمدة .
(7) ١/١٧ العمدة .
(8) ٣٤٩ فهرست .
(9) ٣٤٩و٣٥٠ فهرست ،ونجد تحليلا كاملا للكتاب في (٦٤-١٣٦ قواعد النقد الأدبى) ،وهو لم يصل إلينا كاملا وليس من شك أن للكتاب جزءًا ثانيا قد فقد (٦٨ المرجع) ،ونكاد نجزم أن أرسطو أراد بكتابه هذا أن يكون ردا علي أفلاطون في رأيه الذي ذهب أليه وهو أن الشعر عمل غير جدير بمقام الذكاء البشري وأنه من أشد بواعث الفساد (٧١ المرجع) .ويقول أرسطو في أوله : " سأتكلم هنا عن فن الشعر وأنواعه المختلفة ووظائف كل نوع وفي البناء الصحيح للمنظومة وعدد أجزائها وخصائص كل منها " (المرجع .. وترجمه ابن سينا وابن رشد (٢٤وما بعدها مقدمة نقد النثر) .

ألفوا في صناعة الشعر ، وللكندى ٢٥٣هـ رسالة في صناعة الشعر [١] ،ولأبي زيد البلخي ٣٢٢هـ كتاب بعنوان " صناعة الشعر " أيضا [٢] ،وكذلك لأبي هفان [٣] ،وهناك آراء كثيرة مأثورة عن هذه الطبقة في البلاغة وعناصرها وهي متفرقة في شتى كتب الأدب ومصادره ، وتجد في البيان والعمدة وسواهما أن صاحب اليونانيين عرف البلاغة بأنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام، وعرفها الرومي بأنها وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ،وعرفها الفارسي بأنها الوصل من الفصل ، وعرفها الهندي بأنها البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة الخ ؛وعرفها أرسطو بأنها حسن الاستعارة :ويعرفها جالينوس بأنها إيضاح المفصل وفك المشكل ،واقرأ البلاغة كما يراها حكيم الهند [٤] ،ويقول حكيم : البلاغة معرفة السليم من المعتل وفرق بين المضمن والمطلق وفصل ما بين المشترك والمفرد [٥] ،ويعرفها سقراط بأنها اسكتشاف الحقائق [٦] ويقسمها الكندي ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ،ونوع بالعكس ،ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها [٧] ،ويقول ؛يحب البليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني [٨] ،وذكر بزرجمهر فضائل الكلام ورذائله : فقال فضائله ان يكون صدقا وأن يقع موقع الانتفاع به وأن يتكلم به في حينه وأن يحسن تأليفه وأن يستعمل منه مقدار الحاجة ،ورذائله بالضد [٩] الخ ؛وقال أبرويز لكاتبه : الكلام أربعة : سؤالك الشيء وسؤلك عن الشيء وأمرك بالشيء وخبرك عنه ،فإذا طلبت فأسجح وإذا سألت فأوضح وإذا أمرت فاحكم وإذا أخبرت فحقق، وقال أيضا :واجمع الكثير مما تريد في القليل [١٠] ، ولعل ثعلبا حين ذكر في صدر كتابه " قواعد الشعر " أقسام الشعر وأنها أمر ونهى وخبر واستخبار [١١] قد تأثر بذلك الرأي .

وبعد فقد تعاونت هذه الطبقات فى خدمة البيان ،ولها جميعا أثرها في نشأته وتطوره .

---

(١) ٣٥٩ فهرست .
(٢) ١٩٨ فهرست .
(٣) ٢٠٧ فهرست .
(٤) ٧٨و١/٧٩ البيان ،٢٠٢-٣٨ صناعتين ،١/١٤٤ زهر .
(٥) ٢/٨٨ البيان والتبيين .
(٦) أصول النقد الأدبي للشايب .
(٧) ١/٢١٩ العمدة .
(٨) ١/٣٥ المستطرف .
(٩) ١٨٣ الموازنة .
(١٠) ١٠ أدب الكاتب .
(١١) ص١١ قواعد الشعر .

ومن الكتب الأولى التى ألفت في دراسات البيان وموضوعاته : مجاز القرآن لأبي عبيدة، وكتاب البيان لابن السكيت [1]، وكتاب الفصاحة للدينوري [2]، وكتاب التشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت [3]، وصناعة الكلام للجاحظ [4]: وكتاب التمثيل له[5]، ونظم القرآن أيضا [6]، وقواعد الشعر وكتاب البلاغة للمبرد [7] ؛ وللحراني كتاب في البلاغة [8]، ولثعلب قواعد الشعر ،ولابن مقسم تلميذه كتاب المدخل إلى صناعة الشعر [9] . وللمروزي كتاب البلاغة والخطابة [10] ولابن الحرون كتاب المطابق والمجانس [11] ،ولأبي سعيد الأصفهاني كتاب تهذيب الفصاحة [12] ،وللباحث كتاب صنعة البلاغة [13] ،لمحمد بن يزيد الواسطى المعتزلى م ٣٠٦هـ كتاب إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه ،ولابن الأخشيد [14] كتاب نظم القرآن وكذلك لابن أبي داود ٣١٦ هـ [15] وللحسن بن جعفر كتاب فى الرد على من نفى المجاز فى القرآن [16] .

٣- وبعد فقد كان البيان العربي في القرن الثالث مزيجا من ثقافات وآراء مختلفة عربية وغير عربية ،ومؤلفة ومترجمة :من حيث كاد في القرن الثاني أن يكون عربيا خاصا ،وهنا سؤالان لابد من الجواب عليهما ،وهما : متى نشأ البيان العربي، وهل تأثر بثقافة أجنبية ؟ .

أما نشأة البلاغة والبيان فالآراء فيها كثيرة : فالدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت في عهد متأخر والجاحظ في رأيه أول من اهتم بها وهو مؤسس البيان

---

(١) ١/٢٠٨ كشف الظنون ،وقد يكون في هذا الكتاب عرض للأدب وألوانه كالبيان والتبين .

(٢) ١١٦ فهرست .

(٣) ٣٨٣ فهرست ،وهو فارسي خدم المنصور والمهدي .

(٤) ٣٨ الجاحظ لمردم .

(٥) ٤١ المرجع ،٦/٧٦ معجم الأدباء .

(٦) ٤٠ الجاحظ لمردم .

(٧) ٨٨ فهرست ،٧/١٤٤ معجم الأدباء .

(٨) ١٧٨ فهرست .

(٩) ٢٦ بغية الوعاة .

(١٠) ٢١٥ فهرست .

(١١) ٢١٢ فهرست .

(١٢) ١٩٧ فهرست .

(١٣) ١٩٧ فهرست .

(١٤) ٥٧,٥٨ فهرست .

(١٥) ٣٢٤ فهرست .

(١٦) ٥٢فهرست .

العربي حقا [1] : ويري آخر أن نشأة البلاغة قديمة قد سبقت القرآن ،وتطورت بعده[2] وأكثر الفنون الأدبية أخذت شواهدها من القرآن [3] ،وينقد باحث هذا الرأي[4] ..
ومن الضروري أن نفرق بين أمرين ،نطق العرب فى آثارهم الأدبية بأساليب لغتهم المختلفة من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز وقصر وفصل ووصل وطباق وتجنيس إلخ، ومعرفتهم العلمية بأوضاع هذه الأساليب ونواحيها البلاغية ،فالأول كان موجودا عند العرب قبل القرآن وفي عصر القرآن وبعده ،والثاني لم يوجد إلا في القرن الثالث الهجري كما ذهب إليه أكثر الباحثين ،فقواعد البلاغة قد سنها الفكر أولا ليجري عليها الأدب ،بل أن طبيعة الأدب موجودة من قبل سواء بحثت أم لم تبحث[5]،فالأدب وخواصه الأدبية موجدان من قديم وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها وبحثها علي أنها علم وأصول وقواعد فلم يوجد إلا بعد القرن الثاني الهجري ،" فعلم البلاغة لا عهد للجاهلين به " [6] ،والبلاغة باعتبارها فنا مدروسا أي التحليل العلمي للأساليب البلاغية ليست من علوم العصر الجاهلي إنما هي دراسة متأخرة في نشأتها على أنه لا شك كان هناك في العصر الجاهلي وصدر الإسلام بعض الخصائص والأساليب البلاغية المتعارف عليها [7] ،وهذا كله مما لا سبيل إلى الشك فيه .

وأما الأمر الثاني وهو هل تأثرت البلاغة العربية فى نشأتها الأولى ببلاغة الأمم الأخرى ؟فيمكنا بسط الحديث به :

يذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة في الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية " فهذا شيء لم يكن ولا علم أبو نواس شيئا منه ولا مسلم ولا أبو تمام ولا البحترى ولا المتنبي ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم في أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد " ثم ينفي أن يكون هو تأثر في رسائله ومكاتباته بما ذكره علماء اليونان في حصر المعاني ،ويذكر أنه اطلع بما كتبه ابن سينا في الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه واستجهله ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا[8] ،

---

(1) ٣و٣٠و٣١ مقدمة نقد النثر .
(2) ١/٤٨ النثر الفني ،ومن قبل رأي الصاحبي أن النحو والعروض نشأ من قديم (٨وما بعدها الصاحبي) .
(3) ١/٥٦ النثر الفني .
(4) ١٦/ وما بعدها تاريخ البلاغة العربية مخطوط بمكتبة كلية اللغة .
(5) ٨ قواعد النقد الأدبي .
(6) ٢٩ تاريخ البلاغة العربية .
(7) ص٤و٥ مجلة الأدب والفن نوفمر ١٩٤٥ من مقال للأستاذ جب .
(8) ٢٠ المثل السائر .

ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر في علم البلاغة العربي . ويرى أخر أن أرسطو المعلم الأول للمسلمين في علم البيان [٢] ،وأن أنكتاب والمتكلمين الذين عاشوا في القرن الثاني وأثروا في البيان وتطورد جلهم من الأعاجم [٣] وأن متكلمي المعتزلة كانوا بتضلعهم في الفلسفة اليونانية من مؤسسي البيان العربي [٤] وأنه حتى منتصف القرن الثالث لا يوجد إلا بيان عربي واحد كان لا يزال في دور الطفولة وكان خصبا جامعا للروح العربي والفارسي واليوناني . ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربي بحت ويوناني يجهر بالأخذ عن أرسطو، على أن البيان العربي الصرف قد تأثر باليونان [٥] ،وترجم كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه علي الشعر العربي وكان يجهل كتاب الشعر [٦] وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق [٧]، على أن تشريع الفلسفة للأدب في رأى الدكتور يظهر أول مرة في نقد الشعر "[٨] ثم في " نقد النثر " الذي هو مستمد من آراء أرسطو فى الجدل والقياس والخطابة [٩] .

علي أننا قد بسطنا القول في ذلك فيما سبق ورأينا أن المشتغلين بالفلسفة قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى في خدمة البيان العربي وإنشائه والتأليف فيه وكان اتجاههم الأول إلى البيان اليوناني وأخذوا يدأبون على الإفادة منه في بحوث البيان العربي ودراساته وتلقيحه بما يمكن أن يلقح به من عناصر ومناهج علمية سلكها ومهد سبيلها اليونان ،فهم قد استعانوا بطرقهم في دراسة البيان على فهم وتحليل أصول البيان العربي والتأليف فيه .

---

[١] ١/١٧٧ ضحي الأسلام .
[٢] ٣١ مقدمة نقد النثر .
[٣] ص٦ المرجع نفسه .
[٤] ٨ المرجع .
[٥] ١١وما بعدها المرجع .
[٦] ١٧ المرجع .
[٧] ١٦ المرجع .
[٨] ١٦ وما بعدها مقدمة نقد النثر .
[٩] ١٧ وما بعدها المرجع .

وهذه هي أول صحيفة في البلاغة لبشر بن المعتمر [1]:

مر بشر بإبراهيم بن جبلة بن محزمة السكوني الخطيب وهو يعلم الفتيان الخطابة ،فوقف بشر ،فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو يكون رجلا من النظارة ،فقال بشر : اضربوا عما قال صحفا واطووا عنه كشحا .. ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ،وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ،فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا ،وأشرف حسبا ،وأحسن في الإسماع وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ،وأجلب لكل عين وغرة ،من لفظ شريف ومعنى بديع ..

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة ،ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا علي اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه .

وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ،والتعقيد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ومن أراغ معنى كريما فيلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف، اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلي أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلمس إظهارهما وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما .

وكن في ثلاث منازل : فان أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا ،إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ،وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت ،والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ،وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامة ،وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامي والخاصي ،فأن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسعة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفوا عن الأكفاء ؛فأنت البليغ التام .

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك، ولا تسنح لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك ،وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر على قرارها وإلى حقها

[1] نقلا عن البيان والتبيين للجاحظ ويعد أحمد أمين بشر بن المعتز من أجلها المؤسس الأول لعلم البلاغة العربية (١٤١و٣/١٤٢ ضحى الإسلام)

من أماكنها المقسومة لها ،والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها ،فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها ،فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ،ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ،لم يعبك بترك ذلك أحد ،وإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك ،عابك من أنت أقل عيبا منه ،ورأى من هو دونك أنه فوقك .. فإن ابتليت بأن تتعاطى الصنعة وتتكلف القول ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعصي عليك بعد إحالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر ودع بياض يومك أو سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق .

فإن تمنع عليك بعد ذلك من حادث شغل عرض ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب ،والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات لأن النفوس لا تجود بمكنونها ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود مع المحبة والشهوة ،فهكذا هذا . قال بشر : فلما قرئت على إبراهيم قال لي : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان .



القسم الخامس

تراجم الشعراء في هذا العصر



بشار بن برد

المتوفى عام ١٦٧ هـ

حيـــاته:

هـو بشار بـن برد بن يرجوخ زعيم المحدثين ،جده يرجوخ من طخار ستان مـن سبي المهلب بن أبي صفرة وكان أبوه برد من في أخيرة القشيرية امرأة المهلب ،وكـان مقيما لها في ضيعتها بالبصرة المعروفة (بخيرفان) فوهبت بردا بعد أن زوجته لامرأة مـن بني عقيل كانت متصلة بها ،فولدت لـه امرأته وهو في ملكها بشارا فأعتقته ولذلك يقال بشار العقيلي ،وبعد ذلك صار بـرد طيانا يضرب اللبن حاذقا بالتطيين وكـان يقـول مـا رأيت مولودا أعظم بركة من ابني بشار ولقد ولد لي وما عندي درهم فما حال الحول حتى جمعت مائتي درهم ،ولم يمت برد حتى قال بشار الشعر ،ومما يحكـى عنه أنـه كـان إذا هجا قوما جاءوا إلى أبيه فشكوا فضربه ضربا شديدا فكانت أمه تقـول لـه كم تضرب هذا الصبي الضرير أما ترحمه ؟ فيقول : بلى والله إني لأرحمـه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إليّ، فسمعه بشار فطمع به وقال : يا أبتي هذا الـذي يشكونه مـني إلـيك هـو قـول الشـعر وأنـي إن ألممـت علـيه أغنيـتك وسـائر أهلي،فإن شكوني إليك فقل لهم : أليس الله يقـول ليس علي الأعمى حرج ؛فلما عـاودوه شكواه قال لهم برد ما قاله بشار فانصرفوا وهم يقولون ؛فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار، وكان لبشار أخوان بشر وبشير ،كاناقصا بين ؛ولما نبغ بشار في الشعر وصار له مقام بين الـناس لم يترك بيت أبيه وكان إخوانه يلبسان ثيابه فإذا لبسها أنكر رائحتها فإذا كـان في مجلس في تلك الثياب فقيل لـه مـا هذا يـا معاذ ؟ أجاب :هذه ثمرة معاشرة الأخوان ،وحكى صاحب الأغاني قال حدث محمد بن الحجاج قال كنا مع بشار فاتـاه رجـل فسأل عـن منزل زرجـل ذكره لـه فجعل يفهمه ولا يفهم فأخذ بيده وقام يقومه إلى منزل الرجل وهو يقول :

أعمـــى يقـــود بصـــيرا لا أبـــالكم قـد ضـل مـن كانـت العميان تهديه

حتى صار إلى منزل الرجل ثم قال له هذا هو منزله يا أعمى .

وكان بشار شاعرا ذا ذوق سهل العبارة صحيح اللغة وذلك لأنه نشأ في البدو بين بني عقيل ، وكثيرا ما يستشهد بشعره .. وكان أحسن الشعراء المحدثين ابتداء من ذلك مطلع قصيدته :

أبـي طلـل بالجـزع أن يتكـلما ... ومـاذا علـيه لـو أجـاب متـيما
وبالجـزع آثـار بقـين وبـاللوى ... ملاعـب لا يعـرفن إلا توهمـا

وما أظرف قوله :

ياليلـتى تـزداد نكـرا ... مـن حـب مـا أحببـت بكـرا
حـور إذا نظـرت إلـيك ... سـقتك بـالعين خمـرا

وله أخبار وأشعار عديدة مع امرأة أسمها عبدة ،منها قوله :

يـزهدني في حـب عـبدة معشـر ... قلوبهـم فـيها مخالفـة قلـبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى ... فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى ... ولا تسمع الأذنان إلا مـن القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا ... وألف بين العشق والعاشق الصب

وله ميمية بديعة نظمها لأبي مسلم إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يحرضه ويشير عليه ،فلما قتل أبو مسلم خاف بشار أن تشتهر ميميته فقلبها وجعل التحريض فيها على أبي مسلم والمديح والمشورة لأبي جعفر المنصور ،ومطلعها :

أبـا مسـلم مـا طيـب عـيش بدائـم ... ولا سـالم عمـا قلـيل بسـالم

وله قصائد عديدة في مدح المهدي ،وكان المهدي يصله أولا، ويأمره أن لا يقول الغزل والنسيب ،ولكن بشارا لا يسمع لـه، وكان سبب موت بشار ما حكاه صاحب الأغاني قال : خرج بشار مرة إلى المهدي ويعقوب بن داود فلم يحفل به يعقوب يعطه شيئا ،ومر يعقوب ببشار وهو يريد منزله فصاح به بشار : طال الثواء على رسوم المنزل، فقال يعقوب : فإذا تشاء أبا معاذ فارحل ،فغضب بشار وقال يهجوه :

بـني أمـية هـبوا طـال نومكـم ... إن الخلـيفة يعقـوب بـن داود
ضـاعت خلافـتكم يـاقوم فالتمسـوا ... خلـيفة الله بـين الـزق والعـود

ولما طالت أيام بشار على باب يعقوب دخل عليه وكان من عادة بشار إذا أراد أن ينشد أو يتكلم يتفل عن يمينه وشماله ويصفق بإحدى يديه على الأخرى ففعل ذلك ، وأنشد :

يعقـوب قـد وفـد العفـاة عشـية	متعرضـين لسـيبك المنـتاب
فسـقيتهم وحسـبتني كمونـة	نبتـت لـزارعها بغـير شـراب
مهـلا لديـك فـإنني ريحانـة	فـاشمم بـأنفك واسـقها بذنـاب
طـال الـثواء عـلى تـنظر حاجـة	شمطت لديك ،فمن لها بخضاب ؟
تعطـي الغزيـرة درهـا فـإذا أبـت	كانـت ملامـتها عـلى الحـلاب

فلم يعطف يعقوب عليه وحرمه ،فانصرب إلى البصرة مغضبا فلما قدم المهدي البصرة أعطى عطايا كثيرة ووصل الشعراء وذلك كله على يد يعقوب ،ولم يعط بشارا من ذلك ؛فجاء بشار إلى يونس النحوي فقال : هل ههنا أحد بحتشم منه ؟ قالوا له : لا ،فأنشأ بيتا يهجو فيه المهدى، فسعى به أهل الحلقة إلي يعقوب فدخل يعقوب على المهدي، وقال لـه : يا أمير المؤمنين إن هذا الأعمى قد هجاك فقال بأي شيء، فقال بما لا ينطق به لساني ، فأمر بضربه حتى مات ،ثم ألقي في زورق في البطيحة فحمله الماء فأخرجه إلى دجلة البصرة ،فأخذ وأتى به أهله فدفنوه ،وبعد ذلك ندم المهدى على قتله حين لا ينفع الندم .

لقن اللغة والفصاحة من معاشرة مواليه الذين نشأة فيهم ،ومن أئمة البصرة في اللغة والأدب والكلام ،ومن اختلافه كثيرا من الأعراب الذين كانوا ينزلون بادية البصرة ،حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر ،قيل له : ليس من أحد شعراء العرب شعر ،إلا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه ،وليس في شعرك ما يشك فيه ،قال : ومن أين يأتيني الخطأ ؟ ولدت ها هنا ،ونشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ،وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ،وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت ،فمن أين يأتيني الخطأ ؟وكان فوق ذلك متوقد الذكاء صادق الحس لطيف الهداية ،وكان في صباه وشبابه معتدل الأخلاق مكبا على تحصيل العلم ،مصادقا لواصل بن عطاء رأس المعتزلة وعمرو بن عبيد ،إلا أن ذلك لم يدم طويلا ؛فصرح بعقائد فاسدة في حديثه وشعره ، ورأى المجون والخروج على العلماء والمتوقرين يحببانه إلى طبقة الخلعاء والمغنين والقيان فاستهتر بهما ،ورأى أن أكثر الناس لا يستدر خيرهم إلا بتهديدهم بالهجاء والتشهير بهم ،فسلك معهم هذا الطريق، وتمادى في ذلك فأصبح ولعا بالمجون والعبث بالناس ،قليل المبالاة بشعائر الدين وبالوقيعة فيه متهما بالزندقة ، وأنه يدين بالرجعة ويفضل النار على الأرض ، فيصوب رأي إبليس في امتناعه من السجود لآدم ،ويرى أن الناس كلهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ثم

سار شعوبيا متعصبا على العرب ،يغري الموالي بنبذ ولائهم والانتماء إلى الفرس . شديد التبرم بالناس ، ثلابا بهم ،نهاشا لأعراضهم ،لم يسلم من عقرة لسانه خليفة ولا سوقة ،حتى أهل بيته ،وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشارا ولا يعرفه بشار ،فإن لم يمتحن بلسانه امتحن به في ماله ،فمقته العلماء والمتكلمون وهموا بالوقيعة به ،وإراحة الناس منه وخاصة واصل بن عطاء ،وعمرو بن عبيد ،ففر من البصرة إلى أرض الجزيرة الفراتيه واتصل ببعض أمراء بنى أمية وولاتهم فمدحهم وعاش في معروفهم ،وجاءت الدولة العباسية فاضطرب عيشه فيها بادئ الأمر حتى علم بموت عدوية :واصل وعمرو بن عبيد ،فعاد إليها محمد بعقائد جديدة ومنكرات من الأخلاق ،غير أن نبوغه في الشعر ،وبراعة دعابته شفعت له عند كثير من رؤساء الموالي والمشتهرين بالمجون ،فعاش بقية عمره بالبصرة .

شعـــره :

وقد قال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ،ثم بلغ الحلم وهو مخشى معرة لسانه ،وكان يقول : (هجوت جريرا فأعرض عني واستصغرني ،ولو أجابني لكنت أشعر الناس .. وكان وهو صغير إذا هجا قوما جاءوا إلى أبيه ،وكان طيانا يعمل اللبن من الطين ، فشكوه إليه، فيضربه ضربا مبرحا ،فكانت أمه تقول له : كم تضرب هذا الصبي الصغير الضرير ، أما ترحمه ،فيقول بلى والله لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إليّ، فيسمعه بشار فيطمع فيه ، فقال يأبت إن هذا الذي يشكونه إليك مني هو قول الشعر ،وإني إن تممت عليه أغنيتك وسائر أهلي ،فإذا شكوني فقل لهم ، أليس الله عز وجل يقول : ليس على الأعمى حرج ،فلما عادوا شكواهم قال لهم ذلك ،فانصرفوا ،وهم يقولون :فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار ،ويقول أكثر رواة الشعر ونقدته والباحثون في طبقات الشعراء : إن بشارا رأس المحدثين ومقدمهم ،وأسبقهم إلى معاطاة محسانات البديع وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضري والهجاء المقذع في الإسلام ، وأنه أول من جمع في شعره بين جزالة العرب والمحدثين ،وفتق عن المعاني الدقيقة والأخيلة اللطيفة والحق أن له الجيد والردىء، قال عن نفسه : لي اثنى عشر ألف بيت عين فقيل له : هذا ما لم يكن أحد يدعيه سواك، فقال : لي اثنتى عشرة ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت عين ،وقصارى القول أن شعر بشار هو الحد الوسط بين القديم والحديث ، وقد طرق فيه كل أبواب الشعر التي عرفت قبله ، وأربى عليها وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والغزل بهن والخروج عن ذلك الحد المألوف عند أهل

زمانه ،مما أنكره عليه العلماء والمتألهون لما رأوا من تولع جواري البصرة وشبانها بشعره ،وحتى قال ابن سوار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار ما شيء أدعى لهذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ،ومازال يعظانه ، وكان واصل بن عطاء يقول، إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات لهذا الأعمى الملحد ،فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدي وقدم عليه مادحا له استنشده قوله :

قاس الهموم تنل بها نجحا ... والليل إن وراءه صبحا
لا يؤيسنك من مخدرة ... قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسره ... والصعب بعد ما جمعا

فأنشده إياه ،وكان المهدي غيورا ،فغضب وزجره ،وقال : أتحض الناس عن الفجور ، ويقذف المحصنات المخبآت : والله لئن قلت بعد هذا بيتا واحدا في تشبيب لآتين على روحك ، فكان بشار إذا تاقت نفسه لقول ذلك ذكر أن الخليفة منعه كذا وكذا ،ويذكر من اللهو وحديث النساء ما يريد ،ويقول إنه مطيع له خائف أن يفعل كيت وكيت ،وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ،فلم يزد على أن حرمه الجائزة عليها ،من ذلك قوله يتبرأ من التشبيب ويمدح الخليفة :

يامنظرا حسنا رأيته ... من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومني ... برد الشباب وقد طويته
أمسكت عنك وربما ... عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى ... وإذا أبى شينا أبيته

ومخضب رخص البنان بكى على وبكيت عليه
ويشوقني بيت الحبيب إذا ادكرت وأين بيته؟

قام الخليفة دونه ... فصبرت عنه وما قليته
ونهاني الملك الهما ... م عن النساء وما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع ... عهدا ولا رأيا رأيته
وأنا المطل على العدى ... وإذا غلا الحمد اشتريته
وأميل في أنس النديم ... من الحياة وما اشتهيته
أصفي الخليل إذا ندى ... وإذا نأى عني نأيته

ثم أنشده ما مدحه به بلا تشبيب فحرمه ،وبهذا الشعر الرقيق تعرف :كيف كان ولوع شبان البصرة ونسائها وخلعائها بشعره وتغنيهم به ،وكيف كان إغراؤه لهم بالمجون ،وكانت متأدبات القيان لذهاب بصره يحضرن مجلسه ويسمعن شعره

ويتناشدنه ويتغنين ويتعاتبن به ،فهوى بشار منهن جارية تسمى عبدة ،فشهرها في شعره ،حتى صار له معها أخبار طائرة وأشعار سائرة : فمن قوله فيها :

يـزهدني في حـب عـبدة معشـر	قلوبهـم فـيها مخالفـة قلـبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضي	فبالقلب لا بـالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى	ولا تسمع الأذنـان إلا مـن القلـب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا	وألـف بـين العشـق والعاشـق صـب

وقولـه :

لم يطـل ليـلي ولكـن لم أنم	ونفـى عـني الكـرى طـيف ألم
وإذا قلـت لهـا جـودي لـنا	خرجـت بالصـمت عـن ولا نعـم
رفهـي يـا عـبد عـني واعـلمي	إنـني يـا عـبد مـن لحـم ودم
إن في بـردي جسـما نـاحلا	لـو توكـأت علـيه لا نهـدم

وكان يولع في شعره بهذا المعنى ، وشبهه مع أنه كان ضخما كأنه فيل ..
ومن ذلك قوله :

يا قـوم أذنـي لـبعض الحـى عاشـقة	والأذن تعشـق قـبل العـين أحـيانا
قـالوا بمـن لا تـرى تهـذي فقلت لهم	الأذن كـالعين تـوفي القلـب ما كانا
هـل مـن دواء لمشـغوف بجاريـة	يلقـى بلقـيانها روحـا وريحانـا

وهاجى بشار الشعراء المفلقين في زمانه ،ونصب لهم منهم حماد عجرد ،واحتدم بينهم اللجاج والتقاذف بالأقوال المقذعة ،وظهر حماد عليه في بعض أهاجيه ،مع أن الجيد من هجاء بشار فيه أكثر من جيد ؛ هجاء حماد ، فهجاء بشار هتك حمادا ،وبعض هجاء حماد آلم بشارا ،وإن لم يسقط منزلته قيل إنه لما هجاه حماد بقوله :

ويـا أقـبح مـن قـرد	إذا مـا عمـى القـرد

قال : لا إله إلا الله ،قد والله كنت أخشى أن يأتي به ،والله لقد وقع لي هذا البيت من أكثر من عشرين سنة فما نطقت به خوفا من أن يسمع ،فأهجى به ،حتى وقع عليه النبطى ،وقيل ،إنه لما سمعه بكى ،فقال له قائل : أتبكي من هجاء حماد ؟ فقال والله ما أبكي من هجائه ،ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه فيصفني ولم أصفه ..
ولبشار من المعاني المبتكرة والأخيلة البديعة في فنون الشعر المختلفة ما جعل منهجه برزخا بين الشعر القديم والحديث ،ومجازا يعبر عنه الشعر من مرابع البداوة

إلى مقاصير الحضارة ،وفي ذلك يقول الجاحظ في كتاب البيان والتبيين " كان بشار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل ،وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع ،المتغنيين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه وضروبه " ،ومن غرر كلامه في الحكم والنصائح قوله :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهوينى للضعيف ولا تكن ... نؤوما فإن الحر ليس بنائم

وقوله :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك ، فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفوا مشاربه

وقال أبان بن عبد الحميد : نزل في ظاهر البصرة قوم من أعراب قيس عيلان ،وكان فيهم بيان وفصاحة ،فكان بشار يأتيهم ،وينشدهم أشعاره التي يمدح بها قيسا ،فيجلونه لذلك ويعظمونه ،وكان نساؤهم يجلسن معهم ،ويتحدثن إليه ، وينشدهن أشعاره في الغزل ،وكنت كثيرا ما آتي في ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم، فأتيتهم يوما إذا هم قد ارتحلوا ،فجئت إلى بشار ، فقلت يا أبا معاذ أعلمت أن القوم قد ارتحلوا ؟ قال : لا ،قلت :فاعلم ،قال : قد علمت لا علمت ! ومضيت ،فلما كان بعد ذلك بأيام سمعت الناس ينشدون :

دعا بفراق من تهوى أبان ... ففاض الدمع واحترق الجنان
كأن شرارة وقعت في قلبي ... لها في مقلتي ودمي استنان[1]
إذا أنشدت أو نسمت عليها ... رياح الصيف هاج لها دخان

فعلمت أنها لبشار ؛فأتيته ،فقلت : يا أبا معاذ ،ما ذنبي إليك ؟ قال : ذنب غراب البين ، فقلت :هل ذكرتني بغير هذا ؟ قال: لا ،فقلت : أنشدك الله أن لا تزيد، فقال : امض لشأنك فقد تركتك ... ومن غرر شعره قوله :

---

(1) استن الرجل : مضى على وجهه ،واستن السراب : اضطرب .

خليلي إن المال ليس بنافع ... إذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت إذا ضاقت على محلة ... تيممت أخرى ما علي مضيق
وما خاب بين الله والناس عامل ... له في التقى أو في المحامد سوق
وما ضاق فضل الله عن متعفف ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقوله :

طبعت على ما في غير مخير ... هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى فأعطى ولم أرد ... وقصر علمي أن أنال المغيبا
فاصرف عن قصدي وعلمي مقصر ... وأمسي وما أعقبت إلا التعجبا

ومن قوله في الوصف والحماسة :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى ... وبالشوك والخطي حمر ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها ... تطالعنا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ... وتدرك من نجى القرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة إننا ... بنو الموت خفاق علينا سبائبه
فراحوا: فريق في الإسار ومثله ... قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه
إذا الملك الجبار صعر خده ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

ومن قوله في المدح يمدح خالد بن برمك وهو بفارس :

أخالد لم أخبط إليك بذمة ... سوى أنني عاف وأنت جواد
أخالد بين الأجر والحمد حاجتي ... فأيهما تأتي فأنت عماد
فإن تعطني أفرغ عليك مدائحي ... وإن تأب لم يضرب على سداد
ركابي على حرف وقلبي مشيع ... وما لي بأرض الباخلين بلاد
إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها ... خرجت مع البازي على سواد

وقوله :

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت ، وأعداني فأتلفت ماعندي

وقوله يمدح عقبة بن سلم بن قتيبة :

إنما لذة الجواد ابن سلم ... في عطاء ومركب للقاء
ليس يعطيك للرجاء وللخو ... ف ولكن يلذ طعم العطاء
تسقط الطير حيث ينتثر الحـ ... ـب ، وتغشى منازل الكرماء

ومن قوله في الحماسة يفتخر بولائه لمضر :

إذا مــا غضــبنا غضــبة مضــرية   هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا مــا أعــرنا ســيدا مــن قبــيلة   ذرى منــبر صــلى علــينا وســلما

ومن ابتداءاته البديعة قوله :

أبــى طلــل بالجــزع أن يتكــلما   ومــاذا علــيه لــو أجــاب متــيما
وبالجــزع آثــار بقــين وبــاللوى   ملاعــب لا يعــرفن إلا توهمــا

آراء النقاد في شعره :

يقول فيه أبو الفرج : محل بشار في الشعر ، وتقدمه في طبقات المحدثين فيه بإجماع الرواة ، ورياسته عليهم من غير إختلاف في ذلك ، يغنى عن وصفه وإطالة ذكر محله ، وهو من مخضرمى شعراء الدولتين الأموية والعباسية ، وقد شهر فيهما ، ومدح وهجا ، فأخذ سنى الجوائز مع الشعراء[1] ؛ وكان يحيى بن الجون العبدى راوية بشار [2] ؛ وكان الأصعمى يقول :

بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم [3] ..

وقال أبو عبيدة : سمعت بشارا يقول وقد أنشدنى في شعر الأعشى :

وأنكرتنى وما كان الذى أنكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فأنكره وقال : هذا بيت مصنوع ؛ ما يشبه كلام الأعشى ؛ فعجبت لذلك ، فلما كان بعد ذلك بعشر سنين كنت جالسا عند يونس ، فقال : حدثنى أبو عمرو ابن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الأعشى ، فجعلت حينئذ أزداد عجبا من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقد الشعر[4] ؛ وسئل أبو عبيدة : أمروان عندك أشعر أم بشار ؟ فقال : حكم بشار لنفسه أنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد ولا بكون عدد الجيد من شعر شعراء الجاهلية والإسلام بهذا العدد ، ومروان أمدح للملوك [5] .

وسئل الأصمعى عن بشار ومروان أيهما أشعر ؟ . فقال :بشار ، فسئل عن السبب في ذلك ، فقال : لأن مروان سلك طريقا كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقا لم يسلك وتفرد به ، وهو أكثر

---

(1) ٣/٢٠ الأغانى .
(2) ٣/٢١ المرجع .
(3) ٣/٢٣ .
(4) ٣/٢٣ .
(5) ٣/٢٤ المرجع .

تصرفا وفنون شعر ، وأعزر وأوسع بديعا ، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل : وسأله رجل عن مروان بن أبي حفصة فقال : وجدت أهل بغداد وقد ختموا به الشعراء ، وبشار أحق بأن يختموهم به من مروان ، وما كان مروان في حياة بشار يقول شعرا حتى يصلحه بشار له ويقومه ، وهذا سلم الخاسر من طبقة مروان يزاحمه بين أيدي الخلفاء بالشعر ويساويه في الجوائز ، وسلم معترف بأنه تبع لبشار .

وقال يحيى بن المنجم : سمعت من لا أحصي من الرواة يقولون : أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس ، وفي الإسلام القطامي ومن المحدثين بشار حيث يقول :

أبى طلل في الجزع أن يتكلما   وماذا عليه لو أجاب متيما[1]

وكان الأصمعي يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ويقول : كان مطبوعا لا يكلف طبعه شيئا ، ولا كمن يقول البيت ويحككه أياما ، وكان يشبه بشارا بالأعشى والنابغة ، ويشبه مروان بزهير والحطيئة [2] ، وسئل أبو زيد عن بشار ومروان فقال : مروان أجد وبشار أهزل ،فحدث الأصمعي بذلك فقال : بشار يصلح للجد والهزل ، ومروان لا يصلح إلا لأحدهما [3] وفضله أبو عمرو ابن علاء [4] ، وكان إسحاق الموصلي لا يعتد ببشار ويقول : هو كثير التخليط في نثره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا . وكان يقدم مروان عليه ويقول : هذا هو أشد استواء شعر منه ، وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها ، وكان لا يعد أبا نواس البتة ولا يرى فيه خيرا[5].. وقيل لبشار : إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت فبينما تقول شعرا يثير النقع وتخلع به قلب الجبان . إذا بك تقول : " ربابة ربة البيت " وأشباه ذلك ؛ فقال: لكل وجه فالقول الأول جد ؛ وهذا قلته في ربابة جاريتي فهذا عندها أحسن من "قفانبك " . وغضب بشار على سلم الخاسر لأنه معانيه في شعره ، وكان يقال : أطبع الناس بشار والسيد وأبو العتاهية وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرته [6] ، وكان إسحاق يطعن على شعر بشار ويضع منه ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضا [7].

---

(1) ٣/٢٥ المرجع .
(2) ٣/٢٥ المرجع .
(3) ٢٥ج٣ المرجع .
(4) ٢٦ج٣المرجع .
(5) ٢٨ج٣ .
(6) ١٢٢ج٣ الأغاني .
(7) ٤٦ج٣ المرجع .

أبو نواس الحسن بن هانىء

حيـــاته :

هو أبو الحسن بن هانيء، بن عبد الأول بن الصباح ،كنيته الأولى أبو فراس ثم كنى بأبي نواس ،كان فارسى الأصل ،أعجمي المحتد ،لذلك أخفى نسبه ونسب أمه الأهوازية الفارسية حتى لا يعرف فيقدح فيه - ولما كبر أبي نواس أكثر من دعاويه وخلط في نسبه ، فادعى أنه بصرى المنشأ ثم ناقض دعوته في قوله، من قصيدة يهجو بها عرب البصرة :

فــإن أك بصـــريا فــإن مهاجـــرى	دمشــق ولكـــن الحديــث فـــنون
مجــاور قــوم لـيس بـيني وبيـنهم	أواصـــر إلا دعـــوة وظـــنون

كان أدعى أنه تيمي النسب فانتسب إلى أولاد عبيد الله بن زياد بن ظبيان العامري التيمى ،فقيل لأبي نواس كيف تدعي نسبتك إليه وهو لا عقب له، لو انتسبت إلى أولاد أخيه أبان بن زياد لصدقناك فخجل أبو نواس وترك نسبته إلى تيم، ثم ادعى أنه من قبيلة نزاز وأنه من أحفاد الفرزدق فانتقده الحكم بن قنبر المازن وهجاه فلما هجاه أبو نواس وخندف الأسدى ، وأسد بطن من بطنون نزار ، تعرض له الحكم وهجاه فترك النزارية ، وادعى أنه من حكم وانتسب إليها مدة زجره يزيد بن منصور الحميرى (خال المهدى) وقال له أنت خوزى من (خوزستان - إحدى ولايات فارس) فمالك ولحكم ؟ فرد عليه أبو نواس مضطرا : أنا مولى لهم ياسيدى . وإثر ذلك ترك الحكميون أبا نواس وشأنه و لكنه حنق واغتاظ فسب اليمنيين وهجا رجالاتهم ، فهجا هاشم بن حديج الكندى أحد أشراف اليمن بقصائد كثيرة ولا نعرف سبب تخصيصه هاشما بهجوه وبالإكثار من هجوه إلا أن يكون هو الذى بدأ بإفحامه ليترك دعوته ويهجر نسبته إلى قبيلته ، ولكن الحكميين رأوا أن لسان أبى نواس المقدع لا يكف ولا يسكت ، فقال بعضهم لبعض دعوا أبا نواس فى دعوته فبهذا الولاء (الولاء لا النسب) يتعصب لنا ويدافع عنا ويهجو نزارا ألد أعدائنا ، واتفقوا إثر ذلك على أن لا يكذبوه فى نسبته إليهم ، فرجع أبو نواس إلى اليمن نادما على سبه لهم معتذرا لمن هجاهم من رجالاتهم فاعتذر إلى هاشم بن حديج الكندى بقصائد استلت سخيمته واسترجعت رحمته ، ومن اعتذاراته له :

أنشـتم خـير ذى حكـم بـن سـعد	لقـــد لاقيـــت داهـــية تـــؤادا
سـببت ابـن الحديـج فسـب ظـلى	لعمـــر أبـــيك مـــا اســـتوفى وزادا

أبلغ اعتزاز العرب بنسبهم في العصر العباسي هذا المبلغ ؟ إلى حد أن يحاول رجل كأبي نواس الانتساب إلى قبيلة والالتجاء إلى جماعة ، وإلى حد أن يعرف أن ذلك المدعى دخيل عنهم مدع عليهم ، وهل العصبية العربية مازالت قائمة لم يضعفها اختلاط الفرس بالعرب ؟ ذلك ما نراه من الاطلاع على تاريخ أبو نواس ، نرى اعتزازا بالنسب لا يماثله اعتزازا وإكبار للعصبية لا يداخله إنكار ، والاحتفاظ بالأنساب لا يشابهه احتفاظهم بعاداتهم وأخلاقهم ، غير أنه من المبالغة أن نقول إن تلك العصبية لم تنقص عما كانت عليه في أيام الجاهلية ، فلابد من أن يكون لاختلاط أثره ولكثرة عدد القبيلة فعله ، ولا بد أن تكون هذه العصبية في الأقاليم البدوية النائية عن الفرس البعيدة عن الاختلاط تخالف العصبية التي توجد لدى الحضريين حتى يكثر مصاهرة العرب للفرس وتجاورهم في السكنى فيكثر اختلاط الأنساب ويصعب حفظها .

اطمأنت نفس أبي نواس إلى هذه الدعوى واستراحت من جهة النسب ولا سيما بعد أن وجد اليمنيين يتفاضلون به ويحلونه منهم مكانا رفيعا ومقاما خطيرا ويعدونه من أشرافهم ويبجلونهم كأمرائهم ، ثم جلس أبو فراس الحسن بن هانى يوما معا الأمير خلف الأحمر أحد عمال اليمن ، وكان من أعجب الناس بأبي نواس وأميلهم إليه ، فقال له : أنت من أشراف اليمن فتكن بكنيتها ، بأسماء الذوين (الملوك الذين تبتدئ أسماؤهم بذى) وعد له منها : ذا جدن ، وذا يزن وذا نواس . ففضل أبو فراس ذا نواس فكنى بأبي نواس ، وغلبت كنيته الأولى ... يتضح لنا إذا أن أبا نواس فارسي الأصل ، أعجمي النجار ، وأنه ليس له نسب بين العرب ، وأن ما شهر عنه من أنه كان حكميا ما هو إلا نسبه ولاء رضى بها الحكميون وأقرره عليها ، لما أن رأوا فيه الشاعر الفذ النابه .

ولد أبو نواس سنة ١٤٥ - ٧٦٢ م ، وقيل إنه قبل ذلك التاريخ بأربع سنين ، ولكن أين ولد الشاعر ؟ ، أفي البصرة التي نشأة وتربى فيها ، كما يقول أبو نواس في بيته : فإن أك بصريا فان مهاجرى الخ ؟ أم في قرية من قرى كورة خوزستان الفارسية تدعى (باستان ماتارد) ثم انتقل إلى البصرة بعد ذلك وترعرع فيها ؟ أم في دمشق حيث كان والده الجندى معسكرا فيها مع جند مروان بن محمد ؟ كل ذلك لا تلقى عليه الروايات قبسا من نور ، ولا شعاعا من ضياء ، إلا ما نرى من كثرة الروايات التي تروى عنه أنه ولد في كورة خوزستان فانتقل بعد ذلك مع أمه إلى البصرة ، مما يحملنا على تصديق ذلك الرأي ويجعلنا نشك في قول أبي نواس : فإن أك بصريا فإن مهاجرى دمشق .. فلعله أخفى مقر ولادته حتى لا يعلم أنه فارسي فيكون ذلك

داعيا إلى تكذيبه فى انتسابه إلى الحكميين . كان أبى نواس من موالى الجراح بن عبد الله الحكمى ، كما كان أبوه من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وكان مقيما بالشام ثم نقل لمرابطة الثغور فى الأهواز ، فتزوج منها بامرأة أهوازية تدعى جلبان ، فرزقت بعدة أولاد ، منهم الشاعر النابه الذكر ، والرفيع القدر ، أبو نواس .

كان أبو نواس كما أسلفنا إذا حكمى الولاء عجمى النجار ، يفتخر باليمن . ويحن إلى العجم ، ويذكرهم فى أشعاره ، حنين الابن لأهله والفرع لأصله .

درج الطفل الشاعر على أرض الأهواز ، تسير به سفينة الحياة وحيدا إلا من أمه، فقد توفى أبوه الجندى فخرج إلى الحياة يفقد شخصه ولا يجد إلا رسمه ممثلا فى أقارب أمه الذين عطفوا عليه ، وساعدوا إخوته على تكاليف العيش ومتاعب الأيام .

حتى إذا فقد المعين ، ونضب المعين ، وخرجت به أمه من الأهواز إلى البصرة وقد تكامل سنه حولين ، علها تجد فيها ما يقيم أودها ، ويصلح حالها .

والبصرة يومئذ منتجع الشارد . ومقصد الوارد وكعبة المتأدب والعالم ، فيها أسواق التجارة منتشرة وذائعة ، وألوية العلم رافعة خافقة ، ونوادى الأدب واسعة وفسيحة .. كما كانت حلقة الاتصال بين شرق الإمبراطورية الإسلامية ، ومقر التمازج بين الثقافتين العربية والفارسية ومقر المربد خليفة عكاظ .

واستقرت أم أبى نواس بالبصرة ، وتم لها ما أرادات حياة بسيطة هادئة فيها شيء من الدعة ، ونزر من السعة .

وعرف أبو نواس الوجود مذ رأى البصرة ، فحن إلى العلم حين رأى العلماء، وطرب للأدب إذ سمع من الأدباء ، فخف إلى مكاتب القرآن ، ومجالس العلم ونوادى الأدب ، فقرأ القرآن على يعقوب الحضرمى الفقيه المقرئ وحذقه ، حتى إن شيخه أعجب به فرمى إليه خاتمه وقال اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة ، ودرس النحو على أبى زيد وأبى عبيدة البصريين ، وتعلم العربية ، وحفظ كثيرا من القصائد والأراجيز .

ولكن أمه البائسة الفقيرة كانت فى حاجة إلى ابنها الصغير المهتم بنفسه ، العاكف على درسه ، ليساعدها على الحياة ويرفهها من البؤس .

ولذلك اقتطفته من بين مجالس العلم والأدب ووضعته فى حانوت لبعض العطارين غير عابئة بحاله ولا مشفقة على آماله ، فمكث عنده يعمل معه حين يحضر وقت العمل ويتركه حين تسنح له ساعات الفراغ فيختلف إلى الأدباء ، ويتعارف بالشعراء ، ويتنقل بين المجالس ، ثم يعود إلى العطار ، فيعمل بيده وبجسمه ويفكر بخياله وعقله فى معاناة الشعر ، ونظم القريض ؛ والترنم بما حفظه من قصائد وأراجيز ، كان أبو نواس جميل الصورة ؛ حسن الوجه أبيض اللون ، نظيف الهيئة والإشارة.

فترك جمال صورته شيئا فى نفوس معاشريه ووجد من وطأة بؤسه مشجعا له على الترفيه عن نفسه وأمانيه ، وكانت البصرة يومئذ تموج بألوف الموالى الذين تدفعهم بواعث خاصة إلى اللهو والمجون والخلاعة والفسوق ، فلا نسب يمسكهم على الحياء ، ولاشرف يحفزهم إلى الإباء ، ولا قوة تجبرهم على التقوى ولا سيد يكرههم على الحسنى ، وقد تأثروا بأخلاق بلادهم وعادات قومهم ، فصعب عليهم إبدالها ، وإن لم يصعب عليهم إخفاؤها .. وصعب على الإنسان تغيير عادة وإن لم يكن صعبا عليه خفاؤها .

وإذا علمنا أن القرية أو المدينة فى العصر العباسى تخالف الحى أو القبيلة فى العصر الجاهلى بكثرة عدد سكانها واختلاف نسب أهليها ، وازدياد المترددين عليها عرفنا مدى الصعوبات التى تلاقى الحاكم فى التعرف بأخلاق الناس لجزائهم عليها .. هكذا كانت البصرة ، وهكذا كانت بيئتها ميدانا فسيحا للصالح والطالح ، والفضيلة والرذيلة ، والحياء والمجون ، وفى هذا الجو عاش أبو نواس وهو مولى من الموالى الظرفاء ، دفعه كما ذكرت دافع من نفسه ، وباعث من شخصه ، إلى الاختلاط بالمجان ، والتقرب من الموالى ، فوق الدوافع المساعدة الحافزة ، فنشأ ماجنا بطبعه ، فكها ، كثير الدعابة حاضر البديهة يخب ويضع فى أماكن اللهو ومشارب الفخور والمجون ، ويستمع وينصت لمعازف القيان وأصوات المغنيات ، ويطرب ويبهج لزجاجات الكرم وكاسات الراح .. استمر أبو نواس فى حانوته ودأب على تردده على مجالس العلم والأدب يشبع رغبته فيها بالحفظ والدراسة كما دأب على اختلافه إلى الأصدقاء والندماء يطفىء غلته بالمداعبة والمنادمة والمعاقرة ، حتى رأه أبو أسامه والبه بن الحباب الأسدى الشاعر الكوفى الماجن فى حانوته فأعجب بذكائه وجماله فتعرف به قاصدا وتودد إليه عمدا ، وقال له أراد أن يصاحبه : إنى أرى فيك مخايل أرى أن لا تضيعها وستقول الشعر وتعلو فيه فاصحبنى حتى أخرجك ، فقال : من أنت؟ ، قال : والبة ؟ قال : أبو أسامه ؟ قال : نعم ؛ قال أنا والله فى طلبك وقد

أردت الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك لآخذ عنك ، وأسمع منك شعرك قال ولماذا ؟ قال : شهوة للقاءك ولأبيات سمعتها لك : قال ، وما هي ؟ فأنشده :

جرحـــت فـــؤادى بـــالهوى	فالقلـــب مجـــروح الـــنواحى
ســـل الخلـــيفة صـــارما	هـــو للفســـاد وللصـــلاح
أجـــداه كـــف أبـــى الولـــيـ	ـــد يـــدا مـــبارية الـــرياح
ألفـــى بجـــابن خصـــره	أمضـــى مـــن الأجـــل المـــتاح
وكأنمـــــا ذر الهـــــباء	علـــيه أنفـــاس الـــرياح

فسار أبو نواس وهو شاب بافع مع والبة إلى الكوفة حيث مكث معه ومع جلسائه من ماجنيها وخلعائها وهو شاب وهم كثيرون عديدون ، ولأستاذه والبة الماجن سابق اتصال بهم ، وماضى ائتلاف بجمعهم ، فازداد عقدهم بأبى نواس تنضيدا ومجلسهم بروحة الفكهة أنسا وتغريدا .. تودد إليهم وتوددوا إليه ، وحمل عليهم وحملوا عليه ، فاجتمعوا على الشرب وتصافوا بالعتاب ، وتفاكهوا بقول الشعر ، وتنادروا بعذب الفكاهة وتسامروا بحلو الدعابة ، هكذا كانوا فى الكوفة لهوا ولعبا وفكاهة وسمرا ، يدأبون عليها ويسيرون إليها ، فهى لهم الشغل الشاغل ، والمطلب الأسمى ، ووجد أبو نواس فى أستاذه والبة مربيا وخليلا ،ومصاحبا ونصيرا ، فاطمأن إليه ، وائتلف بعشيرته ، حتى قال والبة فيه :

يـــا شـــقيق الـــنفس مـــن حكـــم	غبـــت عـــن عيـــنى فـــلم أنم

كانت الأعراب المقيمة بالمدن ترسل أبناءها إلى البادية ، ليتقنوا العربية ويحذقوا اللغة ، حيث جو البادية هادئ صاف فانتهز أبو نواس فرصة سفر وفد من أبناء بنى أسد إلى البادية وطلب من أستاذه و البة أن يخرج معهم ويتعلم العربية والغريب ، فأخرجه مع قوم منهم فأقام بالبادية سنة ، صحت فيها لهجته وخلصت فيها عربيته ، ثم رجع بعدها على الكوفة ، إلى أستاذه و البة على ما كان عليه من قبل .

تخرج أبو نواس في الشعر على أستاذه و البة الماجن ، وعلى ندماء أستاذه ، و البة الخلعاء ، وعلى من لقيهم وجالسهم من الأدباء ، ولكنه بذهم جميعا وفاقهم كافة ، وغطى اسمه على اسمهم فتناقلت الألسنة ذكره ، كما رويت فى مجالس السمر فكاهاته ، وفى نوادى المجون دعاباته ، فكانت سلوة البائس وأغرودة الماجن .

لا شك فى أن و البة حقد على أبى نواس تلميذه وخليله ، وود لو ينأى عن بلده وإن قام فى قلبه وسكن فى نفسه كما قال :

يــا شــقيق الــنفس مــن حكــم		غبــت عــن عيــنى فــلم أنم

ولا شك فى أن أبا نواس قد ضاق أفق الكوفة عن أمانيه ، فرغب عنه بعد أن رغب فيه ، وعزم خطوة أوسع ليخطو بها نحو مستقبله ، وتسير بها سفينة آماله . وهكذا كان ما أراد ، فقد ركب قافلة جده حتى وصل إلى عاصمة الإسلام ودار السلام مدينة بغداد .

دخل أبو نواس بغداد ، واتصل بالشعراء والأدباء والعلماء والكتاب والوزراء . ومدح الرشيد ، وقربه منه الرشيد ، ثم غضب عليه لشعوبيته ووصفه للراح ، فحبسه ثم أطلق سراحه .. ثم مات الرشيد وولى الأمين الخلافة بعده ، ولما قدم الفضل بن الربيع بغداد على محمد الأمين بالأموال والقضيب والخاتم حين مات الرشيد ، وقد اشتد فرح الأمين به فقربه وألطفه وقلده الأمور وفوض إليه ما وراء بابه فهو الذى يولى ويعزل ويحل ويعقد على محمد الأمين ، قال أبو نواس يمدحه :

لعمــرك مــا غــاب الأمــين محمــد		عــن الأمــر يعنــيه إذا شــهد الفضــل
ولــولا مواريــث الخلافــة إنهــا		لــه دونــه مــا كــان بيــنهما فضــل
لــئن كانــت الأجســاد فــيها تباينــت		فقولهمــا قــول وفعــلهما فعــل
أرى الفضــل للدنــيا وللديــن جامعــا		كما السهم فيه الريش والفوق والنصل

ومن قوله يصف حراقة ركبها الأمين وكانت على مثال الأسد :

ســخر الله للأمــين مطايــا		لم تســخر لصــاحب المحــراب
فــإذا مــا ركابــه ســرن بحــرا		ســار فــى المــاء راكــبا ليــث غــاب
أســدا باســطا ذراعــيه يعــدو		أهــرت الشــدق كــالح الأنــياب
لا يعانــيه بالــلجام ولا الســو		ط ولا غمــز رجلــه فى الــركاب
عجــب الــناس إذا رأوك عــلى صــو		رة ليــث تمــر مــر الســحاب
ســبحوا إذ رأوك ســرت علــيه		كــيف لــو أبصــروك فــوق العقــاب ؟
ذات زور ومنســـر وجناحـــيـ		ـــن تشــق العــباب بعــد العــباب
تسبق الطير فى السماء إذا ما اســ		ـــتعجلوها بجيـــئة وذهـــاب
بــارك الله للأمــين وأبقــاه		وأبقـــى لـــه وراء الشـــباب
ملــك تقصــر المدائــح عــنه		هــاشمى موفــق للصــواب

ولما أنشد الأمين قصيدته التى يقول فيها :

أيــا دارهــا بالمــاء حــتى تليــنها		فلــن تكــرم الصــهباء حــتى تهيــنها

أغـالي بهـا حـتى إذا مـا ملكـتها أهنـت لإكـرام الخلـيل مصـونها
وصـفراء قـبل المـزج بيضـاء بعـده كـأن شـعاع الشـمس يلقـاك دونهـا

قال له : ألم أنهك عن شرب الخمر ؟ قال بلى والله يا أمير المؤمنين ، والله ما شربتها مذ نهيتني عنها ومنعتني من شربها ،وأنا الذي أقول :

أيهـا الـرائحان بـاللوم لومـا لاأذوق المـدام إلا شمـيما
نالـني بـالملام فـيها إمـام لا أرى لي خلافـه مسـتقيما
فاصـرفها إلى سـواي فـاني لسـت إلا عـلى الحديـث نديمـا
كـبر حظـي مـنها إذا هـي دارت أن أراهـا وأن أشـم النسـيما
فكـأني ومـا أزيـن مـنها قعـدي يحسـن التحكـيما
كل عن حمله السلاح إلى الحرب فأوصـى المقـيم ألا يقـيما

وأنشده يمدحه :

ألا يـا خـير مـن رأت العـيون نظـيرك لا يحـس ولا يكـون

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأمين من شرب الخمر ،وذلك أن المأمون أمر الخطباء بخراسان أن يعيبوا الأمين بشعر أبي نـواس ، ويقولـون : هـو جليسه ونديمه وينشدون عل المنابر شعره فمنعه الأمين ، فقال :

غنـنا بـالطلول كـيف بلينـا واسـقنا نعطـك الثـناء الثمينـا
مـن سـلاف كأنـه كـل طيـب يتمـنى مخـير أن يكونـا
أكـل الدهـر مـا تجشـم مـنها وتـبقى لبـانها المكـنونا
ثم شجت[2]فاستضحكت عن لآل لـو تجمـن فـي يـد لا قتنينـا
وإذا مـا لمسـتها فهـباء[3] يمـنع الكـف مـا يبـيح العـيون
فـي كـؤوس كـأنهن نجـوم باديـات كأنهـا أيدينـا
طالعـات مـع السـقاة علينـا فـإذا مـا غـربن يغـربن فينـا
لـو تـرى الشـرب حولهـا مـن بعيد قلـت قـوم مـن قـرة[1] يصـطلونا
وغـزال يديـرها ببـنان ناعمـات يـزيدها العسـر لينـا
ذاك عـيش لـو دام لي غـير أنـي عفـته مكـرها وخفـت الأمينـا

---

(1) القرة : البرد .
(2) شجت : مزجت بالماء . ويريد باللآل : الحبب .
(3) الهباء : ما ينبث في ضوء الشمس كأنه غبار .

وأخيرا أسرف أبو نواس في مجونه فحبسه الأمين ....

ودخل أبو نواس السجن يندب حظه ويبكي جده ، ويذكر أيامه ولياليه ويرثي آماله وأمانيه ، تزيده الذكرى جزعا ويفعمه السجن فرقا وهلعا ، بيد أنه كان يصبر ويتجلد حتى فرغ صبره ونفد جلده وخبا سراج أمله الذاوي وصدأ حسام شبابه الماضي .. فلقد كان يعتمد على حسن ماضيه ورفيع مكانته وأنه في بطانة الخليفة واحد مفرد ، لا ترب يشغل مكانه ولا نديم يطاوله . ويترقب لذلك صفح الأمين عليه وعودته ثانيا لديه وتقربه إليه ، فبدد هذا الأمل في فكره أن رسف في قيود السجن ثلاثة أشهر ، والخليفة عنه معرض ، والدهر مدبر والنجم غارب والقيد في عنقه دائم مقيم . وأخذ أبو نواس قلمه وكتب للأمين يذكره بعهود له وبقصائده فيه ، ويستشفع بجده وأبيه وكرم محتده وجميل أياديه ، ثم يعد له الأيام التي قضاها في سجنه ويعرض له بأمره ، وحالته تعريض المستشفع ، في مدح يشبه الرجاء ، وشعر جياش بالثناء :

تذكر أمين الله والعهد يذكر ... مقامي وإنشاديك والناس حضر
ونثري عليك الدر يادر هاشم ... فيامن رأى درا على الدر ينثر
أبوك الذي لم يملك الأرض مثله ... وعمك موسى صنوه المتخير
فمن ذا الذي يرمي بسهمك في الو ... رى ؟ وعبد مناف والدك وحمير
تحسنت الدنيا بوجه الخليفة ... هو الصبح إلا أنه الدهر مسفر
يشير إليه الجود من وجناته ... وينظر من أعطافه حين ينظر
أيا خير مأمون يرجى : أنا أمرؤ ... أسير رهين في سجونك مقبر
مضت لي شهور مذ حبست ثلاثة ... كأني قد أذنبت ما ليس يغفر
فإن كنت لم أذنب ففيم سجنتني ؟ ... وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر

وصلت الرقعة للأمين فطوى كشحه عنها ، لأن نار غضبه لم تخمد ، وقبس عفوه لم يوقد .. غير أن السجين المرتقب لم يسكت ، فأرسل للخليفة ثانية مستشفعا فلم يصفح ، فبرم أبو نواس بالسجن ، وضاق به ذرعا لا سيما وقد أحس بالشيب ووهن الكبر قد سرى في عظمه ، وضعف السقم وبدأ يشعر بألمه ، فطلب السلوة فلم يجدها إلا في نفسه ، والنديم فلم يره إلا في شعره ، فكان ينظم إذا هجته عواصف الذكرى أو ألمت به أطياف الخيال ، لا في الخمر والندمان ، ولكن في الشكوى من الزمان ، والتبرم بالأصحاب والإخوان ، عادة المكلوم إذا ماطاله الفرج وديدن المحبوس إذا

فارقه الصبر .. ولما أشتد به الحال .. أكثر الشكاية وتمنى أن يقيض له المأمون لينقذه مما هو فيه .. فأنشد :

يـا رب إن القـوم قـد ظـلمونى	وبـلا اقـتراف معطـل حبسـونى
وإلى الجحـود بمـا عرفـت خلالـه	ربـى إلـيك - بكذبهـم - نسـبونى
مـا كـان إلا الجـرى فـى مـيدانهم	فـى كـل درب ، والمجانـة ديـنى
لا العـذر يقبـلها ويفـرق شـاهدى	مـنهم ولا يرضـون حلـف يميـنى
أمـا الأمـين فلسـت أرجـو دفعـه	عـنى ، فمـن لى الـيوم بالمـأمون ؟

يئس إذا أبو نواس من صفح الأمين ، لا بل يئس من دفع ضره ، ولم يبق له من رجاء وأمل إلا أن يغلب المأمون أخاه على أمره فينقذه مما هو فيه ، ورضخ لحكم الله مكرها ، وسكن لصروف الزمان عاجزا ، حتى ذهب إلى بغداد صديقان من أصدقاء أبو نواس ، وأديبان من أدباء العربية ، هما ابن حبيب ، ومؤنس بن عمران ، فتذكرا رفيقهما أبا نواس ، فذهبا يزورانه فى سجنه ، ولما عرف أن وجهتهما إلى الفضل بن الربيع ، أعطى لهم رقعة فيها هذه الأبيات :

مـا مـن يـد فـى الـناس واحـدة	كـيد أبـو العـباس مولاهـا
نـام الـبغاة عـلى مضـاجعهم	وسـرى إلى نفسـى فأحـياها
قـد كنـت خفـتك ثـم أمتـنى	مـن أن أخـافك خوفـك الله
فعـوت عـنى عفـو مقـتدر	وجبـت لـه نعـم فالفاهـا

ورجا مؤنس أن يسعى فى توصيلها إليه ، وأعطاه إياها ، ووصلت الرقعة للفضل فلم ينس صاحبها أبا نواس ، ولم ينس قصائده فيه . وغرره التى توجه بها ، فسعى عند الأمين ، حتى بلغ سعيه الفوز ، فأطلق سراح أبى نواس السجين المعذب، أطلق سرحه ، فخرج من السجن خائر القوى ، سقيم الجسم ، كثير العلل .. فكتب إلى أهله ينبئهم بخبر خروجه من السجن :

إنـى أتيـتكم مـن القـبر	والـناس يحتسـبون للحشـر
لـولا أبـو العـباس مـا نظـرت	عيـنى إلى ولـدى ولا وفـرى
الله ألبسـنى بـه نعمـا	شـغلت جسـامتها يـدى شـكرى

ويروى أنه لما حبس أبو نواس فى شرب الخمر [1] آلمه الحبس وكان للفضل بن الربيع خال يستعرض أهل السجون ويتعاهدهم ، ودخل فى حبس الزنادقة فرأى

---

[1] الطبرى ص ٢٢٠ ج٩ .

فيه أبا نواس - ولم يكن يعرفه - فقال : يا شاب ، أنت مع الزنادقة ! قال معاذ الله ! قال : فلعلك ممن يعبد الكبش ؟ قال : أنا آكل الكبش بصوفه ! فلعلك ممن يعبد الشمس ؟ قال : إنى لأتجنب القعود فيها بغضا لها ! قال : فبأى جرم حبست ؟ قال : حبست بتهمة أنا منها برىء ! قال : ليس إلا هذا ! والله لقد صدقتك . فجاء إلى الفضل فقال له : أيحبس الناس بالتهمة ! قال وما ذاك ؟ فأخبره بما ادعى من جرمه ، فتبسم الفضل ، ودخل على محمد الأمين فأخبره بذلك ، فدعا به وتقدم إليه أن يجتنب الخمر والسكر : قال نعم ، قيل له : فبعهد الله ! قال : نعم ! فأخرج ، فبعث إليه فتيان من قريش ، فقال لهم : إنى لا أشرب ، قالوا : وإن لم تشرب فآنسنا بحديثك . فأجاب ، فلما دارت الكأس بينهم قالوا : ألم ترتح له ؟ قال : لا سبيل والله إلى شربها ، وأنشأ يقول :

أيهـــا الـــرائحان بـــاللوم لومـــا ... لا أذوق المـــــدام إلا شمـــــيما

الى آخر هذه القصيدة الرائعة الجميلة .

ذهب أبو نواس إلى أهله ناسيا ماضيه ، تاركا مجون أيامه الأولى ، ناظرا للموت نظرة الخائف ، وإلى الحياة بعين اليائس ، وإلى الله بعبرة التائب وزفرة المنيب . وفى هذه الأثناء كانت جيوش المأمون قد دهمت بغداد بقيادة قائده طاهر بن الحسين ، وانتهى الأمر بدحر جيش الأمين ، والقضاء على ملكه ونفسه معا .. قتل الأمين ، ياله من خبر مؤلم حقا وقع فى نفس أبى نواس النديم الوفى المخلص وقوع الصاعقة ، وتذكر أبو نواس أيامه مع الأمين ، تلك الأيام التى غالبت "الصروف" ، وصارعت الحوادث وعصرت عود الزمن وذاق أبو نواس فيها أفاويق السعادة ، فانطلق لسانه برثائه يحركه الوفاء على رغم ما كان بينهما آخر المدة من إعراض وفتور ، وفى هذه القطعة يتمثل لك وفاء أبى نواس صورة حية لقلبه وعواطفه الصادقة :

طوى الموت ما بينى وبين (محمد) ... وليس لما تطوى المنية ناشر

فلاوصـــل إلا عـــبرة تســـتدعيها ... أحاديث نفس ما لها الدهر ذاكرا

وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبقى لى شىء عليه أحاذر

لـــئن عمـــرت دور بمـــن لا أوده ... فقـد عمـرت ممـن أود المقابـر

كما رثاه بغير هذه ، من القصائد الناطقة ، التى تدل على إخلاص أبى نواس لصاحبه الراحل ، الخليفة محمد الأمين ...

وفنيت لذة الشاب عند أبى نواس وبقيت عبرة المشيب تعظه وتذكره الآخرة ، وتزهده فى الدنيا ، فاستجاب أبى نواس لداعيها فأكثر من الندم على ما فرط فى جنب الله ، والاستغفار على ما قدم من ذنوب ، حتى روى أنه صاغ خاتمين له : نقش فى أحدهما : يشهد ابن هانى أن الله واحد ، وفى الثانى هذا البيت :

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما

ولم يكتف بالندم والاستغفار بل عف ونسك وزهد ، ونسى عادات الشباب وأخلاق المجان والعكوف على اللهو والشراب ، وتعرف على المسجد والجماعة وصار بذلك مغرما ولوعا ؛ ويبدو أن أبا نواس قد تاب على يد الفضل بن الربيع بعد خروجه من السجن وذلك أقرب إلى العقل ، فالمفهوم أن أبا نواس حين أطلق سراحه ، بلغ شكره للفضل فى رقعة فيها هذه الأبيات :

أصبحت غير مدافع مولاكا ... والحظ لى أنى أكون كذا كا
لله درك أى رهن منية ... بالأمس كنت ، وهالكا لولا كا
أصبحت معتدا على بنعمة ... ما كان ينعمها على سواكا

ثم توجه إلى أهله ، فأشبع غلة شوقه برؤيتهم ، وذهب للفضل يشكره على يده وحسن صنيعه ، وطبعا شمل الحديث ، بينهما ذكر السجن والوشاة ، فنصح الفضل له بأن يغير ماضيه الذى كان تكأة للوشاة فى وشيهم ، والمفترين ضده فى افترائهم ، فوعده أبو نواس بأن يسير كما أشار .. وتاب على يديه توبة نصوحة .. فذلك أصدق فى نظر العقل ، وهو ما تؤيده أقوال أبو نواس فى الفضل ، وإن شئت فاقرأ :

أنت يا ابن الربيع الزمتنى الفضل ... وعودتنيه والخير عاده
فارعوى باطلى ، وأقصر حبلى ... وتبدلت عفة وزهاده
لو ترانى ذكرت بى الحسن البصرى ... فى حسن سمته أو قتاده
المسابيح فى ذراعى والمصحف ... فى لبتى مكان القلادة
ولقد طال ما شقيت ولكن ... أدركتنى على يديك السعادة

مضى أبو نواس على سنن الهدى والصلاح ، ولكن سراج حياته كان آخذا فى الانطفاء ، ومدد روحه كان وشيك الانتهاء ، فدب به السقام علوا وسفلا ، حتى لكأن أعضاؤه السقيمة تموت متتالية وهو حى يراها ، ويأسف شد الأسف أن تذهب أيامه الطويلة فى حاجة نفسه ولا يذكر طاعة الله إلا هزيلا كبيرا مشرفا على الزوال ، ويتحسر كل التحسر أن مضت أيام الشباب لهوا ولعبا ، ويطلب من الله العفو والصفح ،

فى أبيات لو لم يكن لأبى نواس غيرها فى ميدان الأدب ، وميدان العمل الصالح ، لكفته :

دب فـــى الســقام علــوا وســفلا	وأرانـــى أمـــوت عضـــو افعضـــوا
لهــف نفســى عــلى لــيالى وأيــا	م تجـــاوز تهـــن لعـــبا ولهـــوا
قــد أســأنا كــل الإســاءة فــالل	هــم صــفحا عــنا ، وغفــرا وعفــوا
ذهبــت جدتــى بحاجــة نفســى	وتذكـــرت طاعـــة الله نضـــوا

وبعد قليل أنطفأت الشعلة ، وهمد الجسم الدائب ، وسكن هذا القلب الخافق . وفاضت روح أبى نواس الشاعر فى بغداد سنة ١٩٩ هـ ، وصعدت إلى السماء بعد صراع طويل أوله للباطل وآخره للحق ، ونزاع كبير بدايته للدنيا ونهايته للآخرة .

شعره وأثره فى الأدب :

كان شعر بشار برزخا بين الشعر القديم والحديث ، وجاء بعده شعر أبى نواس فى فنونه وألفاظه ومعانيه مثالا محدثا جامعا لكل ما تصوره المحدثون فى الشعر من جد وهزل وجزالة وسهولة ، فهو رأس المحدثين بعد بشار ، وأشهر من كانت له طريقة فى الجد والهزل والهجاء ، غير أن بشار كان لا يزال على بقية من الاحتشام والتوقر ، فلم يهتف بالخمر فى شعره إلا لماما ، ولم يعجبه الغزل بالمذكر ، ولم يسلك مسالك التأنث فى غزله مهما أسف فيه ورقق وسهل ، وأبو نواس سلك طريقه فى المجون والهزل ،وركب رأسه فى الاستهتار بالمصارحة بالفسق والفجور ، وجاهر بالدعوة إلى شرب الخمر ووصفها وصفا لم يبلغه قبله شاعر لا فى جاهلية ولا إسلام ، وشذ عن مألوف العرب بصرفه التشبيب والغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر وخلع العذار فى هذا الغزل وفى الخمريات ، حتى أصبح مثلا لمن نشأ فى عصره أو بعده من الخلعاء والمجان ، وحتى رسخ هذا اللون من الغزل والخمريات بعد حين فى أغراض الشعر .

وكان أبو نواس فى مدائح الخلفاء وأهل الجد والتوقر من الوزراء ، والولاة والقواد يفخم الألفاظ ويتخيرها ويجيد رصفها ، ويكثرها من الغريب فيها ، ويسلك غالبا مسلك القدماء فى تقديم النسيب على طريقة العرب ، ووصف الرحلة إلى الممدوح . وإن ثار أحيانا على هذه الطريقة ، فدعا إلى افتتاح القصائد بوصف الخمر .

وكان فى طردياته أعرابيا فى شملة لا يصدق من يقرؤها أنها صادرة من حضرى خليع مثل أبى نواس .

والمشهور عنه فى قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم ينحى عليها بحذف الردىء والمكرر وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيونا ، فهو من أمثال الزهير والحطيئة والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة قصيرة .

وكان إذا مدح أصدقاءه ومن له عليه دالة ، راعى أسلوب الحضرين فى دماثته ولينه ورقة نسجه ، ومهد للمديح بذم الديار والأطلال والنوق و الجمال ودعا إلى معاقرة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغانى ومباكرة الرياض ونحو ذلك . وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد .

وكذلك كان يرقق القول فى المقطعات والخمريات ، ويسف إلى أن يقارب العامة فى المجونيات ويكثر فيها من الألفاظ المولدة أو الدخيلة .

وجمع أبو نواس فى شعره خلاصة من معانى شعر المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ، وأضاف إليها صورا جديدة من معانيه المبتكرة ومعانى الذين عاش بينهم من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وأدبها ، على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين فى الجد والهزل ، وأشهر من حاكاه منهم وصب على قوالب معانيه بشار بن برد ، وأكثر معانيه المبتكرة هى فى الخمريات والغزل بالمذكر .

ولقد قال أبو نواس الشعر فى كل الأغراض ، وغلب عليه :

الغزل الماجن بالمذكر والأنثى والتفنن فى وصف الخمر وتشبيهها والدعوة إليها والنشوة بها وذكر سقاتها وندمانها وصبوحها وغبوقها ، وتغلغل فى ذلك ما شاء .

ثم الهجاء ، وكان منه المقبول الذى سلك فيه مسلك التهكم والتنادر على المهجو ، ومنه المقذع الفاحش الذى سلك فيه مسلك العامة فى تسابها ومهاترتها ؛ فهجا الأفراد والجماعات والأمم : هجا مضر وقبائلها ، وفى هجائها حبسه الرشيد ، ثم هجا العرب وأهل باديتها منتسبا إلى كسرى . واستتبع هجوه لمضر خاصة أنه افتخر باليمن ، وهجوه للعرب عامة أن افتخر بالعجم ، وانتسب إلى كسرى ، وظهر بمظهر الشعوبية . وهجا نيل مصر لأنه رأى فيه تمساحا التقم رجلا .

ثم الطرد ووصف الصيد من الوحش والطير ، وآلة الصيد من الكلاب والجوارح والخيل ، له فيه أراجيز تعد غاية فى فصاحة اللغة .

ولم يكن المدح والرثاء أهم مقاصده من شعره وإن تكسب بهما ، ولكن مدحه على قلته بالإضافة إلى بقية شعره أبلغ شعره وأجوده وأرصنه ، وله فيه قصائد جاراه فيها فحول الشعراء ، ولا يزالون يعارضونها إلى اليوم .

ومن العجيب أن مثل أبي نواس في عبثه وتماجنه يفسح للزهديات من شعره بابا واسعا اشتمل على مقطعات ؛ منها ما هو غاية في الباب ، وكانت جديرة أن تصدر عن أبي العتاهية ، والحق أنه لم ينظم هذا النوع إلا مكايدة لأبي العتاهية وتفوقا عليه ، وإظهارا لقدرته على النظم في أي غرض .

وأشعار الحسن بن هانيء في الزهد كثيرة ، منها المقطوعات والقصائد ، ومنها ما جاء خالصا غير مشوب ، ومنها ومنها ما انتثر حتى في قصائد مجونه وخمرياته، ولقد قال أبو العتاهية : قد قلت في الزهد عشرين ألف بيت ووددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قالها أبو نواس :

يانواسـي توقـر　　　وتعـز وتصـبر
إن يكـن سـاءك دهـر　　　إن مـا سـرك أكـثر
يـا كـبير الذنـب عفـ　　　ـو الله مـن ذنـبك أكـبر

ومنها :

أعظـم الأشـياء مـن　　　أصـغر مـن عفـو الله أصـغر
لـيس للإنسـان إلا　　　مـا قضـى الله وقـدر
لـيس لـلمخلوق تدبـ　　　ـير بـلى الله المدبـر

وفي كتاب ابن منظور : " قال أبو مخلد الطائي : جاء أبو العتاهية إلى عندي فقال لي : إن أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول في الزهد شيئا ، فإني قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء ، وللزهد شوقي ، فبعثت إلى أبي نواس فجاء إلي وأخذنا في شأننا وأبو العتاهية لا يشرب النبيذ معنا ، فقلت لأبي نواس : إن أبا إسحق من قد عرفت في جلاله وتقدمه قد أحب أنك لا تقول في الزهد شيئا ، فوجم أبو نواس عندك وقال يا أبا مخلد : قطعت علي ما كنت أحب أن أبلغه من هذا ، ولقد كنت على عزم أن أقول فيه ما يتوب به كل خليع ، وقد فعلت ، ولا أخالف أبا إسحق فيما ذهب إليه .

ويروي ابن منظور[1] أنا أبا العتاهية كان يقول : سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت إني سبقته إليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

---
[1] ص ٦٣ .

يـــا كـــبير الذنـــب عفـــو اللـــــــه مـــن ذنــــبك أكـــبر

وقوله :

مـــــن لم يكــــن لله مــــتهما لم يمـــس محـــتاجا إلى أحــــد

وقوله :

إذا امـتحن الدنـيا لبيـب تكشـفت لـه عـن عـدو فـى ثـياب صـديق

ومن جد أبي نواس ما قاله يمدح الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين .

لقـد نزلـت أبـا العـباس مـنزلة مـا إن تـرى خلفها الأبصار مطـرحا
وكلـت بالدهـر عيـنا غـير غافلـة مـن جـود كفـك تأسـو كـل ماجـرحا

وقال يمدحه أيضا :

قـــولا لهــــرون إمـــام الهـــدى عـند احـتفال المجلـس الحاشـد
أنـت عـلى مـا بـك مـن قـدرة فلسـت مـثل الفضـل بـالواجد
لـــيس عـــلى الله بمســـتنكر أن يجمـع العـالم فــى واحـد

وقال فى الموعظة :

ألا كـل حـى هـالك وابـن هـالك وذو حسـب فـى الهـالكين عـريق
فقـل لمقـيم الـدار إنـك ظـاعن إلى سـفر نـائى المكـان سـحيق
إذا امـتحن الدنـيا لبيـب تكشـفت لـه عـن عـدو فـى ثـياب صـديق

وقال فى الكبير ينشأ عن الصغير ، وفى الجد يتولد من الهزل ، وفى النافع ينجم عنه ضار :

أيـــة نـــار قـــدح القـــادح وأى جـــد بلـــغ المـــازح
لله در الشـــيب مـــن واعـــظ وناصـــح لـــو قـــبل الناصـــح
يـأبى الفـتى إلا اتـباع الهـوى ومـــنهج الحـــق لــــه واضـــح

وقال فى عزة النفس ولو صدرت عن غيره لكانت به أحرى :

ومســـتعبد إخوانـــه بـــثرائه لبسـت لـه كـبرا أبـر عـلى الكـبر
إذا ضـمنى يومـا إيـاه محفـل يرى جانبى وعرا يزيد على الوعر
أخالفـــه فـــى شـــكله وأجـــره على المنطق المنظور والنظر الشزر
وقد زادنى تيها على الناس أننى أرانـى أغـناهم وإن كنـت ذا فقـر
فـو الله لا يـبدى لسـانى حاجـة إلى أحـد حـتى أغيـب فـى القـبر
فـلا يطمعـن فـى ذاك مـنى طـامع ولا صاحب التاج المحجب فى القصر

فلو لم أرث فخرا لكانت صيانتي　　　عن الناس حسبي من سؤال من الفخر

وكان قوله : " فلا يطمعن - البيت " سببا في غضب الأمين عليه .

ومن هزله قوله في الخمريات :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء　　　وداوني بالتي كانت هي الداء

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها　　　إن مسها حجر مسته سواء

آراء النقاد في شعره :

كان أبو عبيدة يقول : ذهبت إلى اليمن بجد العشر وهزله ، امرؤ القيس بجده و أبو نواس بهزله ، وكان يقول : ذهبت اليمن بجد الشعر في قديمه وحديثه ، امرؤ القيس في الأوائل وأبو نواس في المحدثين ، وكان يقول شعراء اليمن ثلاثة ، امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس ، وقال أيضا : أبو نواس في المحدثين مثل أمرؤ القيس في المتقدمين ، فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعاني ، وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف في فنونه ، وكان يقول : يعجبني من شعر أبي نواس قوله:

بنينا على كسرى سماء مدامة　　　مكللة حافاتها بنجوم

فلو رد في كسرى بن ساسان روحه　　　إذا لاصطفاني دون كل نديم

وسئل يعقوب بن السكيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء ، فقال : إذا أردت من الجاهلين ، فلامرىء القس والأعشى ، ومن الإسلاميين فلجرير والفرزدق ، ومن المحدثين فلأبي نواس فحسب ، وقيل للعتبي : من أشعر الناس ؟ قال : عند الناس أو عندي ؟ قيل عند الناس ، قال : امرؤ القيس ، قيل : فعندك ؟ قال : أبو نواس، وقال عبد الله بن محمد بن عائشة : من طلب الأدب فلم يروى شعر أبي نواس فليس بتام الأدب ، وسئل : من أشعر المحدثين ؟ فقال الذي يقول :

كأن ثيابه أطلعن　　　من أزراره قمرا

يزيدك وجهه حسنا　　　إذا ما زدته نظرا

بعين خالط التفتير[2]　　　من أجفانها الحورا

ووجه سابرى[3] لو　　　تصوب ماؤه قطرا

وقد خطت حواضنه　　　له من عنبر طررا[1]

---

(1) طرر جمع طرة ، والحواضن جمع حاضنة وهي المربية .

(2) التفتير : الفتور .

(3) سابرى منسوب إلى سابور على غير قياس وهي كورة بفارس .. يوصف به الجيد ، وتصوب : تسفل .

وقال إبراهيم بن العباس الطويل : إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبى نواس علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد ظرفه ، وكان أبو نواس يقول عن نفسه : سفلت عن طبقة من تقدمنى من الشعراء وعلوت عن طبقة من معى ومن يجيء بعدى ، فأنا نسيج وحدى .

وحدث جماعة من الرواة ممن شاهد أبا نواس قالوا : كان أقل ما فى أبى نواس قول الشعر ، وكان فحلا راوية علما ، وقال أبو عبيدة : بلغنى أن أبا نواس يتعاطى قرض الشعر ، فتلقانى وهو سكران ما طر[1] شاربه بعد ، فقلت له : كيف فلان عندك ؟ فقال : ثقيل الظل جامد النسيم ، فقلت : زد ، فقال : مظلم الهواء منتن الفناء، فقلت : زد ، فقال : غليظ الطبع بارد الشكل ، قلت : زد ، فقال : وخم الطلعة عسر القلعة[2] ، قلت : زد ، قال : ناتيء الجنبات بارد الحركات ، قال: فخففت عنه ، فقال : زدنى سؤالا أزدك جوابا ، فقلت : كفى من القلادة[3] ما أحاط بالعنق ، وقال سليمان بن أبى سهل لأبى نواس : ما الذى استجيد من أجناس شعرك ! فقال : أشعارى فى الخمر لم يقل مثلها ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أجود شعرى إن لم يزاحم غزلى ما قلته فى الطرد[4] ، وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب ، منهن الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال ؟ وأنى لأروى سبعمائة أرجوزة ما تعرف ، وكان قد استأذن خلفا فى نظم الشعر فقال : لا أظن لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة ، فغاب عنه مدة وحضر إليه فقال له : قد حفظتها فقال : أنشدها ، فأنشده أكثرها فى عدة أيام ، ثم سأله أن يأذن له فى نظم الشعر ، فقال له : لا آذن لك إلا أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها ، فقال له : هذا أمر يصعب على فإنى قد أتقنت حفظها ، فقال له : لا آذن لك إلا أن تنساها ، فذهب إلى بعض الديرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتها حتى كأن لم أكن قد حفظتها قط ، فقال له : الآن فانظم الشعر ، وكان أبو نواس يقول لا أكاد أقول شعرا جيدا حتى تكون نفسى طيبة وأكون فى بستان مونق وعلى حالة أرتضيها من صلة أوصل بها أو وعد بصلة ، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعارا لا أرضاها ، كان يعمل القصيدة ثم يتركها أياما ثم يعرضها على نفسه فيسقط كثيرا منها ويترك صافيها ولايسره كل ما يقذف به خاطره ، وكان يهمه الشعر فى الخمر فلا يعمله إلا فى وقت نشاطه ، ولم

---

(1) طر : نبت .

(2) عسر القلعة : لا يقلع إلا بصعوبة .

(3) القلادة : ما يحيط بالرقبة من الحلى ، وهذا مثل .

(4) الطرد من طرد الصياد كفرح زاول الصيد ، فالطرد مزاولة الصيد .

يكن في الشعر لا بالبطيء ولا بالسريع بل كان في منزلة وسطى ، وكان الأصمعي يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيت واحد قد أجاد قائله وهو :

ضعيفة كر الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالافاقة من سقم
وأني لآتي الأمر من حيث يتقي ويعلم سهمي حين أنزع[1] من أرمي

وقال العتابي لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس ، والله لو أدرك الخبيث الجاهلية ما أفضل عليه أحد ، وقال أبو عمرو الشيباني : أشعر الناس في وصف الخمر ثلاثة : الأعشى[2] والأخطل وأبو نواس : قال محمد بن عمر لم يكن شاعر في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته وبعد صيته وظرف لسانه : وقال أبو حاتم سئل أبو نواس عن شعره فقال : إذا أردت أن أجد قلت مثل قصيدي : " أيها المنتاب عن عفره " . وإذا أردت العبث قلت مثل قصيدي : " طاب الهوى لعميده " ، فأما الذي أنا فيه وحدي وكله جيد فإذا وصفت الخمر ، وقال أبو ذكوان كنا عند التوزي فذكرت عنده أبا نواس فوضع منه بعض الحاضرين ، فقال له التوزي : أتقول هذا لرجل يقول :

يخافه الناس ويرجونه كأنه الجنة والنار

ويقول :

وما فاته جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

ويقول :

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

وقال ابن الأعرابي يوما لجلسائه : ما أشعر ما قال أبو نواس في الخمر ؟ فقال بعضهم :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

وقال آخر :

كأن كبرى وصغرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

وقال آخر :

فكأن الكئوس فينا نجوم دائرت بروجها أيدينا

وقال آخر :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء

---

(1) نزع بالسهم كضرب : رمى .
(2) الأعشى : شاعر جاهلي مشهور .

فقال ابن الأعرابي : إن هذا كله لشاعر انفراد بالإحسان فيه ، وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لا يـــنزل اللـــيل حيـــث حلـــت ... فدهـــــــر شـــــــرابها نهـــــــار

قال مسلم بن بهرام : لقيت أبا العتاهية فقلت له : من أشعر الناس ! قال : تريد جاهليها أو إسلاميها أو مولدها ؟ قال : كلا أريد ، قال : الذي يقول في المديح.

إذا نحـــن أثنيـــنا علـــيك بصـــالح ... فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جـــرت الألفـــاظ يومـــا بمدحـــة ... لغـــيرك إنســانا فأنـــت الـــذي نعـــني

والذي يقول في الزهد :

ألا رب وجـــه فـــي الـــتراب عتـــيق ... ويـــا رب حســـن فـــي الـــتراب رقـــيق
ويـــا رب حـــزم فـــي الـــتراب ونجـــدة ... ويـــا رب رأى فـــي الـــتراب وثـــيق
فقـــل لقريـــب الـــدار إنـــك راحـــل ... إلى مـــنزل نـــائي المحـــل سحيق[1]
ومـــا الـــناس إلا هـــالك وابـــن هـــالك ... وذو نســـب فـــي الهـــالكين عـــريق
إذا امـــتحن الدنـــيا لبيـــب تكشـــفت ... لـــه عـــن عـــدو فـــي ثـــياب صـــديق

وكان يقول : سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أني سبقته إليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يـــــا كـــــبير الذنـــــب عفـــــو ... الله مـــــــن ذنـــــــبك أكـــــــبر

وقولـه :

مـــــن لم يكـــــن لله مـــــتهما ... لم يمـــــس محـــــتاجا إلى أحـــــد

وقولـه :

إذا امـــتحن الدنـــيا لبيـــب تكشـــفت ... لـــه عـــن عـــدو فـــي ثـــياب صـــديق

ثم قال : قلت في الزهد ستة عشر ألف بيت وددت أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات ، وقال الجاحظ : سمعت النظام يقول : - وقد أنشد شعرا لأبي نواس - كأن هذا الفتى جمع له الكلام فاختار أحسنه ، وقال بعضهم : كأن المعاني حبست عليه فأخذ حاجته وفرق الباقي على الناس ، وقال أبو حاتم : كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نواس ، وورد على العتابي بحلب عدة من الكبار من أهل قنسرين[2] فدخلوا وسلموا وكان في يده رقعة ينظر إليها ، فقال لهم : لقد سلك صاحب هذه الرقعة واديا ما سلكه أحد قبله ، فنظروا فإذا هو شعر أبي نواس في جنان وهو قوله :

---

(1) سحيق : بعيد من سحق ككرم وفرح .
(2) كورة بالشام منها حلب .

ربع الكرى بين الجفون محيل[2] | عفى عليه بكى عليك طويل
يا ناظرا ما أقلعت لحظاته | حتى تشحط[1] بينهن قتيل

وقال أبو عبد الرحمن الضرير : رأيت مسلم بن الوليد بجرجان وهو يتولاها فسألني عمن خلفت من الشعراء ، فقلت له : أما من الكوفيين فأبو نواس وهو مقدم عندهم ، فقال : ويحك ! كيف يتقدم وهو يقول : رويدك يا إنسان لا أنت تقفز ، أرأيت قوله " تقفز " خرجت من بين فكى شاعرا قط ؟ ثم قال : ويلك ! وكيف يكون كذلك وهو يحيل[3] ويتخطى من صفة المخلوق إلى صفة الخالق ؟ فقلت : مثل ماذا من قوله؟ قال : أما فيما أحال ، فكقوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه | لتخافك النطف التى لم تخلق

وهذا من الإغراق المستحيل فى العقول ومما ليس على مذهب القوم ، وأما فى تخطيه بصفة المخلوق إلى صفة الخالق فكقوله :

يجل أن تلحق الصفات به | فكل خلق لخلقه مثل

وكقوله :

برىء من الأشباه ليس له مثل

ومما قيل عن أبى نواس : إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء ، وأبا نواس لا يحسنهما ، وأجود شعره فى الخمر والطرد ، وأحسن ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سرقه ، وحسبك من رجل يريد المعنى ليأخذه فلا يحسن أن يبنى عليه حتى يجىء به قبيحا مثل قوله : ودوانى بالتى كانت هى الداء ، أخذه من قول الأعشى ، وأخرى تداويت منها بها ، والذى أخذه منه أحسن ، ومنها أيضا قوله : إن الشباب مطية الجهل ، أخذه من قول النابغة الجعدى ، فإن مطية الجهل الشباب ، وقوله : كطلعة الأشمط من إهابه[4] أخذه من قول أبى النجم كطلعة الأشمط من كسائه ولكن رزق أبو نواس فى شعره أن سار وحمله الناس وقدمه أهل عصره ، وإن له على ذلك لأشياء حسانا لا يدفعها ولا يطرحها إلا جاهل بالكلام أو حاسد .

وتوفى أبو نواس علم ١٩٨ هـ، أو ١٩٩ هـ عن ٥٩ سنة .

---

(1) تشحط بالدم : تضرج به .
(2) محيل : أتت عليه أحوال أى سنون .
(3) يحيل : يأتى بالمحال .
(4) الإهاب : الجلد .

أبو العتاهية

١٣٠ - ٢١٣ هـ

هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم سويد بن كيسان العنزي بالولاء ، المعروف بأبي العتاهية الشاعر المشهور ، ولد سنة ١٣٠ هـ - ٧٤٨ م بعين التمر ،قيل لما غزا خالد بن الوليد عين التمر سبى كيسان مع جماعة من صبيان أهلها فوجهها إلى أبى بكر فوصلوا إليه بحضرته عباد بن رفاعة العنزي فجعل أبو بكر يسأل الصبيان عن أنسابهم حتى أتى على بن كيسان فذكر له أنه من عنزة فلما سمعه عباد استوهبه من أبى بكر فأوهبه له فاعتقه فتولى عنزة ،وكان أبو إسماعيل القاسم حجاما من أهل درجة ولذلك كان أبو العتاهية يقول لمن عيره في نسبه :

إلا إنما التقوى هى العز والكرم	وحبك لدنيا هو الفقر والعدم
وليس على عبد تقى نقيصة	إذا صحح التقوى وإن حاك أوحجم

ونشأ أبو العتاهية بالكوفة وكان هو وأهله يعملون الجرار الخضر ويبيعونها ، وقيل بل إن عبيد زيد أخيه كانت تعمل له الخزف والجرار وكان زيد يبيعها ويوردون شهادة على ذلك قول أبى العتاهية : أنا جرار القوافى وأخى جرار التجارة ،وكان على ما يحكى رجلا نظيفا أبيض اللون أسود الشعر له وفرة وجعدة وهيئة حسنة ولباقة وحصافة، وكنى بأبى العتاهية لأنه كان يحب الشهوة والمجون والتعته، قيل إن الخليفة المهدى قال له يوما " أنت متحذلق متعته " فاستوت له كنية وسارت له في الناس .. وشعر أبى العتاهية لطيف المعانى سهل الألفاظ قليل التكلف إلا أنه كثير الساقط والمزدول ،كان الأصمعى يقول : " شعر أبى العتاهية كساحة الملوك فيها الجوهر والذهب والتراب والخوف والنوى"، وأكثر شعره في الزهد والأمثال، قال المبرد "أبو العتاهية حسن الشعر قريب المأخذ ، لشعره ديباجة ويخرج القول كمخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا "، وكان أبو العتاهية يقول " لو شئت أن أجعل كلامى كله شعرا لفعلت"، وامتدح أبو العتاهية الخليفة المهدى وكان يحضر ناديه وينال بره وتعرف بجاريته عتبة وأخذ يذكرها في شعره ،فغضب المهدى لذلك وأمر بحبسه فكتب إليه يستعطفه :

ألا أيهـــا الملـــك المــــرجى	علـــيه نواهـــض الدنـــيا تحـــوم
اقلـــني ذلـــة لم أجـــر مـــنها	إلى لـــوم ولا مـــثلي ملـــوم
وخلصـــني تخلـــص يـــوم بعـــثك	إذا للـــنار بـــرزت الجحـــيم

فرق لـه وأمر بإطلاق سراحه، ولما بويع الهادى استخفى أبو العتاهية خوفا منه وكان الهادى ينقم عليه لملازمته أخاه هارون ثم أنفذ إليه رقعة فيها :

ألا شـــافع عـــند الخلـــيفة يشـــفع	فـــيدفع عـــنا شـــر مـــا تـــتوقع
يردعـني موســى عــلى غـير عـثرة	ومالى أرى موسى من العفو أوسع

فأرسل إليه الهادى أمانا وأمر لـه بمال ولم يزل عنده مكرما حتى توفى وتولى الأمر هارون الرشيد فدخل عليه وامتدحه بقصيدة غراء :

جرى لـك مـن هارون بالسعد طائره	أمـــام اعـــتزام لا تخـــاف بـــوادره

وكان لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر وكان الخليفة يجرى علية في كل سنة خمسين ألف درهم ولما قدم الرشيد من الرقة لبس أبو العتاهية الصوف ، وتزهد وكان أبو العتاهية شديد البخل ، وحدث ثمامة قال دخلت يوما إلى أبى العتاهية فإذا هو يأكل خبزا بلا شيئا فقيل لـه وكيف ذلك فقال رأيت قدامه خبزا يابسا من رقاق فطير وقدحا فيه لبن حليب فكان يأخذ القطعة من الخبز فيغمسها في اللبن ويخرجها فلا تتعلق منه بقليل ولا كثير فقلت له كأنك اشتهيت أن تتأدم بلا شيء وما رأيت أحدا قبلك يتأدم بلا شيء، ويحكى عن بخل أبو العتاهية حكايات غريبة غير هذه ولكنه كان يقول في شعره عكس ما يفعل ومنه :

إذا المرؤ لا يعتق من المال نفسه	تملكـه المـال الـذى هـو مالكـه
ألا إنمـا مـالى الـذي أنـا مـنفق	ولـيس لى المـال الـذي أنـا تاركـه
إذا كنـت ذا مـال فـبادر بـه الـذى	يحـــق وإلا اســـتهلكته مهالكـــه

وعاش أبو العتاهية إلى أيام المأمون وامتدحه ثم عاد إلى زهده وانقطع عن أصحابه إلى أن مرض مرضه الذى توفى فيه ،واختلف في سنة وفاته والراجح أنه مات سنة ٢١٣ هـ ودفن حيال قنطرة الزياتين في الجانب الغربى ببغداد وكان أمر أن يكتب على قبره :

أذن حـــــتى تـســــمعى ... اسمعـــى ثـــم عـــى عـــى
أنــــا رهـــــن بمضـــــجعى ... فـــاحذرى مـــثل مصـــرعى
عشـــت تســـعين حجـــة ... اســـــلمتنى لمضـــــجعى
ثـــم تـــرى الحـــى ثابـــتا ... فـــى ديـــار الـــتزعزع
لـــيس زاد ســـوى الـــتقى ... فخـــذي مـــنه أو دعـــى

وقال محمد[1] بن أمية : كنت جالسا بين يدى إبراهيم بن المهدى ، فدخل إليه أبو العتاهية ، وقد تنسك ولبس الصوف ، وترك قول الشعر إلا فى الزهد ، فرفعه إبراهيم وسر به ، وأقبل عليه بوجه ، فقال له أبو العتاهية : أيها الأمير : بلغنى خبر فتى فى ناحيتك ومن مواليك يعرف بابن أمية ، يقول الشعر ،وأنشدت له شعرا فأعجبنى ،فما فعل ؟ فضحك إبراهيم ، ثم قال :لعله أقرب الحاضرين مجلسا منك، فالتفت إلى فقال: أنت هو ؟ فديتك ، فتشورت[2] وخجلت ، وقلت له : أنا محمد بن أمية جعلت فداءك ،وأما الشعر فإنما أنا شاب أعبث بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبث الشاب ، فقال لى: فديتك! ذاك والله زمان الشعر وإبانه ، وما قيل فيه غرره وعيونه ، ومازال ينشطنى ويؤنسنى حتى رأى أنى قد أنست به ،ثم قال لإبراهيم بن المهدى: إن رأى الأمير – أكرمه الله – أن يأمره بأنشادى ما حضر من الشعر ! فقال إبراهيم : بحياتى يا محمد انشده ،فأنشدته .

رب وعـــد مـــنك لا أنســـاه لى ... أوجـــب الشـــكر وإن لم تفعـــل
أقطـــع الدهـــر بظـــن حســـن ... وأجـــلى غمـــرة مـــا تنجـــلى
كـــلما أملـــت يومـــا صـــالحا ... عـــرض المكـــروه لى فـــى أمـــلى
وأرى أيـــامى لا تدنـــى الـــذى ... أرتجـــى مـــنك وتدنـــى أجـــلى

فبكى أبو العتاهية حتى جرت دموعه عل لحيته ،وجعل يردد البيت الأخير منها وينتحب،وقام فخرج وهو يردده ويبكى حتى خرج إلى الباب !

وقال أبو العتاهية [3]. حبسنى الرشيد لتركى الشعر ، وغلقت على الأبواب ، فبقيت دهشا كما يدهش مثلى لتلك الحالة ؛ فنظرت فإذا رجل جالس فى جانب السجن وهو مقيد ، فجعلت أنظر إليه ساعة ، فتمثل بقوله :

تعـودت حسـن الصـبر حـتى ألفـته ... فأسـلمنى حسـن العـزاء عـلى الصبر
وصـيرنى يأسـى مـن الـناس راجـيا ... لحسن صنيع الله من حيث لا يدرى

---

[1] الأغانى ص٣٠ ج١١ ،وكان محمد بن أمية ،كاتبا شاعرا ظريفا ،نديما لإبراهيم بن المهدى .
[2] تشور ،فعل ما يستحيا منه فى الأصل ،والمراد هنا الخجل .
[3] الطبرى ص ٩٢ ج ٤ ،بدائع البدائع ص١٥١ ج ١.

فقلت له : أعد - أعزك الله - هذين البيتين ، فقال لي : ويلك يا أبا العتاهية! ما أسوأ أدبك ! وأقل عقلك ! دخلت على السجن فما سلمت تسليم المسلم على المسلم ، ولا سألت مسألة الحر للحر ، ولا توجعت توجع المبتلى ، حتى إذا سمعت بيتين من الشعر الذى لا فضيلة فيك سواه لم تصبر عن استعادتهما ، ولم تقدم قبل مسألتك عنهما عذرا لنفسك في طلبهما ! فقلت : يا أخي! إني دهشت من هذه الحال فلا تعذلني واعذرني متفضلاً، فقال : أنا والله بالدهش والحيرة أولى منك : لأنك حبست على أن تقول الشعر الذى به ارتفعت وبلغت ما بلغت ، وإذا قلته أمنت، وأنا حبست على أن أدل على ابن رسول الله ليقتل أو اقتل دونه ، و والله لا أدل عليه أبدا ، والساعة يدعى بي فأقتل ، فأينا أحق بالدهش ؟ فقلت ؛ أنت والله أولى ، سلمك والله وكفاك ، و لو علمت أن هذه حالك ما سألتك ، فقال ؛ إذن لا أبخل عليك ، ثم أعاد على البيتين حتى حفظتهما وأجزتهما بقولي :

إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما   تكرهت منه طال عتبي على الدهر

ثم سألته عن أسمه ، فقال: أنا أبو حاضرة ، داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد. قال : فلم نلبث إلا قليلا حتى سمعنا صوت الأقفال ، فقام ، فسكب عليه ماء من جرة كانت عنده ، ولبث ثوبا نظيفا ودخل الحرس ومعهم الشموع ، فأخرجونا جميعا ، وقدم قبلي إلى الرشيد ، فسأله عن أحمد بن عيسى ، فقال : لا تسألني عنه ، وافعل ما بدا لك ، فلو أنه تحت ثوبي ما كشفت عنه ، فأمر به فضربت عنقه ، ثم قال لي : أظنك يا أبا إسماعيل ارتعت ، فقلت : دون ما رأيت تسيل منه النفوس ، فقال : ردوه إلى محبسه ، فردوني !

وجلس المهدى للشعراء[1] يوما فأذن لهم ، وفيهم بشار و أشجع ، وكان أشجع يأخذ عن بشار ويعظمه ، وكان في القوم غير هذين أبو العتاهية ، قال أشجع فلما سمع بشار كلام أبي العتاهية قال : يا أخا سليم ؛ أهذا ذلك الكوفي الملقب؟ قلت : نعم ! قال : لا جزى الله خيرا من جمعنا معه ، ثم قال له المهدى : أنشد ، فقال: ويحك ! أو يستنشد أيضا قبلنا ؟ فقلت : كما ترى فأنشد :

ألا مـــــا لســـــــيدتي مالهـــــا	أدلا فــــــــأحمل إدلالهــــــــا
وإلا ففـــــيم تجنـــــــت ومـــــا	جنيـــت ! ســـقى الله أطلالهـــا
ألا إن جاريـــــــــــة للإمـــــــــا	م قـــد أســـكن الحســـن ســـربالها
مشـت بـــين حـــور قصـــار الخطـــأ	تجـــاذب فـــي المشـــي أكفالهـــا
وقــــد أتعـــب الله نفســـي بهـــا	وأتعـــــب بـــــاللوم عذالهـــــا

---

[1] الأغاني ص ٣٣ ج ٤ .

قال أشجع : فقال لي بشار : ويحك يا أخا سليم! ما أدري من أي أمريه أعجب : أمن ضعف شعره ، أم من تشبيبه بجارية الخليفة ، وهو يسمع ذلك بأذنه ، حتى أتى على قوله :

أتـــته الخلافـــة مـــنقادة	إلــيه تجـــرر أذيالهـــا
فلـــم تك تصلـــح إلا لـــه	ولم يـــك يصـــلح إلا لهـــا

قال أشجع : فقال لي بشار وقد اهتز طربا ، ويحك أترى الخليفة لم يطر عن فراشه .

ودخل الفراء على جعفر بن يحيى ، فقال له : أزعم أن أبا العتاهية أشعر هذا العصر ، فقال : هو والله أشعرهم عندى ، وقيل لداود بن زيد الشاعر : من أشعر أهل زمانه؟ فقال : أبو نواس ، وقيل لـــه : فما تقول في أبا العتاهية ؟ قال : هو أشعر الأنس والجن[1]، وقال ابن الأعرابي : والله ما رأيت شاعرا قط أطبع ولاأقدر على بيت من أبي العتاهية ، وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر[2] ويروى أن أبا العتاهية قال : قرأت البارحة " عما يتساءلون "، ثم قلت قصيدة أحسن منها[3]، وكذب أبو العتاهية فما يدرك إنسان بلاغة القرآن الكريم ولو حاول المستحيل ، وقال الأصمعي : شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى[4]، وقال أبو حاتم : كان أصحابنا يقولون : لو أن شعر أبي العتاهية بجزالة لفظ لكان أشعر الناس[5]، وقيل لأبي نواس: والله لأنت أشعر من أبي العتاهية، فقال : والله ما رأيته قط إلا ظننت أنه سماء وإني أرض[6]، وقيل لبشار : من أشعر أهل زماننا ؟ فقال : مخنث أهل بغداد يعني أبا العتاهية .

ويروى أن أبا العتاهية وإبراهيم الموصلي وأبا عمرو والشيباني توفوا في يوم واحد من خلافة المأمون وذلك سنة ٢١٣ هـ[7].

---

(1) ص١٢٢/٣ الأغاني .
(2) ١٢٧/٣ المرجع .
(3) ١٣٧/٣ الأغاني .
(4) ١٤٠/٣ الأغاني .
(5) ١٥٢/٣ المرجع .
(6) ١٥٦/٣ .
(7) ١٧٥/٣ الأغاني .

أبـــو دلامـــة

المتوفى سنة ١٦١هـــ

هـو زنـد بـن الجـون ، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون ، نشأ فـي الكوفـة واتصـل بالخلفـاء مـن بنـي العباس ، فكانوا يستلطفونه ويغدقون عليه صلاتهم وله في ذلك أخبار كثيرة ، وتوفي عام ١٦١ هـ .

قـال أبـو دلامـة[1]، أتـى بي إلى المنصور وأنا سكران ؛ فحلف ليخرجني في بعـث حـرب ؛ فأخرجـنـي مـع روح بـن حـاتم المهلبي لقتال الشراة[2]، فـلما ألـتقى الجمعان قلت لروح : أما والله لـو أن تحتي فرسـك ، ومعـي سلاحك ، لأثـرت فـي عـدوك اليوم أثرا ترتضيه ، فضحك وقال : لأدفعن ذلك إليك ، ولآخذنك بالوفاء بشرطك ؛ ونـزل عـن فرسه ، ونزع سلاحه، ودفعهما إلى ودعا بغيرهما ، فلما حـصل ذلك فـي يـدي ، وزلت عنـي حلاوة الطمع ، قلت لـه : أيها الأمير ؛ هذا مقام العائذ بك. وقد قلت بيتين فأسمعهما، قال : هات ؛ فأنشدته :

إنـي استجرتك أن أقدم في الوغى	لـــتطاعن وتـــنازل وضـــراب
فهـب الـسيوف رأيـتها مشـهورة	فتركـتها ومضـيت فـي الهـراب
مـا ذا تقـول لمـا يجـيء ومـا يـرى	مـن واردات المـوت فـي النشـاب[3]؟

فقـال : دع عـنك هـذا وستعلم ، وبرز رجـل مـن الخـوارج يدعـو للمبارزة ، فقـال : اخـرج إليه يـا أبـا دلامة ! فقلت : أنشدك الله أيها الأمير في دمي ! قال : والله لتخرجن ، فقلت : أيها الأمير فإنه أول يـوم مـن الآخـرة ، وآخر يوم من الدنيا ، وأنا والله جائع ما شبعت مني جارحة من الجوع ، فمر لي بشيء آكله ثم أخرج ! فأمر لي برغيفين ودجاجة ، فأخذت ذلك وبرزت عن الصف ، فلما رآني الشاري أقبل نحوي، وعليه فرو ، قد أصابه المطر فابتل ، وأصابته الشمس فأقفعل[4]، وعيناه تقدان ، فأسـرع إلي . فقلت لـه : على رسـلك يا هـذا كـمـا أنـت ! فـوقف . فقلت : أتقـتل مـن لا يقاتلك ؟ قال : لا . قلت : أتقتل رجلا على دينك ؟ قال : لا . قلت : أفتستحل ذلك

---

[1] الأغاني ص٢٤٣ج١٠ ، نهاية الأرب ص٤٠ج٤ ، معاهد التنصيص ص٢١٢ ج٢ .

[2] الشراة : هم الخوارج .

[3] النشاب : السهم .

[4] اقفعل : تقبض .

قبل أن تدعو من تقاتله إلى دينك ؟ قال : لا ، فاذهب عنى إلى لعنة الله ! ، قلت : لا أفعل أو تسمع منى . قال : قل . قلت : هل كانت بيننا قط عداوة أو ترة ؟ أو تعرفنى بحال تحفظك على! أو تعلم بين أهلى وأهلك وترا؟ قال : لا، والله. قلت : ولا أنا والله لك إلا على جميل الرأى، وإنى لأهواك، وأنتحل مذهبك، وأدين دينك، وأريد السوء لمن أراده لك. قال : يا هذا جزاك الله خيرًا فانصرف. قلت : إن معى زادا أحب أن آكله معك ، وأحب مواكلتك لتتأكد المودة بيننا ، ويرى أهل العسكر هوانهم علينا ، قال : فافعل . فتقدمت إليه حتى اختلفت أعناق دوابنا ، وجمعنا أرجلنا على معارفها ، والناس قد غلبوا ضحكا ! فلما استوفينا ودعنى ، ثم قلت له : إن هذا الجاهل - إن أقمت على طلب المبارزة - ندبنى إليك فتتعبنى وتتعب ، فإن رأيت ألا تبرز اليوم فافعل. قال : فعلت . ثم انصرف وانصرفت . فقلت لروح: أما أنا فقد كفيتك قرنى! فقل لغيرى أن يكفيك قرنه كما كفيتك ، فأمسك ! وخرج آخر يدعو إلى البراز فقال لى : أخرج إليه ، فقلت :

إنـــى أعـــوذ بـــروح أن يقدمـــنى	إلى البراز فتخزى بى بنو أسد
إن الـــبراز إلى الأقـــران أعـــلمه	ممـا يفـرق بـين الـروح والجسـد
قد حالفتك المنايا إذ صمدت لها	وأصبحت لجميع الخلق بالرصد
إن المهلب حب الموت أورثكم	ومما ورثت اختيار الموت عن أحد
لو أن لى مهجة أخرى لجدت بها	لكـنها خلقـت فـردا فـلم أجـد

فضحك وأعفانى !

ودخل أبو دلامة[1] على المهدى وعنده عيسى بن موسى ، والعباس بن محمد ، وناس من بنى هاشم ، فقال المهدى : يا أبا دلامة. قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : اهج من شئت ممن ضمه هذا المجلس ولك الجائزة ، فنظر فى القوم فلم يرى إلا شريفا قريبا من المهدى ، فقال : أنا أحد من بالمجلس ثم أنشد :

ألا أبلـــغ إلـــيك أبـــا دلامـــة	فلـيس مـن الكـرام ولا كـرامه
إذا لـبس العمامـة كـان قـردا	وخـنزيرا إذا نـزع العمامـه
جمعـت دمامـة وجمعـت لؤمـا	كـذاك اللـؤم تتـبعه الدمامـه
فـإن تـك قـد أصبت نعـيم دنـيا	فـلا تفـرح فقـد دنـت القـيامه

(1) ذيل زهر الآداب ص ٨٩، مهذب الأغانى ص ٢٠ ج ٩،المستطرف ص ٨٦ ج ١، المحاسن والمساوىء ص٢٨٧ طبع ليبزج، ذيل زهر الآداب ص ٩٠، الأغانى ص٢٥٨ ج١٠ .

فضحك المهدى ، وسر القوم إذ لم يسيء إلى أحد منهم ، ثم قال له المهدى : تمن ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ تأمر لى بكلب صيد . فسبه وقال : ما تصنع به ؟ فقال : الحاجة لى أم لك ؟ فقال : صدقت اعطوه كلبا . فأعطى . فقال : يا أمير المؤمنين : لابد لهذا الكلب من كلاب[1]. فأمر له بغلام مملوك ، فقال : يا أمير المؤمنين : أو يتهيأ لى أن أصيد راجلا ؟ فقال : أعطوه دابة . فقال : ومن يسوس الدابة ؟ فقال : أعطوه غلاما سائسا . فقال : ومن ينحر الصيد ويصلحه ؟ فقال : أعطوه طباخا . فقال : ومن يأويهم ؟ فقال : أعطوه دارا فبكى أبو دلامة وقال : ومن يمون هؤلاء كلهم ؟ فقال : يكتب لهم بمائة جريب[2] عامرة ، ومائتى جريب غامرة ، فقال : وما الغامرة ؟ قال : التى لا نبات فيها . قال : فأنا أعطيك مائتى ألف جريب من فيافى بنى أسد ! فضحك وقال : ما تريد ؟ قال : بيت المال . قال : على أن أخرج المال منه . قال : فإذن يصير غامرا ، فاستفرغ ضحكا وقال : اذهب فقد جعلتها لك كلها عامرة . فقال :يا أمير المؤمنين ؛ ائذن لى أن أقبل يدك ، قال : أما هذه فدعها ، فقال: والله ما تمنع عيالى شيئا أهون عليهم منها ! فناوله يده فقبلها .

ويروى أن أبو دلامة[3] شرب فى بعض الحانات[4]؛ فمشى ، وهو يميل ؛ فلقيه العسس فأخذوه ، فقيل له من أنت ؟ وما دينك ؟ فقال :

دينى على دين بنى العباس ... ما ختم الطين على القرطاس

إذا اصطبحت أربعا بالكاس ... فقد أدار شربها برأسى

فهل بما قلت لكم من بأس

فأخذوه وخرقوا ثيابه وساجه[5]، وأتى به إلى أبى جعفر ، فأمر بحبسه مع الدجاج فى بيت ، فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرة ، وجاريته أخرى ، فلا يجيبه أحد . وهو مع ذلك يسمع صوت الدجاج وزقاء[6] الديوك ، فلما أكثر قال له السجان: شأنك ؟ قال : ويلك ! من أنت ؟ وأين أنا ؟ قال : فى الحبس وأنا السجان ، قال : ومن حبسنى ؟ قال أمير المؤمنين ، قال : ومن خرق طيلسانى ؟ قال : الحرس ، فطلب أن يأتيه بدواة وقرطاس ، ففعل ، فكتب إلى أبى جعفر المنصور يقول :

---

(1) الكلاب : صاحب الكلاب .

(2) الجريب : المزروعة .

(3) نهاية الأرب ص ٤٢ ج ٤، الأغانى ص٢٥١ج١٠ طبعة دار الكتاب .

(4) الحانات : المواضع التى تباع فيها الخمور .

(5) الساج : الطيلسان الأخضر أو الأسود .

(6) زقاء الديك : صياحه .

أمـير المؤمـنين فدتـك نفسـي عـلام حبسـتني وخرقـت سـاجي
أمـن صـهباء[2] صـافية المـزاج كـأن شـعاعها لهـب السـراج
وقـد طبخـت بـنار الله حـتى لقـد صـارت مـن الـنطف[1] النضـاج
تهـش لهـا القلـوب وتشـتهيها إذا بـرزت ترقـرق فـي الـزجاج
أقـاد إلى السـجون بغـير جـرم كـأني بعـض عمـال الخـراج
فلـو معهـم حبسـت لكـان سـهلا ولكـني حبسـت مـع الدجـاج
وقـد كانـت تخـبرني ذنوبـي بـأني مـن عقـابك غـير نـاجي
عـلى أنـي - وإن لاقيـت شـرا - لخـيرك بعـد ذاك الشـر راجـي

فأستدعاه المنصور ، وقال : أين حبست يا أبا دلامة ؟ قال : مع الدجاج ، قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أقوقيء[3]، إلى الصباح ، فضحك وخلى سبيله ، وأمر بجائزة ، فلما خرج قال له الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ! أما سمعت قوله: وقد طبخت بنار الله - يعني الشمس - فأمر برده ، ثم قال : يا خبيث ؛ شربت الخمر ، قال : لا ، قال : أفلم تقل : طبخت بنار الله - تعني الشمس ؟ قال : لا ، والله ما عنيت إلا نار الله الموقدة التي تطلع على فؤاد الربيع ! فضحك المنصور ، وقال : خذها يا ربيع ، ولا تعاود التعرض له .

وقال أيوب المورياني لأبي جعفر[4] وكان يشنأ أبا دلامة : إن أبا دلامة معتكف على الخمر ، فما يحضر صلاة ولا مسجدا ، وقد أفسد فتيان العسكر ، فلو أمرته بالصلاة معك لأجرت فيه وفي غيره من فتيان عسكرك بقطعه عنهم ، فلما دخل عليهم أبو دلامة قال له ما هذا المجون الذي يبلغني عنك ؟ فقال يأمير المؤمنين : ما أنا والمجون وقد شارفت باب قبري ! قال دعني من استكانتك وتضرعك ، وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعصر في مسجدي ، فلئن فاتتاك لأحسنن أدبك ولأطيلن حبسك! فوقع في شر ، ولزم أياما ثم كتب قصته ودفعها إلى المهدي فأوصلها إلى أبيه، وكان فيها :

---

[1] النطف : الماء الصافي قل أو كثر .

[2] الصهباء : الخمر .

[3] أقوقيء : أصيح .

[4] مهذب الأغاني ص٣٣ج٩ ،الأغاني ص٢٤٦ج١٠ ، ذيل زهر الآداب ص٩١ .

ألم تعلما أن الخليفة لزنى[1] ... بمسجده والقصر ،مالى وللقصر !
أصلى به الأولى جميعا وعصرها ... فويلى من الأولى وويلى من العصر
أصليهما بالكره فى غير مسجدى ... فمالى فى الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان فى قومى مساجد جمة ... ولم ينشرح يوما لغشيانها صدرى
يكلفنى من بعدما شبت خطة ... يحط بها عنى الثقيل من الوزر
وما ضره - والله يغفر ذنبه- ... لو أن ذنوب العالمين على ظهرى

فقال قد أعفيناك من هذه الحال على أن تصلى فى مسجد قبيلتك ولكن على ألا تدع القيام معنا فى ليالى شهر رمضان فقد أظل[2]فقال أفعل قال فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمت ذلك والله لئن فعلت لأحدنك[3]فقال أبو دلامة : البلية فى شهر أخف منها فى طول الدهر سمعا وطاعة ! فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد وكان المهدى يبعث إليه فى كل ليلة حرسيا يجىء به فشق ذلك عليه وفزع إلى الخيزران وإلى أبى عبيد الله وكل من يلوذ بالمهدى ليشفعوا له فى الاعفاء من القيام فلم يجبهم ، فقال لهم أبو عبيد الله[4] الدال على الخير كفاعلة فكيف شكرك ؟ قال أتم شكر ، قال عليك بريطة[5] ، فإنه لا يخالفها قال صدقت ثم رفع إليها رقعة ، يقول فيها :

أبلغنا ريطة أنى ... كنت عبدا لأبيها
فمضى يرحمه الله ... وأوصى بى إليها
وأراها نسيتنى ... مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يمشى ... مشية ما أشتهيها
قائدا لى ليلة القد ... ر كأنى أبتغيها
ولقد عشت زمانا ... فى فيافى وجيها
فى ليالى من شتاء ... كنت شيخا أصطليها
قاعدا أوقد نارا ... لضباب[6] أشتويها
وصبوح وغبوق ... فى علاب[7] أستحيها
ما أبالى ليلة القدر ... ولا تسمعنيها
فاطلبى لى فرجا منه ... ا وأجرى لك فيها

(1) اللز - لزوم الشىء بالشىء وإلزامه به .
(2) أظل : قرب وأشرف .
(3) حده : أقام عليه الحد .
(4) هو أبى عبيد الله معاوية بن عبيد الله ، وكان من رجالات المنصور ثم المهدى .
(5) ريطة ، هى ابنة الخليفة أبى العباس وزوج المهدى .
(6) الضب : دويبة من الحشرات تحرص العرب على صيدها وأكله وجمعه ضباب .
(7) جمع علبة . وهى قدح ضخم من جلد الإبل أو من خشب يحلب فيها .

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، وأرسلت اليه : اصطبر حتى تمضى ليلة القدر . فكتب اليها : إنى لم أسألك أن تكلميه فى إعفائى عاما قابلا ، وإذا مضت ليلة القدر فقد فنى الشهر وكتب تحتها أبياتا :

خافى إلهك فى نفس قد احتضرت ... قامت قيامتها بين المصلين
مالـيلة القدر من همى فأطلبها ... إنى أخاف المنايا قبل عشرينا
يا ليلة القدر كسرت أرجلنا ... يا ليلة القدر حقا ما تمنينا ؟
لا ارك الله فى خير أؤمله ... فى ليلة بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، ودخلت إلى المهدى ، فشفعت له إليه ، وأنشدته الأبيات ، فضحك حتى استلقى ، ودعا به وريطة معه فى الحجلة[1]، فدخل فأخرج رأسه إليه وقال : قد شفعنا ريطة فيك ، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم فقال : أما شفاعة سيدتى فى حتى أعفيتنى فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فإما أن تتمها بثلاثة آلاف فتصير عشرة ، أو تنقصنى منها ألفين فتصير خمسة آلاف : فأنى لا أحسن حساب السبعة ، فقال : قد جعلتها خمسة ، فقال : أعيذك بالله أن تختار أدنى الحالين، وأنت أنت ! ثم تكلمت فيه ريطة فأتمها له عشرة آلاف درهم .

ابن وهيب

هو محمد بن وهيب الحميرى صلبية ، شاعر من أهل بغداد من شعراء الدولة العباسية وأصله من البصرة ، وله أشعار كثيرة يذكرها فيها ويتشوقها ويصف إيطانه إياها ومنشأه بها .

ومن قوله يمدح المعتصم وفيه غناء :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
يحكى أفاعيله فى كل نائبة ... الغيث والليث والصمصامة الذكر

ومن قوله من كلمة يمدح بها الحسن بها رجاء بن الضاحك :

وأجارتنا إن التعفف باليابس ... وصبرا على استدرار دنيا بإبساس[2]
حريان ألا يقذيا[3] بمذلة ... كريما وألا يحوجاه إلى الناس
أجارتنا إن القداح[4] كواذب ... وأكثر أسباب النجاح مع الياس

---

[1] الحجلة : بيت يزين بالثياب والأسرة والستور .
[2] أبس الحالب بالناقة : دعاها للحلب .
[3] أقذى عينه ألقى فيها القذى .
[4] جمع قدح بالكسر وهى السهام التى يستقسم بها فيما يهم الإنسان به حتى يقدم أو يحجم .

ودخل محمد بن وهيب على أبى دلف القاسم بن عيسى فأعظمه جدا ، فلما انصرف قال له أخوه معقل : يا أخى فعلت بهذا ما لم يستأهله ، ما هو فى بيت من الشرف ولا فى جمال من الأدب ولا بموضع من السلطان ، فقال : بلى يا أخى أنه لحقيق بذلك ، أولا يستحقه ؟ وهو القائل :

يدل على أننى عاشق … من الدمع مستشهد ناطق
ولى مالك أنا عبد له … مقر بأنى له وامق
إذا ما سموت إلى وصله … تعرض لى دونه عائق
وحاربنى فيه ريب الزمان … كأن الزمان له عاشق

ولما قدم المطلب من عبد الله بن مالك من الحج لقيه بن وهيب مستقبلا مع من تلقاه ودخل إليه مهنئا بالسلامة بعد استقراره ، وعاد إليه فى الثانية فأنشده قصيدة طويلة مدحه بها يقول فيها :

وما زلت أستدعى لك الله غائبا … وأظهر إشفاقا عليك وأكتم
وأعلم أن الجود ما غبت غائب … وأن الندى فى حيث أنت مخيم
إلى أن زجرت الطير سعدا سوانحا … وحم لقاء بالسعود مقدم
وظل يجانينى بمدحك خاطرى … وليلى ممدود الرواقين أدهم
وفال طواه الحج فأخشع لفقده … ولا عيش حتى يستهل المحرم
سيفخر ما ضم الحطيم[1] وزمزم … بمطلب لو أنه يتكلم
ولو رد مخلوق إلى بدء خلقه … إذا كنت جسما بينهن تقسم
سما بك منها كل خفيف فأبطح … مما بك منه الجوهر المتقدم
وحن إليك الركن حتى كأنه … وقد جئته حل عليك مسلم

فوصله صلة سنية وأهدى له هدية حسنة من طرف ما قدم به وحمله ، وكان محمد بن وهيب لما قدم المأمون من خرسان مضاعا مطرحا أنما يتصدى للعامة وأوساط الكتاب والقواد بالمديح ويسترفدهم فيحظى بالسير ، فلما هدأت الأمور واستقرت واستوثقت[2]، جلس أبو محمد الحسن بن سهل يوما منفردا بأهله وخاصته وذوى مودته ومن يقرب من أنسه فتوسل إليه محمد بن وهيب بالحسن بن رجاء

---

(1) الحطيم : جدار حجر الكعبة .

(2) استوثق لك الأمر : أمكنك .

حتى أوصله مع الشعراء، فلما انتهى إليه القول استأذن في الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده القصيدة التي أولها :

ودائع أسرار طوتها السرائر … وباحت بمكنوناتهن النواظر
ملكت لها طي الضمير وتحته … شبا لوعة عضب الغرارين[1] باتر
فأعجم عنها ناطق وهو معرب … وأعجبت العجم الجفون المواطر
ألم تقذني السراء في رنق[4] الهوى … غريرا بما تجني على الدوائر
تسالمني الأيام في عنفوانه … ويكلؤني[2] طرف من الدهر ناظر
إلى الحسن الباني العلا حين يممت … عوالي المنى حيث الحيا المتظاهر
إلى الأمل المبسوط والأجل الذي … بأعدائه تكبو الجدود العواثر
ومن أنبعث عين المكارم كفه … يقوم مقام القطر والروض داثر
تعصب تاج الملك في عنفوانه … واطت[3] به عصر الشباب المنابر
ولو لم تكن إلا بنفسك فاخرا … لما انتسبت إلا إليك المفاخر

فطرب أبو محمد حتى نزل عن سريره إلى الأرض وقال : أحسنت والله وأجملت ، ولو لم تقل قط ولا تقول في باقي دهرك غير هذا لما احتجت إلى القول، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، فأحضرت ، واقتطعه إلى نفسه فلم يزل في جنبته أيام ولايته وبعد ذلك إلى أن مات ما تصدى لغيره.

وله في مدح المأمون :

يا خير منتسب لمكرمة … في المجد حتى ينتج العدد
في كل أنملة لراحته … نوء يسح وعارض حشد[5]
وإذا القنا رعفت[6] أسنته … علق وضم كعوبه قصد
فكأن ضوء جبينه قمر … وكأنه في صولة أسد
وكأنه روح تدبرنا … حركاته وكأننا جسد

---

[1] الغرار-حد الريح والسيف وعضب قاطع وكذلك باتر

[2] يكلؤني : يحفظني .

[3] أطت : صوتت .

[4] الرنق -- الكدر ، والغرير – الشاب لا تجربة له . وأقذى عينه - جعل فيها القذى وأخرجه منها ضد .

[5] الحشد : الجماعة منن الناس .

[6] رعف الرجل : سال الدم من أنفه وهو هنا على المجاز . والعلق : الدم والكعوب جمع كعب وهو العقدة من عقد الرمح . والقصد جمع قصدة وهي القطعة مما يكسر .

وقد استحسنها المأمون وأمر بأن تعد أبيات قصيدته ويعطى لكل بيت ألف درهم فعدت فكانت خمسين ، فأعطاه خمسين ألف درهم ، وله في المأمون والحسن بن سهل خاصة مدائح شريفة نادرة ، ومن عيونها قوله للمأمون :

العـــذر إن أنصـــفت متضـــح	وشـــهيد حـــبك أدمـــع ســـفح
فضـــحت ضـــميرك عـــن ودائعـــه	إن الجفـــون نواطـــق فصـــح
وإذا تكلمـــت العـــيون عـــلى	إعجامهـــا فالســـر منفضـــح
وبمـــا أبيـــت معـــانقي قمـــر	للحســـن فـــيه مخـــايل نصـــح
نشـــر الجمـــال عـــلى محاســـنه	بدعـــا وأذهـــب همـــه الفـــرح
يخـــتال فـــي حلـــل الشـــباب بـــه	مـــرح وداؤك أنـــه مـــرح
مـــازال يلثمـــني مراشـــفه	ويعلـــني الأبـــريق والقـــدح
حـــتى اســـترد اللـــيل خلعـــته	ونشـــا خـــلال ســـواده وضـــح
وبـــدا الصـــباح كـــأن غـــرته	وجـــه الخلـــيفة حـــين يمـــتدح

أبـــو تمام

١٩٠ – ٢٣١ هـ

هو حبيب بن أوس الطائي ، مولده ومنشؤه منبج[1] بقرية منها يقال لها جاسم. كان كما يقول أبو الفرج شاعرا مطبوعا و لطيف الفطنة دقيق المعاني ، غواصا على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره ، وله مذهب في المطابق[2] هو كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فإن له فضل الإكثار فيه والسلوك في جميع طرقه ؛ والسليم من شعره النادر لا يتعلق به أحد ، وله أشياء متوسطة ورديئة رذلة جدا ، وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف ، وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعلمون القحة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب ، وهذا ما يتكسب به كثير من أهل هذا الدهر ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معايبهم سببا للترفع وطلبا للرياسة ، وليست إساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير مسقطة إحسانه ، ولو كثرت إساءته أيضا ثم أحسن لم يقل له عند الإحسان أسأت ولا عند الصواب أخطأت.

---

(1) منبج : مدينة بين الفرات وحلب ، وجاسم : قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ .

(2) المطابق : نوع من البديع .

والتوسط فى كل شىء أجمل، والحق أحق أن يتبع ، وقد روى عن بعض الشعراء أن أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن فى جميعها إلا فى بيت واحد ، فقال : له يا أبا تمام لو ألقيت هذا البيت ما كان فى قصيدتك عيب ، فقال له : أنا والله أعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل أولاده فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو فى نفسه ، فهو وإن أحب الفاضل لم يبغض الناقص ، وإن هوى بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر واعتذاره بهذا ضد ما وصف به نفسه فى مدحه الواثق حيث يقول:

جاءتك من نظم اللسان قلادة	سمطان[1] فيها اللؤلؤ المكنون
حذيت حذاء الحضرمية أرهفت	وأجادها التخصير والتلسين[2]
إنسية وحشية كثرت بها	حركات أهل الأرض وهى سكون
ينبوعها خضل وحلى قريضها	حلى الهدى ونسيجها موضون[3]
أما المعانى فهى أبكار إذا	نصت ولكن القوافى عون[4]
أحذاكها صنع الضمير يمده	جفر[5] إذا نضب الكلام معين
ويسىء بالإحسان ظنا لا كمن	هو بابنه أو شعره مفتون

فلو كان يسىء بالإحسان ظنا ولا يفتتن بشعره كنا فى غنى عن الاعتذار له، وقد فضل أبا تمام من الرؤساء والكبراء من لا يشق الطاعنون عليه غبارا ولا يدركون وإن جدوا آثاره ، وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له فى جده نظيرا ولا شكلا ، ولو لا أن الرواة قد أكثروا فى الاحتجاج له وعليه وأكثر متعصبوه الشرح لجيد شعره ، وأفرط معادوه فى التشهير بردينه والتنبيه على رذله ودنيئه ، لذكرت منه طرفا ولكن قد أتى من ذلك لا يزيد عليه .

وكان محمد بن عبد الملك الزيات يقول : أشعر الناس طرا الذى يقول:

وما أبالى وخير القول أصدقه	حقنت[6] لى ماء وجهى أو حقنت دمى

فقيل له : من أشعر زماننا هذا ؟ فقال الذى يقول :

---

(1) السمط : خيط النظم .

(2) الملسنة من النعال : ما فيها طول ولطافة كهينة اللسان . والمختصرة منها : مستدقة الخصر ، وأرهفت ، رققت ، والحضرمية ، نسبة إلى حضرموت .

(3) موضون مثنى بعضه على بعض ، والخضل ،كل شىء ند يترشف نداه .

(4) العوان من النساء التى لها زوج ، والجمع عون .

(5) الجفر : البئر لم تطو أو طوى بعضها .

(6) حقنت أى صنت .

مضـر أبـوك أبـو أهلـة وائـل ... مـلأ البسـيطة عـدة وعديـدا
نسـب كأن عليه من شمس الضحى ... نـورا ومـن فلـق الصباح عمـودا
ورثـوا الأبـوة فـالحظوظ وأصـبحوا ... جمعوا جدودا[1] فـي العلا وجـدودا

والناس على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه .

وقدم عمارة بن عقيل بغداد ، فأجتمع الناس إليه فكتبوا شعره وشعر أبيه وعرضوا عليه الأشعار ، فقال بعضهم : هاهنا شاعر يزعم أنه أشعر الناس طرا ويزعم غيره ضد ذلك ، فقال : أنشدوني قوله ، فأنشدوه :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غـ ... ـد وعـادا قـتادا[2] عـندها كـل مـرقد
وأنقذهـا مـن غمـرة المـوت أنـه ... صـدود فـراق لا صـدود تعمـد
فأجـرى لهـا الإشـفاق دمعـا مـوردا ... مـن الـدم يجـرى فـوق خـد مـورد
هـى الـبدر يغنـيها تـورد وجههـا ... إلى كـل مـن لاقـت وإن لم تـودد

ثم قطع المنشد ، فقال له عمارة زدنا من هذا ، فوصل نشيده وقال :

ولكنـني لم أحـو وفـرا مجمعـا ... ففـزت بـه إلا بشـمل مـبدد
ولم تعطـني الأيـام نومـا مسـكنا ... ألـذ بـه إلا بـنوم مشـرد

فقال عمارة : لله دره ! لقد تقدم فى هذا المعنى من سبقه إليه على كثرة القول فيه حتى لقد حبب الاغتراب ، هيه ، فأنشده :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق ... لديباجتـيه فـاغترب تـتجدد
فـإنى رأيـت الشمس زيـدت محبة ... إلى الناس أن ليست عليهم بسر مد

فقال عمارة : كمل والله ، لئن كان الشعر جودة اللفظ وحسن المعانى واطراد المراد واتساق الكلام فإن صاحبكم هذا أشعر الناس ، وكان على بن الجهم يصف أبا تمام ويفضله ، فقال رجل : والله لو كان أبو تمام أخاك ما زدت على مدحك هذا ، فقال : إن لم يكن أخا بالنسب فإنه أخ بالأدب والمودة ، أما سمعت ما خاطبنى به حيث يقول :

إن[3] يكـد مطـرف الإخـاء فأنـنا ... نغـدو ونسـرى فـى إخـاء تـالد
أو يخـتلف مـاء الوصـال فماؤنـا ... عـذب تحـدر مـن غمـام واحـد

---

[1] الجدود الأولى جمع جد بالفتح وهو أبو الأب ، والثانية جمع الجد وهو الحظ .
[2] القتاد : شجر صلب له شوكة كالإبر .
[3] أكدى :وصل إلى الكدية وهى الأرض الغليظة ويكنى بذلك عن ضياع الفائدة . والمطرف : الطريف وهو الحديث وضده التالد .

أو يفترق نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

وجرى ذكر أبي تمام في حلقة دعبل فقال : كان يتبع معاني فيأخذها ، فقال له رجل في مجلسه ، وأي شيء من ذلك أعزك الله ؟ قال قولي :

وإن امرأ أسدى إليّ بشافع إليه ويرجو الشكر مني لأحمق
شفيعك فاشكر في الحوائج إنه يصونك عن مكروهها وهو يخلق [1]

فقال الرجل : فكيف قال أبو تمام ؟ فقال : قال :

فلقيت بين يديه حلو عطائه ولقيت بين يدي مر سؤاله
وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله

فقال الرجل : أحسن والله. لئن كان أخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك، وإن كنت أخذته منه فما بلغت مبلغه ، فغضب دعبل وأنصرف ، وكان محمد بن حازم الباهلي يقدم أبا تمام ويفضله ويقول : ولو لم يقل إلا مرثيته التي أولها :

أصم بك الناعي وإن كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

وقوله :

لو يقدرون مشوا على وجناتهم وجباههم فضلا عن الأقدام

لكفاه . وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : كان عمارة بن عقيل عندنا يومًا مؤدبًا كان لولد أخي يرويهم قصيدة أبي تمام :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

فلما بلغ إلى قوله :

سود اللباس كأنما نسجت لهم أيدي السموم مدارعا من قار [2]
بكروا وأسروا في بطون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبدا على سفر من الأسفار

فقال عمار لله دره ، ما يعتمد معنى إلا أصاب أحسنه كأنه موقوف عليه ، وقال : إبراهيم بن العباس ما اتكلت في مكاتبتي قط إلا على ما جاش به صدري إلا أني قد استحسنت قول أبي تمام :

---

(1) خلق الثوب كفرح : بلي .
(2) القار : الزفت ، والمدارع جمع مدرعة بكسر الميم وهي جبة مشقوقة المقدم ولاتكون إلا من صوف ، وهي هنا مجاز .

إذا مارق بالغدر حاول غدرة ... فذاك حرى أن تئيم[1] حلائله
فإن باشر الإصحار[3] فالبيض والقـ ... ـنا وأحواض المنايا مناهله
وإن بين حيطانا عليه فانما ... أولئك عقالاته[2] لا معاقله
وإلا فأعلمه بأنك ساخط ... ودعه فإن الخوف لا شك قاتله

فأخذت هذا المعنى في بعض رسائلى فقلت : ما كان يحرزهم يبرزهم وما كان يعقلهم يعتقلهم ؛ ثم قال : إن أبا تمام اخترم وما استمع بخاطره ولا نزح ركى[4] فكره حتى أنقطع رشاء عمره ، وقال محمد بن جابر الأزدى - وكان يتعصب لأبى تمام - أنشدت دعبل بن على شعرا لأبى تمام ولم أعلمه أنه له ، وقلت له : كيف تراه؟ قال : أحسن من عافية بعد يأس ، فقلت : أنه لأبى تمام ، فقال؛ لعله سرقه .

وقال يزيد المهلبى : ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما بالشعر فى حياة أبى تمام فلما مات أقتسم الشعراء ما كان يأخذه ، ولما قدم أبو تمام خرسان اجتمع الشعراء ، وسألوا أن ينشدهم ، فقال : قد وعدنى الأمير أن أنشده غدا وستسمعوننى، فلما دخل على عبد الله أنشده :

أهن عوادى يوسف وصواحبه ... فعزما ، فقدما أدرك السؤل طالبه

فلما بلغ قوله :

وقلقل[5] نأيى من خرسان جأشها ... فقلت أطمئنى أنضر الروض عازبه
وركب كأطراف الأسنة عرسوا[6] ... على مثلها والليل تسطو غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدوره ... وليس عليهم أن تتم عواقبه

فصاح الشعراء بالأمير أبى العباس : ما يستحق هذا الشعر غير الأمير حفظه الله :وقال شاعر منهم - يعرف بالرياحى - لى عند الأمير أعزه الله جائزة وعدنى بها وقد جعلتها لهذا الرجل جزاء عن قوله للأمير ، فقال : بل نضعفها لك ونقوم له بما يجب علينا ، فلما فرغ من القصيدة نثر عليه ألف دينار فلقطها الغلمان ولم يمس منها شيئا : فوجد عليه عبد الله وقال : يترفع عن برى ويتهاون بما أكرمته ! فلم يبلغ ما أراده منه بعد ذلك ، فقال أبو تمام :

---

(1) تئيم من آمت المرأة : مات زوجها .
(2) عقالاته جمع عقال وهو داء فى رجل الدابة ، إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط ، ويخص بالفرس .
(3) الإصحار : ملاقاة العدو فى الصحراء أى برز لقتاله .
(4) الركية : البئر ذات الماء ، والرشاء : حبل البئر .
(5) قلقل الشيء : حركه ، والناى : البعد ، والجاش : رواع القلب إذا أضطرب عند الفزع .
(6) التعريس : النزول ليلا .

لم يبق للصيف لا رسم ولا طلل ... ولا قشيب فيستكسى ولا سمل[1]
عدل عن الدمع أن يبكى المصيف كما ... يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت ... يسراه وهى لباس بعده بدل

فدخل أبو العميثل شاعر آل طاهر إلى عبد الله فقال : أيها الأمير أتتهاون بمثل أبى تمام وتجفوه ؟ فوالله لو لم يكن له من النباهة فى قدره والإحسان فى الشعر ، والشائع من ذكره ، لكان الخوف من شره والتوقى لذمه يوجب على مثلك رعايته ومراقبته ، فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن وفراقه السكن ، وقصدك عاقدا بك أمله ؛ معملا إليه ركابه ؛ متعبا فيك فكره وجسمه ؛ وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى ينصرف راضيا ، ولو لم يأت بفائدة ولا سمع فيك منه ما سمع إلا قوله .

يقول فى قومس[2]صحبى وقد أخذت ... منا السرى وخطا المهرية القود
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا ... فقلت كلا ولكن مطلع الجود

لكفى ، فقال له عبد الله : نبهت فأحسنت ، وشفعت فلطفت ، وعاتبت فأوجعت ، ولك ولأبى تمام العتبى ، وأمر له بألفى دينار وما يحمله من الظهر وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه وأمر ببذرقته[3] إلى آخر عمله .

ومدح أبو تمام أبا دلف ، فقال أبو دلف لقومه : يامعشر ربيعة ما مدحتم بمثل هذا الشعر قط فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم[4] يرمون بها إليه ، فقال أبو دلف: قد قبلها منكم وأعاركم لبسها وسأنوب عنكم فى ثوابه ، تمم القصيدة يا أبا تمام، فتممها ، فأمر له بخمسين ألف دهم وقال : والله ما هى بإزاء استحقاك وقدرك فاعذرنا ، فشكره وقام ليقبل يده ، فحلف ألا يفعل ، ثم قال له أنشدنى قولك فى محمد بن حميد :

وما مات حتى مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... إليه الحفاظ[5] المر والخلق والوعر
فأنبت فى مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر

---

[1] السمل : الثوب الخلق وجمعه أسمال . والقشيب هنا : الجديد .
[2] قومس : كورة كبيرة واسعة فى ذيل جبل طبرستان ، والقود جمع أقود وهو من الخيل والإبل ، الذلول والمهرية . منسوب إلى مهرة وهى بلد أو قبيلة .
[3] البذرقة : الخفارة .
[4] مطارفهم : جمع مطرف وهو رداء من خز مربع ذو أعلام وهو على وزن اسم المفعول أو بكسر الميم وفتح الراء.
[5] الحفاظ الأنفة .

غـدا غـدوة والحمـد نسـج ردائـه ... فـلم ينصـرف إلا وأكفانـه الأجـر
كـأن بـنى بهـان يـوم مصـابه ... نجـوم سمـاء خـر مـن بينها البدر
يعـزون عـن ثـاو يعـزى بـه العـلا ... ويبكى عليها الجود والبأس والشعر

فأنشده إياه ، فقال : والله لوددت أنها فى ، فقال : بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون المقدم ، فقال : إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر أو بمثله .

وقدم أبو تمام مادحا للحسن بن رجاء ، فاستنشده قصيدته اللامية التى مدحه بها فلما انتهى إلى قوله :

أنـا ذو[2] عرفـت فـإن عـرتك جهالـة ... فأنـا مقـيم قـيامة العـذال
عطفـت ملامـتها عـلى ابـن مـلمة ... كالسيف جأب الصبر[1] شخت الآل
عـادت لـه أيامـه مسـودة ... حـتى توهـم أنهـن لـيالى

فقال له الحسن : والله لا تسود عليك بعد اليوم ، فلما قال :

لا تـنكرى عطـل الكـريم مـن الغـنى ... فالسـيل حـرب لـلمكان العـالى
وتـنظرى خبـب الـركاب ينصـها[3] ... محيى القريض إلى مميت المـال

قام الحسن على رجليه وقال : والله لا أتممتها إلا وأنا قائم ، فقام أبو تمام لقيامه وقال :

قد قلت وهى تنال من عرض الفلا ... بملاطـس[4] فـى الوخـد غـير أوالى
أحوامـل الأثقـال إنـك فـى غـد ... بفـناء أحمـل مـنك للأثقـال
لمـا وردنـا سـاحة الحسـن انقضـى ... عـنا تعجـرف[5] دولـة الأمحـال
أحـيا الـرجاء لـنا بـرغم نوائـب ... كـثرت بهـن مصـارع الآمـال
أغـلى عـذارى الشـعر إن مهورهـا ... عـند الكـرام وإن رخصـن غـوالى
تـرد الظـنون بـنا عـلى تصـديقها ... ويحكـم الآمـال فـى الأمـول
أضحى سمـى أبيك فيك مصدقا ... بـأجل فـائدة وأيمـن فـال
ورأيتـنى فسـألت نفسـك سـيبها[6] ... لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى
كالغيـث لـيس لـه ، أريـد نوالـه ... أو لم يـرد ، بـد مـن الـتهطال

---

[1] جأب الصبر : غليظة ، وشخت الآل : ضعيف الشخص .
[2] ذو : فى لغة طىء كالذى .
[3] نص ناقته : إستحثها واستقصى آخر ما عندها من السير .
[4] الملاطس : الأخفاف ، والوخد : الإسراع ، وأوال : مقصرات .
[5] التعجرف : التكبر .
[6] السيب : العطاء .

فتعانقا وجلسا ، فقال لـه الحسن : ما أحسن ما جلوت هذه العروس ! فقال : والله لـو كانت مـن الحـور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها . وكان دعبل عند الحسن بن رجاء يضع من أبي تمام ، فقال له قائل : يا أبا علي اسمع مني ما قاله ، فإن رضيته فذاك ، وإلا وافقتك على ما تذمه منه ، وأعوذ بالله فيك من ألا ترضاه ، ثم أنشده :

أمـا أنـه لـولا الخليط المودع	ومغـنى عفـا مصـيف ومـربع

فلما بلغ إلى قوله :

هـو السيل إن واجهته انقدت طوعه	وتقـتاده مـن جانبـيه فيتـبع
ولم أر نفعـا عـند مـن لـيس ضـائرا	ولم أر ضـرا عـند مـن لـيس يـنفع
معـاد الـورى بعـد الممـات وسـيبه	معـاد لـنا قـبل الممـات ومـرجع

فقال لـه دعبل : لم ندفع فضل هذا الرجل ، ولكنهم ترفعونه فوق قدره ، وتقدمونه على من يتقدمه وتنسبون إليه ما قد سرقه ، فقال له : إحسانه صيرك له عائبا وعليه عاتبا.

وأنشد أبو تمام أبا الحسن محمد بن الهيثم بالجبل[1].

أسـقى ديـارهم أجـش[2] هـزيم	وغـدت علـيهم نضـرة ونعـيم

فلما فرغ أمر له بألف دينار وخلع عليه خلعة حسنة .

وجاء دعبل إلى الحسن بن وهيب في حاجة بعد وفاة أبي تمام ، فقال له رجل في المجلس : يا أبا علي ، أنت الذي تطعن على من يقول :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدي	ومحت كما محت وشائع[3] من برد
وأنجـدتم مـن بعـد إتهـام داركـم	فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

فصاح دعبل : أحسن والله ! وجعل يردد : " فيا دمع أنجدني على ساكني نجد " ثم قال : رحمه الله ، لو كان ترك لي شيئا من شعره لقلت إنه أشعر الناس ! .

وقال الواثق لأحمد بن أبي دؤاد : بلغني أنك أعطيت أبا تمام الطائي في قصيدة مدحك بها ألف دينار ، قال : لم أفعل ذلك يا أمير المؤمنين ولكني أعطيته خمسمائة دينار للذي قاله المعتصم :

---

(1) الجبل : اسم للبلاد المعروفة بالعراق العجمي .

(2) الأجش من الرعد، الغليظ الصوت ، والغيث الهزيم : الذي لا يستمسك .

(3) نسج الثوب بالوشيع والوشائع أي بهذا القصب الملفوف عليه .

فاشـــدد بهـــارون الخلافـــة إنـــه ســـكن لوحشـــتها ودار قـــرار

فتسم وقال : إنه لحقيق بذلك .

وقال محمد بن موسى بن حماد : كنا عند دعبل أنا والقاسم سنة خمس وثلاثين ومائتين بعد قدومه من الشام ، فذكرنا أبا تمام فتنبه وقال: هو سروق للشعر ، ثم قال لغلامه : يانفنف ، هات تلك المخلاة : فجاء بمخلاة فيها دفاتر فجعل يمرها على يده حتى أخرج منها دفترا فإذا فيه قال مكنف أبو سلمى من ولد زهير ابن أبي سلمى يرثي ذفافة العبسي :

أبعد أبي العباس يستعتب الدهر وما بعده للدهر عتبى ولا عذر

ثم قال : سرق أبو تمام أكثر هذه القصيدة فأدخلها في قصيدته :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقال أبو تمام الطائي[1] : خرجت يوما إلى سر من رأى ، حين ولي الواثق . فلقيني أعرابي وقد قربت منها ، فأردت أن أسأله عن شيء من أخبار الناس بها ، فخاطبه ، فإذا أفصح الناس وأفطنهم ، فقلت : ممن الرجل ؟ قال : من بني عامر ، قلت: كيف علمك بأمير المؤمنين ؟ قال : قتل أرضا عالمها ! قلت : فما تقول فيه ؟ قال : وثق بالله فكفاه : أشجى العاصية ، وقمع العادية ، وعدل في الرعية ، قلت : فما تقول في أحمد بن أبي داود ؟ قال : هضبة لا ترام ، وجندلة لا تضام ، تشحذ له المدى ، وتحبل له الأشراك ، وتبغى له الغوائل ، حتى قيل كأن قد ، وثب وثبة الذئب وختل ختل الضب ، قلت : فما تقول في محمد بن عبد الملك ؟ قال : وسع الداني شره ، وقتل البعيد ضره ، له كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا ندب مخلب[2] . قلت : فما تقول في عمرو[3] بن فرج ؟ قال : ضخم لهم[4] مستعذب للذم . قلت : فما تقول في الفضل بن مروان ؟ واستعذبت خطابه . قال ذاك رجل نشر بعد ما قبر ، فعليه حياة الأحياء وخفتة الموتى . قلت : فما تقول في أبي الوزير ؟ قال : كبش الزنادقة الذي تعرف ؛ ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله سنج ورتع ، فإذا هزه أمطر فأمرع . قلت : فابن الخصيب ؟ قال : أكل أكلة نهم ، فذرق ذرقة بشم[5] . قلت:

---

(1) أخبار أبي تمام للصولي ص ٨٩ .

(2) الندب : جمع ندبة . وهي أثر الجرح الباقي على الجلد .

(3) عمرو بن فرج : كان من علية الكتاب . وسخط عليه المتوكل سنة ٢٣٣هـ .

(4) اللهم : الرغيب الرأي . الجواد : العظيم الكفاية .

(5) البشم : التخمة .

فما تقول فى ابن إسرائيل ؟ قال : لله دره ! أى قلقل[1] هو ! غرس فى منابت الكرم حتى إذا اهتز لهم حصدوه . قلت : فما تقول فى إبراهيم ابن رباح ؟ قال : أوبقه[2] كرمه ، وأسلمه حسبه ، وله معروف لا يسلمه ، ورب لا يخذله ، وخليفة لا يظلمه . قلت : فما تقول فى نجاح بن سلمة . قال : لله دره ! أى طالب وتر ومدرك نار ويتلهب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة جلسة تزيل نعما ، وتحل نقمة .

قلت يا أعرابى ؛ أين منزلك ؟ قال : اللهم غفرا ، إذا اشتمل الظلام فحيثما أدركنى الرقاد رقدت ! قلت : فكيف رضاك عن أهل العسكر ؟ قال : لا أخلق وجهى بمسألتهم ، أو ما سمعت قول هذا الفتى الطائى ، الذى قد ملأ الدنيا شعره :

ومـا أبـالى وخـير القـول أصـدقه حقنت لى ماء وجهى أوحقنت دمى

قلت : فأنا الطائى قائل هذا الشعر ! فدنا مبادرا فعانقنى ، وقال : لله أبوك! ألست الذى يقول :

ما جود كفك إن جادت وإن بخلت مـن مـاء وجهـى إذا أخلقته عـوض

قلت : نعم ، قال : أنت والله أشعر أهل الزمان فرجعت بالأعرابى معى إلى ابن أبى دؤاد ، وحدثته بحديثه ، فأدخله إلى الواثق ، فسأله عن خبره معى ، فأخبره به ، فأمر له بمال ، وأحسن إليه ، ووهب له أحمد بن أبى دؤاد ، فكان يقول : قد عظم الله بركتك على !

ولما قصد أبو تمام عبد الله بن طاهر بخرسان وامتدحه بقصيدته التى أولها :

أهـن عـوادى يوسـف وصـواحبه فعـزما فقدمـًا أدرك السـؤل طالـبه

أنكر عليه أبو العميثل وقال له : لم لا تقول ما يفهم؟ فقال له : ولم لا تفهم ما يقال؟ فاستحسن منه هذا الجواب على البديهة.

وامتدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدة سينية فلما انتهى إلى قوله فيها:

إقـدام عمـرو فـى سماحـة حـاتم فـى حـلم أحـنف فـى ذكـاء إيـاس

قال له يعقوب الكندى الفيلسوف – وكان حاضرا – : ما صنعت شيئا ، شبهت ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين بصعاليك العرب ، ومن هؤلاء الذين ذكرت ؟ وما قدرهم ؟ فأطرق أبو تمام يسيرا ثم رفع رأسه وأنشد :

---

(1) القلقل : المعوان السريع التقلقل وهو التحرك .

(2) أوبقه : ذلله وأهلكه .

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

فعجبوا من فطنته وسرعة بديهته .

ونقدوا أبا تمام في قوله :

تكاد عطاياه يجن جنونها ... إذا لم يعوذها بنغمة طالب

قالوا : وما بالها يحوجها إلى الجنون ويلتمس منها العوذ والرقى ، هلا فك أسرها وقدم خلاصها ولم ينتظر بها نغمة الطالب ! ففعل مثل ما قاله أبو الطيب :

وعطاء مال لو عداه طالب ... أنفقته في أن تلاقي طالبا

وقد تداول الناس هذا المعنى فقال مسلم :

أخ لي يعطيني إذا ما سألته ... ولو لم أعرض السؤال ابتدانيا

وقال أبو العتاهية :

وإنا إذا ما تركنا السؤال ... فلم نبغ نائله يبتدينا
وإن نحن لم نبغ معروفه ... فمعروفه أبدا يبتغينا

وقال أبو تمام أيضا :

فأضحت عطاياه نوازع شردا ... تسائل في الآفاق عن كل سائل

ومما عيب على أبي تمام قوله :

فلويت بالمعروف أعناق الورى ... وحطمت بالإنجاز ظهر الموعد

فإن حطم ظهر الموعد بالإنجاز استعارة قبيحة جدا ، والمعنى أيضا في غاية الرداءة . فالاخلاف هو الذي يحطم ظهر الموعد لا الإنجاز ، وكان ينبغي أن يقول وحطمت بالإنجاز ظهر المال لا الموعد ، حينئذ فالموعد كان يصح ويسلم ، ويتلف المال .

وقوله :

تحملت ما لو حمل الدهر شطره ... لفكر دهرا أي عبأيه أثقل

فجعل للدهر عقلا وجعله مفكرا في أي العبأين أثقل ، وليس معنى أبعد من الصواب من هذه الاستعارة ، وكان الأشبه والأليق بهذا المعنى - لما قال " تحملت ما لو حمل الدهر شطره " أن يقول : لتضعضع ، أو : لا نهد أو لأمن الناس صروفه ونوازله . ونحو هذا .

قولـه :

بيوم كطـول الدهر فـى عرض مثله ووجـدى مـن هـذا وهـاذاك أطـول

فجعل للدهر عرضا ، وذلك محض المحال .

وقولـه :

كـــانوا رداء زمـــانهم فتصـــعدوا فكأنمـــا لـــبس الـــزمان الصـــوفا

ولغلبة الحكمة عليه قيل إن أبا تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى . ولم يرزق أحد السعادة فى شعره ، وتناول له الناس نقدا وشرحا واستشهادا مثل أبى تمام والبحترى والمتنبى ، وقد نال أبو تمام هذه الشهرة الذائعة وأثر عنه هذا الشعر الكثير ولم تنيف سنه عن الأربعين ، فكيف به لو عمر .... وأجاد أبو تمام القول فى كل فن من فنون الشعر ، وأما مراثيه فلم يعلق بها أحد جاش صدره بشعر .

ويعد أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدثين ، انتهت إليه معانى المتقدمين والمتأخرين ، وظهر والدنيا قد ملئت بترجمة علوم الأوائل و حكمتها من اليونان والفرس والهند ، فحصف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها ، واستخرج من جملة ذلك طريقته التى آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان أول من أكثر من الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية والكنايات الخفية ، ولو أفضى ذلك إلى التعقيد أحيانا ، ولما رأى أن قد فاته سلامة اللفظ وحسن ديباجته أراد أن يجبر الكسر بانتحاء طريقة بشار وأبى نواس ومسلم بن الوليد فى الجناس والمطابقة والاستعارة من أنواع البديع ، فسلم له بعضها واعتل عليه بعضها ، فأتى من الجناس بما التاث به شعره ، وصار كالكلف فى صفحة البدر ، ومع هذا سلم له كلامه جملة لم يحم حولها شاعر سابق ، وعجز عن محاكاتها كل لاحق ، لما حوته من عيون المعانى المبتكرة ، وصيغت فيه الألفاظ الرائقة ، وضمنته من الأمثال والحكم التى زادت فى ثروة الأدب العربى ، ومهدت لمن خلفه طرقا لم تكن لولاه معبدة ، ومنها سلك أبو الطيب المتنبى وأبو العلاء المعرى وغيرهم إلى حكمهم ، ومن مرثيته لمحمد بن حميد الطوسى الطائى المشهورة :

توفيـــت الآمـــال بعـــد محمـــد وأصبح فـى شغل عـن السفر السفر

ومـا كـان إلا مـال مـن قـل مالـه وذخرا لمـن أمسى وليس لـه ذخر

وما كان يدرى مجتدى جـود كفه إذا مـا اسـتهلت أنـه خلـق العسـر

ألا فـى سـبيل الله مـن عطلـت لـه فجـاج سـبيل الله وانـثغر الـثغر

فتى كلما فاضت عيون قبيلة ... دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه ... ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعافى العار حتى كأنما ... هو الكفر يوم الوداع أو دونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه ... فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ... ولكن كبرا أن يقال به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها ... وبزته نار الحرب وهو لها حمر

وله من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى
وتنظرى خبب الركاب ينصها ... محيى القريض إلى مميت المال

ومن قوله فى الحجاب :

يأيها الملك النائى بغرته ... وجوده لمرجى جوده كثب
ليس الحجاب بقص عنك لى أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب

ومن أبياته السائرة قوله :

فلو صورت نفسك لم تزدها ... على ما فيك من كرم الطباع

ومن أفخم قصائده قصيدته البائية التى هنأ بها الخليفة المعتصم بفتح عمورية ويسخر فيها بالمنجمين ، وأولها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

دعبل الخزاعى

المتوفى سنة ٢٤٦ هـ

هو دعبل بن على بن رزين الخزاعى الأزدى يكنى أبا على ، شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم عليه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن ولا أفلت منه كبيرا أحد ، وكان شديد التعصب على النزارية [1] للقحطانية . وقال قصيدة يرد فيها على الكميت بن زيد ويناقضه فى قصيدته المذهبة التى هجا بها قبائل اليمن : ألا حييت عنا يا مدينا . وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل إلى على صلوات الله عليه ، وقصيدته " مدارس آيات خلت من تلاوة " مشهورة .

وهى من أحسن الشعر وفاخر المقولة فى أهل البيت عليهم السلام ، وقصد بها على بن موسى الرضا بخرسان ، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه ، وخلع عليه خلعة من ثيابه أعطاه بها أهل [2] قم ثلاثين ألف درهم فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها ، فقال لهم : إنما تراد لله عز وجل وهى محرمة عليكم فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم ، فحلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون فى كفنه فأعطوه فكان من أكفانه ، وها هى ذى القصيدة :

مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزل وحى مقفر العرصات [3]
لآل رسول الله بالخيف من منى	وبالركن والتعريف والجمرات
ديار على والحسين وجعفر	وحمزة والسجاد ذى الثفنات
ديار عفاها كل جون [4] مبادر	ولم تعف للأيام والسنوات
قفا نسأل الدار التى خف أهلها	متى عهدها بالصوم والصلوات

ودخل دعبل على على بن موسى الرضا فقال له أنشدنى شيئا مما أحدثت فأنشده :

مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزل وحى مقفر العرصات

---

[1] النزارية : ولد نزار بن معد بن عدنان . والقحطانية : ولد قحطان وهم عرب اليمن .

[2] قم : مدينة ببلاد الفرس .

[3] العرصات جمع عرصة وهى وسط الدار .

[4] يريد بالجون السحاب الأسود المكفهر .

حتى انتهى إلى قوله :

إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم أكفا عن الأوتار منقبضات

فبكى حتى أغمي عليه . و أومأ إليه خادم كان على رأسه أن اسكت ، فسكت ساعة ثم قال له - أعد - فأعاد حتى انتهى إلى هذا البيت أيضا فأصابه مثل الذي أصابه في المرة الأولى وأومأ الخادم إليه أن اسكت فسكت - فمكث ساعة أخرى ثم قال له : أعد فأعاد ، حتى انتهى إلى آخرها فقال له أحسنت ثلاث مرات ثم أمر له بعشرة آلاف درهم مما ضرب باسمه ولم تكن وقعت إلى أحد بعد وأمر له من منزله بحلى كثير أخرجه إليه الخادم فقدم العراق فباع كل درهم منها بعشرة دراهم اشتراها منه الشيعة فحصل له مائة ألف درهم فكان أول مال اعتقده .

قال دعبل بن علي : [1]حججت أنا وأخي رزين، وأخذنا كتبا إلى المطلب ابن عبدالله بن مالك ، وهو بمصر يتولاها . فصرنا من مكة إلى مصر ، فصحبنا رجل يعرف بأحمد بن السراج ، فما زال يحدثنا ويؤنسنا طول طريقنا ، ويتولى خدمتنا كما يتولاها الرفقاء والاتباع ، ورأينله حسن الأدب - وكان شاعرا ولم نعلم - وكتمنا نفسه . وقد علم ما قصدنا له ، فعرضنا عليه أن نقول في المطلب قصيدة ننحله إياها ، فقال : إن شئتم ، وأرانا بذلك سرورا وتقبلا له ، فعملنا قصيدة ، وقلنا له تنشدها المطلب وإنك تنتفع بها ، فقال : نعم ، ووردنا مصر به ، فدخلنا إلى المطلب وأوصلنا إليه كتبا كانت معنا ، وأنشدناه فسر بموضعنا ، ووصفنا له أحمد بن السراج هذا ، وذكرنا له أمره، فأذن له فدخل عليه ، ونحن نظن أنه سينشد القصيدة التي نحلناه إياها ، فلما مثل بين يديه عدل عنها وأنشده :

لم آت مطلبا إلا بمطلب	وهمة بلغت بي غاية الرتب
أفردته برجاء أن تشاركه	في الوسائل أو ألقاه في الكتب ى
رحلت عيسى إلى البيت الحرام على	ما كان من وصب فيها ومن نصب
ألقى بها وبوجهي كل هاجرة[4]	تكاد تقدح بين الجلد والعصب
حتى إذا ما قضت نسكي ثنيت لها	عطف[2] الزمام فأمت سيد العرب
فأممتك[5] وقد ذابت مفاصلها	من طول ما تعب لاقت ومن نقب[3]

(1) الأغاني ص ٤٧ ج ١٨ .

(2) عطف الشيء : جانبه .

(3) نقب البعير إذا حفى .

(4) الهاجرة : إنما تكون في القيظ نصف النهار .

(5) يقال . أممه بمعنى قصده .

فصاح مطلب : لبيك ! لبيك ! ثم قام إليه ، فأخذوه بيده وأجلسه معه وقال: يا غلام ، البدر[1] فأحضرت ، ثم قال : الخلع ، فنشرت ، ثم قال : الدواب ، فقيدت ، فأمر لـه من ذلك بم ملأ عينه وأعيننا وصدورنا ، وحسدناه عليه : وكان حسدنا له بما اتفق لـه من القبول وجودة الشعر ، وغيظنا بكتمه إيانا نفسه ، واحتياله علينا أكثر وأعظم ، فخرج بما أمر لـه ، وخرجنا صفرا ، ومكث دعبل أياما ثم ولاه المطلب أسوان ، ولكن دعبل كان قد هجاه غيظا منه فقال :

أمطلـــب أنـــت مســـتعذب	حمـــيا[2] الأفـــاعي ومســـتقتل
ســـتأتيك إمـــا وردت العـــراق	صـــحائف يأثـــرها دعـــبل
مـــنمقة بـــين أثـــنائها	مخـــاز تخـــط فـــلا تـــرحل
وضـــعت رجـــالا فمـــا ضـــرهم	وشـــرفت قومـــا فـــلم ينـــبلوا
إذا الحـــرب كنـــت أمـــيرا لهـــا	فحظهـــم مـــنها أن يقـــتلوا
شـعارك فـي الحـرب يـوم الوغـي	إذا انهـــزموا : عجلـــوا عجلـــوا
هـــزائمك الغـــر مشـــهورة	يقـــرطس[3] فـــيهن مـــن ينضـــل
فأنـــت إذا مـــا الـــتقوا آخـــر	وأنـــــت إذا انهـــــزموا أول

وبلغ المطلب هجاؤه إياه بعد أن ولاه ، فعزله عن أسوان ، وأنفذ إليه كتاب العزل مع مولى لـه ، وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة ، فإذا علاه فأوصل الكتاب إليه ، ومنعه عن الخطبة وأنزله عن المنبر ، وأصعد مكانه ، فلما أن علا المنبر وتنحنح ليخطب ناوله الكتاب ، فقال لـه دعبل دعني أخطب فإذا نزلت قرأته ، قال لا ، لقد أمرني أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه فقرأه ، وأنزله عن المنبر معزولا .

قال : محمد بن موسى الضبي[4] ، وكان نديما لعبد الله بن طاهر : بينما نحن عند عبد الله بن طاهر ذات ليلة يذاكرنا بالأدب وأهله ، وشعراء الجاهلية إذ بلغ إلى ذكر المحدثين حتى انتهى إلى ذكر دعبل فقال : ويحك يا ضبي ! إني أريد أن أحدثك بشيء على أن تستره طول حياتي ، فقلت له : أصلحك الله ، أنا عندك في موضع ظنك ؟ قال لا ، ولكن أطيب لنفسي أن توثق لي بالأيمان؛ لأركن إليها ويسكن قلبي عندها ، فأحدثك حينئذ ، قال قلت إن كنت عند الأمير في هذه الحال فلا حاجة بـه إلى إفشاء سره إليّ ، واستعفيته مرارا ولم يعفني ، فاستحييت

(1) البدر جمع بدرة (بفتح الباء) وهي عشرة آلاف درهم .
(2) الحميا من كل شيء شدته .
(3) قرطس أصاب القرطاس ، أي الغرض .
(4) الأغاني ص٥٦ ج١٧ .

مراجعته وقلت فلير الأمير رأيه ، فقال لي : يا صبي ، قل : والله ، قلت : والله فأمرها على غموسا مؤكدة بالبيعة والطلاق وكل ما يحلف به مسلم ، ثم قال : أشعرت أن دعبلا مدخول النسب ؟ وأمسك ، فقلت أعز الله الأمير ، أفي هذا أخذت العهود والمواثيق ومغلظ الأيمان ! قال : إي والله ، فقلت : ولم ؟ قال : لأني رجل لي في نفسي حاجة ودعبل رجل قد حمل نفسه على المهالك وحمل جذعه على عنقه ، فليس يجد من يصلبه عليه، وأخاف إن بلغه أن يقول في ما يبقى على عاره على الدهر . وقصاراى إن ظفرت به وأسلمته اليمن - وما أراها تفعل ؛ لأنه اليوم شاعرها والذاب عنها ، والمحامي لها دونها - أن أضربه مائة سوط وأثقله حديدا : وليس في ذلك عوض على مما سار في من الهجاء وفي عقبي من بعدى ، فقلت : ما أراه يفعل ويقدم عليك ، فقال لي : ياعاجز ، أتراه أقدم على الرشيد والأمين والمأمون وعلى أبي ولا يقدم على ! فقلت : فإذا كان الأمر كذا فقد وفق الأمير فيما أخذه على ، قال: وكان دعبل صديقا لي . فقلت : هذا شيء قد عرفته ، فمن أين ؟ قال الأمير : إنه مدخول النسب ، وهو في البيت الرفيع من خزاعة ؟ فقال : اسمع ، إنه كان أيام ترعرع خاملا لا يؤبه له ، وكان ينام هو ومسلم بن الوليد في إزار واحد لا يملكان غيره ومسلم أستاذه ، وهو غلامه يخدمه ، ودعبل حينئذ لا يقول شعرا يفكر فيه حتى قال :

لا تعجبي يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى

وغنى فيه بعض المغنين وشاع ، فغنى به بين يدى الرشيد ، فطرب وسأل عن قائل الشعر فقيل له : دعبل بن على وهو غلام نشأ من خزاعة ، فأمر بإحضار عشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه ، فأحضر ذلك فدفعه مع خادم من خاصته وقال له : اذهب بهذا إلى خزاعة فسأل عن دعبل بن على فإذا دللت عليه فأعطه هذا وقل له: ليحضر إن شاء ، وإن لم يحب ذلك فدعه ، وأمر للمغنى بجائزة .

فسار الغلام إلى دعبل ، وأعطاه الجائزة ، وأشار عليه بالمسير إليه ، فلم دخل عليه وسلم أمر بالجلوس فجلس ، واستنشده الشعر فأنشده إياه فاستحسنه ، وأمره بملازمته ، وأجرى عليه رزقا سنيا ، فكان أول من حرضه على قول الشعر ، فو الله ما بلغه أن الرشيد مات حتى كافأه ؛ وقال فيه من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد :

وليس حي من الأحياء نعلمه ... من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك أيسار على جزر[1]
قتل وأسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر[2]
أرى أمية معذورين إن قتلوا ... ولا أرى لبني العباس من عذر
أربع بطوس[3] على القبر الزكي إذا ... ما كنت تربع من دين على وطر
قبران في طوس : خير الناس كلهم ... وقبر شرهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا ... على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل أمرىء رهن بما كسبت ... له يداه فخذ ما شئت أو فذر

فهذه واحدة ، وأما الثانية فإن المأمون لم يزل يطلبه وهو طائر على وجه حتى دس إليه قوله :

أني يكون وليس ذاك بكائن ... يرث الخلافة فاسق عن فاسق
إن كان إبراهيم[5] مضطلعا بها ... فلتصلحن من بعده لمخارق[4]

فلما قرأها المأمون ضحك وقال : قد صفحت عن كل ما هجانا به ، إذ قرن إبراهيم بمخارق في الخلافة ، وولاه عهده ، وكتب إلى أبي أن يكاتبه بالأمان ، ويحمل إليه مالا ، وإن شاء أن يقيم عنده أو يصير إلى حيث شاء فليفعل ، فكتب إليه أبي بذلك ، وكان واثقا به ، فصار إليه ، فحمله فخلع عليه ، وأجازه وأعطاه المال ، وأشار عليه بقصد المأمون ففعل ، فلما دخل وسلم عليه تبسم في وجهه ، ثم قال : أنشدني :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ونزل وحي مقفر[6] العرصات

فجزع ؛ فقال له : لك الأمان فلا تخف ؛ وقد رويتها ولكني أحب سماعها من فيك ؛ فأنشده :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ونزل وحي مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات[7]

---

[1] أيسار : جمع ياسر ، وهو الذي يلي قسمة الجزور . نوق تذبح وتقسم أقساما للمقامرة .
[2] الخزر : جيل من الترك ، بلادهم شمال فارس .
[3] طوس : مدينة عظيمة بخراسان تعرف الآن بمشهد؛ دفن بها الرشيد على بن موسى الرضا، وأربع : أقم؛ والوطر: الحاجة.
[4] مخارق : مغن معروف .
[5] يريد إبراهيم بن المهدى .
[6] المقفر : الخالي من الناس والعرصات ، ساحات الدار .
[7] أسماء مواضع في مكة .

ديـــار عـــلـى والحســـين وجعفـــر	وحمـزة والسـجاد ذى الثفـنات [1]
ديـار عفاهـا[2] كـل جـون مـبادر [3]	ولم تعـــف للأيـــام والســـنوات
قفـا نسـأل الـدار الـتى خـف أهـلها	مـتى عهدهـا بالصـوم والصـلوات ؟
وأيـن الألى شـطت بهم غربة النوى	أفـــانين فـــى الأفـــاق مفترقـــات
ومـــا الـــناس إلا حاســـد ومكـــذب	ومضــــطغن ذو إحــــنة وتــــرات

ومضى فيها حتى أتى على آخرها . والمأمون يبكى حتى أخضلت لحيته بدمعه ، فو الله ما شعرنا به إلا وقد شاعت لـه أبيات يهجوا بها المأمون بعد إحسانه اليه وأنسه به ، حتى كان أول داخل وآخر خارج من عنده .

وقال عمرو بن مسعدة[4] : حضرت أبا دلف عند المأمون - وقد قال لـه المأمون : أى شىء تروى لأخى خزاعة ؟ فقال : وأى خزاعة يا أمير المؤمنين ! قال : ومن تعرف فيهم شاعرًا ؟ فقال : أما من أنفسهم ، فأبو الشيص ودعبل وابن أبى الشيص ، وداود ابن أبى رزين ، وأما من مواليهم فطاهر وابنه عبدالله ، فقال : ومن عسى فى هؤلاء أن يسأل عن شعره سوى دعبل ! هات ؛ أى شىء عندك فيه ؟ فقال أى شىء أقول فى رجل لم يترك أهل بيته حتى هجاهم ، فقرن إحسانهم بالإساءة ، وبذلهم بالمنع ، وجودهم بالبخل ، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة ، قال : حين يقول ماذا ؟ قال: حين يقول فى المطلب بن عبد الله ابن مالك ، وهو أصدق الناس لـه ، وأقربهم منه ، وقد وفد إليه مصر ، فأعطاه الجزيل وولاه ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

اضرب ندى طلحة الطلحات متئدا	بلـؤم مطلـب فينـا وكـن حكمـا
تخـرج خـزاعة مـن لـؤم ومـن كـرم	فـلا تحـس لهـا لؤمـا ولا كـرما

فقال المأمون : قاتله الله ، ما أغوصه وألطفه وأدهاه ، وجعل يضحك ثم دخل عبد الله بن طاهر ، فقال لـه : أى شىء تحفظ ويا عبد الله لدعبل ؟ فقال : أحفظ أبياتا له فى أهل بيت أمير المؤمنين ، قال : هاتها ، ويحك ، فأنشده :

---

[1] الثفنة : الركبة ومجتمع الساق والفخذ ، والسجاد ذو الثفنات هو على بن الحسين لأن طول السجود أثر فى ثفناته .

[2] عفاها :محاها .

[3] الجون المبادر : السحاب الماطر .

[4] أغانى ص٤٤ج١٨ .

سـقيا ورعـيا لأيـام الصـبابات	أيـام أرفـل فـي أثـواب لذاتـي
أيـام غصـني رطيـب مـن ليانـته	أصبر عـلى غـير جـارتي وكـناتي[1]
دع عـنك ذكـر زمـان فـات مطلبه	واقذف برحلك عن متن الجهالات
وأقصـد بكـل مديـح أنـت قائلـه	نحـو الهـداة بـني بيـت الكـرامات

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالا فقال ، ونال ببعيد ذكرهم مالا يناله في وصف غيرهم ، ثم قال : لقد أحسن في وصف سفر سافره ، فطال ذلك السفر عليه فقال فيه :

ألم يـأن[5] للسـفر الذيـن تحملـوا	إلى وطـن قـبل الممـات رجـوع!
فقلـت - ولم أملـك سـوابق عـبرة	نطقـن بمـا ضـمت عليه ضـلوع [2]
تـبين ، فكـم دار تفـرق شمـلها	وشمـل[3] شـتيت عـاد وهـو جمـيع
كـذاك الليالي صرفهن[6] كما تـرى	لكـل أنـاس جدبـة وربـيع[4]

ثم قال : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري وهجيراي ومسليتي حتى أعود .

قال أبو خالد الخزاعي لدعبل : ويحك ، قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعا ، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كففت عن هذا صرفت هذا الشر عن نفسك ، فقال : ويحك ! إني تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالي بالشاعر وإن كان مجيدا إذا لم يخف شره ، ولم يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك في تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك ، فإذا رآك أوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر ، ويحك يا أبا خالد ، إن الهجاء المقذع[7] آخذ بضبع الشاعر من المديح المضرع[8] ، فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حتف أنفه .

---

(1) الكنة : امرأة الأبن والأخ .

(2) العبرة : الدمعة ، وما ضمت عليه الضلوع : الحزن والشوق إلى الوطن والأهل .

(3) الشمل : ما اجتمع من الأمر أو تفرق منه والشتيت المنفرق ، والجميع : المجتمع .

(4) جدبة وربيع : حالتا خير وشر .

(5) يأن : يقرب ويحضر ، والسفر : المسافرون .

(6) صرف الليالي : أحداثها .

(7) المقذع من أقذعه : رماه بالفحش وسوء القول وشتمه .

(8) المضرع : المذل .

قال دعبل : قال لي أبي رزين ما قلت من الشعر قط إلا هذين البيتن :

خليلي ماذا أرتجي من غد امرئ ... طوى الكشح عني اليوم وهو مكين

وإن امرأ قد ضن منه بمنطق ... يسد به فقر امرئ لضنين

وبيتين آخرين وهما :

أقول لما رأيت الموت يطلبني ... ياليتني درهم في كيس مياح[1]

فياله درهما طالت صيانته ... لا هالك ضيعة يوما ولا ضاح[2]

وكان سبب خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطر[3] ويصحب الشطار فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة فجلسا على طريق رجل من الصيارفة ، وكان يروح كل ليلة بكسبه إلى منزله ، فلما طلع مقبلا إليهما وثبا إليه فجرحاه وأخذا ما في كمه فإذا هي ثلاث رمانات في خرقة ، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه ، ومات الرجل مكانه ، واستتر دعبل وصاحبه ، وجد أولياء الرجل في طلبهما ، وجد السلطان في ذلك ، فطال على دعبل الاستتار فاضطر إلى أن يهرب من الكوفة فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد .

وكان دعبل جالسا بالبصرة وعلى رأسه غلامه نفنف فمر به أعرابي يرفل في ثياب خز ، فقال لغلامه : ادع لي هذا الأعرابي ، فأومأ الغلام فجاءه ، فقال له دعبل: ممن الرجل ؟ قال : من بني كلاب ، قال : من أي ولد كلاب أنت ؟ قال : من ولد أبي بكر ، فقال : أتعرف القائل :

ونبئت كلبا من كلاب يسبني ... ومحض كلاب يقطع الصلوات

فإن أنا لم أعلم كلابا بأنها ... كلاب وأني باسل النقمات

فكان إذا من قيس عيلان والدي ... وكانت إذا أمي من الحبطات[4]

وهذا الشعر لدعبل يقوله في عمرو بن عاصم الكلابي ، فقال الأعرابي : من أنت ؟ فكره أن يقول له من خزاعة فيهجوهم ، فقال : أنا أنتمي إلى القوم الذين يقول فيهم الشاعر :

---

[1] المياح : الذي يميح الماء أي يستقيه .

[2] ضاح : ظاهر .

[3] يتشطر : يعيش عيشة الشطار ، الشاطر : من أعيا أهله خبثا .

[4] الحبطات : قبيلة من بني تميم ، وقد تكسر باؤها .

أنـاس عـلى الخـير مـنهم وجعفـر   وحمــزة والســجاد ذو الثفــنات[1]

إذا فخــروا يومــا أتــوا بمحمــد   وجــبريل والفــرقان والســورات

فوثب الأعرابى وهو يقول : مالى إلى محمد وجبريل والفرقان والسورات مرتقى ، ومن قول دعبل وفيه غناء :

أيــن الشــباب وأيــة ســلكا   لا أيــن يطلــب ضـل بــل هلكــا

لا تعجــبى يــا ســلم مــن رجــل   ضـحك المشـيب برأسـه فـبكى

ياليــت شــعرى كــيف يومكمــا   يــا صــاحبى إذا دمــى ســفكا

لا تـــأخذا بظلامـــتى أحـــدا   قلـبى وطـرفى فـى دمـى اشـتركا

أخذ البيت الثانى من قول مسلم بن الوليد :

مســتعبر يــبكى عــلى دمــنة   ورأســه يضــحك فــيه المشــيب

فجاء به أجود من قول مسلم ، فصار أحق به منه ، وقال الأصمعى : سرقه من قول الحسين بن مطير الأسدى :

أيــن أهــل القــباب بالدهــناء[3]   أيــن جيرانــنا عــلى الأحســاء

فارقونـــا والأرض ملبســـة نـــو   ر الأقـــاحى[2] تجـــاك بـــالأنواء

كـــل يـــوم بـــأقحوان جديـــد   تضـحك الأرض مـن بكـاء السـماء

وقال البحترى : دعبل بن على أشعر عندى من مسلم بن الوليد لأن كلام دعبل أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبه بمذاهبهم وكان يتعصب له .

وقال أبو تمام مازال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقرا بأستاذيته حتى ورد عليه بجرجان ، فجفاه مسلم وكان فيه بخل ، فهجره دعبل وكتب إليه :

أبـا مخلـد كـنا عقـيدى مـودة   هوانـا وقلـبانا جمـيعا معـا معـا

أحوطك بالغيب الذى أنت حائطى   وأجــزع إشـفاقا مــن أن تــتوجعا

فصـيرتنى بعـد انـتكائك مـتهما   لنفسـى عليها أرهـب الخلـق أجمعا

غششت الهوى حتى تداعت أصوله   بـنا وابتذلـت الوصـل حـتى تقطعـا

---

[1] الثفنات جمع ثفنة وهى من الإنسان الركب ، وكان بها آثار من كثرة سجوده ،

[2] الأقاحى : جمع الأقحوان وهو نبات له زهر أبيض فى وسطه كتله صغيرة صفراء وأوراق زهرة مفلجة صغيرة ، يشبهون به الأسنان .

[3] الدهناء : واد فى بلاد بنى تميم ببادية البصرة ، والأحساء جمع حسى بكسر فسكون وهو الماء الذى تنشفه الأرض من الرمل فإذا صار إلى صلابة أمسكته وهو علم لمواضع شتى ببلاد العرب .

وأنزلت من بين الجوانح والحشى ... ذخــيرة ود طالمــا قــد تمــنعا
فـلا تلحيـنى لـيس لى فـيك مطمـع ... تحرقـت حـتى لم أجـد لـك مـرقعا
فهـبك يميـنى اسـتأكلت فقطعـتها ... وجشـمت قلـبى صـبره فتشـجعا

ثم تهاجرا فما التقيا بعد ذلك .

وحدث دعبل الشاعر[1] أنه اجتمع هو ومسلم وأبو الشيص وأبو نواس فى مجلس ،فقال لهم أبو نواس : إن مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه ، ولهذا اليوم وما بعده ، فليات كل واحد منكم بأحسن ما قال فلينشده ، فأنشده أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى ... مـــتأخر عـــنه ولا مـــتقدم
أجـد الملامـة فـى هـواك لذيـذة ... حـبا لذكـرك فليلمـنى اللـوم
وأهنتـنى فأهنـت نفسـى صـاغرا ... مـا مـن يهـون عليك ممـن يكـرم
أشـبهت أعدائـى فصـرت أحـبهم ... إذ كـان حظـى مـن حظـى مـنهم

فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضى عجبه ، ثم أنشد مسلم أبياتا من شعره الذى يقول فيه :

فاقسمت أنسى الداعيات إلى الصبا ... وقـد فاجأتهـا العـين والسـتر واقـع
فغطـت بأيديهـا ثمـار نحورهـا ... كـأيدى الأسارى أثقلتها الجوامع[2]

قال دعبل : فقال لـه أبو نـواس : هات أبا على ، وكأنى بك قد جئتنا بأم القلادة ، فأنشدته :

أيـن الشـباب ؟ وايـة[3] سـلكا ؟ ... أم أيـن يطلـب ؟ ضـل بـل هلكـا
لا تعجـبى يـا سـلم مـن رجـل ... ضـحك المشـيب برأسـه فـبكى
ياليـت شـعرى كـيف صـبركما ... يـا صـاحبى إذا دمـى سـفكا ؟
لا تطلـبا بظلامـتى أحـدا ... قلـبى وطـرفى فـى دمـى اشـتركا

ثم سألناه أن ينشد ، فأنشده :

لا تـبك هـندا ولا تطـرب إلى دعـد ... واشرب على الـورد من حمراء كالورد
كأسا إذا انحـدرت فـى كـف شاربها ... أخـذت بحمرتها فـى العين والخـد
فالخمـر ياقوتـة ، والكـأس لؤلـؤة ... فـى كـف جاريـة ممشـوقة القـد

---

[1] العقد ص٤ج٢ ، مهضب الأغانى ص٢٢٤ج٧ ، ديوان مسلم ص٢٠٩ طبعة أوربا .
[2] هى الغل تجمع اليدين إلى العتق .
[3] أية : أية سبيل .

تسقيك من عينها خمرا ومن يدها	خمرا فما لك من سكرين من بد
لى نشـوتان وللـندمان واحـدة	شيء خصصت به من بينهم وحدى

فقاموا كلهم : فسجدوا ! فقال : أفعلتموها لا كلمتكم ثلاثا ولا ثلاثا ولا ثلاثا !

يزيد المهلبى

شاعر عباسى بليغ ، كان أخص الناس بالمنتصر ، وكان يجالسه قبل مجالسة المتوكل ، فدخل المتوكل يوما على المنتصر على غفلة فسمع كلامه فاستحسنه ، فأخذه إليه فجعله فى جلسائه ، وكان المنتصر يريد أن يلازمه كما كان فلم يقدر على ذلك لملازمته أباه ، فعتب عليه لتأخره عنه على ثقة منه بمودته وأنس به، فلما أفضت إليه الخلافة استأذن عليه ، فحجبه وأمر بأن يعتقل فى الدار ، فحبس أكثر يومه ، ثم أذن له فدخل وسلم وقبل الأرض بين يده وأمره بالجلوس ثم استأذنه فى الإنشاد فأذن ، فأنشده :

ألا يـا قـوم قـد بـرح الخفـاء	وبـان الصـبر مـنى والعـزاء
تعجـب صـاحبى لضـياع مثـلى	ولـيس لـداء محـروم دواء
جفـانى سـيد قـد كـان بـرا	ولم أذنـب فمـا هـذا الجفـاء
حللـت بـداره وعلمـت أنـى	بـدار لا يخيـب بهـا الـرجاء
فـلما شـاب رأسـى فـى ذراه[1]	حجبـت بعقـب مـا بعـد الـرخاء
فـإن تـنأى سـتور الأذن عـنا	فمـا نـأت المحـبة والثـناء
وإن يـك كـادنى ظـلما عـدو	فعـند البحـث ينكشـف الغطـاء
ألم تـرى أن بالأفـاق مـنا	جمـاجم حشـو أقـبرها الوفـاء
وقـد وصـف الـزمان لـنا زيـاد[2]	وقـال مقالـة فـيها شـفاء
ألا يـا رب مغمـوم سـيحظى	بدولتـنا ومسـرور يسـاء
أمنتصـر الخلائـف جـدت فيـنا	كمـا جـادت عـلى الأرض السـماء
وسـعت الـناس عـدلا فاسـتقاموا	بأحكـام علـيهن الضـياء
ولـيس يفوتـنا مـا عشـت خـيرا	كفانـا أن يطـول لـك الـبقاء

وكان المهلبى شاعرا أريبًا متفننا وكان من أحسن ندماء الملوك والخلفاء ، نادم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز ، وكان ذا حظوة لديهم ، وتهاجى هو

---

[1] ذراه : ظله وكنفه .

[2] يريد قول زياد بن أبى سفيان فى خطبته بالكوفة : رب مسرور بقدومنا سيبتئس ، ومبتئس بقدومنا سيسر .

وعبد الصمد بن المعذل وكان المهلبى السمر حلو الحديث صاحب أخبار غزير الرواية تاريخ النادرة ، وكان له مجلس يسر من رأى يحض فاضل الأدباء والشعراء والكتاب ، وتوفى عام ٢٥٦هـ .

ابن أبى عيينة

هو ابن أبى عيينة بن محمد بن أبى عيينة ن المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، شاعر مطبوع ظريف غزل هجاء ، أنفذ أكثر شعره فى هجاء ابن عمه خالد ، وكان من شعراء الدولة العباسية من ساكنى البصرة ، وأبو عيينة من أطبع الناس وأقربهم مأخذا من غير أدب موصوف ولا رواية كثيرة ، وكان يقرب البعيد ويحذف الفضول ويقل التكلف ، وكان يتعشق فاطمة بنت عمر ويسر عشقها ويلقبها دنيا ، كتمانا لأمرها ، وكانت امرأة جليلة سرية من النساء ، وكان أبوها من أشد الفرسان وشجعانهم ، وقال فى فاطمة هذه :

عيشها حلو وعيشك مر ... ليس مسرور كمن لا يسر
كمديم الحب تسخن فيه ... عينه أكثر مما تقر
قلت للائم فيها اله عنها ... لا يقع بينى وبينك أمر
اترانى مقصرا عن هواها؟ ... كل مملوك إذا لى حر

ومن قوله فيها:

ألم تنه قلبك أن يعشقا ... ومالك العشق لولا الشقا
أمن بعد شربك كأس النهى ... وشمك ريحان أهل التقى
عشقت فأصبحت فى العالمـ ... ين أشهر من فرس أبلقا
أدنياى من غمر بحر الهوى ... خذى بيدى قبل أن أغرقا

ومن مختار ما قاله فى فاطمة :

قل لدنيا بالله لا تقطعينا ... واذكرينا فى بعض ما تذكرينا
لا تخونى بالغيب عهد صديق ... لم تخافيه ساعة أن يخونا
واذكرى عيشنا وإذ نقض الريـ ... ح علينا الخيرى[1] والياسمينا
حفظ الله إخوتى حيث كانوا ... من بلاد سارين أم مدلجينا
فتية نازحون عن كل عيب ... وهم فى المكارم الأولونا
وهم الأكثرون يعلم ذاك النـ ... اس والأطيبون للأطيبينا

---

[1] الخيرى : هو المنثور الأصفر .

أزعجتني الأقدار عنهم وقد كنـ ... ـت بقربي منهم شحيحا ضنينا
وتبدلت خالدا لعنة الله ... عليه ولعنة اللاعنينا
رجل يقهر اليتيم ولا يؤ ... تي زكاة وينهر المسكينا
ويصون الثياب والعرض بال ... ويرائي ويمنع الماعونا[1]
نزع الله منه صالح ما أعـ ... ـطاه آمين عاجلا آمينا
فلعمر المبادرين إلى مكة ... وفدا غادين أو رائحينا
إن أضياف خالد وبنيه ... ليجوعون فوق ما يشبعونا
وتراهم من غير نسك[2] يصومون ... ومن غير علة يحتمونا
يابني خالد دعوه وفروا ... كم على الجوع ويحكم تصبرونا

وقال الرشيد للفضل بن الربيع : من أهجى المحدثين عندك يافضل في عصرنا هذا ؟ قال الذي يقول في ابن عمه :

لو كما ينقص يزدا ... د إذا نال السماء
خالد لولا أبوه ... كان والكلب سواء
أنا ما عشت عليه ... أسوأ الناس ثناء
أن من كان مسيئا ... لحقيق أن يساء

ووفد إلى طاهر بن الحسين يسأله أن يعزل أمير البصرة وكان من قبله فعزله وأجزل صلته ، فقال :

يا ذا اليمينين قد أوقرتني مننا ... تترى[3] هي الغاية القصوى من المنن
ولست أسطيع من شكر أجيء به ... إلا استطاعة ذي روح وذي بدن
لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة ... أوفى من الشكر عند الله في الثمن
أخلصتها لك من قلبي مهذبة ... حذوا على مثل ما أوليت من منن

وكان أمير البصرة إسماعيل بن سليمان قد أساء مجاورة ابن أبي عيينة حتى تباعد ما بينهما وقبح ، وأظهر إسماعيل تنقصه وعتبه ، فخرج يشكوه إلى طاهر ، فلما دخل عليه سأله عن حوائجه وأدناه وأمره برفعها ، فأنشده :

---

(1) الماعون : المعروف أو كل ما انتفع به .
(2) النسك : العبادة .
(3) تترى : متتابعة .

إنـي مـن الله فـي مـراح غـنى ... ومنـتدى واسـع وفـي نعـم
زارتـك بـي همـة مـنازعة ... إلى العـلا مـن كـرائم الهمـم
وإنـني للجمـيل محـتمل ... في القدر من منصبي ومن شيمي
وقـد تعلقـت مـنك بـالذمم الـ ... كبرى الـتي لا تخيـب فـي الذمـم
فـإن أنـل بغيـتي فأنـت لهـا ... فـي الحـق حـق الـرجاء والـرحم
وإن يعـق عـائق فلسـت علـى ... جمـيل رأى عـندى بمـتهم
فـي قـدر الله مـا أحملـه ... تعويـق أمـرى فـي اللـوح والقـلم
لم يضـق الصـبر والفجـاج علـى ... حـر كـريم بالصـبر معتصـم

وكان ابن أبي عيينة قد قصد قبيصة بن روح بن حاتم المهلبي واستماحة فلم يجد عنده ما قدره فيه . فانصرف مغاضبا ، فوجه إليه داود بن مزيد بن حاتم ، فترضاه وبلغ ما أحبه ورضيه من بره ومعنوته ، فقال بمدحه ويهجو قبيصة :

أقبيص لست وإن جهدت بمدرك ... سعى ابن عمك ذى العلا داود
شتان بينك يا قبيص وبينه ... إن المذمم ليس كالمحمود
أختار داود بناء محامد ... واخترت أكل شبارق وثريد[1]
قد كان مجد أبيك لو أحييته ... روح أى خلف كمجد يزيد
لكن جرى داود جرى مبرز[2] ... فحوى المدى وجريت جرى بليد
داود محمود وأنت مذمم ... عجبا لذاك وأنتما من عود

وولي خالد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب جرجان[3] فأمر ابن أبي عيينة أن يصحبه ويخرج معه ووعده الإحسان والولاية وأوسع له المواعيد وكان ابن أبي عيينة جنديا فجرد اسمه في جريدته وأخرج رزقه معه . فلما حصل بجرجان أعطاه رزقه لشهر واحد واقتصر على ذلك وتشاغل عنه وجفاه ، فبلغه أنه قد هجاه وطعن عليه وبسط لسانه فيه وذكره بكل قبيح عند أهله ووجوه رعيته ، فلم يقدر على معاقبته لموضع أبيه وسنه ومحله في أهله ، فدعا به وقال : إنه قد بلغني أنك تريد أن تهرب فأما إن أقمت لي كفيلا برزقك أوردته ، فأتاه بكفيل ، فأعنته[4] ولم يقبله ولم يزل يردده حتى ضجر ، فجاءه بما قبض من الرزق ، فأخذه ، ولج أبو عيينة في هجائه وأكثر فيه حتى فضحه فقال فيه :

---

(1) الشبارق : ما اقتطع من اللحم صغيرا وطبخ .
(2) المبز : السابق .
(3) جرجان : مدينة عظيمة في الشمال من بلاد الفرس .
(4) أعنته : أوقعه في العنت وهو المشقة .

دنـيا دعوتـك مسـرعا فأجيـبى / وبما اصطفيتك فى الهوى فأثيبى
دومى أدم لك بالصفاه على النوى / إنـى بعهـدك واثـق فـثقى بـى
ومن الدليل على اشتياقى عبرتى / ومشيب رأسى قبل حين مشيب
أبكى لإليك إذا الحمامة طربت[1] / يـا حسـن ذاك إلى مـن تطريـب
تـبكى عـلى فـنن الغصـون حزيـنة / حـزن الحبيـبة مـن فـراق حبيـب
وأنـا الغريـب فـلا ألام عـلى الـبكا / إن الـبكا حسـن بكـل غريـب
أفـلا يـنادى للقـتول بـرحلة / تشـفى جـوى مـن أنفـس وقلـوب
مالى اصطفيت على التعسف خالدا / والله مـا أنـا بعدهـا بأريـب
تـبا لصـحبة خـالد مـن صـحبة / ولخـالد بـن يـزيد مـن مصـحوب
يـا خـالد بـن قبيصـة هيجـت بـه / حـرب فدونـك فاصـطبر لحـروبى

البحـــترى

هو الوليد بن عبيد الله بن يحيى البحترى الطائى من بحتر بن عتود ثم من طىء ، ويكنى أبا عبادة ، وهو كما يقول أبو الفرج : شاعر فاضل حسن المذهب نقى الكلام مطبوع ، كان مشايخنا رحمة الله عليهم يختمون به الشعراء ؛ وله تصرف حسن فاضل نقى فى ضروب الشعر سوى الهجاء فإن بضاعته فيه نزرة ، وجيده منه قليل ، وكان ابنه أبو الغوث يزعم أن السبب فى قلة بضاعته فى هذا الفن أنه لما حضره الموت دعا به وقال له: اجمع كل شىء قلته فى الهجاء ، ففعل ، فأمره بإحراقه ثم قال له : يا بنى هذا شىء قلته فى وقت فشفيت به غيظى وكافأت به قبيحا فعل بى ، وقد انقضى أربى فى ذلك ، وإن بقى روى ، وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شىء فى نفسك ومعاشك لا فائدة لك ولا لى منه ، قال : فعلمت أنه قد نصحنى وأشفق على فأحرقته، والذى وجدناه وبقى فى أيدى الناس من هجائه فأكثره ساقط لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه وتنبىء بركاكتها وغثاثة ألفاظها عن قلة حظه فى الهجاء ، وكان البحترى يتشبه بأبى تمام فى شعره ويحذو مذهبه وينحو نحوه فى البديع الذى كان أبو تمام يستعمله ، ويراه رائدا وإماما ويقدمه على نفسه ، ويقول فى الفرق بينه وبينه قول منصف : إن جيد أبى تمام خير من جيده ووسطه خير من وسط أبى تمام ورديئة : وكذا حكم هو على نفسه .

---

[1] طرب صوته : مده ورجعه وحسنه .

وحدث البحترى قال : قال أبو تمام : بلغنى أن بنى حميد أعطوك مالا جليلا فيما مدحتهم به فأنشدنى ، فأنشده بعض ما قلته فيهم ، فقال لى : كم أعطوك ؟ فقلت : كذا وكذا ، فقال : ظلموك ، والله ما وفوك حقك ، فلم أستكثر ما دفعوه إليك، والله لبيت منها خير مما أخذت ، ثم قال : لعمرى لقد استكثرت واستكثر لك لما ومات الناس وذهب الكرام وغاضت المكارم ، فكسدت سوق الأدب ، أنت والله يا بنى أمير الشعراء غدا بعدى ! فقمت فقبلت رأسه ويديه ورجليه وقلت له : والله لهذا القول أسر لقلبى وأقوى لنفسى مما وصل إلى من القوم .

وكان البحترى من أبغض الناس إنشادًا ، يتشادق ويتزاور فى مشيه: مرة جانبا ومرة القهقرى ، ويهز برأسه مرة وبمنكبية أخرى ، ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ! ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله ! وقال الوليد بن عبيد الله البحترى : كنت فى حداثتى أروم الشعر وأرجع فيه إلى طبعى ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه حتى قصدت أبا تمام ، انقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه على ، فقال له : تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، وأحسن الأوقات لتأليف شىء أو حفظه وقت السحر ، لأن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم . فإن أردت النسيب فأجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، وإذا أخذت فى مديح سيد ذى أياد ، فاشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه وأبن معالمه وشرف مقامه ونضد المعانى ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام ، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين: وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلفك من شعر الماضين . فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله .

وقال له أبو تمام يوما وقد سمع شعره وأعجب به :

نعيت والله إلى نفسى ، فقال : أعيذك بالله من هذا القول ، فقال : إن عمرى لن يطول وقد نشا فى طىء مثلك ، أما علمت أن خالد بن صفوان رأى شبيب بن شبة وهو من رهطه يتكلم فقال : يا بنى ، لقد نعى إلى نفسى إحسانك فى كلامك ، لأنا من أهل بيت ما نشأ فينا خطيب قط إلا مات من قبله ، فقال : بل يبقيك الله ويجعلنى فداءك ، ومات أبو تمام بعد سنة .

وقال عبد الله بن حسين بن سعد وقد أنشد البحترى شعرا لنفسه ولقد كان أبو تمام قال فى مثله - أنت والله أشعر من أبى تمام فى هذا الشعر ، فقال : كلا والله، إن أبا تمام للرئيس والأستاذ ، والله ما أكلت الخبز إلا به ، فقال له المبرد : لله درك يا أبا الحسن فإنك تأبى إلا شرفا من جميع جوانبك ! وقيل للبحترى : إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام ، فقال : والله ما ينفعنى هذا القول ولا يضر أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز إلا به ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكنى والله تابع له آخذ منه لائذ به ، نسيمى يركد عند هوائه ، وأرضى تنخفض عند سمائه ..وقال البحترى : كان أول أمرى فى الشعر ونباهتى أن صرت إلى أبى تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعرى ، وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فأقبل على وترك سائر من حضر ، فلما تفرقوا قال لى : أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف بالله حالك ؟ فشكوت خلة ، فكتب إلى أهل معرة[1] النعمان وشهد لى بالحذق فى الشعر وشفع لى إليهم ، وقال : امتدحهم ، فصرت إليهم ، فأكرمونى بكتابه ووظفوا لى أربعة آلاف درهم ، فكان أول ما أصبته ، وكانت نسخة كتاب أبى تمام : " يصل كتابى هذا على يد الوليد بن عبادة الطائى وهو على بذاذته[2] شاعر فأكرموه " .

قال البحترى : أول ما رأيت أبا تمام أنى دخلت على أبى السعيد محمد ابن يوسف وقد مدحته بقصيدتى :

أأفــاق صــب مــن هــوى فأفــيقا   أم خــان عهــدا أم أطــاع شــفيقا

فسر بها أبو سعيد وقال : أحسنت والله يا فتى وأجدت ، وكان فى مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس فوق من حضر عنده تكاد تمس ركبته ركبته ، فأقبل على وقال : يا فتى ، أما تستحى منى ؟ هذا شعر لى تنتحله وتنشده بحضرتى ، فقال له أبو سعيد : أحقا تقول ؟ قال : نعم ، وإنما علقه منى فسبقنى به إليك وزاد فيه ، ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة حتى شككنى علم الله فى نفسى وبقيت متحيرا ، فأقبل على أبو سعيد فقال: يا فتى ،قد كان فى قرابتك وودك لنا ما يغنيك عن هذا، فجعلت أحلف له بكل محرجة الأيمان أن الشعر لى ما سبقنى إليه أحد ولا سمعته منه ولا انتحلته ، فلم ينفع ذلك شيئا ، وأطرق أبو سعيد وقطع بى حتى تمنيت أنى سخت فى الأرض ، فقمت منكسر البال أجر رجلى ، فخرجت ، فما هو إلا أن بلغت الدار حتى خرج الغلمان فردونى ، فاقبل على الرجل فقال : الشعر لك يا بنى ، والله ما قلته ولا سمعته

---

(1) معرة : مدينة بين حلب وحماة ، كان منها أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرى .
(2) البذاذة : سوء الحال .

إلا منك ، ولكنني ظننت أنك تهاونت موضعي فأقدمت على الإنشاد بحضرتي من غير معرفة كانت بيننا تريد بذلك مضاهاتي وتكاثرتي حتى عرفني الأمير نسبك وموضعك ، ولو وددت ألا تلد أبدا طائية إلا مثلك ، وجعل أبو سعيد يضحك ، ودعاني أبو تمام وضمني إليه وعانقني وأقبل يقرظني ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به . ثم حظي البحتري بأبي سعيد وكان مداحا له طول أيامه ولابنه بعده ورثاهما بعد مقتلهما فأجاد ، ومراثيه فيهما أجود من مدائحه : وروى أنه قيل له في ذلك ، فقال : من تمام الوفاء أن تفضل المراثي المدائح ، لا كما قال الآخر ، وقد سئل عن ضعف مراثيه ، فقال : كنا نعمل للرجاء ونحن اليوم نعمل للوفاء وبينهما بعد ، وكان البحتري من أوسخ خلق الله ثوبا وآلة وأبخلهم على كل شيء ، وكان له أخ وغلام معه في داره ، فكان يقتلهما جوعا فإذا بلغ منهما الجوع أتياه يبكيان ، فيرمي إليهما بثمن أقواتهما مضيقا مقترا ويقول : كلا أجاع الله أكبادكما ، وأطال إجهادكما .

وقد توارد البحتري والشريف الرضي على ذكر الذئب في قصيدة للبحتري دالية أولها :

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد	أما لكم من هجر أحبابكم بد

ومقطوعة للشريف الرضي أولها :

وعاري الشوى والمنكبين من الطوى	أتيح له بالليل عاري الأشاجع

وقد أجاد البحتري في وصف حاله مع الذئب ، وأجاد الشريف في وصف الذئب نفسه :

وقصيدة البحتري طويلة ومنها :

وأطلس ملء العين يحمل زوره	وأضلاعه من جانبيه شوى نهد
له ذنب مثل الرشاء يجره	ومتن كمتن القوس أعوج متأد
طواه الطوى حتى استمر مريره	فما فيه إلا العظم والروح والجلد
يقضقض عصلا في أسرتها الردى	كقضقضة المقرور أرعده البرد
سما لي وبي من شدة الجوع ما به	ببيداء لم تعرف لها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه	بصاحبه والجد يتعسه الجد
عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته	فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها	على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازداد إلا جرأة وصرامة	وأيقنت أن الأمر منه هو الجد
فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها	بحيث يكون اللب والرعب والحقد

فخر وقد أو ردته منهل الردى — على ظمأ لو أنه عذب الورد
وقمت فجمعت الحصى فاشتويته — عليه وللرمضاء من تحته وقد
ونلت خسيسا من ثم تركته — وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

أما قصيدة الشريف الرضي في وصف الذنب ، فهي :

وعاري الشوى والمنكبين من الطوى — أتيح له بالليل عاري الأشاجع
أغيبر مقطوع من الليل ثوبه — أنيس بأطراف البلاد البلاقع
إذا جن ليل طارد النوم طرفه — ونص هدى الحاظه بالمطامع
يراوح بين الناظرين إذا التقت — على النوم أطباق العيون الهوامج
له خطفة حذاء من كل ثلة — كنشطة أقنى ينفض الطل واقع
ألم وقد كاد الظلام تقضيا — يشرد فراط النجوم الطوالع
طوى نفسه وانساب في شملة الدجى — وكل امرىء ينقاد طوع المطامع
إذا فات شيء سمعه دل أنفه — وإن فات عينيه رأى بالمسامع
تظالع حتى حك الأرض زوره — وراغ وقد روعته غير ظالع
إذا غالبت إحدى الفرائس خطمه — تداركها مستنجدًا بالأقارع
جريء يسوم النفس كل عظيمة — ويمضي إذا لم يمض من لم يدافع
إذا حافظ الاعى على الضان غره — خفي السرى لا يتقي بالطلائع
يخادعه مستهزئا بلحاظه — خداع ابن ظلماء كثير الوقائع
ولما عوى والرمل بيني وبينه — تيقن صحبي أنه غير راجع
تأوب والظلماء تضرب وجهه — إلينا بأذيال الرياح الزعازع
له الويل من مستطعم عاد طعمة — لقوم عجال بالقسي النوازع

ويكاد يكون من المجمع عليه أنه لم يأت بعد البحتري من هو أطبع منه على الشعر ولا أبداع للخيال الشعري . قال له يوما أبو تمام أنت والله يابني أمير الشعراء غدا بعدي و سئل هو عن أبي تمام فقال : جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه ، وسئل المعري عن أبي تمام وأبي الطيب فقال المتنبي وأبو تمام حكيمان ، وأنما الشاعر البحتري ، وقد نشأ البحتري في بلاد أشبه بالبدو منها بالحضر ينزلها كثيرا من بطون طي وقضاعة وتغلب و ولم تكن ألسنتهم فسدت بعد فتخرج عليهم مطبوعا على فصاحتهم وسهولة أساليبهم ، ولم يؤثر عنه أنه جلس إلى درس العلماء ولازم المتفلسفة ، فابتعد بذلك عن مذاهب الحاضرين وتعمقهم وفلسفتهم فكان شعره كله حسن الديباجة، صقيل اللفظ ، سلس الأسلوب، ينحدر إلى الأسماع انحدار السيل إلى القاع، وقلت فيه المعاني المعقدة العويصة التي تنشأ عن تراجم العلوم العقلية في ذهن المعبر عنها، كما كان يقع من أبي تمام والمتنبي والمعري، فسهل فهم شعره على جميع طبقات الناس من الخاصة والعامة، وتغنى به الغلمان والجواري والقيان.

وبذلك الشعر كان البحترى محبوبا للناس قليل الخصوم منهم عامة حياته ، واتفق أن خالف طريقته السمحة فى قصيدة يقول فيها يصف الدنيا :

أخى متى خاصمت نفسك فاحتشد	لها ومتى حدثت نفسك فاصدق
أرى علل الأشياء شتى ولا أرى التـ	ـجمع إلا علـة للتفرق
أرى العيش ظلا توشك الشمس نقله	فكس فى ابتغاء الرزق كيسك أو مق
أرى الدهر غولا للنفوس وإنما	يقى الله فى بعض المواطن من بقى
فلا تتبع الماضى سؤالك لم مضى	وعرج على الباقى فسائله لم بقى
ولم أر كالدنيا حليلة صاحب	محب متى تحسن بعينيه تطلق
تراها عيناها وهى صنعة واحد	فتحسبها صنعى لطيف وأخرق

فأوهم بيته الأخير المناقضة فى أفعال الخالق الحكيم المنزه عن الحكمة حتى ليحسب الناظر فى أحوال الدنيا أنها من خلق اثنين أحدهما حكيم يؤثر الخير والأصلح فى صنعه والآخر أخرق يؤثر الفساد والشر ، وهذا ما يشبه عقيدة المجوس القائلين بإلهين للعالم إله خير وإله شر ، فأول حساده البيت بهذا المعنى ، فأشاعوه فى العامة من الحنابلة وكانت غالبة على بغداد ، فخاف على نفسه وقال لابنه أبى الغوث قم يا بنى حتى نطفىء هذه النائرة بخرجة نلم فيها ببلدنا ونعود ، فخرج ولم يعد .

وللبحترى تصرف حسن فاضل نقى فى صنوف الشعر سوى الهجاء ، فإن بضاعته فيه نزرة ، وجيده فيه قليل ، وأهم ما اشتهر به البحترى من الأغراض النسيب والمدح والوصف .. ومن شعره فى الغزل قوله :

حبيبى حبيب يكتم الناس أنه	لنا - حين تلقانا العيون - حبيب
يباعدنى فى الملتقى وفؤاده	- وإن هو أبدى لى البعاد - قريب
ويعرض عنى والهوى منه مقبل	إذا خاف عينا أو أشار رقيب
فتنطق منا أعين حين نلتقى	وتخرس منا ألسن وقلوب

وقال فى المدح :

دنوت تواضعا وعلوت مجدا	فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى	ويدنو الضوء منها والشعاع

وقوله فى الحكمة :

إذا ما نسبت الحادثات وجدتها	بنات زمان أرصدت لبنيه
متى أرت الدنيا نباهة خامل	فلا ترتقب الا خمول نبيه

ابــن الــرومى

٢٢١ – ٢٨٣ هـ ، ٨٣٥ – ٨٩٦ م

حياته وشاعريته :

ابن الرومى شاعر مجيد ، وعلم من أعلام القريض فى القرن الثالث الهجرى، ويعد فى الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، وهى الطبقة التى كانت من أبطالها أبو تمام والبحترى وابن المعتز ، وورثت مجد الشعر بعد طبقة أبى نواس ، وكان لها منهجها الأدبى الخاص ، الذى يقوم على العناية بالصنعة الشعرية ، وعلى توليد المعانى وعمق الخيال .. ولد أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى عام ٢٢١ هـ من أبوين مختلفى الأرومة ، فأمه تنحدر من عنصر فارسى ، وأبوه[١] ينحدر من عنصر رومى كان يحتفظ بطبيعته الشاعرية ويعتز به طول حياته وكان مولى لحفيد من أحفاد الخليفة أبى جعفر المنصور ، وولد فى بغداد فى دار بازاء قصر مولاه ، ومات والده فى طفولة الشاعر . فنشأ فى ظلال والدته وأخيه الأكبر يعيش هو وأسرته على مال ضئيل خلفه لهم أبوه ، وأخذ يتزود بقسط من ثقافة عصره ، فلم يلبث أن أحاط بكل ما يمكن أن يحاط به من العلوم والآداب ، ونبغ فى الشعر ونظم القريض وطارت شهرته فى سماء بغداد ، ولكن هذه الشهرة لم تنفعه ، كان فقيرا يريد أن يعيش ، وجائعا يريد أن يأكل ، وظمآن يريد أن يروى ، وخلق الثياب يبحث عما يلبسه ، وقصد بشعره رجالات الدولة فى عصره مادحا فحرموه العطاء ، فعاش ساخطا على الحياة والأحياء .

فى دولتى أنا مغصوب وفى زمنى ... عودى ظمىء بلا رى ولا بلل

كان شابا جميلا قوى الملكات ، مزودا بشتى ألوان الثقافة ، فلم يغنه ذلك شيئا فى حياته ، وكان يسمع ويرى حياة الترف التى يحياها فى عصره كثير من الناس، فتمنى لنفسه حظا من النعمة ، فلم يحظ بطائل ، وهو الشاب الذى ذاق ألم اليتم والشاعر المرهف الإحساس فاشتد سخطه على الناس، وأمطرهم وابلا من أهاجيه التى بغضته إلى الناس، وزادت من آلامه فى الحياة .

---

[١] له شعر رواه ابنه ابن الرومى (١٣١:١ ديوان المعانى)

كان أبو الحسن على بن العباس إذن مزيجا من الدم الفارسى والرومى يعتز بانتمائه للروم اعتزازه بانتسابه إلى الفرس :

كيف أغضى على الدنية والفر ... س خؤولى والروم هم أعمامى

نزح أجداد الشاعر إلى بغداد عاصمة الدولة العباسية إبان نشأتها ، فأقاموا بها مع مواليهم بنى العباس ، وكان ابن الرومى كأجداده وآبائه مولى من موالى العباسيين له بهذا الولاء اعتزاز :

مولاهم وغذى نعمتهم ... والروم حين تنصنى أصلى

ونشأ فى كنف أخيه محمد بن العباس ، وفى ظلال مواليه ، لم يكن محمد ابن العباس صاحب ثروة ، ولا ذا جاه ، إنما كان أديبًا يكتب لولاة بنى العباس وقوادهم ، فعاش ابن الرومى اليتيم يرفل فى عطفه وبره ونعمته .. ثم دار الزمن دورته ، فإذا الطفل شاب عريض الخيال ، طويل الآمال ، لكن اليتيم قد هاض جناحه ، وراض جماحه ، فاعتصم الشاب الصغير بالأمانى العذاب ، وأقبل على حلقات العلم ومجامع الأدب ، يطفىء هم غلته ، ويرضى بالإقبال عليهما همته ، ويجد فيهم قبسا من الأمل الباسم والمستقبل المرموق ، جميل السلوى والعزاء .. الدولة دولة العباسيين وأصفيائهم من الموالى ، الذين صعدوا بالعلم والأدب إلى ذروة المجد والجاه ، وهذا ابن الرومى يتسلح بالعلم والأدب ، ليدرك بهما ما أدرك أفذاذ المولى من عزة ورفعة ، وعكف الشاب الطموح على الدرس والتحصيل ، فغذى عقله وروحه بالثقافات العربية والفارسية واليونانية ، وقرأ ما ترجم من لغة الفرس واليونان ، وما ألف فى شتى العلوم والمعارف ، حتى برع فى كل فن ونبغ فى كل علم ، وبذ أترابه فى ميدان اللغة وأدبها ، كما حصل علوم الفلسفة و الفلك والكلام ، وكما كان شاعرا كان كاتبا صاحب رسائل ، ومفكرا ينفذ فكره إلى كل شىء ، وعالما يشار له فى علوم اللغة والأدب بالبنان .

وظل ابن الرومى ينهل من معين الثقافة العذب شابا ورجلا وكهلا ، تساعده على ذلك ذاكرة قوية وذهن خص وعبقرية نادرة ، وإحساس عميق ، وأخذت شهرة ابن الرومى الأدبية تطغى على جوانب شخصيته الأخرى ، وأصبح ابن الرومى الشاعر فى رأى المنصف إلى قمة المجد والنبوغ .. ولكن الأحداث لم تهادن الشاعر ، فرزىء وهو فى الثلاثين بوفاة أخيه ، فحزن عليه ورثاه بشعره ، ثم رزىء بوفاة أولاده واحدا بعد واحد ، فجزع عليهم ورثاهم ، ثم توفيت زوجه بعدهم ، فأمضه الحزن ، وبعد ذلك ماتت أمه ، فذابت نفسه حسرات ، وفاضت عينه عبرات :

رجعـنا وأفـردناك غـير فـريدة — مـن البر والمعروف والخير والكرم
فـلا تعدمـي أنـس المحـل فطالمـا — عكفت فآنست المحاريب فى الظلم
نـبا ناظـرى يـا أم عـن كـل مـنظر — وسمعى عن الأصوات بعدك والنغم
وأصبحت الآمـال مذ بنـت والمـنى — غـوادر عـندى غـير وافـية الذمـم

وقضى ابن الرومى أيامه فى بغداد ، ظاهر البؤس ، كثير الألم والشكوى ، يطلب الحياة فلا تلبى نداءه الحياة ، ولا تذوب لشكاته نفوس أهل المروءة والأريحية ، ولما نبا به حظه فى بغداد هجرها ، وطاف ببعض المدن ينشد فيها الأمل الضائع ، بيد أنه لم يعثر فيها على أمانيه المنشودة ، فعاد إلى بغداد مشوقا إليها ، مشوقة إليه :

بلـد صـحبت بـه الشـبيبة والصـبا — ولبسـت ثـوب العمـر وهـو جديـد
فـإذا تمـثل فـى الضـمير رأيـته — وعلـيه أغصـان الشـباب تمـيد

وقنع برزقه الضيق ، وحياته الشقية ، كارها الغربة والسفر :

أذاقتـنى الأسـفار مـا كـره الغـنى — إلى وأغـرانى بـرفض المطالـب
فأصبحت فـى الإثـراء أزهـد زاهـد — وإن كنت فى الإثراء أرغب راغب
لقيـت مـن الـبر التـباريح بعدهـا — لقيت من البحر ابيضاض الذوائب

ومدح آل وهب وآل طاهر ينشد الثراء والجاه ، ولكنه لم ينل منالا ، حتى إذا وهن عظمه وناء بأحداث الزمن الجائر ، أخذ يذكر الشباب فى لوعة وأسى :

وعـزاك عـن لـيل الشباب معاشـر — فقالوا : نهار الشيب أهجى وأرشد
أأيـام لهـوى هـل مواضـيك عـود — وهـل لشباب ضـل بـالأمس منشد ؟

ولكن هيهات أن يعود الشباب .. وأخيرا مات الشاعر ، سمه أحد أتباع القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد ، فسكنت النفس الشاعرة ، وصمتت العبقرية الصادحة ، وأوى شهيد الآمال إلى جدث أوت إليه معه العبقرية ورفت عليه العظمة وجلال الذكريات .

هذا هو ابن الرومى : يتيما حائرا ، وشابا معذبا ، ورجلا طامحا شقيا بطموحه وشيخا خاصمته الأيام ، وحالفته الآلام ، وذلك هو الشاعر : متعلما يقبل على الدرس والتحصيل ، عالما متعمقا فى فروع الثقافة والمعرفة ، وشاعرا ذاع صيته فى بغداد ، وكاتبا يبذ الكتاب والأدباء .

وقد عاصر ابن الرومى المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتضد وتوفى فى عهد المعتضد عام ٢٨٣ هـ ... واشتهر ابن الرومى فى عصره بالتشاؤم والطيرة ، وتروى له فى طيرته قصص كثيرة ، وينطق شعره بتشاؤمه فى الحياة ، وأفرط الشاعر فى تشاؤمه ففتح ذلك بابا لطيرته لم يسده عليه إلا الموت ، فتطير من كل شيء ، حتى من الأسماء ، ومن ركوب الماء ، بل حتى من شربه :

وأخشى الردى منه على كل شارب ... فكيف بأمنيه على نفس راكب

وليس بدعا من ابن الرومى هذه الطيرة ، فقد نزلت به خطوب فادحة ، أضلت صوابه ، فسكن إلى هواجس النفس ، ووساوس الشعور ..

وكان ابن الرومى حاد المزاج ، مرهف الشعور ، كثير الطيرة ..

روى على بن إبراهيم قال : كنت بدارى جالسا[1] فإذا حجارة سقطت بالقرب منى فبادرت هاربا ، وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح ، والنظر إلى كل ناحية من أين تأتينا الحجارة ؟ فرجع إلى وقال لى : امرأة من دار ابن الرومى الشاعر قد تشوفت[2] ، وقالت : اتقوا الله فينا ، واسقونا جرة من ماء وإلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشا فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخاطبها ، ففعلت وبادرت بالجرة ، واتبعتها شيئا من الطعام ، ثم عادت إلى فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل منذ ثلاثة أيام بسبب تطير ابن الرومى ، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ، ثم يصير إلى الباب ، والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب ، فتقع على جار له كان نازلا بإزائه؛ وكان أحدب يقعد كل يوم على بابه، فإذا نظر إليه رجع، وخلع ثيابه، وقال : لا يفتح أحد الباب !

فعجبت لحديثها وبعثت خادم لى كان يعرفه ، فأمرته أن يجلس بإزائه - وكانت العين تميل إليه - وتقدمت إلى بعض أعوانى أن يدعو الجار الأحدب ، فلما حضر عندى أرسلت وراء غلامى لينهض إلى ابن الرومى ويستدعيه ، فإنى لجالس ومعى الأحدب ، إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسى ومعه برذعة الموسوس ، صاحب المعتضد ، ودخل ابن الرومى ، فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر فانقطع

---

[1] زهر الآداب ص١٧٧ ج٢ - ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ - معجم الأدباء ص٢٩٦ ج١٣ .

[2] تشوفت : نظرت وتطاولت .

شسع[1] نعله، فدخل مذعورا ! وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظرا يدل على تغير حاله ، فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه ، فقلت له : يا أبا الحسن ، أيكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال : قد لحقني ما رأيت من العثرة لأني فكرت أن به عاهة ! وهي قطع أنثييه[2]، قال برذعة : وشيخنا يتطير ؟ قلت : نعم ويفرط ! قال : ومن هو ؟ قلت : على بن العباس[3] ، قال الشاعر ؟ قلت : نعم ! فأقبل عليه وأنشده :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه	بتفريق بيني وبين الحبائب[4]
رجعت إلى نفسي فوطنتها على	ركوب جميل الصبر على النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها	فأيامه محفوفة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم تعيشه	وكن حذرا من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطـ	ـرح تطير جار أو تفاؤل صاحب !

فبقى ابن الرومى باهتا ينظر إليه ! ولم أدر أنه قد شغل قلبه بحفظ ما أنشده، ثم نهض أبو حذيفة وبرذعة معه .

فحلف ابن الرومى لا يتطير أبدا من هذا ولا من غيره ، وعجب من جودة الشعر ومعناه ، وحسن مأتاه ، قلت له : ليتنا كتبناه ؟ ! قال : اكتبه فقد حفظته وأملاه على .

شاعريته وخصائصها :

كان للدم الرومى وأثر الوراثة ولحياة الشاعر وبؤسه ولثقافته وبيئته ولمشاعره المرهفة ووجدانه الرقيق ، كان لذلك كله أثره البعيد فى شاعرية الشاعر وفنه الأدبى الذى كان صورة مكبرة لكل ألوان هذه الحياة ، اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس وعمق الشعور بالمنتقضات فى نفسه وفى زمنه ، فولدت فى نفسه روح السخرية . وأشاعت فى فنه هذا اللون الجيد من ألوان الشعر والشعور ، وهو فن الهجاء الذى امتاز به الشاعر وأجاده حتى حين يهجو من لم يؤذه بشيء ، كما يقول يهجو مغنيا من قصيدة طويلة:

---

[1] الشسع : أحد سيور النعل وهو الذى يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه فى الثقب الذى فى صدر النعل المشدود فى الزمام .

[2] يعنى أنه مجبوب .

[3] هو اسم ابن الرومى .

[4] الحبائب : مفرده حبيبة .

ومــــــمع لا عدمـــــت فرقـــته ... فأنهـــا نعمـــــة مـــــن الـــنعم
مجلســه مـأتم اللـذاذات والقصـف ... وعـــــرس الهمـــــوم والـــــدم
وكأنــنى مــن طــول مــا أشـاهده ... أشــرب كأســى ممــزوجة بدمـــى
إذا الـــــندامى دعـــــوة آونـــــة ... تـــنادموا كأسـهم عـــلى الـــندم

وكان لبؤسه فى الحياة وفقده كثيرا من الأعزاء أثر واضح فى إجادته فن الرثاء وداليته فى رثاء ابنيه من أجود قصائد الرثاء ومطلعها :

وبكاؤ كما يشفى وإن كان لا يجدى ... فجودا فقد أودى نظير كما عندى

وكذلك جيميته فى رثاء يحيى العلوى الذى قتل عام ٢٥٠ هـ ، وميميته فى رثاء البصرة حين ضربها الزنج عام ٢٥٧ هـ [1] .. وشغف قلب ابن الرومى بالحياة ، وتطلعه إلى متعها ولذاذاتها ، وحياته فى مظاهر الحضارة التى كانت تغمر عصره ، وأثر الوراثة فى نفسه ، كل هذا جعله من أعظم الوصافين فى الشعر العربى ، وقصيدته فى وحيد المغنية مثل من أمثلة هذه الإجادة ويقول منها :

ياخليـــــلى تيمتـــــنى وحـــــيد ... ففـــؤادى بهـــا معـــنى عمـــيد
غـــادة زانهـــا مـــن الغصـــن قـــد ... ومــــن الظـــبى مقلـــتان وجـــيد
تتجـــــلى للـــــناظرين إلـــــيها ... فشـــــقى بحســـــنها وســـــعيد
تتغـــــنى كأنهـــــا لا تغـــــنى ... مـن سـكون الأوصـال وهـى تميد
مـد فـى شـأو صـوتها نفـس كـاف ... كأنفـــــاس عاشـــــقيها مديـــــد
فـــتراه يمـــوت طـــورا ويحـــيا ... مســـــتلذ بســـــيطة والنشـــــيد
خلقـــت فتـــنة غـــناء وحســـنا ... مالهـــا فـــيهما جمـــيعا نديـــد
هـــى شـــىء لا تسـأم العـين مـنه ... ولهـــا كـــل ســـاعة تجديـــد
مـــنظر مســـمع معـــان مـــن الـــلهو ... عـــتاد لمـــا يحـــب عتـــيد

ومن وصفه كذلك :

وقـــــيان كأنهـــــا أمهـــــات ... عاطفـــات عـــلى بنـــيها حوانـــى
مطفـــلات ومـــا حملـــن جنيـــنا ... مرضـــعات ولســـن ذات لـــبان
كـــل عـــود يدعـــى بأسمـــاء شـــتى ... بـــين عـــود ومزهـــر وكـــران
أمـــه دهـــرها تترجـــم عـــنه ... وهـــو بـــادى الغـــنى عـــن الترجمـــان

---

[1] ذاد عن مقلتى لذيذ المنام ... شغلها عنه بالدموع السجام
. أماءك فانظر أى نهجيك تنهج ... طريقان شتى : مستقيم وأعوج

إلى غير ذلك من روائع قصائده في الوصف والتصوير . كما أجاد في وصف الخمر ، وفي وصف الأخلاق والعواطف ، ويبلغ في العتاب الغاية في الجودة ، كما في قصيدته في عتاب أبي القاسم الشطرنجي ، التي مطلعها :

يـا أخـي أيـن عهـد ذاك اللقـاء أيـن مـا كـان بيننـا مـن صـفاء

وله آيات في المدح تحوز الإحسان والإجادة ، ومنها نونيته في أبي الصقر ، ومطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان فـيهن نوعـان تفـاح ورمـان

ويقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كـلا لعمـري ولكـن مـنه شـيبان
وكم أب قد علا بابن ذري شرف كمـا علـت برسـول الله عدنـان

ويمتاز ابن الرومي بتفضيله المعنى على اللفظ كما كان المتنبي ، فهو يطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هجوته اللفظ وخشونته ، كما يقول ابن رشيق[1] .. كان بديع المعاني بعيدها ، كثير الاختراع والتوليد فيها ، والاستقصاء لها لا يترك فيها بقية لغيره ، والقدرة التامة في تشقيق المعاني وتفصيلها هي أخص خصائص شاعرية ابن الرومي ، ويقول ابن رشيق فيه : " إنه أكثر الشعراء اختراعا للمعاني "، أما أسلوبه جمع بين الحديث والرديء وروح الصنعة ظاهرة فيه ، وإن كانت في شعر أقل منها في شعر ابن المعتز ، لم يكن ابن الرومي يعني بتهذيب شعره وتنقيحه ، ولو أسقط رديئه لكان في ذلك أجود الشعراء ، وفي الغالب أن شعراء المعاني كأبن الرومي وأبي تمام قلما تنهض ألفاظهم بأداء معانيهم ، وقد كان ابن الرومي لا يحفل باللفظ إلا بقدر أداء المعنى ، وتمتاز قصائده بطول النفس مما لا يجاريه فيه إلا ابن هانيء الأندلسي ، وقد ساعده على الإطاله أسلوبه الخاص في تناول كل معنى في معانيه بالإفاضة والشرح ، وتقليبه على كل نواحيه ، كما تمتاز قصائده بالانسجام والوحدة في تأليفها ، حتى لكأنها قطعة واحدة مؤلفة تأليفا منطقيا لا عوج فيها ولا ضعف ولا استطراد ، وخياله خيال يقظ . حسي في غالب شعره ، يترك الحس إلى عالم عقله أحيانا ، أوتي ملكة التصوير ولطف التخيل ، وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال .

---

[1] ١/٨٢ العمدة .

ولا تكاد تجد شاعرا أختلف النقاد في منزلته الأدبية مثل ابن الرومي . أهمله صاحب الأغاني إهمالا يعلله بعض بالخصومات الأدبية التي كانت بين ابن الرومي والأخفش أستاذ أبي الفرج ، ويعلله آخر بأن ابن الرومي كان شعوبيا وأبا الفرج أمويا ، وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومي كانت لا تزال متأججة اللهب، لأهاجيه في رجالات الدولة ، وأعلله أن أبا الفرج لم يرتض مذهب ابن الرومي في الشعر ، ونهجه في نظم القريض ، ويقول القاضي الجرجاني عنه في وساطته: " وقد نجد كثيرا ينتحل تفضيل ابن الرومي ، ويغلو في تقديمه . ونحن نقرأ القصيدة الوحيدة في شعره ، وهي قد تناهز المائة أو تزيد ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين ، ثم قد تنسلخ قصائده منه ، وهي واقفة تحت ظلها جارية على رسلها[1]، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي ، وانتظار الفراغ منها[2]، ويقول ابن رشيق في عمدته : " وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر ، لكثرة اختراعه ، وحسن افتتانه ، وقد غلب عليه الهجاء[3] " ، ويقول ابن الشريف القيرواني فيه : "وابن الرومي شجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، وله في الهجاء ، ما ليس له في الإطراء . ولقد كان واسع العطن و لطيف الفطن[4] " ، ويقول المعري عنه في رسائل الغفران : " وابن الرومي أحد من يقال إن أدبه أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة[5] " ، ويقول فيه ابن خلكان : " هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها في أحسن صورها ، ولا يترك المعنى حتى يستوعبه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية " ، ويقول المسعودي فيه : " كان من مختلقي الشعر ؛ والمجودين في القصير والطويل ، وكان الشعر أقل أدواته " ، وقد أشاد به أدباء الشعر الحديث ، وعدوه شاعر الفن والتصوير في الشعر العربي ، ويقول ناقد من المحدثين : إنما جنى عليه وغربه عند أهل عصره ، وفي أذواقهم ، تفرده ، ووحده ذوقه وبعده عن أذواق الناس ، فلم يألفوه ولم يطربوا له ، طربهم لأشباهه الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعاني على طريقتهم[6] ، وقد صور ابن الرومي رأيه في شعره في قصيدة يقول فيها :

---

(1) الرسل : التؤدة .

(2) ٥٤ وساطة .

(3) ١/ ٢٥٥ العمدة .

(4) رسائل الانتقاد .

(5) ١٦١ - ١٦٤ رسالة الغفران .

(6) مقدمة ديوان ابن الرومي للعقاد .

قـولا لمـن عـاب شـعر مادحـه	أمـا تـرى كـيف ركـب الشـجر
ركـب فـيه الـلحاء[1] والخشـب	الـيابس والشـوك دونـه الـثمر
وكـان أولى بـأن يهـذب مـا يخلـق	رب الأربـــاب لا البشـــر
فلـيعذر الـناس مـن أسـاء ومـن	قصـر فـي الشـعر إنـه بشـر

وشعر ابن الرومى صورة لثقافته الواسعة المتعددة الألوان والعناصر . فهو طويل النفس فى قصائده . بديع المعانى . كثير التحليل والتوليد والاختراع فيها . جميل التنسيق والاستقصاء . جزل الأسلوب ، متين الأداء . سلس الألفاظ . بعيد عن زلات اللسان وسقطات البيان وأخطاء اللغة ، وكذلك ترى شعره صورة صادقة لنفسه وحياته ، نرى فيه الغث والسمين . لأنه لم يكن يكر عليه بالتجويد والتهذيب ، كما كان يفعل سواه من الشعراء ، ومعانيه أكثرها مبتكر مبتدع ، وقل له أن ترى له معنى أخذه من غيره ، أو سرقة عمد إليها كما يفعل سواه من الشعراء، وكان إذا تناول معنى قديما أفاض عليه من شاعريته أثوابا من التجديد والبيان ، قال أبو تمام :

غربـته العـلى كـثرة الأهـ	ل فأضـحى فـى الأقـربين جنيـبا

أخذه ابن الرومى فزاد فيه وأبدع فى قوله :

غربـته الخلائـق الزهـر فـى الـنا	س ومـا أوحشـته بالتغريـب

وقد شهر ابن الرومى بالهجاء والإفذاع فى السخرية ، يسخر من بخيل فيقول :

يقـتر عيسـى عـلى نفسـه	ولـيس بـباق ولا خـالد
فلـو يسـتطيع لتقـتيره	تـنفس مـن منخر واحـد

ويقول فى أصلع :

فوجهـه يـأخذ مـن رأسـه	أخـذ نهـار الصـيف مـن لـيلة

وهذه المقدرة البارعة فى الهجاء والسخرية نشأت من سخطه على المجتمع والناس ، بيد أنك تلمح فى هجائه العفة والشرف و النبل .

ويمتاز ابن الرومى بدقة الوصف دقة متناهية ، حتى لتلمح فيه درة الشاعر وبراعته وقوة شاعريته ، فإذا وصف جلى لك صورة ما يصف حتى لتراها أمامك فى تمثال من الصور والتعابير .

---

[1] قشر الشجر .

صور فنية من شعره :

قال ابن الرومى فى امرأة ورقيبها :

مـــا بالهـــا حســـنت ورقيـــبها … أبـــدا قبـــيح ، قـــبح الرقـــباء

مـا ذاك إلا أنهـا شمـس الضـحى … أبـــدا يكـــون رقيـــبها الحـــرباء

وهى صورة شعرية غنية بنفسها عن الأعجاب والشرح :

وأجود ما قيل فى الريق قوله :

يـا رب ريـق بـات بـدر الدجـى … يمجـــه بـــين ثـــناياكا

يـــروى ولا يـــنهاك عـــن شـــربه … والمـــاء يـــروى ويـــنهاكا

فليس لهذا البيت مثل فى معناه .

وقال فى الخمر والنرجس :

ريحـــانهم ذهـــب عـــلى درر … وشـــرابهم درر عـــلى ذهـــب

فأجاد وأبدع فى إخراج هذه الصورة الساخرة .

وقال فى خبو الشمس حين غروبها :

كـأن خـبو الشـمس ثـم غـروبها … وقد جعلت فى مجنح الليل تمرض

تخاوص عين بين أجفانها الكرى … يـرنق[1]فـيها الـنوم ثـم تغمـض

وهى صورة جيدة الشبه للشمس عند الغروب.

ومن جيد تشبيهات أبى نواس وقد نبه نديما للصبوح قوله :

فقـام والـليل يجلـوه الصـباح كمـا … جـلا التبسـم عـن غـر الثنـيات

ولابن الرومى التقدم عليه بقوله فى الراح ، وقد أخذ أصل المعنى ونقله الى وصفها فقال :

يفـــتر ذاك الســـواد عـــن يقـــق … مـــن ثغـــرها كـــاللآلىء النســـق

كأنهـــا والمـــزاج يضـــحكها … لـــيل تعـــرى دجـــاه عـــن فلـــق

وقال أبو نواس :

تـبكى فـتذرى الـدر مـن نـرجس … وتلطـــم الـــورد بعـــناب

---

[1] رنقة : كدرة .

أخذه سعيد بن حميد فقال :

وكأنما أثر الدموع بخدها ... طل تساقط فوق ورد يانع

وقال البحترى فى هذا المعنى :

شقائق يحملن الندى فكأنه ... دموع التصابى فى خدود الخرائد

وقال ابن الرومى فى دموع المحبين وقت الوداع :

كأن تلك الدموع قطر ندى ... تقطر من نرجس على ورد

فأجاد وأبدع باختصار اللفظ وحسن السبك :

ومن الأبيات الجامعة فى المدح قول ابن الرومى :

هو الغرة البيضاء من آل هاشم ... وهم بعده التحجيل والناس أدهم

ومن أجود ما قيل فى الثريا قول بعض الشعراء :

ولاحت لساريها الثريا كأنها ... على الأفق الغربى قرط مسلسل

أخذه ابن الرومى فقال :

طيب طعمه إذا ذقت فاه ... والثريا فى جانب الغرب قرط

ومن أحسن ما قيل فى شروق الكأس قول ابن الرومى ، وأتى بشىء لم يسبق إليه ، وهو تشبيه الحباب بفرق اللؤلؤ و فقال :

لها صريح كأنه ذهب ... ورغوة كاللآلىء الفلق[1]

وقال ابن الرومى :

وقبلت أفواها عذابا كأنها ... ينابيع خمر خضبت لؤلؤ البحر

قال أبو هلال فى ديوان المعانى[2] : البحر زيادة لا يحتاج إليها لأن اللؤلؤ لا يكون إلا فى البحر ، فلو كان فى غير البحر لؤلؤ فليس لنسبته إليه فائدة ... وأخيرا فلا بن الرومى القدرة الفائقة على تهجين ما أجمع الناس على استحسانه . كما فعل فى الورد من تهجينه وتفضيل النرجس عليه فى صورة جميلة مؤثرة[3].

---

(1) الفلق : الصبح .

(2) ١/٢٣٩ .

(3) وذلك فى قطعة شعرية طويلة أولها :

حجلت خدود الورد من تفضيله ... خجلا توردها عليه شاهد

وقد حللها عبد القاهر وبين منزلتها فى البيان وفى جودة التخيل وحسن التعليل . حتى قال فيها : إنه جاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له (٢٤٨ أسرار) .

وقال امرؤ القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل

وحول هذا المعنى يقول أبو نواس :

تعاطيكها كف كأن بنانها إذا اعترضتها العين صف مداري

ويقول ابن الرومي :

أشار بقضبان من الدر رقعت يواقيت حمرا ، فاستباح فؤادي

ويقول ابن المعتز :

أشرن على خوف أغصان فضة مقومة أثمارهن عقيق

وقال ابن الرومي :

أعانقه والنفس بعد مشوقة إليه ، وهل بعد العناق تدان ؟
كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

وفي هذا المعنى يقول ابن المعتز :

يا رب أخوان صحبتهمو لا يملكون لسلوة قلبا
لو تستطيع قلوبهم فقدت أجسادها وتعانقت حبا

وقال أبو نواس في الراح :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

أخذه ابن الضاحك وأحسن :

كأنما نصب كاسه قمر يكرع في بعض أنجم الفلك

وقال ابن الرومي فيه ، وكان أحسن منهما :

فكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

وقال ابن المعتز فزاد عليهم جميعا :

كأنه وكأن الكأس في فمه هلال أول شهر غاب في شفق

وهو أحسن ما وصف به كأس على فم .....

ومن أحسن ما قيل في وصف مغن قول ابن المعتز :

ومغن ملحق كل نفس بهواها ، وهو للسكر عذر

وأجمع من ذلك قول ابن الرومي :

تتغـــنى كأنهـــا لا تغـــنى | مـن سكون الأوصال وهـى تميد
ولهـا الدهـر لانـم مـستزيد | ولهـا الدهـر سـامع مـستجيد

وقال ابن الرومي :

كـأن نسـيمها أرج الخـزامى | ولاهـا بعـد وسمـى ولى
إذا أنفاسـها نسـمت سـحيرًا | تـنفس - كالشجى - لهـا الخـلى

وحول هذا المعنى يقول ابن المعتز :

ومـا ريـح قـاع عـازب طلـه الـندى | وروض مـن الـريحان ذرت سحائبه
فجـاءت سـحيرا بـين يـوم ولـيلة | كمـا جـر فـى ذيـل الغلالـة ساحبه

وقال ابن الرومي من قصيدة وصف مجلس الراح :

شمـس مـن الحسـن فـى معصـفرة | ضـاهت بلـون لهـا معصـفرها
فـى وجـنات تحمـر مـن خجـل | كـأن ورد البـيع حمـرها
يسـعى إلـيها بكأسـه رشـأ | أنـشه الله وذكـرها
فـى كفـه كالشـهاب لاح عـلى | ظـلماء لـيل دجـت فـنورها
إن بـرزت لـلهواء غـبرها | أو قرعـت بالمـزاج كدرهـا

ويقول ابن المعتز فى مجلس الراح أيضا من قصيدة :

ومجلـس جـل أن نشـبهه | جـن بـه مزهـر ومـزمار
وزانـه مـن بـنى العـباد رشـا | بالجـيد والمقلـتين سـحار
قـد ركبـت كفـه مشعشـعة | إبـريقها فـى الكـأس هـدار
يـلمع فـيها مـن كـل ناحـية | كوكـب نـوره إلـيك نظـار
فظلـت فـى يـوم لـذة عجـب | وافـى بـه للسـعود مقـدار
وقـابل الشـمس فـيه بـدر دجـى | يـأخذ مـن نورهـا ويمـتاز

١- ففى هاتين القطعتين وصف للساقى والراح ، وفى قطعة ابن الرومى زيادة وصف للقينة التى فى مجلس الراح .

٢- ووصف ابن الرومى الساقى بالأنوثة ، ووصفه ابن المعتز بالسحر .

٣- شبه ابن الرومى نور الراح فى الكأس ، بالشهاب فى ظلام الليل .. أما ابن المعتز قد شبه الكأس بالبدر ، والراح بالشمس ، وجعل الكأس يأخذ من نورها ويمتاز .

٤- ووصف ابن الرومي الراح بأنها أصفى من الماء وألطف من الهواء ، ووصفها ابن المعتز بنور كوكب متوقد .

٥- وألفاظ ابن المعتز موسيقية ، وأعذب من ألفاظ ابن الرومي .

٦- وابن الرومي في جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات ولكن ابن المعتز يقف عند حدود التصوير ولا يعمد لمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض بل يزجيها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج .

٧- وابن الرومي يفوته أحيانا ما هو أبلغ في الوصف وأروع في أداء الغرض ، من حيث لا يفوت ذلك ابن المعتز ، كما رأينا في وصف ابن الرومي للساقي بالأنوثة ، ووصف ابن المعتز له بالسحر .

وروى صاحب العمدة والبغدادي في خزانة الأدب والعباسي في معاهد التنصيص أن لائما لام ابن الرومي ، وقال له : لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ، فقال : ألا تنشدني شيئا من قوله ؟ الذي استعجزتني عن مثله ، فأنشده قوله في الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له : زدني ، فانشده قوله في الآذريون (وهو أصفر في وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة) :

كأن آذريونها ... والشمس فيها كالية
مداهن من ذهب ... فيها بقايا غالية

فصاح : واغوثاه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته ، لأنه ابن خليفة ،وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس ، هل لأحد قط مثل قولي في الغمام :

وذاق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم ... فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا ... على الجود كنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب باخضر ... على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولي في صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به ... يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر

مـا بـين رؤيـتها فـى كفـه كـرة ... وبـين رؤيـتها قـوراء فالقمـر
إلا بمقـدار مـا تـنداح دائـرة ... فى لجـة الماء يلتـى فيه بالحجـر

نماذج من شعره:

أأيـام لهـوى هـل مواضـيك عـود ... وهل لشباب ضل بالأمس منشد؟[1]
أقول وقد شابت شواتى، وقوست ... قناتى، وأضحت كدنتى تتمدد[2]
ولذت أحاديثى الرجال، وأعرضت ... سليمى وريا عن حديثى ومهدد[3]
وبـدل إعجـاب الغوانـى تعجـبًا، ... فهـن روان يعتـبرن وصـدد[4]
لمـا تـؤذن الدنـيا بـه مـن صـروفها ... يكـون بكـاء الطفـل سـاعة يولـد
وإلا فمـا يبكـيه مـنها، وإنهـا ... لأفسح ممـا كـان فـيه وأرغـد؟
إذا أبصـر الدنـيا اسـتهل كأنـه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدد[5]
ولـلنفس أحـوال تظـل كأنهـا ... تشاهد فيها كل غيب سبشهد[6]

وقال يرثى ابنه محمدًا:

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى ... فجودا فقد أودى نظيركما عندى[7]
ألا قـاتل الله المـنايا ورمـيها ... من القوم حبات القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتى ... فلله كيف اختار واسطة العقد[8]
على حين شمت الخير من لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد[9]
طواه الردى عنى فأضحى مزاره ... بعيدًا على قرب قريبًا على بعد[10]
لقـد أنجـزت فـيه المـنايا وعـيدها ... وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه ... فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد

---

(1) منشد : مكان أنشده فيه وأطلبه.
(2) الشواة : جلدة الرأس، والمراد شاب شعرها والقناة هنا صلبه . الكدنة الشحم واللحم يريد أن سمنته أضحت تهزل.
(3) أى أصبحت أحاديثى تلذ الرجال بعد ما أعرض الغوانى لشيبى وكان حديثى لذيذًا لديهن.
(4) الإعجاب بالشئ : السرور منه . والتعجب : الاستغراب والإنكار ، روان: دائمات النظر بسكون الطرف . صدد:معرضات.
(5) استهل الصبى : رفع صوته بالبكاء.
(6) يورد هذا البيت تأكيدًا لحسن تعليله.
(7) بكاؤكما : الخطاب لعينيه . ولا يجدى : لا ينفع . وأودى : هلك.
(8) توخى : تحرى.
(9) شمت الخير : توقعته.
(10) يريد بالقرب قرب المكان وبالبعد بعد اللقاء.

ألح عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد[1]
وظل على الأيدي تساقط نفسه ... ويذوي كما يذوي القضيب من الرند[2]
فيالك من نفس تساقط أنفسًا ... تساقط در من نظام بلا عقد
عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ... ولو أنه أقسى من الحجر الصلد
وما سرني أن بعته بثوابه ... ولو أنه التخليد في جنة الخلد
ولا بعته طوعًا ولكن غصبته ... وليس على ظلم الحوادث من معد[3]
وإني وإن متعت بابني بعده ... لذاكره ما حنت النيب في نجد[4]
وأولادنا مثل الجوارح أيها ... فقدناه كان الفاجع البين الفقد[5]
لكل مكان لا يسد اختلاله ... مكان أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه ... أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي؟
لعمري لقد حالت بي الحال بعده ... فياليت شعري كيف حالت به بعدي؟

ثكلت سروري كله إذ ثكلته ... وأصبحت في لذات عيشي أخا زهد
أريحانة العينين والأنف والحشا ... ألاليت شعري هل تغيرت عن عهدي؟
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به ... وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدي[6]
أعيني جودًا لي فقد جدت للثرى ... بأنفس مما تسألان من الرفد[7]
كأني ما استمتعت منك بضمة ... ولا شمة في ملعب لك أو مهد
ألام لما أبدي عليك من الأسى ... وإني لأخفي منك أضعاف ما أبدي
محمد ما شيء توهم سلوة ... لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما ... يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذعا ... فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لي سلوة بل حزازة ... يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي
وأنت وإن أفردت في دار وحشة ... فإني بدار الأنس في وحشة الفرد

---

(1) الجادي : الزعفران وهو أصفر.
(2) الرند : الغار وقد يسمى به الآس وهو نوع من الريحان.
(3) معد من أعدى بمعنى نصر وأعان.
(4) النيب : جمع ناب ، وهو الناقة المسنة.
(5) الجوارح : أعضاء الإنسان.
(6) أسعدت العين بالبكاء : أعانت.
(7) الرفد : العطاء والصلة.

عليك سلام الله منى تحية ... ومن كل غيث صادق البرق والرعد

وقال يعاتب أبا القاسم التوزى الشطرنجي ويمدحه :

يا أخى أين عهد ذاك الإخاء ... أين ما كان بيننا من صفاء ؟

كشفت منك حاجتى هنوات ... غطيت برهة بحسن اللقاء[1]

تركتنى ولم أكن سىء الظن ... أسىء الظنون بالأصدقاء

يا أخى هبك لم تهب لى من سعـ ... ـيك حظا كسائر البخلاء

أفلا منك رد جميل ... فيه للنفس راحة من عناء

أجزاء الصديق إيطاؤه العشـ ... ـوة حتى يظل كالعشواء[2]

تاركا سعيه اتكالا على سعـ ... ـيك دون الصاحب والشفعاء

كالذى غره السراب بما خيـ ... ـل حتى هراق ما فى السقاء

يا أبا القاسم الذى كنت أرجوه ... لدهرى قطعت متن الرجاء

لا أجازيك عن غرورك إياى ... غرورا وقيت سوء الجزاء

بل أرى صدقك الحديث وماذا ... ك لبخل عليك بالإغضاء

أنت عينى وليس من حق عينى ... غض أجفانها على الأقذاء

ما بأمثال ما أتيت من الأمر ... يحل الفتى ذرا العلياء

بذل الوعد للأخلاء سمحا ... وأبى بعد ذاك بذل العطاء

فغدا كالخلاف يورق للعيـ ... ـن ويأبى الإثمار كل الإباء

ليس يرضى الصديق منك ببشر ... تحت مخبوره دفين جفاء

ولقد هجا ابن الرومى البحترى الشاعر هجاء مقذعا .

ومن قوله فى هجائه :

قد قلت - إذ نحلوه الشعر - : " حاش له ... إن البروك به أولى من الخبب "

" وحسبه من حباء القوم أن يهبوا ... له قفاه - إذا ما مر - بالعصب[3]

" الحظ أعمى ؛ ولولا ذاك لم تره ... للبحترى لا عقل ولا أدب . "

قبحا لأشياء يأتى البحترى بها ... من شعره الغث بعد الكد و التعب

كأنها - حين يصغى السامعون لها ... ممن يميز بين النبع والغرب

رقى العقارب أو هذر البناة إذا ... أضحوا على شغف الجدران فى صخب

وقد يجىء بخلط : فالنحاس له ... وللأوائل ما فيه من الذهب

---

(1) الهنوات : جمع هنة ، وهى الشىء الصغير .

(2) العشوة النار . وأوطاه العشوة : كناية عن أنه أضله ولم يهده . والعشواء الناقة لا تبصر أمامها .

(3) جماعات الناس .

سمين ما نحلوه من هنا وهنا ، والغث منهم صريح غير مجتلب

يسيء عفا ، فإن أكدت وسائله أجاد لصا شديد البأس والكلب

عبد يغير على الموتى فيسلبهم حر الكلام بجيش غير ذى لجب

ما إن تزال تراه لابسا حللا أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب

شعر يغير عليه باسلا بطلا وينشد الناس إياه على رقب

كما هجا ابن الرومى الأخفش بقصيدة منها :

"قلت لمن قال لى "عرضت على الأخـ ـفش ما قلته فما حمده . "

قصرت بالشعر حين تعرضه على مبين العمى إذا انتقده

ما قال شعرا ولا رواه ، فلا ثعلبه كان ، لا ولا أسده

فإن يقل " إننى رويت " فكالدفـ ـتر جهلا بكل ما اعتقده

أرمت زينى بأن تعرضنى لمدحه فالذليل من عضده

أم رمت شينى بأن تعرضنى لثلبه ؟ فالسليم من قصده ."

إلى أن قال :

" شعرى شعر ، إذا تأمله الإنـ ـسان ذو الفهم والحجا ، عبده

لكنه ليس منطقا عث اللـ ـه آية لمن جحده

ولا أنا المفهم البهائم والطـ ـير سليمان قاهر المرده

ما بلغت بى الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقردة "

لا رحم الله أم أخفشكم ولا سقى قبر والد ولده

ماذا عليه وقد رأى ولدا أعور جم العوار - لو وأده ،

سأسمع الناس ذمه أبدا ما سمع الله حمد من حمده "

وقال من قصيدة أخرى :

لا يأمنن السفيه بادرتى فإننى عارض لمن عرضا

عندى له السوط إن تلوم فى السير وعندى اللجام إن ركضا "

" أصحى مغيظا على أن غضب اللـ ـه عليه ونلت منه رضا

قولا له ينطح الجدار إذا أعيـ ـا وصم الصفا إذا امتعضا

ولا يحمل ضعيف منته حربى ، فما مثله بها نهضا "

" أقسمت بالله لا غفرت له إن واحد من عروقه نبضا "

ابن المعتز شاعر الحب والجمال

٢٤٧ - ٢٩٦ هـ

أديب ساحر وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التي نبغت في القرن الثالث الهجري ، وهو أمير التشبيه في الشعر العربي : القديم والحديث .

يعد في الطبقة الثالثة من المحدثين . وهي الطبقة التي خلفت طبقة أبي نواس ، وطبقة بشار زعيم المحدثين . ويعدون معه في طبقته أبا تمام والبحتري وابن الرومي ، وإن كان بعض النقاد يجعل أبا تمام والبحتري طبقة وحدهما ، ويجعل ابن الرومي وابن المعتز طبقة رابعة من طبقات المحدثين ، ويقول ابن رشيق : طبقة حبيب والبحتري وابن المعتز وابن الرومي طبقة متداركة ، وتلاحقوا ، وغطوا على من سواهم من الشعراء[1] ، ويقول : " وليس في المولدين أشهر اسما من أبي نواس، ثم حبيب والبحتري ، ثم تبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز ، وطار اسم ابن المعتز حتى صار كأبي نواس في المحدثين ، وامرؤ القيس في القدماء[2] " .

ولد أبو العباس عبد الله ابن المعتز في شعبان سنة ٢٤٧ ، أو ٢٤٩ كما يقول ابن خلكان ، في بيت الخلافة ، وولي والده المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ ، ومكث فيه ثلاث سنين قتل بعدها بيد الأتراك ، الذين كان في يدهم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة ، وكان لنكبة والده أثر عميق في حياته ونفسيته ، وقد تلقى ثقافته في الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأئمتها ، الذين حفل بهم هذا العصر الزاخر بألوان العلوم والثقافات والأدب .

وكان من أساتذته المبرد م سنة ٢٨٥ هـ ، وثعلب م سنة ٢٩١ هـ وسواهما من فحول العلماء ، وظهرت شاعريته في أول عهده بالشباب ، فامتلأت به حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب ، فكان البليغ الساحر ، والشاعر المجيد ، والناقد الواقف على خصائص الأدب والبيان ، وله مؤلفات كثيرة وجيدة ، منها : كتاب البديع ، وفصول التماثيل وطبقات الشعراء ، وديوانه مطبوع في جزئين في مصر والشام .

---

[1] ١/٨٣ العمدة .

[2] ١/٨٣ العمدة .

عاصر ابن المعتز بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسين هم : المهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) ، والمعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، والمكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥) ، وعاش بينهم معتزا بشخصيته ، نبيل النفس ، عظيم الخلق ، يظهر انصرافه عن الخلافة وهو فى نفسه ناقم على الحياة التى ملكت سواه مقاليدها ، وقبض عليه عدة مرات أطلق فيها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول فى شعره :

من يشترى حسبى بأمن خمول   من يشترى أدبى بحظ جهول ؟

ولما مات المكتفى عام ٢٩٥ هـ ولى الأتراك ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلا ، فثار الناس فى بغداد ، وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز الخلافة عام ٢٩٦ هـ ، ومكث فيها ليلة واحدة ، حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة ، تؤيده القوة الحربية فى الدولة ، وقبض على ابن المعتز ، ووزيره محمد بن داود بن الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦ هـ . وبذلك انتهت حياة شاعر كبير من شعراء العربية المعدودين .

وقد عاش ابن المعتز فى بغداد وسر من رأى ، فى البيئة العامة التى امتاز بها القرن الثالث ، والتى حفلت بألوان الحضارة ، وشتى فنون العلوم والثقافات والآداب . كما عاش فى بيئته الخاصة الحافلة بألوان الترف والنعيم والمجد فى قصور الخلفاء والأمراء ، وكان لذلك كله أثره الواضح فى شخصيته وشاعريته .

ولقد أرهفت نفسية ابن المعتز وحياته وبيئته وثقافته ومشاعره ووجدانه وإحساسه ، فنشأ شاعرا بطبعه ملهم الشاعرية قوى الملكات .

ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاعره وما يختلج فى صدره من آمال وآلام ، وما تزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة ، فشعره إذًا صورة لحياته الخاصة أولا ، ولحياة الطبقة المترفة ثانيا ، وللاتجاهات العليا فى السياسة والاجتماع والآداب أخيرا ، وهو فوق ذلك صورة صادقة للفن الخالص ، الذى يؤمن بالفن للفن لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنه كان يحيا حياة فنيه خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لمجد أو لمال ، أو لرضاء خليفة ، إنما كان ينظمه لنفسه ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه ، أجاد فى الشعر السياسى ، كما أجاد فى الفخر ، والإخوانيات والغزل ، وخمرياته فيها دقة معان ورقة تصوير ، وكثرة تشبيهات ، وكذلك كان فى الصيد والطرد مجيدا مبدعا ، يقتفى فيه آثار امرىء القيس وأبى نواس ، والعتاب والشكوى من الفنون الشعرية التى تفوق فيها ، وكذلك بلغ ابن المعتز فى الوصف حد الجودة

والإبداع ورسم صورا صادقة لكل ما وقعت عليه عينيه من مناظر طبيعية ومظاهر الحضارة . ووصفه وصف وجداني ، له موسيقى عذبة وفيه رقة وسلاسة ، وروح وطبع ، ودقة وعمق وابتداع في الأسلوب وتجديد في التشبيه والاستعارة ، وقد نمى ملكته في نفسه دقة وحسه ولطف شعوره ، وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال وروائع الخيال ، ورونق الحضارة ، وأنه يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويرا لحسه ، مما صرفه إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس ، ومطارد الصيد ، أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعتز منها قليلا ، ترك الزهد لأبي العتاهية ، والرثاء لأبي تمام ، والهجاء لابن الرومي ، والمدح للبحتري ، وعاش هو شاعر الفن والترف والجمال ، وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيق[1] ، ومعاني ابن المعتز تتصل بنفسه وحسه وحياته وهو فيها دقيق الفكرة بعيد المنزع ، محكم التصوير مجدد مبتكر حينا ومقلد أحيانا أخرى ، وخياله الشعري خيال واقعي مستمد من الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ما ينطق به من معنى ووصف وتصوير ، وخياله النشط يعنى بمحسات الأمور ومرئياتها المشاهدة دون أن يكلف نفسه الجري وراء عالم المثل والمعنويات ، ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته وبالرونق والعذوبة في جزالة تشيع في أعطافه حينا ،وسهولة ورقة يفيض بها شعره أحيانا ، ومع جمال في ترف البيان وألوان البديع مما حذا به حذو بشار ومسلم وأبي تمام ، وتشيع في أسلوبه الصياغة الفنية الممتلئة روحا وحياة وموسيقى ووضوحا في دقة تصوير وقرب مأخذ وجودة قريحة في بعد فكرة وحدة خيال كما يقول :

والصـــــــبا ممتلــــــــــئ حاجـــــــــة وأمـــــــــــلا

والمدرسة الأدبية التي يمثلها ابن المعتز هي مدرسة المحدثين التي قاد زمامها أبو تمام والبحتري ، والتي امتازت بميزتين :

الأولى :

هي التعمق في المعاني واستنباطها ، مما يتجلى لك في شعر أبي تمام وابن الرومي واضحا وملموسا .

والثانية :

هي الصناعة الشعرية المتأنقة التي تطلب ألوان الجمال في الأداء وتعتمد على الترف البياني في الأسلوب : من جناس وطباق وتشبيه و استعارة وتمثيل ،

---

[1] ١/١٦٣ العمدة .

وكانت العرب كما يقول ابن رشيق " لا تنظر فى أعطاف شعرها . بأن تجنس أو تطابق أو تقابل أو تترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما فعل المحدثون . ولكن كان نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعانى وإبرازه . وإتقان بنية الشعر . وما وقع فيه من هذا النوع فعن غير قصد ولا تعمد . ممن عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التثقيف . وأول من فتق البديع للمحدثين بشار وابن هرمة . ثم قلدهما فيه مسلم والعتابى والنمرى وأبو نواس ، وأتبع هؤلاء أبو تمام والبحترى وابن المعتز . فانتهى علم البديع والصنعة إليه وختم به[1] . فابن المعتز إذا هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المكلفة ، فقد كان يحب الفن للفن. وينظم الشعر ليلهو به . وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين . وكان متكلفا مجيدا فى تكلفه بقدر ما كان الوليد مطبوعا مجيدا فى طبعه ، ويصف ابن رشيق فى صنعته فيقول : " ولا أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنيعا من ابن المعتز فإن صنعته خفيه لطيفه ، لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى ألطف أصحابه شعرا وأكثرهم بديعا وافتنانا ، وأقربهم أوزانا وقوافى ، ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب[2] ، ويقول الجرجانى فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ، ولم يكن من المطبوعين[3] ، وكان الجرجانى يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع ، ويقول أبو الفرج فى وصف شعره وخصائصه : هو وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ، ولا تقصر عن مدى السابقين ، وليس يمكن واصفا لصبوح فى مجالس اللهو بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والريحان إلى غير ذلك أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق ، الذى يفهمه كل من حضر ، إلى جيد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البيد والمهامه ، والظبى والظليم ، والناقة والجمل، والديار والقفار " . والأصفهانى يشير بذلك أن أسلوب ابن المعتز فيه جيد جزل كثير وإلى أن رقة أسلوبه غالبا ترجع إلى حياة الملك التى تسلتزم الترف ، وإلى وصفه لألوان اللهو التى تستدعى رقة الأسلوب . وإلى بعد نفسية الشاعر غالبا عن أغراض الشعر البدوى ، فرقة شعر ودقة تشبيهاته إذا أثر من أثار البيئة فيه .

ولابن المعتز منزلة كبيرة فى البيان العربى فقد ألف فيه كتابه " البديع " ، الذى عدد فيه شتى أساليب البديع ومحاسن الشعر كما عرفها ابن المعتز وعصره ،

---

[1] ١٠٨ - ١/١١٠ العمدة .

[2] ١/١٠٩ العمدة .

[3] ٢٢٢ أسرار البلاغة .

وهذا الكتاب ليس قاصر على البديع بالمعنى الضيق المحدود ، لأن ابن المعتز يذكر فيه الكناية والاستعارة و التشبيه وهى من صميم البيان العربى ، ويذكر فيه الكناية ولكنه يريد بها معناها اللغوى وهو أعم من المعنى الاصطلاحى المعروف ، فإذا قلنا أن ابن المعتز ألف فى البيان فقد سرنا مع الحق والتفكير السليم ، وإذا قلنا إنه ألف البديع فقد ضيقنا دائرة البحث بغير مبرر ، وإن كان البديع فى الاصطلاح المتأخر جزاءا من البيان ، وإن كان البديع بالمعنى القديم المعرف عند بعض علماء البلاغة يرادف كلمة البيان والبلاغة، فابن المعتز إذا ذو أثر كبير فى البديع ، وعلى وجه الدقة له أثره فى البيان العربى ودراساته ، ذلك ما سنتناوله الآن بالتحليل ، كان ابن المعتز من أئمة البيان فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وله فيه آراء عظيمة الأهمية ناضجة التفكير[1] ؛ وقد اهتم بنوع خاص من أنواع البيان ، هو أسلوب البديع وألوان الترف فى الأداء .

كان ابن المعتز يحتذى حذو أبى تمام فى صنعة البديع ، ويوشى شعره بشتى ألوانه ، يقصدها قصدا ويتعمدها تعمدا ، وصوغ شعره فنا تغلب روح الصناعة فيه ملكات الطبع والفطرة ، وكان مع ذلك " يتحقق بعلم البديع تحققا ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته "[2] ، وألف فيه عام ٢٧٤ هـ كتابة البديع ؟[3] وسنه إذ ذاك سبعة وعشرين عاما ، مما يدلنا على أن ابن المعتز لم يتمش فى العقد الثالث من عمره حتى قد كان قتل الشعر العربى حفظا ورواية ودرسا وفهما ، وكان لكتابه البديع دوى فى المجامع الأدبية ؛ ثم شاع وذاع وتلقفته الأيدى ، وعكف العلماء والأدباء عليه وصار مصدرا ممتازا من مصادر الدراسات البيانية بعد عصر ابن المعتز ، ثم فقدت نسخ الكتاب الخطية وقل تداوله ولم يبق له أثر إلا ما نقرأ عنه فى شتى كتب البيان والبديع ، ولكن العناية شاءت أن تحفظ من الكتاب نسخة خطية واحدة فى الأسكوريال نشرها كراتشقوفسكى عام ١٩٣٥ ، وقد قمت بشرح هذا الكتاب والتعليق عليه وتصحيحه ونشرته عام ١٩٤٥، فكان ذلك إحياء لكتاب ابن المعتز ، وخدمة للثقافة البلاغية ، وسعيا لتداول أهم مصدر ألف فى البديع ، والكتاب أول مؤلف

---

[1] راجع وصفه لبلاغة القرآن (٦٣ رسائل ابن المعتز) ، وتعريفه للبلاغة بأنها بلوغ المعنى ولم يطل سفر الكلام (٦٤ رسائل ابن المعتز ، ١/١٥٧ زهر ، ١/٤٦٢ وفيات ، ١/٢١٧ العمدة ، ٢/٢٢٣ شذرات ، ١٩٦ الأوراق ، ١/١٢٨ حاشية السبكى على التلخيص) ، وله كلمة فى الحكمة والبلاغة (٦٣ رسائل ابن المعتز ، ١/١٤٩ زهر)

[2] ١٠ رسائل ابن المعتز ، ٤/١٢٣ زهر .

[3] راجع ١٠٦ البديع .

البديع وصعة الشعر كما أجمع على ذلك جميع الباحثين[1] ، وهو من أهم كتب ابن المعتز بالنظر إلى اختصاصه في هذا الفن[2] وبعد فتحا جديدا[3] ، ويقول ابن المعتز نفسه : وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد[4] .

ولقب البديع ليس لقبا مستحدثا في عهد ابن المعتز ، ولكنه اسم لهذه الألوان الساحرة في الأسلوب ، ولهذا الترف البياني في الأداء : من تشبيه واستعارة وتجنيس وتطبيق وسوى ذلك ، سماه به مسلم بن الوليد الشاعر م ٢٠٨ هـ . وكان يعرف قبل ذلك باللطيف[5] ، ودرج على هذا اللقب من بعده من العلماء والأدباء وفي الاغاني أن الأصمعي م ٢١٦ هـ كان يفضل بشارا لانه أكثر تصرفا وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعا[6] ، وذكر الجاحظ البديع وبعض المشهورين به من الشعراء وأنه مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم على كل لغة[7] ، وذكر كثيرا من الشعراء الذين أكثروا منه في شعرهم ورأى أن لم يكن في المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة[8] ، ويقول ابن المعتز : البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فاما العلماء بالشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو[9] ، والبديع ونشأته في اللغة العربية موضوع عناية الباحثين المحدثين ، فرأى مسيو مرسيه أن الزخرف الفني وألوان البديع قد وصلت إلى العرب من اليونان[10] ، ورأى أنه عنصر أصيل في اللغة العربية وإن شاركتها في ذلك بعض اللغات[11] ، وشاهد ذلك القرآن الكريم فهو أثر عربي صرف وهو مع ذلك يشتمل على ألوان من البديع ، والخواص الفنية الموجودة في القرآن توجد كذلك في الشعر الجاهلي كما أثبته صاحب جمهرة أشعار العرب في مقدمتها ، وهي موجودة كذلك

---

(1) ١/٢٣٥ العمدة ، ١/١٤٦ معاهد التنصيص ، ٢٧٦ الزيات ، ٤٥٠ ج٢ أدب اللغة لمحمد بك دياب ط١٩٠٠ ، ١٤٨ /١ كشف الظنون ، ١/٦٩٣ البستاني ، ١٩١ الاسكندرني ، ١٠٥ أدب اللغة للظواهري .

(2) ٢/١٦٣ زيدان .

(3) ٢٨٠ المجلد الأول من دائرة المعارف الاسلامية ، وراجع في الإشادة به ٩٣ - ١٠١ الصبغ البديعي في اللغة العربية للأستاذ أحمد موسى ، ١٠٣ - ١٠٧ تاريخ البلاغة العربية للأستاذ الشعراوي ، وهما مخطوطان بمكتبة كلية اللغة .

(4) ١٠٦ البديع .

(5) ١٠ ج٢ معاهد التنصيص .

(6) ٢٥ ج٣ الأغاني .

(7) ٣/٢٤٢ البيان .

(8) ٥٤و٥٥/١ البيان .

(9) ١٠٦ البديع .

(10) ١/٤٤ النثر الفني .

(11) ١/٤٥ وما بعدها النثر الفني .

فى الآثار الأدبية التى عاصرت القرآن كالحديث وخطب الخلفاء والولاة الذين شهدوا عصر النبوة[1] . والحق أن البديع أصباغ عربية خالصة كثرت ألوانه وتطورت زمنا بعد زمن ، ولدت قوة هذا التطور بتأثير الفرس واليونان ، فالاستعارة والتشبيه وكثير من هذه الأساليب تشترك فيها سائر اللغات[2] ولقد عرف البديع فنا منذ نشأ الأدب العربى ، وأما معرفته علميا فابتدأ من عصر بشار وأبى نواس ومسلم ، ثم عرف بصورة أوضح فى عهد أبى تمام والبحترى وابن المعتز ، وبما كتبه عنه الجاحظ مؤلف البيان .

وموضوع كتاب البديع ذكر لألوان البديع وشواهدها فى الأدب العربى شعرا ونثرا ، يذكر مؤلفه ما أثر للون البديعى من شاهد فى كتاب الله ثم فى حديث رسوله ثم فى كلام الصحابة الأعراب وبلغاء الكتاب ثم فى الشعر الجاهلى فالإسلامى فشعر المحدثين ، ويختم كل لون بذكر ما عيب من شواهده المتكلفة السقيمة ، والكتاب حافل بشتى النصوص التى جمعها ابن المعتز وساقها فى عرض جميل ونظام محكم ، وكان الباعث لابن المعتز على تأليفه هذا الكتاب أن يعلم كما يقول : " أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا هذا الفن – البديع – ، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه ، ثم أن حبيب بن أوس الطائى شغف به حتى غلب عليه وأكثر منه فأحسن فى بعض وأساء فى البعض الآخر ، وإنما كان يقول الشاعر من ذلك الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع[3]، فالغرض الأول منه " تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع[4] " ، ولقد نشأ ابن المعتز فى عصر لم يخل من آثار التعصب للتراث الأدبى القديم ، ومن المنكرين لمذاهب المحدثين فى البيان والناعين عليهم ما افتنوا فيه من ألوان البديع ، التى أكثر منها بشار ومدرسته ، ثم مسلم وأبو تمام ومن جاء بعدهما ، فكان لابد لابن المعتز أن يدافع ويناضل هؤلاء المتعصبين، نعم لقد وقف ابن المعتز بين مذهبين فى البيان متناقضين : مذهب المحدثين الذى يؤثره وييسر عليه فى الشعر وفهمه ونظمه ، ومذهب القدماء المتعصبين للقديم الذين كانوا يزدرون نهج المحدثين وقصدهم وتكلفهم البديع ، ولكنه انتصر بفطر به

---

[1] ١/٤٧ النثر .

[2] راجع : نقد النثر ، مراجعات للعقاد .

[3] ١٥و١٦ البديع و٧و٨ الموازنة .

[4] ١٨ البديع .

وذوقه للمذهب الأول الذى أحبه وشغف به ، فأخذ يدافع عنه ، وألف فى ذلك كتابه البديع الذى أثبت فيه أن ألوان البديع كانت معروفة عند الشعراء القدامى والإسلاميين ، وألموا بها فى شعرهم كما ألم بها المحدثون ، فهى ليست غريبة على الشعر الجاهلى والإسلامى وليست جديدة على أساليب البيان فى شعر المحدثين ، وليست بدعا جديدة فى الأدب والشعر كما ذهب إليه من تعصبوا للأدب القديم ، واعتزوا بفحولة الشعر الجاهلى وجزالته ،وأنكروا مذاهب المحدثين فى صناعة الشعر وسهولته وتكلف البديع فيه .

وكان دفاع ابن المعتز رائعا قويا موفقا استحق عليه تقدير المنصفين من النقاد . ولون الثقافة الشائعة فى الكتاب هى الثقافة العربية العميقة الخالصة عن شوائب الثقافات الأخرى ، فقد ألفه ابن المعتز وهو فى سن الشباب قبل أن يطلع ويلم ويتعمق فى دراسة آثار الثقافات الأخرى ، وإذا ما وازنا بين البديع لابن المعتز وفصول التماثيل أحد مؤلفاته فى أواخر حياته ، وجدنا الأول عربيا خالصا فى ثقا[illegible] من حيث كان الثانى مظهرا لثقافة منوعة مختلفة الأصباغ والألوان .

وألوان البديع عند ابن المعتز خمسة : –

الاستعارة – التجنيس – المطابقة – ررد العجز على الصدر – المذهب الكلامى .

ويجعل ما عدا ذلك من محاسن الكلام والشعر ، ويقول أنها كثيرة ولا يرى حرجا فى إضافة هذه المحاسن أو غيرها إلى البديع[1] ، وذكر من المحاسن : الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، الإفراط فى الصفة ، حسن التشبيه ، لزوم ما لا يلزم ، حسن الابتداء – فابن المعتز جمع من ألوان البديع ثمانية عشر لونا ، ولقد عاصره قدامة ابن جعفر الكاتب الذى جمع منها عشرين نوعا . اشترك مع ابن المعتز فى سبعة منها وهى : الغلو أو الإفراط ، التشبيه – الاستعارة – الكناية ويسميها قدامة الإرداف مريدا بها المعنى الاصطلاحى للكناية فى حين أن ابن المعتز يريد بها المعنى اللغوى – التكافؤ وهو عند ابن المعتز المطابقة – المطابق والمجانس وهو عنده باب التجنيس – الالتفات .. وانفراد قدامة بثلاثة عشر هى : التصريع – المقابلة – المساواة – الإيغال – الاستطراف – صحة التقسيم – صحة التفسير – المبالغة وهى غير الغلو عند قدامة – الإشارة (الإيجاز) –

---

[1] ١٠٦ البديع .

التمثيل التتميم الترصيع وهو أن تكون أجراء البيت مسجوعة التوشيح[1] ...
وهذه هي الأنواع الثلاثة عشر التي استقل بها قدامة إذا أضيفت إلى السبعة عشر نوعا التي جمعها ابن المعتز يكون البديع قد وصل في عهد قدامة إلى ثلاثين نوعا .
ثم تتبع الناس هذه الألوان ، فجمع أبو هلال منها في الصناعتين سبعة وثلاثين نوعا: منها ٢٩ ذكرها أبو هلال في باب أنواع البديع[2] ومنها التشبيه الذي ذكره في باب مستقل[3] غير الباب الذي عقده للبديع وإن كان لا يشير إلى أنه من البديع فيكون الجميع ثلاثين نوعا يضاف إليها سبعة من زياداته[4] وهي : التشطير والمجاورة . والاستنهاد والمضاعفة (التورية) والتطريز والتلطف والمشتق .. ثم جمع ابن رشيق من ألوان البديع مثل ما جمع أبو هلال وأضاف إليها في عمدته خمس وستين بابا في بحث الشعر ، وتلاه شرف الدين الشاشي فبلغ بها أكثر من ذلك ، ثم تكلم فيها ابن أبي الأصبع المصري م عام ٦٥٤ هـ فأوصلها إلى التسعين في كتابة الجيد "تحرير التحبير في علم البديع " ، ثم صنف ابن منقذ كتابة التفريع في البديع جمع فيه خمسة وتسعين نوعا ، ثم جاء صفي الدين الحلي م ٧٥٠ هـ فجمع ١٤٠ نوعا في بديعيته في مدح الرسول التي سماها " الكافية البديعية " وشرحها بنفسه ، ثم حذا الناس حذوه ونظموا كثيرا من البديعات ، وأما السكاكي فذكر تسعة وعشرين نوعا من البديع ، وقد ذكر صاحب التلخيص من البديع المعنوي ثلاثين نوعا ومن اللفظي سبعة ، وقد ألم بتطور البديع في اختصار كثير من الباحثين[5] .

ولكتاب البديع أهمية كبيرة في فهم نشأة البديع وتطوره في البيان العربي على مر عصورنا الأدبية ، وهو ينحو في دراسة ألوان البديع إلى الدراسة التطبيقية الواسعة التي لها أثرها في تكوين الملكة والذوق ودعم الفكرة والرأي في نفس القارئ ، ويشتمل الكتاب على ٣١٢ شاهدا من عيون الشعر العربي تبلغ نحو ٤٣٥ بيتا أو تزيد ، فوق ما اشتمل عليه من بليغ النصوص والشواهد من الذكر الحكيم وحديث رسول الله وكلام الصحابة والأعراب وبلغاء الكتاب ، والكتاب مع ذلك خلو

---

[1] سماه علي بن هارون المنجم تسهيما ، وسماه ابن وكيع المطمع وسماه المتأخرون إرصادا ، وهو أن يدل صدر البيت على قافيته .
[2] ٢٥٨ صناعتين وما بعدها .
[3] ٢١٦-٢٤٩ صناعتين .
[4] ٣٩٩-٤١٧ صناعتين .
[5] راجع ٩٢ عقود الجمان للسيوطي : ٤/٤٦٧ وما بعدها حاشية السبكي على التلخيص ، ٢/٤٥ تاريخ آداب اللغة لمحمد دياب .

من الاصطلاحات العلمية الدقيقة وتحديدات المنطقيين العميقة ، وهو يكتفى فى توقيفك على مدلول اللون البديعى بشرح أدبى موجز حينا وبما تدل عليه الشواهد حينا آخر ، وبأسلوب يفيض سهولة وبلاغة ، مما يدل على ذوق سليم وفطرة عربية مطبوعة ، وأهم سمة يمتاز بها الكتاب بعد ذلك كله هو النظام الدقيق فى العرض مما يتجلى فى جميع أبواب الكتاب ، مع حصافة الذوق وسعة الاطلاع وحسن الاختيار فى جميع شواهد الكتاب ، وهو فوق ذلك أظهر خطوة علمية موفقة فى للتأليف فى البديع والبيان ، وإذا أغمضنا النظر عن الخطوة الأولى التى خطاها ثعلب فى كتابه " قواعد الشعر " كان عمل ابن المعتز جديدا مبتكرا من كل نواحيه .

نماذج من شعر ابن المعتز :

ومن شعره فى وصف سحابة :

وسارية لا تمل البكا ... جرى دمعها فى خدود الثرى[1]
سرت تقدح الصبح فى ليلها ... ببرق كهندية تنتضى[2]
فلما دنت جلجلت فى السما ... رعدا أجش كجرس الرحا[3]
ضمان عليها ارتداع اليفاع ... بأنوارها واعتجار الربا[4]
فما زال مدمعها باكيا ... على الترب حتى اكتسى ما اكتسى[5]
فأضحت سواء وجوه البلاد ... وجن النبات بها والتقى[6]

وقال يصف سيفه :

ولى صارم فيه المنايا كوامن ... فما ينتضى إلا لسفك دماء[7]
ترى فوق متنيه الفرند كأنه ... بقية غيم رق دون سماء[8]

---

[1] السارية : السحابة تسرى ليلا ، ويريد بالبكاء الأمطار ، الثرى : الأرض .
[2] تقدح : تبرق ، والأصل قدح بالزند : أى حاول اخراج النار منه ، هندية سيوف : منسوبة إلى الهند ، لأنها كانت تجيد صنعها ، تنتضى : تسل ، يقول : إن برقها يلمع فى الليل كأنه صباح .
[3] جلجلت : رعدت ، أجش : غليظا ، الجرس : الصوت .
[4] الارتداع : الصبغ ، اليفاع : ما ارتفع من الأرض ، الاعتجاز : لف العمامة ، الربا جمع ربوة : الأرض المرتفعة . الأنوار حمع نور بفتح النون : الزهر .
[5] اكتسى ما اكتسى : أى اكتسى رداء جميلا .
[6] وجود البلاد : جوانبها ونواحيها ، جن النبات : زكا وطال .
[7] الصارم : السيف القاطع ، المنايا جمع منية : الموت ، كوامن : ساكنة .
[8] فرند السيف : وشيه وجوهره ، دون : أسفل ، والفرند للسيف : كالغيم للسماء .

وقال يصف غديرا :

غديـــــر ترجــــــرج أمواجــــــه … هـــبوب الـــرياح ومـــر الصــــبا[١]

إذا الشــمس مـــن فوقــه أشــرقت … توهمـــــته جوشـــــنا مذهـــــبا[٢]

وقال يحذر الطالبين من طلب الخلافة ويتوعدهم :

أبـى الله إلا مـا تـرون فمـا لكـم … عتاب علـى الأقدار يـا آل طالـب[٣]

تركـنا كـم حيـنا فهـلا أخـذتم … تـراث النـبى بالقـنا والقواضـب[٤]

زمـان بـنو حـرب ومـروان ممسـكو … أعـنة ملـك جائـر الحكـم غاصـب[٥]

ألا رب يـوم قـد كسـوكم عمائمـا … من الضرب فى الهامات حمر الذوائب[٦]

فـلما أراقـوا بالسـيوف دمـاءكم … أبيـنا ولـم نملـك حـنين الأقـارب

فحـين أخذنـا ثـأركم مـن عدوكـم … قعـدتم لـنا تـورون نـار الحباحـب[٧]

وحـزنا الـتى أعيـتكم قـد علمـتم … فما ذنبنا ؟ هل قاتل مثل سالب ؟

عطـية ملـك قـد حـبانا بفضـله … وقـــدرة رب جـــزيل المواهــــب

ولـيس يـريد الـناس أن تملكوهـم … فـلا تثـبوا فـيهم وثـوب الجـنادب[٨]

وإيــــاكم إيــــاكم وحــــذار مــــن … ضراغمة فى الغاب حمر المخالب[٩]

ألا إنهـا الحـرب الـتى قـد علمـتم … وجربـتم والعـلم عـند الـتجارب

وقال فى الطرد :[١٠]

لمــــا تفــــرى الأفـــق بالضــــياء … مــثل انتســام الشــفة اللمـــياء[٢٢]

وشمطــــت ذوائــــب الظــــلماء … وهـــم نجـــم اللـــيل بالإغفـــاء[٣٣]

---

[١] الصبا : ريح شرقية .

[٢] الجوشن : الدرع ، مذهب : ممود بالذهب .

[٣] يريد أن الله أبى عليكم أن يوليكم أمر المسلمين ويجعل الخلافة فيكم .

[٤] التراث : الميراث ، والقنا : الرماح ، والقواضب : السيوف .

[٥] زمان : مضاف إلى الجملة الاسمية بعده ، ويريد ببنى حرب ومروان دولة بنى أمية .

[٦] الهامات : الرؤس ، والوانب : جمع ذؤابة وهى هنا طرف العمامة .

[٧] الحباحب : ذباب يطير بالليل له شعاع فى ذنبه وما اقتدح من شرر النار فى الهواء من تصادم الحجارة ونحوها، وأورى نار الحباحب كناية عن الفتن لا تفيد شيئا .

[٨] الجنادب : جمع جندب : حيوان كالجراد كثير القفز .

[٩] الضراغمة : الأسود ،و الغاب : مأوى الأسد ، والمخالب : الأظفار ، ويريد بالضراغمة العباسيين وجنودهم .

[١٠] الطرد بفتحتين : مزاولة الصيد .

[١١] تفرى : تشقق ، والشفة اللمياء المشربة سمرة فى حسن .

[١٢] شمطت : اختلط سوادها ببياضها .

قدنا لعين الوحش والظباء ... داهية محذورة اللقاء[1]

شائلة كالعقرب السمراء ... مرهفة مطلقة الأحشاء[2]

كمدة من قلم سوداء ... أو هدبة من طرف الرداء[3]

تحملها أجنحة الهواء ... تستلب الخطوة بلا إبطاء

ومخطفا موثق الأعضاء ... خالفها بجلدة بيضاء[4]

كأثر الشهاب في السماء ... ويعرف الزجر من الدعاء

بأذن ساقطة الأرجاء ... كوردة السوسنة الشهلاء[5]

ذا برثن كمثقب الحذاء ... ومقلة قليلة الأقذاء[6]

صافية كقطرة من ماء ... ينساب بين أكم الصحراء

مثل انسياب حية رقطاء ... آنس بين السفح والفضاء[7]

سرب ظباء رتع الأطلاء ... في عازب منورة خلاء[8]

أحوى كبطن الحية الخضراء ... فبه كنقش الحية الرقشاء[9]

كأنها دفائر الشمطاء ... يصطاد قل الأين والعناء[10]

خمسين لا تنقص في الإحصاء

---

[1] العين : جمع أعين وهو ثور بقر الوحش ، ويريد بالداهية كلبة الصيد .

[2] شائلة : مرتفعة الذنب ، ومرهفة : مدببة .

[3] المدة : الواحدة من المداد ، الهدبة : الطرف .

[4] المخطف : الضامر ، وهو عطف على داهية السابقة .

[5] الأرجاء : الأنحاء . والسوسن : الزنبق .

[6] البرثن : المخلب . والحذاء : الإسكاف .

[7] السفح : عرض الجبل ، وآنس : أبصر ، والفاعل ضمير يعود على المخطف .

[8] سرب ظباء في البيت بعده مفعوله المفعول .. عازب أي مرعى خصيب مزهر .

[9] الأحوى : شديد الخضرة في سواد وهو وصف للعازب قبله .

[10] الأين : التعب .

أبو الطيب المتنبى

المتوفى سنة ٣٥٤ هـ

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الكندى الجعفى الكوفى المعروف بالمتنبى . ولد أبو الطيب سنة ٣٠٣ هـ - ٩١٥ م بالكوفة فى محلة تسمى كندة فنسب اليها . وليس هو من قبلة كندة المشهورة . بل هو جعفى القبيلة . وقيل له المتنبى لأنه أدعى النبوة فى بادية السمادة وتبعه خلق كثير من بنى كلب وغيرهم فخرج عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأمراء الأخشيدية فأسرره وفرق أصحابه وحبسه . ثم استتابه وأطلقه .. وعاش أبو الطيب فى ضيق عيش إلى أن لحق بالأمير سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب سنة ٩٤٨ م . فصار يمتدحه ويسبر فى صحبته، وله فيه القصائد العديدة ، وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء فيتكلمون بحضرته فوقع مرة بين أبى الطيب وابن خالويه النحوى كلام فوثب ابن خالويه على المتنبى وضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه وخرج ودمه يسيل على ثيابه ولم ينتصر سيف الدولة لأبى الطيب ، فغضب وفارقه ، ودخل مصر سنة ٩٥١ م ، ومدح كافورا الأخشيدى وكان كافور صاحب مصر ، فأكرم أبا الطيب وأنعم عليه بصلات جزيلة ووعده بولاية بعض أعماله ، ولكن لما رأى كافور تفاخر أبى الطيب بشعره وسموه بنفسه خافه ولم يعطه ولاية ، ولما يرضه هجاه ، وفارقه سنة ٩٦١ م .. ولما عوتب كافور فى أبى الطيب قال : " يا قوم من ادعى النبوة مع محمد أما يدعى المملكة مع كافور فحسبكم " ووجه كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى فلم تلحقه وقصد أبو الطيب بلاد فارس ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمى . فأجزل جائزته ورجع من عنده قاصدا بغداد ثم إلى الكوفة . فعرض له فى طريقه فاتك بن أبى جهل الأسدى فى عدة من أصحابه ، وكان مع أبو الطيب أيضا جماعة من أصحابه فقاتلوهم ، قيل لما رأى أبو الطيب أن الغلبة عليه أراد يفر فقال له غلامه مفلح : لا يتحدث عنك الناس بالفرار أبدا وأنت القائل :

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم..

فكر راجعا حتى قتل ، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ٩٦٥ م . وقد اشتغل أبو الطيب بفنون الأدب ومهر فيها ، وكان من المطلعين على غريب اللغة وحواشيها ، وقد عاش فى صباه مدة طويلة بين أهل البدو فاكتسب الحرية وشرف النفس ، وترى ذلك فى كثير من أشعاره ، ومما يدل على ذلك أنه لم يلتحق بسيف الدولة حتى

شرط عليه أن لا يقبل الأرض بين يديه حين يدخل عليه وأن لا يقول الشعر إلا جالسا . كان أبو الطيب يقف بين يدى كافور وبين رجله خفان وفى وسطه سيف ومنطقة ، وكان يحب الصدق والعفاف ويعاب عليه التكبر وحب الذات والبخل .. فأما شعره فهو فى غاية البلاغة حتى أنه يعد فى درجة امرىء القيس ، وكان ينتقد شعره قبل أن يقول ، واشتهر فى وصف وقائع الحرب والمدح والشجاعة وفى الحكم ، وحكمه أشهر من أن تذكر ، وقد اعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ويقال أنه يوجد أكثر من أربعين شرحا لديوانه – ولى دراسة مفصلة عنه فى كتابى "قصص من التاريخ"

شعر المتنبى :

صاغ أبو الطيب شعره صياغة فنية تتجلى فيها روح القوة والحرية والحياة . وقوة التعبير سمة من سمات أبو الطيب نجدها فى ألفاظه وأساليبه ، كما نجدها فى معانيه وقد أفاضت روح القوة فى نفس الشاعر على شعره وفنه هذه السمة الواضحة ، وكذلك حرية التعبير من أهم خصائص المتنبى الفنية ، وقد كان مع إحاطته التامة باللغة وأساليبها يطلق نفسه وفنه من كل قيد لا يتلاءم مع شعوره وإلهامه الشعرى وذوقه الفنى الحساس ، ويختار من الصيغ اللفظية أو البيانية ما يوائم شعوره ، ويعبر عن عواطفه ، ويطرد مع روحه وشخصيته وأمانيه ، يرسل القصيدة إرسالا لا يبالى بنقد النقاد :

أنام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

وهو فى ذلك نظير الفرزدق وأبى تمام اللذين كانا ينهجان هذا الأسلوب ، ولقد هب النقاد فى عصر المتنبى وبعد عصره يؤاخذونه على ما أسرف فيه من استكراه لفظ ، وتعقيد معنى ، وخروج على قواعد اللغة ، أو على الوزن الشعرى ، ومن استعماله الوحشى النابى ، وهبوطه أحيانا إلى مستوى الركاكة والسفسفة ، ومن إفراطه فى المبالغة والأغراق ، وخروجه عن المنهج العربى ، وذلك ما أخذه عليه الثعالبى فى اليتيمة ، فقد لاحظ شدة التفاوت فى شعره وأنه يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط ، وهذا إلى تعسفه فى اللغة والتراكيب وقبح المطلع أحيانا .. غير أن هذه الحرية كشفت لنا عن نفس الشاعر وآراءه وآماله فى أسلوبه ، ولم تستطع قيود البيان والشعر أن تحد من نزعاته ، وتقيد من حريته ، أو تخفى فى ثناياها اتجاهاته وأفكاره ، لا ولم تستطع هذه القيود أن تطمس روح الشاعر فى شعره ، أو تضعف شخصيته فى أسلوبه ، بل تستطيع أن تقرأ أى قصيدة من قصائده ، أو بيت من أبياته ، فسترى فيما تقرأ روح الشاعر تطل عليك ، وتتحدث إليك ، وتناجى

بآمالها وآلامها لديك . فتهز من عواطفك . وتدعك مؤمنا بما آمنت به من : نزوع إلى المثل العليا . وثورة صاخبة على الحياة . ثم تحفز همتك على السير في النهج الذي يريده الشاعر الثائر الداعية .

وفي شعر أبو الطيب تظهر سمة أخرى لها خطرها وأثرها . فالشاعر لا يترك هذا المذهب الفني الذي رفع لواءه من قبل أبو تمام ، إذ يؤثر تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فهو من شعراء المعاني . وشعره امتداد لمذهب أبي تمام الشعري ، والخصائص الفنية البارزة تتجلى بوضوح في شعر الشاعرين . لاسيما في روعة التعليل وسمو التخييل . ودقة الطرق وجمال الخيال وسحر الاستعارة والكناية والتشبيه . وبلاغة التقسيم والمقابلة والتفسير . والتورية والتوجيه . ونحو ذلك .

وهو كأبي تمام في كثرة الحكم والأمثال حتى قيل : " أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري " . غير أن أبا الطيب كما قلنا خرج على أساليب العرب المعروفة في اللغة والتراكيب في بعض شعره . وأطلق الشعر من بعض القيود التي قيده بها أبو تمام ومن ثم أطلق عليه شاعر الطريقة الابتداعية في الشعر العربي لخروجه على هذه الأساليب وقلة كلفه بالقيود الصناعية .

على أن في شعر المتنبي روح العمق والقوة التي لا تظهر على أسلوبه سمات التكلف ، وإن كان بيته يضيق أحيانا بمعناه فيعسر فهمه ، ولقد سئل أبو الطيب عن صلته بأبي تمام فقال[1] :

" أولا يجوز للأديب أن يعرف شعر أبي تمام ، وهو أستاذ كل من قال الشعر ، ويقول ابن الأثير : " إن أبا الطيب أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، وكان المتنبي ينشد روائع أبي تمام ويروي جميع شعره ". ولقد امتاز أبا الطيب كما أسلفنا بعمق الفكرة الشعرية ، ويقظة العقل الأدبي ، الذي وعى التراث الشعري ، للقدامى والمحدثين ، فهضمه وأخرجه أدبا حيا جديدا ، رائعا في فكرته وحكمته ، روعته في مادته وصياغته ، قويا في دعواته ومراميه ، قوته في أسلوبه ومعانيه .

وبذلك الطبع وفي هذه الأساليب نظم أبو الطيب روائع فنه وإلهامه ، داعيا إلى حياة اجتماعية وقومية وقوية ، تحرر فيها نفوس بني قومه من غلال الذل والاستعباد ، وتتطلع إلى حياة العزة والكرامة ، لتسترد الروح العربية نفوذها ومجدها ، ويستعيد أبناء الشعوب العربية تراثهم المفقود ، ومجدهم المنشود .

---

(1) ٨٠ صبح

وكان شعره مثالا رائعا للحياة القومية في عصره ، وصورة بارزة للحياة الفكرية والأدبية ، ثم كان فيه تصوير للنزاع بين المثل العليا والحقائق الواقعية ، ونضال بين الألم و الأمل ، وبين اليأس والرجاء ، والسخط والرضاء ، والحب والبغض ، وفيه صورة زاهية لثورته النفسية المتشائمة ، ودعوته الاجتماعية النظرية الداعية إلى القوة والطموح التي دعها إليها " نتشه " في العصر الحديث ، ولقد حارب أبو الطيب الضعف الإنساني في جميع مظاهره ، كما حاربه " نتشه " ، ودعى إلى الثقة بالنفس والعمل للحياة بأقصى ما يمكن من قوة إقدام كما دعى إلى ذلك " نتشه " ، وأصل الفضائل جميعها عند الرجلين هو إرادة القوة والسعي إليها والظفر بها في شتى صورها ، وذلك هو السعادة المنشودة المرتجاة ، وبين آرائهما كثير من ألوان الاتفاق تراها في مطالعات للعقاد (١٥٧ - ١٦٣) ، وشعر المتنبي يتحدث كثيرا عن منازع الحياة البشرية ويصف الطباع الإنسانية وصف المحيط بها الذي أكلها تجربة وبحثا ، وقد امتاز شعره بسمو الحكمة الإنسانية ودقة تغلغلها في صميم الحياة وإدراكها لبواطن الأمور وتمشيها مع ثمرات التجربة والواقع .

وشعره فوق ذلك تصوير بارع لحياة الشاعر نفسه ، بما كان يختلج في صدره من طموح إلى المجد وثورة على نظم السياسة والاجتماع ، ودعوة إلى القضاء على مظاهر الضعف فيها بظبا السيف أو بشباة اليراع .... وأبو الطيب رائع في رثائه كما هو رائع في مدحه وفخره وهجائه ووصفه وحكمته .

وعلى رثائه مسحة من الفلسفة الحائرة التي يستمدها الشاعر من ثقافاته وحياته ، ويضمنها فلسفة الحياة والموت والفناء والخلود ، كما يودعها فلسفة الحزن والبكاء والصبر والعزاء .. ومدحه ليس تفانيًا في شخصيات ممدوحيه ، إنما هو اعتزاز بشخصيته ونفسيته ، والشاعر يتخذه سلما يصعد عليه إلى ذروة المجد والسلطان .

وتشيع في أعطاف هجائه روح التهكم والسخرية والإقناع، وفلسفة السخرية نشدها المتنبي في ثورات غضبه وسخطه فأجاد الحديث فيها في دقة وخفاء ، ولكنها عند ابن الرومي نزعة طبيعية في نفسه ظهرت في شعره ، فكان أبعد الشعراء منزعا في تصويرها ، وإبعاد مرماها ، وإصماء وقعها ، وترى روح السخرية عند المتنبي في أهاجيه لكافور ، وفي مدائحه التي كان يثني بها عليه وكان يطوي فيها المدح على الهجاء حذقا منه بصنعة الشعر كما يقول ابن جني[1] .. ويمكننا أن نرجع روح الشاعرية عند المتنبي إلى بعد آماله ، وطول إخفاقه فيها ، وسخطه على الناس

---

[1] ٣٧٩ج١ العكبري .

والحياة . وإلى روح العظمة وشدود العبقرية في نفسه ، وإلى نهمه في الانتقام ممن يتعرض له بشر ، أو يحول بينه وبين غاياته ، وهي في وضوحها وغلبتها على شعره لا يعادلها إلا دعواته الساخطة وآراؤه المتشائمة الناقمة على الحياة والأحياء : وأبو العلاء يستمد من أبي الطيب هذا الاتجاه ، وإن كان يخالفه في بواعثه وفي نتائجه ، فسخط أبي العلا وتشاؤمه يقوم على شعور وثيق ببعد الإنسانية عن حياتها المثلى ، أما تشاؤم أبي الطيب فراجع إلى إخفاقه في آماله ، وسخط أبي العلاء ينتهي به إلى الزهد فيها والانصراف عنها .

وقد كان هجاء أبي الطيب معولا هدم به صروح المجد التي أقامها من هجاهم ، فإذا هم صورة مشوهة هي سخرية الأجيال وحديث القرون .

ويبلغ وصفه مبلغ الروعة والقوة حين يصف به معارك القتال وحومات الوغى، وروح البطولة واضحة من قصائد المتنبي لا سيما في الفترة التي قضاها في بلاط سيف الدولة حيث الصراع الدائم والكفاح الطويل بين سيف الدولة وأعدائه .

وفخره حديث عن عصاميته واعتزاز بشخصيته وكرامته وتصوير لآماله وغاياته، وللمتنبي نسيب ولكنه متكلف مصنوع ضئيل في معانيه ، بعيد عن روح الغزل في أسلوبه ، لأنه لم يكن بين الغواني وقلب أبي الطيب صلة ، فهو طالب مجد وداعي قوة وشاعر سيف ورمح ورسوله فضيلة ومثل ، فماله للغواني والنسيب بهن ؟ والنسيب إنما هو وحي الحب الصادق والروح الوادعة ، والعواطف المتيمة حين يقع القلب في أسر الهوى ، وما أبعد المتنبي عن ذلك ، وهل عرف الحب من يقول:

وما العشق إلا غرة وطماعة ... يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغواني رمية ... وغير بناني للرخاخ ركاب

وهو الذي يدعو على الغواني مثل هذا الدعاء الجاف :

أيا خدد الله ورد الخدود ... وقد قدود الحسان الغيد

وليس لنسيب المتنبي خطر في روحه ، إنما أثره في فنه وأسلوبه كقوله :

سقاك وحيانا بك الله إنما ... على العيش نور والخدود كمائمه

وقوله :

نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة ... لمن بان عنه أن نلم به ركبا
نذم السحاب الغر في فعلها به ... وتعرض عنه كلما طلعت عتبا
ذكرت به وصلا كأن لم أفز به ... وعيشا كأني كنت أقطعه وثبا

ونسيبه على العموم تقليدي بحت ، ولم يكن المتنبى ممن شغفوا بجمال الطبيعة وأسرارها ، ولا ممن تأصلت فى نفوسهم روح المرح والفكاهة ، ولكنه جاد أقبل بجملته على جهاد الحياة ، وشعره صورة لما يختلج فى النفوس المجاهدة من آمال . وروح الخيال عنده كما هو عند أبو العلاء ضعيف ، إذ كانا رجلا حقيقة وتفكير لا خيال وتصوير .

شهرتـــه:

وشهرة المتنبى الأدبية الذائعة ترجع إلى خصائص فنه الأدبى كما ترجع إلى عوامل أخرى سياسية واجتماعية .

فحياة أبى الطيب فى قصور ملوك الشرق وأمرائه : الحمدانيين والأخشيديين والبويهيين ، وفى عواصم العالم الإسلامى إذ ذاك : حلب ودمشق ومصر والكوفة وبغداد وشيراز ، وتعرفه برجالاتها وزعماء النهضات الثقافية والفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية فيها ، مما أذاع فى العالم الإسلامى شهرته ، ثم هذه الخصومات العنيفة التى منى بها المتنبى فى كل بلد حل فيه ، وتضاؤل الشعراء عن مجازاته أو تحديد فى سحر القريض ، ثم ذلك التجاوب بين عواطفه وشتى العواطف الإنسانية ، وهذا التساوق بين آرائه وتجاربه وحكمة الحياة ، والتمازج بين مشاعره ومشاعر خاصة الأدباء والمفكرين ، وهذا السمو بنفسه وبالفن الذى يؤدى رسالته ، كل ذلك كان من عوامل إذاعة شهرته الخالدة .

وقد تأثر بشعره الكتاب والشعراء والأدباء والشعراء فى عصره وبعد عصره ، فالصابى والصاحب وسواهما من الكتاب المعاصرين له اقتبسوا من شعره فى رسائلهم، وكذلك نسج الشعراء على منواله وحاكوه فى شتى العصور ، لا سيما فى حركة الإحياء الأدبى فى العصر الحديث ، وعصبية شاعر كأبى العلاء له هى عصبية للفن والأدب قامت برغم بعد الزمن وانتفاء المؤثرات بينهما .

المتنبي والنقد الأدبي :

ولا نكاد نجد شاعرا اختلفت الناس فى منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء ، فى عهده وبعد عهده ، مثل المتنبى ، فقد افترق النقاد فيه فرقا ثلاثة :

فطائفة بالغت في التعصب له ورفعته إلى منزلة كبيرة في الأدب وعلى عرش القريض.

وطائفة بالغت في التحامل عليه والوضع من شأنه وشعره ، فوضعته في مكانة دون مكانته ، ومنزلة دون منزلته لخصومة خاصة بينهم وبين الشاعر وحده ، أو لخصومة عامة بينهم وبين المحدثين جميعا ، وأغلب هذه الخصومات نشأت بتأثير عواطف شخصية ومنافسات أدبية وأغراض سياسية ، والقليل الأقل منها كان بريئا من الغايات ، لم تدفعه إلا يد النقد الأدبي النزيه .

وطائفة أخرى جعلت تعصبها للأدب ، لا له فعرضت ووازنت ونقدت وحكمت على ضوء العدالة الأدبية ، وكانت هذه الخصومات سببا في كثرة الدراسات الأدبية التي تدور حول شعره ، وكان فيها ثروة كبيرة للنقد الأدبي خاصة للأدب والشعر والبيان عامة ، وحسبك أن المتنبي شرح شعره وعلق عليه وألف في نقده وكتب عن شعره فحول الأدباء والنقاد والعلماء ، من الشرقيين والمستشرقين ..... كتب عن المتنبي الثعالبي م ٤٢٩ في الجزء الأول من اليتيمة كتابة فيها دراسة لحياته ونقد لشعره وترجم له ياقوت م ٦٢٦ هـ [١]، وابن خلكان م ٦٨١ هـ [٢] ، وألف البديعي م ١٠٧٣ هـ في حياته وشعره كتابه " الصبح المنبي " وكذلك فعل كثير من الكتاب والأدباء في العصر الحديث نخص منهم المرحوم السيد محمد توفيق البكري في كتابه " أخبار أبي الطيب المتنبي " ، " والمتنبي " للأستاذ جبرى، "ومع المتنبي " في جزأين للأستاذ طه حسين ، و" ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام " للدكتور عبد الوهاب عزام ، و " المتنبي " للأستاذ محمود محمد شاكر وقد نشرته مجلة المقتطف في عدد خاص ، ومجلة الهلال العدد العاشر عام ١٩٣٥ الخاص بالمتنبي ، وصحيفة دار العلوم ، وسواها من الدراسات للمؤلف ، وكان العيد الألفي لذكرى أبي الطيب عام ١٩٣٥ هو المثير لهذه الدراسات فامتلأت الصحف والمجلات بالحديث عن حياته وشعره ، وظهرت المؤلفات الحافلة بالبحوث الأدبية فيه ، وفي " مطالعات " للعقاد ، و" حصاد الهشيم المازني دراسة واسعة للمتنبي وفنه ، وقد شرح ديوانه شرح دراسة وتحليل ونقد : ابن جني م ٣٩٢ هـ في ثلاثة مجلدات وله كتاب في " معاني أبياته " ، ولابن فورجة " التجني في الرد على ابن جني " و " الفتح في الرد على أبي الفتح " ، ورد على ابن جني كذلك على بن عيسى الربعي المتوفي سنة ٤٣٥ هـ في كتابه " التنبيه " وشرح ديوانه كذلك ابن الأفليلي م ٤٤١

---

[١] ٣٦٦ج١ طبقات الأدباء .

[٢] ٣٦ج١ ابن خلكان .

وأبو العلاء م ٤٣٥ في كتابه " اللامع الغريزي في معجز أحمد " والواحدي م ٤٨١ هـ. وعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ، والتبريزي م ٥٠٢ هـ، والعكبري م ٦١٦ هـ، واليازجي والبرقوقي في عصرنا الحديث.

ونقد شعره كثير من النقاد في مختلف العصور، فللصاحب م ٣٨٥ هـ في نقد شعره رسالته " الكشف عن مساوى المتنبي ". وللخوارزمي م ٣٨٣ هـ كتاب مفقود[١]، ولأبي الحسن الجرجاني م ٣٩٢ هـ كتابه الممتع " الوساطة بين المتنبي وخصومه ". وللحاتمي م ٣٨٣ هـ " رسالته الحتامية " وكتابه " جهة الأدب "، تحدث في الأولى عن مناظرته للمتنبي، وفي الآخر عن سرقاته من أرسطو[٢]، ولمحمد ابن وكيع المصري الشاعر م ٣٩٣ هـ كتابه " المنصف " فصل فيه سرقات المتنبي [٣]، وللعميدي كتابه " الإبانة " وقد نقل عنه البديعي كثيرا من نقده وناقشه [٤]، ولابن حسنون المصري كتابه " نزهة الأديب في سرقات المتنبي من حبيب "، وألف أديب آخر كتاب " المآخذ الكندية من المعاني الطائية " أي سرقات المتنبي من أبي تمام. وغير ذلك من كتب النقد التي تدور حول شعر المتنبي.

وقد أبدى علماء الأدب في شتى العصور رأيهم في المتنبي وشعره: كالشريف الرضي م ٤٠٥ هـ[٥]، وابن رشيق له ٤٥٦ هـ في " عمدته " وابن خلدون م ٨٠٨هـ في " مقدمته عن الشعر " [٦]، وسيف الدولة الحمداني م ٣٥٦ هـ[٧] وابن العميد م ٧٦٠ هـ وأبو فراس الحمداني م ٣٥٧ هـ [٨]، وابن خالويه النحوي[٩] وسيبويه المصري[١٠] والحاتمي، وقد عرض الكيلاني في كتابه " صورة جديدة من الأدب العربي " مناظرة الحاتمي لأبي الطيب، وغير هؤلاء من الباحثين، ونقده كثير من الكتاب المحدثين، وكثير من المستشرقين مثل: وايسكي، دي ساسي، بولمين، بركلمان، نيكلسون، عامر، ديتريشي، وكتب المستشرقين الإنجليزي هندلي في تاريخ حياة أبي الطيب بحوثا قيمة نشرها في القرن التاسع عشر.

---

[١] ١٦١ صبح، ٢٦١ج٢ النثر الفني.
[٢] ١١١ - ١١٩ ج٢ المرجع.
[٣] ١٥٨ و١٦١ صبح.
[٤] ١١١٤-٥٩ صبح.
[٥] ١٠٣ صبح.
[٦] ٤٣ صبح.
[٧] ٤٦-٤٨ صبح.
[٨] ٤٥ و٩٠-١٠٣ صبح.
[٩] ٦٣صبح.
[١٠] ٧١ - ٨٠صبح، ١٠٦-١٣٧ صور جديدة لكيلاني.

بين المتنبى وابن هانىء شاعر المعز

- ١ -

عاش المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤) فى العصر الذى عاش فيه ابن هانىء الشاعر (٣٢٠ - ٣٦٢) هـ .ولقد كان أبو الطيب المتنبى شاعرا ، ولكنه أراد أن يكون ملكا على عرش من العروش ، أو أميرا على ولاية من الولايات ، فأخفق ، أراد أن يترك الشعر إلى السياسة ، فردته الأيام عن السياسة إلى الشعر ، فبرم أبو الطيب بحياته التى لم يدرك فيها آماله وأحلامه ، فملأ شعره سخطا على الناس ، وغضبا على المجتمع ، وبرما بالحياة ، بعد أن كان يذيعه أنغاما حية من الطموح والأمل والأقدام ، وأخذ يدعو إلى مذاهب جديدة متشائمة ، أوحى بها إليه سخطه وغضبه ، وآرائه وتجاربه ، وآماله وآلامه ، بعد كان يدعو إلى القوة والطموح والتفاؤل ، وظل كذلك حتى خر صريعا مضرجا بالدماء .

وأخطأ أبو الطيب من حيث أصاب القدر ، فهذا المجد السياسى الفانى الذى طلبه المتنبى فى حياته ما قيمته وما جدواه وما شاوه أمام هذا المجد الأدبى الخالد ، الذى كتبته له الأيام بعد وفاته ، وقلدته عروشه الباقية الخالدة .

فالمتنبى كشاعر هو هو ، هو الذى عصف فى حياته بخصومه وأقرانه فى مصر والشام والعراق وإيران ، وذهب شعره فى أرجاء العالم الإسلامى إذ ذاك ثائرا مدويا :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق ... وغرب حتى ليس للغرب مغرب

يردده الناس ، وتشدو به الحياة :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى ... إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

وهو الذى فتن بشعره ، فتنة الفنان بفنه ، حتى رأى أنه يتبوأ فى الشعر العربى عروش الإمارة ، من حيث حرمها هو :

إن هذا الشعر فى الشعر ملك ... سار فهو الشمس والدنيا فلك

ورأى أهل الجاهلية تقصر عن مداه :

ما نال أهل الجاهلية كلهم ... شعرى ولا سمعت بسحرى بابل

ثم كان أبو الطيب الشاعر الذى نال بعد حياته من المجد الأدبى ما لم ينله شاعر من الشعراء ، فشدت الأجيال بشعره ، وهتفت القرون بذكره ، وعكف كثير من فحول الأدب والبيان فى كل عصر وجيل على تراثه الأدبى بحثا ودراسة ونقدا ، وعدوه شاعر العربية فى عصره ، بل جعله كثير من النقاد شاعر العربية الفذ فى شتى عصورها الأدبية ، وأحاطوا ذكره بهالة من التقدير والإعجاب ، وجلال الذكر عظمة الفن ، تشبه الهالة التى يحيط بها الأوربيون ذكرى شكسبير وجوته وهوجو وليوباردى من أدباء الغرب الخالدين .

– ٢ –

ومن الغريب فى البحث الأدبى حقا أن نرى بين أبى الطيب المتنبى وابن هانىء الشاعر وجوها كثيرة من التشابه فى العقيدة وفى الشخصية وفى الشاعرية وفى المنزلة الأدبية فى عصر الشاعرين :

فحياة ابن هانىء تشبه حياة المتنبى فى كثير من مظاهرها والعقيدة الفاطمية التى كان يؤمن بها ابن هانىء شبيهة بالعقيدة الإسماعلية التى آمن بها أبو الطيب ! وطموح ابن هانىء لا يعادله إلا طموح المتنبى ، ومكانة ابن هانىء عند الأمراء والملوك فى عصره هى مكانة أبى الطيب فى بلاط سيف الدولة وكافور وعضد الدولة ، وتتويج ابن هانىء أميرًا على إمارة القريض فى دولة المعز هو ما حدث لأبى الطيب من إمارته على الشعر فى المشرق ، وشاعرية الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ، فالمدح وأوصاف الحروب تكادان تتعادلان فى شعر الشاعرين ، ولكن ابن هانىء لم يصل إلى مكانة المتنبى فى الحكمة وضرب المثل وفى الرثاء وفى بعض أغراض الشعر الأخرى ، كما أنه لم يصل إلى مكانته فى دقة المعانى وبعدها وعمق الثقافة العقلية وتنوعها ، وإن كان ابن هانىء يجارى أبا الطيب فى هذا الميدان إلى حد ما ، وروح الشاعرية فى الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ، تتشابه من حيث قوة الأسلوب وفحولته وجزالته وطبعه ، ومن حيث البعد عن الألفاظ المترفة ، والإلمام بكثير من الغريب ، وتتشابه فى الكثير من السمات الفنية الخاصة التى تراها فى شعر الشاعرين وفى تراث الشاعرين ، وفى إنتاج هذين الشخصيتين .

– ٣ –

ويشبه النقاد وعلماء الأدب ابن هانىء بالمتنبى ، ويلقبونه بمتنبى المغرب ، ويسلمون له زعامة الشعراء فى المغرب والأندلس ،ثم حاولوا أن يقارنوا بينه وبين

المتنبى . ولكن المقارنة - مع اتحاد العصر وتوافق البيئة والمؤثرات العامة وتوافق الشاعرين فى كثير من مميزاتهما - غير ممكنة ، لأن لكل شاعر طابعه الخاص ، وروحه الفنية المستقلة ، ونزعاته الأدبية المقصورة عليه ، وإن كان ابن هانىء أقرب الشعراء إلى المتنبى ، وأقربهم مكانة فى عصر الشاعرين ، ويكاد المجد الأدبى الذى لاقاه ابن هانىء فى حياته يضارع الشقاء الذى لاقاه أبو الطيب فى عصره ، كما يكاد الذكر الأدبى السائر الذى ناله المتنبى بعد حياته يضارع الخمول الأدبى الذى لازم اسم ابن هانىء بعد وفاته .

– ٤ –

ولقد كان ابن هانىء بطبيعة سنه تلميذا أو كالتلميذ لأبى الطيب ، قرأ ديوان المتنبى وتأثر به فى كثير من معانيه وأساليبه وخيالاته ، وفى كثير من قصائده فقد استعار ابن هانىء ديوان أبى الطيب بعد وفاته ، أى بعد عام ٣٥٤ هـ ، من أديب أساء بعد فى طلبه منه ، فنظم فى ذلك الشاعر قصيدته :

تنبأ المتنبى فيكم عصرا	ولو رأى رأيكم فى شعره كفرا
مهلا فلا المتنبى بالنبى ولا	أعد أمثاله وشعره السورا
تهتم علينا بمرآه وعلكم	لم تدركوا منه لاعينا ولا أثرا

وابن هانىء فى قصيدته هذه يحاول أن يخفف من غلواء المتعصبين للمتنبى ، ثم يحاول أن ينكر فضله فيقول :

ويلمه شاعرا أخملتموه ولم	نعلم له عندنا قدرا ولا خطرا

ثم يصف جناية القوم على شعره ، وتصحيفهم إياه ، ويتهكم بهم ، إلى أن يقول :

أريتمونى مثالا من روايتكم	كالأعجمى أتى لا يفصح الخبرا
أصم أعمى ، ولكنى سهرت له	حتى رددت إليه السمع والبصرا
كانت معانيه ليلا فامتعضت له	حتى إذا ما بهرن الشمس والقمرا
ضجرتم وأتانا من ملامتكم	ومن معارضيكم ما يشبه الضجرا
ولو حرصتم على إحياء مهجته	كما حرصتم على ديوانه نشرا

وظاهر من هذا أن الديوان الذى كتبه هذا الأديب واستعاره منه ابن هانىء كان كثير التصحيف والخطأ ، وأن ابن هانىء صححه وكتب منه نسخة أخرى ، فاختلفت رواية هذا الأديب وأمثاله ، فأكثروا من الضجر من ابن هانىء ،

وقول ابن هانيء " فلو حرصتم على إحياء مهجته " – أى المتنبى – دليل على أن ذلك كان بعد وفاة المتنبى .

وابن هانيء : فى أول قراءته لديوان المتنبى لم يعترف له – كما يقول – بقدر ولا خطر . ولكنه بعد ذلك عكف على احتذاء أبى الطيب وتقليده لا سيما فى أمثاله وحكمته ، وفى شعر ابن هانيء قصائد وأبيات كلها تسير على روح قصائد وأبيات للمتنبى ، ولذلك كانت الحكمة فى شعر ابن هانيء متأخرة جدا فى حياته لم تواته إلا وهو فى نهاية عصر رجولته ، وكذلك أيضا تجد بين ابن هانيء وأبى الطيب تشابها كثيرا فى كثير من الأساليب والمعانى ، مما يطول بنا الحديث لو حاولنا تفصيل ذلك والإلمام بنواحيه .

– ٥ –

وهناك أسطورة أدبية رواها البديعى م ١٠٩٣ فى " الصبح المنبى عن حيثية المتنبى " ، تحدثنا بأن أبا الطيب عزم وهو فى مصر على أن يهاجر إلى المغرب ، فلقيه ابن هانيء فى الطريق ، فأنشده أبو الطيب شعرا له ، ثم أنشده ابن هانيء من شعره ، فقفل راجعا إلى مصر ، تاركا المغرب لابن هانيء شاعره .

وهى أسطورة أدبية حافلة بالبواعث التى دعت إلى اختلافها ، وفيها إشادة بابن هانيء وبفنه وشاعريته .

بين المتنبى والنقاد

– ١ –

هذه مثل لما دار بين النقاد من آراء فى النقد ، ومناقشات فى الحكم على الشعراء ، انكر النقاد على المتنبى قوله :

جللا كما بى فليك التبريح ... أغذاء ذا الرشأ الأغن الشيح

فقال رجال الأعراب : حذف النون من يكن خطأ ما دام قد وليها اللام ، ورد عليهم الجرجانى بأن ضرورة الشعر تجيز ذلك الحذف .. وقال أصحاب المعانى : قطع المصراع الثانى عن الأول فى اللفظ والمعنى ، فقال لهم الجرجانى فى وساطته : إنما يصوغ الإنكار لو قطعهما عن بعض قبل تمام المعنى ، فأما أن يستوفى مراده ثم ينتقل إلى غيره فليس بعيب ، والمصراعان فى هذا كالبيتين ، يجوز استقلال كل بمعناه ، وقال البعض : قد يفعل الشاعر مثل ذلك فى النسيب خاصة

ليرى أنه مشغول عن تقويم خطابه بالحب الذى غلبه ، والشوق الذى تمكن منه ، وقال غيره إن بين المصراعين اتصالا لطيفا ، فلما أخبر عن عظم تبريحه وشدة أسفه بين أن الذى أورثه ذلك هو الأغن الذى شككه غلبة شبه الغزلان عليه فى غذاءه .

٢- وأنكروا عليه قوله :

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه فلا أحد فوقى ولا أحد مثلى

لأن ما ليست للتشبيه ، وقد سئل أبو الطيب عن هذا فذكر أن ما تأتى لتحقيق التشبيه ، تقول : هو الأسد وما هو إلا الأسد وإلا كالأسد . فقال الجرجانى ردا على أبى الطيب رأيه : إن التشبيه بما به محال ، وإنما يقع التشبيه فى هذه المواضع بحرفه ، وما لم تتعد موضعها من النفى ، ولكنه لما كانت ما وإلا تأتى لتحقيق المعنى الذى يفيده أصل التركيب كالتشبيه فى مثل ما هو إلا الأسد ، صح أن ينسبه التشبيه تجوزا إلى ما ، إذ كان لها هذا الأثر ، وباب الشعر أوسع من أن يضيق عن مثله.

٣- وينكر النقاد على أبى الطيب جمعه بوقا على بوقات فى قوله :

إذا كان بعض الناس سيف لدولة ففى الناس بوقات لها وطبول

وإنما الصحيح جمعه على أبواق ، فقال لهم الجرجانى : إن أصل الجمع التأنيث ، فإن جمع أسما لم يجد عن العرب جمعا له فأجراه على الأصل لم يسغ الرد عليه ، أو أن ينسب الخطأ لأجله ، وإن كان لأبى الطيب عن مثل هذا مندوحة .

٤- ومما أنكره النقاد على أبى الطيب قوله :

وإنى لمن قوم كأن نفوسنا بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وكان الأسلوب يفرض عليه أن يقول : نفوسهم ، ولكنه قطع قبل استيفاء الكلام وإتمام الخبر ، وقد رد عليهم بعض النقاد بأن الكلام جرى على أسلوب الالتفات بحمله على المعنى وصرف الضمير على وجهه ، وهو أسلوب تنطق به العرب كثيرا فى بلاغتهم وبيانها ، ولكن الجرجانى لا يقبل ذلك الرأى لما فى هذا الأسلوب، إذا سير عليه دائما من تداخل الضمائر والتباس المعانى ، وهو أسلوب له مواضع تختص بالجواز ، وأخرى تبعد عنه ، ويرى القاضى أن بيت أبى الطيب غير مستكره فيما يجوز فى أسلوب الالتفات ، ولكنه غير معذور بتركه باب الصحة إلى المشكل الواهى الضعيف .

ولقد كان فى المتنبى كبر وزهو . وكان يعتد كل الاعتداء بنفسه وفنه حتى رأى شعره يتبوأ فى الشعر العربى عروش الإمارة التى نشدها لنفسه فأخفق وحرم منها:

إن هـذا الشـعر فـى الشـعر ملـك ... سـار فهـو الشـمس والدنـيا فلـك

ورأى أهل الجاهلية من الشعراء تقصر عن مداه :

مـا نـال أهـل الجاهلـية كـلهم ... شـعرى ولا سمعـت بسـحرى بـابل

وبعد أن بلغ من المجد الأدبى منتهاه ، كان أبلغ شحيح بشعره على رجالات العالم الإسلامى وشخصياته البارزين : فلم يمدح أحدا إلا فى القليل النادر من الذين تربطهم بالشاعر صلات خاصة ، أو ممن كان يسعى لديهم فى سبيل تحقيق مطامحه فى الإمارة .

وفى عام ٣٥٣ هـ كان المتنبى فى بغداد فأخذ يفاوضه رجالاتها كالصابى م سنة ٣٨٣ والمهلبى الوزير فى ان يقلدهم مدحة من مدائحه فاعتذر ، وانتظر معز الدولة الملك والخليفة العباسى أن يشيد أبو الطيب بدولتهم فلم يفعل ، فأثار وجود المتنبى مشكلات سياسية وأدبية ، خرج من مأزقها أبو الطيب ، فيمم وجهه شطر شيراز حيث عضد الدولة ينشد منه ولاية يتقلدها أو عرشا يتبوؤه ، وطمع الصاحب بن عباد فى زيارته له بأصفهان ، فكتب إليه يرحب بقدومه ويعلن استعداده لأن يشاطره ماله ، ولكن أبا الطيب أبى أن يقلد شعره شابا ليس فى يده تحقيق آماله البعيدة ومطامحه الواسعة ، فرفض عرض الصاحب شاخصا إلى عضد الدولة لنفس غاياته ، لا رغبة فى إشباع شهواته :

ول الســـلاطين مـــن تولاهـــا ... والجـــأ إلـــيه تكـــن حدياهـــا

وكان رفض المتنبى اليد التى مدها الصاحب إليه باعثا على عداوة " ابن عباد " له ، ونقده إياه ، وحمله الأدباء والكتاب على ثلبه ومهاجمته بسلاح عنيف من أسلحة النقد الأدبى الجائر ، وألف بباعث العصبية والخصومة رسالته الصغيرة الحجم الكبيرة المغزى والقيمة : " الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره " ينقد فيه شعره سواء فى اللفظ والمعنى أم الوزن والقافية أم الأسلوب والخيال أم الفكرة والاتجاه ، وكان الصاحب لاذعا عنيفا فى نقده للمتنبى ، وتهكمه فى شعره ، غير آبه لجانب الإحسان والروعة فى شعره ، ولقد تجاهل الصاحب - عصبية منه على المتنبى - نفسية الشاعر وطبعه ومؤثرات الدم والروح والبيئة والآمال والاتجاه فيه ، وأخذ يحكم

عليه أحكاما قاسية لا هوادة فيها ولا رحمة . وهو في هذا الاتجاه يناقض الجرجاني . الذي فهم النقد على أنه البحث في هدى العدالة والإنصاف عن مكانة الشاعر الأدبية على ضوء خصائص فنه وميزات شعره ، ووزن ما زل فيه الشاعر وما أجاد فيه بقسطاس مستقيم عادل ، ونهج الصاحب في نقده صورة لاتجاه أستاذه ابن العميد فيه ، مما عبر عنه الصاحب في رسالته بقوله " وكان ابن العميد يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولايرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن[1] " . فهو نقد لمعاني الشاعر ،وطبعه الأدبي ،وذوقه الاجتماعي ، ونقد لأسلوبه في صياغته ، واختيار ألفاظه ، وحروفه ، وقافيته ، وموسيقاه .

وذكر أن المتنبي يضؤل أمام أبي تمام والبحتري في صياغته ما كان يقتبس منهما من معان ، كما يضؤل بجانب الفرزدق في الفخر .. وكانت غاية الصاحب من وراء ذلك كله هدم مجد المتنبي الأدبي ، وتشويه سمعته كشاعر ممتاز من شعراء العربية ، وإن كان الصاحب وصل إلى بعض ما أراد في حياة أبي الطيب فإن مجده قد عصف بكل ما أراد خصومه : فوهب ذيوع الشهرة ومجد الخلود .

وقد نقد ابن رشيق في عمدته في مواضع مفرقة منها آراء الصاحب في نقده فرد عليه مثلا نقده لبيت المتنبي :

صـــــلاة الله خالقـــــنا حـــــنوط … عـلى الوجـه المكفـن بالجمـال[2]

والإنصاف يلزمنا أن نقول : إن نقد الصاحب كله لم يكن مدفوعا ببواعث الهوى أو بمنأى عن العدالة والإنصاف ، وإن كان الصاحب يتجاهل لغاية في نفسه شخصية الشاعر وروحه وأثرهما في فنه : فنراه مثلا ينقد بيت أبي الطيب :

لـو اسـتطعت ركبـت الـناس كـلهم … إلى سـعيد بـن عـبد الله بعـرانا

نقدا لاذعا[3] ، وللنقاد حق السخط على هذا البيت في بادي الرأي : ولكن النظرة الحصيفة تدعنا نرفع عن الشاعر في بيته هذا إصر كل مؤاخذة ، فهذه هي روح الشاعر المتهكمة الساخرة بالناس الساخطة على المجتمع الذي لم ينل فيه آماله ، المعتزة بنفسها وشخصيتها – تتجلى في البيت في صورة واضحة رائعة وهل أبلغ في السخرية وأمعن في التهكم ، من اتخاذ الناس مطايا يركبها الشاعر إن استطاع ليصل عليها إلى ممدوحه ؟ إن من الغريب حقا أن يكون فن شاعر كأبي

---

(1) ٢ الكشف .

(2) ٢٤٧ ج ٢ العمدة .

(3) ٣٦ الكشف .

الطيب رائعا كل الروعة ، بالغا نهاية القوة والسحر ، حين ينظر إليه كله كأثر أدبي حافل ، فيحكم على قصيدة من قصائده ، أو على مجموعة منها أو عليها كلها ، حينئذ يرتفع أبو الطيب إلى الذروة وينتهي شعره إلى الغاية ، أما إذا قطعت أوصاله فنظرت إلى بعضه كحرف في كلمة من كلماته ، أو لفظ في بيت في قصيدة من قصائدة ، أوخذ الشاعر وحوسب حسابا غير يسير ،لقد تعمد الصاحب أن ينظر إلى فن أبي الطيب هذا النظر الجزئي ، مخفيا وراء نقده ما في نفسه من إعجاب وتقدير ، وقد شاء الجرجاني في وساطته ألا يترك هذه الناحية أو يغفلها ، فطالب بالحكم على فن أبي الطيب كله أو جله أو كثير منه ، لا على جزئياته الضئيلة التي لا تحط زلاته فيها من مكانته ومنزلته ، وعرض كثيرا من روائعه ، طالبا الإنصاف في الحكومة و العدالة في الرأي .

– ٣ –

رسالة الحاتمي في نقد المتنبي[1] :

قال أبو على الحاتمي[2] : كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة الإسلام، التحف رداء الكبر ، وأذال[3] ذيول التيه ، وصعر خده ، ونأى بجانبه ، وكان لا يلقى أحدا إلا نافضا[4] مذرويه ، رافلا من التيه في برديه ؛ يخيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر بحر لم يغترف نمير مائه غيره ، وروض لم يرع نواره سواه ، فدل بذلك مديدة أجرته رسن[5]الجهل فيها ، فظل يمرح في تثنيه ، حتى إذا تخيل أنه القريع[6] الذي لا يقارع ، والنزيع[7] الذي لا يجاري ولا ينازع وأنه رب الغلب ومالك القصب ، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام ! فطأطأ كثيرا منهم رأسه ، وخفض جناحه ، وطامن على التسليم له جأشه[8] ، وتخيل أبو محمد المهلبي، أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ، ولا يقوم بتتبعه بشيء من مطاعنه ، وساء

---

[1] معجم الأدباء ص١٥٩ج١٨ ، ٤٨٢-٤٨٦ج٣ وفيات الأعيان نشر محمد محيي الدين عبد الحميد .

[2] هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي من أهل اللغة والأدب . مات سنة ثمان وثمانين وثلثمائة وهو تلميذ غلام ثعلب (٢٦١-٣٤٥هـ)- راجع ٤٥٤-٤٥٧ ج٣ وفيات .

[3] أذال : تبختر وجر ذيله على الأرض تيها .

[4] نافضا : محركا . والمذروان : ناحيتا الرأس .

[5] الرسن : الحبل .

[6] القريع الذي يقارعك ، والمقارعة : المضاربة بالسيوف .

[7] النزيع : الشريف من القوم الذي نزع إلى عرق كريم .

[8] الجاش : النفس وقيل القلب .

معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل . فلا يكون في مملكته أحد يماثله في صناعته . ويساويه في منزلته !

فنهدت [١] حينئذ متتبعا عواره ، ومتعقبا آثاره ، ومطفيا ناره ، ومهتكا أستاره ، ومقلما أظفاره ، وناشرا مطاويه ، وممزقا جلباب مساويه ، متحينا أن تجمعنا دار ، فأجري أنا وهو في مضمار ، يعرف فيه السابق من المسبوق ، حتى إذا لم أجد ذلك قصدت موضعه الذي كان يحله في ربض [٢] حميد .

فوافق مصيري إليه حضور جماعة تقرأ شيئا من شعره عليه ، فحين أوذن بحضوري ، واستؤذن عليه لدخولي ، نهض عن مجلسه مسرعا ، ووارى شخصه عني مستخفيًا : فنزلت عن بغلة كانت تحتي ، وهو يراني نازلا عنها ، لا نتهاني بها إلى أن حاذيته ، فجلست في موضعه ، وإذا تحته قطعة من زيلو [٣] مخلقة ، قد أكلتها الأيام ، وتعورتها السنون ، فهي رسوم خافية ، وسلوك [٤] بادية ، حتى إذا خرج إلى نهضت إليه فوفيته حق السلام ، غير مشاح [٥] له في القيام ، لأنه إنما اعتمد بنهوضه ألا ينهض لي عند موافاتي ، وإذا هو قد لبس سبعة أقبية كل قباء [٦] منها لون ، وكان الوقت آخر أيام الصيف ، وأخلقها بتخفيف اللبس ، فجلست وجلس وأعرض عني ساعة لا يعيرني فيها طرفه ، ولا يسألني عما قصدت له ، وقد كدت أتميز [٧] غيظا ، وأقبلت أسخف رأيي في قصده ، وأفند نفسي في التوجه نحو مثله ولوى عذاره عني مقبلا على تلك الزعنفة [٨] التي بين يديه ، كل واحد يومي إليه ، ويوحي بطرفه ، ويشير إلى مكاني بيده ، ويوقظه من سنة جهله ، وهو يأبى إلا ازورارا ونفارا ، وجريا على شاكلة خلقه المشكلة .

ثم رأى أن يثني رأسه إلي ، فوالله ما زادني على أن قال : أي شيء خبرك؟ قلت أنا بخير ! لولا ما جنيت على نفسي من قصدك ، وكلفت قدمي في المصير إلى مثلك ! ثم تحدرت عليه تحدر السيل إلى القرار ، وقلت له : أبن لي – عافاك الله – مم تهيك ! خيلاؤك وعجبك ؟ وما الذي يوجب ما أنت عليه من التجبر

---

(١) نهد : نهض ، وعوراه : عيبه .

(٢) الربض : المسكن .

(٣) زيلو : معناها لحاف بالفارسية .

(٤) السلوك : جمع سلكة وهي الخيط الذي يخاط به الثوب .

(٥) منازع .

(٦) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .

(٧) أتميز : أتقطع .

(٨) الزعنفة : الطائفة من القبيلة تنفرد أو تنضم إلى غيرها ، وكل جماعة ليس أصلهم واحدا.

والتنمر(1) ؟ أنسب فرعت سماء المجد به ! أم علم أصبحت علما يقع الايماء إليك فيه؟ هل أنت إلا وتد بقاع(2) في شر البقاع ؟ وجفاء (3) سيل دفاع ؟ يا الله ! استنت الفصال حتى القرعى(4) ! وإني لأسمع جعجعة(5) ولا أرى طحنا ! فامتقع لونه عند سماع كلامي ، وعصب(6) ريقه وجحظت عيناه . وسقط في يده ، وجعل يلين في الاعتذار لينا . كاد يعطف عليه عطف صفحي عنه ، ثم قلت : يا هذا إن جاءك رجل شريف في نسبه ، أو عظيم في أدبه ، صغرت أدبه ، أو متقدم عند سلطانه لم تعرف موضعه ، فهل العز تراث لك دون غيرك ؟ كلا والله ! لكنك مددت الكبر سترا على نقصك ، وضربته رواقا دون جهلك ، فعاد إلى الاعتذار ، وأخذت الجماعة في تليين جانبي ، والرغبة إلى في قبول عذره ، واعتماد مياسرته ، وأنا آبى إلا استشراء(7) واجتراء ، وهو يؤكد الأقسام ويواصلها أنه لم يعرفني ، فأقول له : يا هذا ألم يستأذن لي عليك باسمي ونسبي ؟ أما في هذه العصابة من يعرفك بي لو كنت جهلتني ؟ وهب ذلك كذلك ، ألم ترني ممتطيا بغلة رائعة يعلوها مركب ثقيل ، وبين يدي عدة من الغلمان ؟ أما شاهدت لباسي ، أما شممت نشر عطري ؟ أما راعك شيئا من أمري ، أتميز به في نفسك عن غيري ؟ وهو في أثناء ما أكلمه يقول : خفض عليك ! أرفق ! استأن(8) : فأصحب(9) جانبي بعض الأصحاب ، ولان شماسي(10) بعض الليان ، وأقبل على وأقبلت عليه ساعة ، ثم قلت : أشياء تختلج في صدري من شعرك أحب أن أراجعك فيها ! قال : وما هي ؟ قلت : خبرني عن قولك :

فإن كان بعض الناس سيف لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

أهكذا يمدح الملوك ؟ ! وعن قولك :

ولا من في جنازتها تجار يكون وداعها نفض النعال

---

(1) التنمر : التشبه بالنمر ، والنمر لا يلقى إلا متنكرا غضبان .
(2) القاع : أرض سهلة مطمئنة .
(3) ما نفاه السيل من الزبد .
(4) يضرب مثلا للرجل يدخل نفسه في قوم ليس منهم ، والقرعى من الفصال : الذي أصابها قرع وهو بثر ، والاستنان : النشاط .
(5) مثل يضرب للذي يكثر الكلام ولا يعمل ، وللذي يعد ولايفي ، والجعجعة : صوت الرحى ونحوها ، والطحن : الدقيق .
(6) عصب : جف .
(7) استشراء : لجاجة وعنادا .
(8) استأن : لا تعجل .
(9) أصحب جانبي : انقاد .
(10) شماسي : امتناعي وإبائي .

أهكذا تؤبن أخوات الملوك[1] ؟ والله لو كان هذا فى أدنى عبيدها لكان قبيحا ! وأخبرنى على قولك :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع ... فإن لحت ذابت فى الخدور العواتق[2]

هكذا تنسب بالمحبوبين ؟ وعن قولك :

وإذا أشار محدثا فكأنه ... قرد يقهقه أو عجوز تلطم

أما كان لك فى أفانين الهجاء التى تصرفت فيها الشعراء مندوحة عن هذا الكلام الرذل ينفر عنه كل طبع ، ويمجه كل سمع ؟ وعن قولك :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم ... إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

أفتعلم مرئيا يتناوله النظر لا يقع عليه اسم شىء ؟ وما أراك نظرت إلا إلى قول جرير :

مازلت تحسب كل شىء بعدهم ... خيلا تكر عليهم ورجالا

فأحلت المعنى عن جهته ، وعبرت عنه بغير عبارته ؛ وعن قولك :

أليس عجيبا أن وصفك معجزا ... وأن ظنونى فى معاليك تظلع[3]

فاستعرت الظلع لظنونك ، وهى استعارة قبيحة ! وتعجبت من غير متعجب ؛ لأن من أعجز وصفه لم يستنكر قصور الظنون وتحيرها فى معاليه ، وإنما نقلته وأنشدته من قول أبى تمام :

ترقت مناه طود عز لو ارتقت ... به الريح فترا[4] لا نثنت وهى ظالع

وعن قولك تمدح كافورا :

فإن نلت ما أملت منك فربما ... شربت بماء يعجز الطير ورده

إنها مدح أو ذم ؟ قال : مدح! قلت : إنك جعلته بخيلا لا يوصلك إلى خيره من جهته ، وشبهت نفسك فى وصلك إلى ما وصلت إليه منه بشربك من ما ء يعجز الطير ورده ، لبعده وترامى موضعه !

---

[1] المعروف أن هذا البيت من قصيدة المتنبى فى رثاء والدة سيف الدولة وأولها : نعد المشرفية والعوالى .

[2] العواتق : جمع عاتقة : الجارية أول ما أدركت . والخدور : الستور .

[3] الظلع : الغمز فى المشى .

[4] الفتر : ما بين طرف الابهام وطرف الشيرة .

وأخبرني أيضا عن قولك في صفة كلب وظبي :

وصار ما في جلده في المرجل   فلم يضرنا معه فقد الأجدل[1]

فأي شيء أعجبك من هذا الوصف ؟ أعذوبة عبارته ؟ أم لطف معناه ؟ أما قرأت رجز[2] ابن هانيء وطرد[3] ابن المعتز ؟ أما كان هناك من المعاني التي ابتدعها هذان الشاعران وغرر المعاني التي اقتضباها ما تتشاغل به عن بنيات صدرك هذه ؟ وإلا اقتصرت على ما في أرجوزتك هذه من الكلام السليم ، ولم تسف إلى هذه الألفاظ القلقة والأوصاف المختلفة ؟ فأقبل علي ، ثم قال : أين أنت من قولي :

كأن الهام[4] في الهيجا عيون   وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الأسنة من هموم   فما يخطرن إلا في الفؤاد

وأين أنت من قولي في صفة جيش :

في فيلق[5] من حديد لو رميت به   صرف الزمان لما دارت دوائره

وأين أنت من قولي :

لو تعقل الشجر التي قابلتها   مدت محيية إليك الأغصنا

وأين أنت من قولي :

أيقدح[6] في الخيمة العذل   وتشمل من دهرها يشمل
وما اعتمد الله تقويضها[7]   ولكن أشار بما تفعل

وفيها أصف كتيبة :

وململومة[8] زرد ثوبها   ولكنه بالقنا مخمل

وأين أنت عن قولي :

الناس ما لم يروك أشباه   والدهر لفظ وأنت معناه

---

[1] الضمير في جلده للظبي ، والمرجل : القدر من النحاس ، والضمير في معه للكلب ، والأجدل : الصقر .
[2] الرجز : ضرب من الشعر ووزنه مستفعلن ست مرات .
[3] الطرد : مزاولة الصيد ، وهو يريد ما قيل فيه من الشعر .
[4] الهام جمع هامة ، والهيجاء من أسماء الحرب وطبع السيف طرقه .
[5] الفيلق : الجيش ، وجعله من حديد لكثرة ما عليه ممن الدروع ، وصرف الزمان : حدثانه .
[6] ضربت خيمة لسيف الدولة فسقطت من ريح هبت .
[7] تقويضها : هدمها ، واعتمد الأمر : قصده.
[8] ملمومة مجموعة مضمومة والمخمل ما جعل له خمل ، وهو هدب القطيفة ونحوها .

والجـــود عـــين وأنـــت ناظـــرها والـــبأس بـــاع وأنـــت يمـــناه

أما يليهك إحسانى فى هذه عن أساءتى فى تلك ؟

قلت : ما أعرف لك إحسانا فى جميع ما ذكرته ! إنما أنت سارق متبع ! وآخذ مقصر ، وفيما تقدم من هذه المعانى التى ابتكرها أصحابها مندوحة عن التشاغل بقولك ! فأما قولك :

كـأن الهـام فـى الهـيجا عـيون وقـد طبعـت سـيوفك مـن رقـاد

فهو منقول من بيت منصور النميرى :

فكأنمـا وقـع الحسـام بهامـه خـدر المنـية أو نعـاس الهـاجع

وأما قولك :

فى فيلقى من حديد لو رميت به صـرف الـزمان لمـا دارت دوائـره

فنقلته نقلا لم تحسن فيه ، من قول الناجم :

ولى فـى حـامد أمـل بعـيد ومـدح قـد مدحـت بـه طـريف
مديـح لـو مدحـت بـه الليالى لمـا دارت عـلى لهـا صـروف

والناجم إنما نظمه من قول أرسطاليس : قد تكلمت بكلام لو مدحت به الدهر لما دارت على صروفه .

وأما قولك :

لـو تعقـل الشـجر الـتى قابلـتها مـدت محيـية إلـيك الأغصـنا

فهذا معنى متداول ، تساجلته[1] الشعراء ، وأكثرت فيه ، فمن ذلك قول الفرزدق :

يكـاد يمسـكه عـرفان راحـته ركـن الحطـيم إذا مـا جـاء يسـتلم

ثم تكرر فى أفواه الشعراء ، إلى أن قال أبو تمام :

لـو سـعت بقعـة لا عظـام أخـرى لسـعى نحوهـا المكـان الجديـب

وأخذه البحترى فقال :

لـو أن مشـتاقا تكلـف فـوق مـا فـى وسـعه لمشـى إلـيك المنـبر

---

[1] تساجلته : تبارت فيه .

وأما قولك :

ومـــا اعـــتمد الله تقويضـــها   ولكـــن أشـــار بمـــا تفعـــل

فقد نظرت فيه إلى قول رجل مدح بعض الأمراء بالموصل ، وقد كان عزم على السير فاندق لواؤه ، فقال :

مـا كـان مـندق اللـواء لريـبة   تخشـى ولا أمـر يكـون مـزيلا[1]
لكـن لأن العـود ضـعف متـنه   صـغر الولايـة فاسـتقل الموصـلا

وأما قولك :

ومـــــلمومة زرد ثوبهـــــا   ولكـــنه بالقـــنا مخمـــل

فمن قول أبي نواس :

أمـام خمـيس[3] أرجـوان كأنـه   قمـيص محـوك مـن قـنا وجـياد[2]

وأما قولك :

الـناس مـالم يـروك أشـباه   والدهـر لفـظ وأنـت معـناه

فمن قول علي بن نصر بسام في عبيد الله بن سليمان يرثيه : (ويروى لابن المعتز) :

قـد استوى الـناس ومـات الكمـال   وصاح صرف الدهر : أين الرجال ؟
هـذا أبـو القاسـم فـي نعشـه   قوموا انظروا كيف تزول الجبال

فقوله : قد استوى الناس ، ومات الكمال ..... هو قولك : الناس ما لم يروك أشباه !

فقال : بعض الحاضرين : ما أحسن قوله : قوموا انظروا كيف تزول الجبال ؟
فقال : أبو الطيب : اسكت ! ما فيه من حسن ، ألم يسرقه من قول النابغة الذبياني .

يقولـون حصـن ثـم تـأبى نفوسـهم   وكـيف بحصـن والجـبال جـنوح ؟

قال الحاتمي ، فقلت : قد سرقه النابغة من أوس حين قال :

ألم تكســف الشــمس الــنهار   والــبدر للقمــر الواجــب[1]
لفقــد فضــالة لا يســتوى القــ   ــعود ولا خلــة الذاهــب

---

[1] زيله : فرقه .
[2] جمع جيد : المدرعة الصغيرة .
[3] الخميس : الجيش .

ثم قلت : والله لئن كان أخذه فقد أحسن ، وأخفى الأخذ فقال الرجل : أجل ، فقال المتنبى : يا محمد خذ بيده، وأخرجه - يريد بمحمد ابنه - فرجعت إلى أن تركه ، ثم قلت له : وأما قولك : الدهر لفظ وأنت معناه .. فمنقول من قول الأخطل - إن كان البيت له - فى عبد الملك ابن مروان :

وإن أمير المؤمنين وفعله   لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

وقد قال جرير حين قال الفرزدق :

فإنى أنا الموت الذى هو نازل   بنفسك فانظر كيف أنت تحاوله

وقال جرير :

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد   فجئنى بمثل الدهر شيئا يطاوله

ثم قلت : أترى أن جريرا أخذ قوله " يفنى الموت " من أحد ؟ وأن أحدا شركه فى إفناء الموت ؟ ففكر طويلا ، ثم قال : لا ! قلت : بلى ! عمران بن حطان حيث يقول :

لن يعجز الموت شىء دون خالقه   والموت فإن إذا ما ناله الأجل
وكل كرب أمام الموت متضع   بالموت ، والموت فيما بعده جلل

فأمات الموت ، وأحياه ، وما سبقه إلى ذلك أحد ثم قلت له : أترى إن البيت المتقدم ، الذى يقول فيه :

وإن أمير المؤمنين وفعله   لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

مأخوذ من أحد ؟ فأطرق هنيهة ، ثم قال : وما تصنع بهذا ؟ قلت : يستدل على موضعك ، ومواضع أمثالك من سرقة الشعر ! فقال : الله المستعان ، أساء سمعا فأساء إجابة ! ما أردت ما ذهبت إليه ، قلت : فإنه أخذه من قول النابغة ، وهو أول من ابتكره :

وعيرتنى بنو ذبيان خشيته   وما على بأن أخشاك من عار

ثم أخذه أبو تمام فأحسن بقوله :

خشعوا لصولتك التى هى فيهم   كالموت يأتى ليس فيه يعار

---

(1) الواجب : الغائب .

قال : ومن أبو تمام ؟ قلت : الذى سرقت شعره . فأنشدته . قال : هذه خلائق السفهاء . لا خلائق العلماء . قلت : أجل ! أنت سفهت رأيي ولم يكن سفيها . ألست القائل :

ذى المعالى فليعلون من تعالى ... هكذا هكذا وإلا فلالا

شرف ينطح الثريا بروقيـ[1] ـه وفخر يقلقل الأجبالا

قال : بلى ! قلت : فإنك أخذت البيت الأول من بيت بكر بن النطاح :

يتلقى الندى بوجه حيى ... وصدور القنى بوجه وقاح

هكذا هكذا تكون المعالى ... طرق الجد غير طرق المزاح

وأخذت البيت الثانى فأنشدته من قول أبى تمام :

همة تنطح الثريا وجد ... آلف للحضيض فهو حضبض

قال : وبأى شىء أفسدته ؟ قلت : بأن جعلت للشرف قرنا . قال : وأنى لك بذلك ؟ قلت : ألم تقل : ينطح السماء بروقيه ؟ والروقان : القرنان ؟ قال : أجل ! إنما هى استعارة ، قلت : نعم ! هى استعارة خبيثة .

قال : أقسمت غير محرج فى قسمى أننى لم أقرأ شعرا قط لأبى تمامكم هذا! فقلت : هذه سوءة لو سترتها كان أولى ! قال : السوءة قراءة شعر مثله : أليس هو القائل :

خشنت عليه أخت بنى خشين ... وأنجح فيك قول العادلين

والذى يقول :

لعمرى لقد حررت يوم لقيته ... لو أن القضاء وحده لم يبرد

والذى يقول :

تكاد عطاياه يجن جنونها ... إذا يعوذها[2] بنغمة طالب

والذى يقول :

تسعون ألفا كآساد الشرى[3] نضجت ... أعمارهم قبل نضج التين والعنب

---

[1] الروقان : القرنان .

[2] يعوذها : يحفظها .

[3] الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها مثل .

والذى يقول :

ولى ولم يظلم وهل ظلم امرؤ ... حث النجاء[1] وخلفه التنين

والذى يقول :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا ... فكأنما لبس الزمان الصوفا

والذى يقول :

أقول لقرحان من البين لم يصب ... رسيس[2] الهوى بين الحشا والترائب

ما قرحان البين ؟ أخزي الله لسانه ! فأحفظنى[3] ذلك وقلت : يا هذا من أدل الدليل على أنك قرأت شعر هذا الرجل تتبعك مساويه ؛ فهل فى الدلالة على اختلافك إنكاره أوضح مما ذكرته ؟ وهل يصم أبا تمام أو يسمه بميسم النقيصة ما عددته من سقطاته ، وتخونته[4] من أبياته ، وهو الذى يقول فى النونية :

نوالك رد حسادى فلولا ... وأصلح بين أيامى وبينى

فهلا اغتفرت الأول لهذا البيت الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ، وأما قوله :

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت ... أعمارهم قبل نضج التين والعنب[5]

فلهذا البيت خبر لو استقريت صحفة لأقصرت عما تناولته بالطعن فيه ، ثم قصصت الخبر ، وقلت : فى هذه القصيدة ما لا يستطيع أحد من متقدمى الشعراء وأمراء الكلام وأرباب الصناعة أن يأتى بمثله ، قال : وماهو ؟ لو قال قائل : إن أحدا لم يبتدى بأوجز ولا أحسن ولا أخصر من قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حدة الحد بين الجد واللعب

لما عنف فى ذلك ، وفيها يقول :

رمى بك الله برجيها فهدمها ... ولو رمى بك غير الله لم يصب

---

[1] النجاء : السرعة فى المشى .

[2] رسيس الهوى : بقيته وأسره .

[3] فأحفظنى : فأغضبنى .

[4] تخونته : تنقصته .

[5] أى أن جيش العدو كان تسعين ألفا حل أجليهم قبل أن ينضج التين والعنب وفى هذا تهكم بالمنجمين .

وفيها يقول :

فتح تفتح أبواب السماء له   وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وفيها يقول :

بكر فما افترعتها كف حداثة   ولا ترقت إليها همة النوب

وفيها يقول :

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى   يشله[1] وسطها صبح من اللهب

حتى كان جلابيب الدجى رغبت   عن لونها وكأن الشمس لم تغب

وفيها يقول :

أجبته معلنا بالسيف منصلتا   ولو أجبت بغير السيف لم تجب

وأما قوله : أقول لقرحان من البين .. فإنه يريد رجلا لم يقطعه أحبابه ولم يبينوا عنه قبل ذلك ، إذا كانت حاله كذلك كان موقع البين أشد عليه وأفت في عضده ، والأصل في هذا : أن القرحان الذي لم يجدر[2] قط ، وقد قال جرير :

وكنت من زفرات البين قرحانا

وفي هذه القصيدة من المعاني الرائعة والتشبيهات الواقعة والاستعارة البارعة ما يغتفر معه هذا البيت وأمثاله ، على أنا أبنا عن صحة معناه وعن أمثاله فمن ذلك :

إذا العيس لاقت بي أبا دلف فقد   تقطع ما بيني وبين النوائب

يرى أقبح الأشياء أوبة آمل   كسته يد المأمول حلة خائب

وأحسن من نور يفتحه الندى   بياض العطايا في سواد المطالب

ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت[3]   حياضك منه العصور الذواهب

ولكنه فيض العقول إذا انجلت   سحائب جود أعقبت بسحائب

فبهره ما أوردته مما قصر عنان عبارته ، وحبس بنيات صدره ، وعقل عن الإجابة لسانه ، وكاد يشغب[4] لولا ما تخوفه من عاقبة شغبه ، ما عرفه من مكاني في تلك الأيام ، وأن ذلك لا يتم له ، فما زاد على أن قال قد أكثرت من أبي تمام

---

(1) أي يطرده .

(2) أي لم يصب بالجدري .

(3) ماقرت : ما جمعت .

(4) يشغب : يهيج الشر .

لاقدس الله أبا تمام وذويه ! قلت : ولا قدس السارق منه والواقع فيه ، ثم قلت له : ما الفرق – فى كلام العرب – بين التقديس والقداس والقادس ؟ فقال : وأى شىء عرضك فى هذا ؟ فقلت : المذاكرة ! فقال بل المهاترة[1] ! ثم قال : التقديس: التطهير فى كلام العرب ، ولذلك سمى القدس قدسا لأنه يشتمل على الذى به الطهور ، وكل هذه الأحرف تؤول إليه ، فقلت : ما أحسبك أنعمت النظر فى شىء من علوم العرب ، ولو تقدمت منك مطالعة لها ما استجزت أن تجمع بين معانى هذه الكلمات مع تباينها ، وذلك لأن القداس بتشديد الدال : حجر يلقى فى البئر ليعلم بها غزارة مائها من قلته ، حكى ذلك ابن الأعرابى ، والقداس : الجمان حكى ذلك الخليل ، والقادس : الفينة قال الشاعر يصف ناقة :

وتهفـــو بهـــاد لهـــا مـــتلع[3] كمـا اقـتحم القـادس الأردمونـا[2]

فلما علوته بالكلام قال : يا هذا مسلمة إليك اللغة ! قلت : وكيف تسلمها وأنت أبو عذرها[4] وأولى الناس بالتحقق بها والتوسع فى اشتقاقها والكلام على أفانينها ؟ وما أحد أولى بأن يسأل عن لغته منك ، فشرعت الجماعة الحاضرة فى إعفائه وقبول عذره والتواطؤ[5] له . وقال كل منهم : أنت أولى بالمراجعة والمياسرة لمثل هذا الرجل من كل أحد ، وكنت قد بلغت شفاء نفسى ، وعلمت أن الزيادة على الحد الذى انتهيت إليه ضرب من البغى ، لا أراه فى مذهبى ، ورأيت له حق القدمة[6] فى صناعته ، فطأطأت له كتفى ، واستأنفت جميلا من وصفه ونهضت.

فنهض لى مشيعا إلى الباب حتى ركبت وأقسمت عليه أن يعود إلى مكانه ، وتشاغلت بقية يومى بشغل عن لى ، تأخرت معه عن حضرة المهلب ، وانتهى إليه الخبر ، وأتتنى رسله ليلا فأتيته فأخبرته بالقصة ، فكان سروره وابتهاجه بما جرى مما بعثه على مباكرة معز الدولة قائلا له : أعلمت ما كان من فلان والمتنبى ؟ قال : نعم ! قد شفى منه صدورنا !

---

[1] المهاترة : المسابة بالقبيح من القول .
[2] الأردمون : جمع أردم : وهو الملاح الحاذق .
[3] من أتلع فلان : مد عنقه متطاولا .
[4] أبو عذرها : يريد ممهد سبيلها .
[5] أى موافقته .
[6] القدمة : التقدم .

وهذه سرقات شعرية نفاضل من ثناياها بين الشعراء ، قال النابغة :

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقه — عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله — إذا ما التقى الجمعان أول غالب

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثا ، وأوردوه بضرب من العبارات فقال أبو نواس :

تتمنى الطير غزوته — ثقة باللحم من جزره

وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها — فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وقال أبو تمام :

وقد ظللت أعناق أعلامه ضحى — بعقبان طير فى الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها — من الجيش إلا إنها لم تقاتل

وقد ذكر هذا المعنى غير هؤلاء إلا أنهم جاءوا بشيء واحد لا تفاضل بينهم فيه إلا من جهة حسن السبك ، أو من جهة الإيجاز فى اللفظ ، ولم نر أحدا أغرب فى هذا المعنى فسلك هذا الطريق مع اختلاف مقصده إليها إلا مسلم بن الوليد فقال :

أشربت أرواح العدا وقلوبها — خوفا فأنفسها إليك تطير
لو حاكمتك فطالبتك بذحلها — شهدت عليك ثعالب ونسور

فهذا من المليح البديع الذى فضل به مسلم غيره فى هذا المعنى ، وكذلك فعل أبو الطيب فإنه لما انتهى الأمر إليه سلك هذا الطريق التى سلكها من تقدمه إلا أنه خرج فيها على غير المقصد الذى قصدوه فأغرب وأبدع وحاز الإحسان بجملته . وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره ، فمما جاء منه قوله له :

تفدى أتم الطير عمرا سلاحه — نسور الملا أحداثها والقشاعم
وما ضرها خلق بغير مخالب — وقد خلقت أسيافه والقوائم

ثم أراد هذا المعنى فى موضع آخر من شعره فقال :

سحاب من العقبان ترجف تحتها — سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه

وهذا معنى قد حوى طرفي الإغراب، والإعجاب ، وقال في موضع آخر :

وذي لجب لاذو الجناح أمامه ... بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهي ضعيفة ... تطالعه من بين ريش القشاعم
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة ... تدور فوق البيض مثل الدراهم

وهذا من إعجاز أبي الطيب المشهور ، ولو لم يكن له من الإحسان في شعره الا هذه الأبيات ، لا ستحق بها فضيلة التقدم .

وقال أبو تمام :

فتى لا يرى أن الفريصة مقتل ... ولكن يرى أن العيوب مقاتل[1]

وقال أبو الطيب المتنبي :

يرى أن ما بان منك لضارب ... بأقتل مما بان منك لعائب

فهو وإن لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة ، ومثاله في ذلك كمن أودع الوشي شملا ، وأعطى الورد جعلا ، وهذا من أرذل السرقات ، وعلى نحو منه جاء قول عبد السلام بن رغبان[2] :

نحن نعزيك ومنك الهدى ... مستخرج والصبر مستقبل
نقول بالعقل وأنت الذي ... نأوي إليه وبه نعقل
إذا عفا عنك أودى بنا الدهر ... فذاك المحسن المجمل

أخذه أبو الطيب فقلب أعلاه أسفله فقال :

إن يكن صبر ذي الرزية فضلا ... تكن الأفضل الأعز الأجلا
أنت يا فوق أن تعزى عن الأحباب فوق الذي يعزيك عقلا
وبألفاظك اهتدى فإذا عزاك ... قال الذي له قلت قبلا

والبيت الأخير من هذه الأبيات هو الآخر قدرا وهو المخصوص بالمسخ ، وأما قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة ، فإن لا يسمى سرقة بل يسمى إصلاحا وتهذيبا ، فمن قول أبي الطيب المتنبي :

لو كان ما تعطيهم من قبل أن ... تعطيهم لم يعرفوا التأميلا

وقول ابن نباتة السعدي :

---

[1] الفريصة واحدة الفرائص : أوداج العنق ، أو هي اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترعد ، وعلى كلا المعنيين فهي من المقاتل .

[2] المعروف بديك الجن .

لم يبق جودك لى شيئا أؤمله | تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

وعلى هذا النحو ورد قول أبى نواس فى أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان فقال من جملتها :

جن على جن وإن كانوا بشر | كأنما خيطوا عليها بالإبر

ثم جاء المتنبى فقال :

فكأنها نتجت قياما تحتهم | وكأنهم ولدوا على صهواتها

وبين القولين كما بين السماء والأرض ، فإنه ليس للأرض إلى السماء نسبة محسوسة وكذلك يقال ها هنا أيضا ، فإنه بقدر ما فى قول أبى نواس من النزول والضعف ، فكذلك فى قول أبى الطيب من العلو والقوة .

مع الشعراء المحدثين

١ - مدح رؤبة بن العجاج[1] عقبة بن مسلم بأرجوزة من أراجيزه وبشار حاضر يسمعه . فاستحسن ذلك من رؤبة ، فقال له رؤبة : هذا طراز لاتحسنه أنت يا أبا معاذ. وكان رجزهم فى ذلك الوقت يتأثر بطريقتهم البدوية إلى غايتها فى إيثار الغريب، فتأثر بشار من ذلك ، وأنشأ أرجوزة فى مدح عقبة بن مسلم يعارض بها أرجوزة رؤبة ، وهى:

يا طلل الحى بذات الصمد | بالله خبر كيف كنت بعدى

أحسنت من دعد وترب دعد | سقيا لأسماء ابنة الأشد

قامت ترانى إذ رأتنى وحدى | كالشمس تحت الزبرج المنقد

إلى أن قال فى مدح عقبة :

أسلم وحييت أبا الملد | مفتاح باب الحدث المنسد

مشترك النيل ورى الزند | أغر لباس ثياب الحمد

لله أيامك فى معد | وفى بنى قحطان غير عد

كل امرىء رهن بما يؤدى | ورب ذى تاج كريم الجد

كآل كسرى وكآل برد | أنكب جاف عن سبيل القصد

فصلته عن ماله والولد

---

[1] فى كتاب الشعر والشعراء عقبة بن رؤبة .

٢- وروى عن الأصمعى أنه قال : كان أبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر يأتيان بشارًا فيسلمان عليه بغاية الإعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ، ثم ينصرفان ، فأتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قتيبة ؟ قال هى التى بلغتكما ، قالا بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم ، إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالا فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما:

بكـــرا صـــاحبى قـــبل الهجـــير ... إن ذاك الـــنجاح فـــى التـــبكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : يا أبا معاذ لو قلت مكان " إن ذاك النجاح " " بكرا فالنجاح " كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت " إن ذاك النجاح " كما يقول الأعراب البدويين ،ولو قلت " بكرا فالنجاح " كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل فى معنى القصيدة ، فقام خلف فقبل بين عينية .

٣- وحدث هارون بن سعدان قال : كنت مع أبى نواس فى بعض طرق بغداد ، وجعل الناس يمرون به وهو ممدود الرجل ، بين أبى هاشم وفتيانهم ، والقواد وأبناءهم ، ووجوه أهل بغداد ، فكل يسلم عليه فلا يقوم إلى أحد منهم ،ولا يقبض رجله إليه ، إذ أقبل شيخ راكبا على حمار ، وعليه ثوبان دبيقيان : قميص ورداء ، قد تقنع ورده على أذنيه ، فوثب إليه أبو نواس ، وأمسك الشيخ عليه حماره ، واعتنقا ، وجعل أبو نواس يحادثه وهو قائم على رجليه فمكثا بذلك مليا، حتى رأيت أبا نواس يرفع إحدى رجليه ويضعها على الأخرى ، مستريحًا من الإعياء ، ثم انصرف الشيخ ، وأقبل أبا نواس فجلس فى مكانه ، فقال له بعض من بالحضرة : من هذا الشيخ الذى رأيتك تعظمه هذا الإعظام ؟ وتجله هذا الإجلال ، فقال : هذا إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية ، فقال له السائل : لم أجللته هذا الإجلال؟ وساعة منك عند الناس أكثر منه ، قال : ويحك لا تفعل فو الله ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوى ، وأنا أرضي .

٤- قال سلم الخاسر : صار إلى أبو العتاهية ، فقال : جئتك زائرا ، فقلت : مقبول منك، ومشكور أنت عليه ، فأقم ، فقال : إن هذا مما يشتد على ، قلت : وأنا أضحك وأعجب عن مكابرته ، " رمتنى بدائها وانسلت " . فقال : دعنى من هذا واسمع منى أبياتا ، فقلت مات ،` فأنشدنى :

نغــص المــوت كــل لــذة عــيش ... يــا لقومــى لــلموت مــا أوحــاه

عجبا إنه إذا مات ميت   صد عنه حبيبه وجفاه
حيثما وجه امرؤ ليفوت الـ   ـموت فالموت واقف بحذاه
إنما الشيب لابن آدم ناع   قام فى عارضيه ثم نعاه
من تمنى المنى فأغرق فيها   مات من قبل أن ينال مناه
ما أذل المقل فى أعين الناس   لإقلاله وما أقماه
إنما تنظر العيون من النا   س إلى من ترجوه أو تخشاه

ثم قال لى : كيف رأيتها ؟ فقلت له : لقد جودتها لو لم تكن سوقية ، قال : والله ما يرغبنى فيها إلا الذى زهدك فيها .

٥- وذكر ابن رشيق أبا العتاهية فيمن كان يذهب إلى سهولة اللفظ ، ويعنى بها مع الإجادة وملاحة القصد ، وأنه اجتمع يوما مع أبى نواس والحسين بن الضاحك الخليع ، فقال أبو نواس : لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه فى مراده ، من غير مدح ولا هجاء ، فأنشد أبو العتاهية :

يا إخوتى إن الهوى قاتلى   فسيروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا فى اتباع الهوى   فإننى فى شغل شاغل
عينى على عتبة منهلة   بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلى قتيلا بكى   من شدة الوجد على القاتل
بسطت كفى نحوكم سائلا   ماذا تردون على السائل
إن لم تنيلوه فقولوا له   قولا جميلا بدل النائل
أو كنتم العام على عسرة   من فمنوه إلى قابل

فسلما له وامتنع من الإنشاد بعده ، وقالا به : أما مع سهولة هذه الألفاظ ، وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارات ، فلا تنشد شيئا ، قال ابن رشيق : وذلك فى بابه من الغزل جيد أيضا ، لا يفضله غيره .

٦- وحدث عبد الله بن الحسن قال : جاءنى أبو العتاهية وأنا فى الديوان ، فجلس إلى فقلت : يا أبا إسحاق أما يصعب عليك شىء من الألفاظ ، فتحتاج فيه فى استعمال الغريب ، كما يحتاج إليه سائر من يقول الشعر ، أو إلى ألفاظ مستكرهة قال : لا ، فقلت له : إنى لأحسب ذلك من كثرة ركوبك القوافى السهلة ؟ قال : فاعرض على ما شئت من القوافى الصعبة ، فقلت : قل أبياتا على مثل البلاغ ، فقال : من ساعته :

أى عيش يكون أبلغ من عيـ   ـش كفاف قوت بقدر البلاغ

صاحب البغي ليس يسلم منه ... وعلى نفسه بغى كل باغ
رب ذي نعمة تعرض منها ... حائل بينه وبين المساغ
أبلغ الدهر في مواعظة بل ... زاد فيهن لي على الابلاغ
غبتني الأيام عقلي ومالي ... وشبابي وصحتي وفراغي

٧- وقال مسعود المازني : لقيت ابن مناذر بمكة ، فقلت له : من أشعر أهل الإسلام ؟ فقال : أترى من إذا شئت هزل ، وإذا شئت جد ؟ قلت من ! قال : مثل جرير حين يقول في النسيب :

غيضن من عبراتهن وقلن لي ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا

ثم قال حين جد :

إن الذي حرم المكارم تغلبا ... جعل النبوة والخلافة فينا
مضر أبي وأبوك الملوك فهل لكم ... يا آل تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمي في دمشق خليفة ... لو شئت ساقكم إلى قطينا

ومن المحدثين في هذا الخبيث الذي يتناول الشعر من كمه ، فقلت من ؟ قال أبو العتاهية ، قلت في ماذا ؟ قال قوله :

الله بيني وبين مولاتي ... أبدت لي الصد والملالات
لا تغفر الذنب إن أسات ولا ... تقبل عذري ولا مواتاتي
منحتها مهجتي وخالصتي ... فكان هجرانها مكافاتي
أقلقني حبها وصيرني ... أحدوثة في جميع جاراتي

ثم قال حين جد :

ومهمه قد قطعت طامسه ... قفر على الهول والمحاماة
بحسرة جسرة عذافرة ... خوصاء عيرانة علنداة
تبادر الشمس كلما طلعت ... بالسير تبغي بذاك مرضاتي
يا ناق خبي بنا ولا تعدي ... نفسك مما ترين راحات
حتى تناخي بنا إلى ملك ... توجه الله بالمهابات
عليه تاجان فوق مفرقه ... تاج جلال وتاج إخبات
يقول للريح كلما عصفت ... هل لك يا ريح في مباراتي
من مثل من عمه الرسول ومن ... أخواله أكرم الخؤولات

-ويوجد كثير غير ابن مناذر يشاركه هذا الرأى فى أبى العتاهية ، ومن ذلك بشار بن برد ، وقد سئل من أشعر أهل زمانه ؟ فقال : مخنث أهل بغداد ، يعنى أبا العتاهية .

٨- وقال بعض الأدباء : شهدت أبا العتاهية وأبا نواس فى مجلس ، فكان أبو العتاهية أسرع الرجلين جوابا عند البديهة ، وكان أبو نواس أسرعهما فى قول الشعر ، فإذا تعاطيا جميعا السرعة فضله أبو العتاهية ، وإذا توقفا وتمهلا فضله أبو نواس.

٩- وروى عن ابن أبى الأبيض أنه قال : أتيت أبا العتاهية ، فقلت له : إنى رجل أقول الشعر فى الزهد ، ولى فيه أشعار كثيرة ، وهو مذهب أستحسنه ، لأنى أرجو ألا آثم فيه ، وسمعت شعرك فى هذا المعنى ، فأحببت أن أستزيد منه ، فأحب أن تنشدنى من جيد ما قلت ، فقال : اعلم أن ما قلته ردىء ، قلت : وكيف ؟ قال : لأن الشعر ينبغى أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة ، فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة ، وأعجب الأشياء ما فهموه ، فقلت صدقت ، ثم أنشدنى قصيدته :

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصير إلى تباب
أيا موت لم أر منك بدا ... أتيت وما تحيف وما تحابى
كأنك قد هجمت على مشيبى ... كما هجم المشيب على شبابى

فعلم أبو نواس فقال : والله ما أحسب فى شعره مثل ما أنشدك بيتا آخر ، فصرت إليه فأخبرته بقول أبى نواس فأنشدنى قصيدته التى يقول فيها :

طول التعاشر بين الناس مملول ... ما لابن آدم إن فتشت معقول
يا راعى الشاة لا تغفل رعايتها ... فأنت عن كل ما استرعيت مسئول
إنى لفى منزل مازلت أعمره ... على يقين بأنى عنه منقول
وليس من موضع يأتيه ذو نفس ... إلا وللموت سيف فيه مسلول
لم يشغل الموت عنا مذ أعد لنا ... وكلنا عنه باللذات مشغول
ومن يمت فهو مقطوع ومجتنب ... والحى ما عاش مغشى وموصول
كل ما بدا لك فالآكال فانية ... وكل ذى أكل لابد مأكول

قال : ثم أنشدني عدة قصائد ما هي بدون هذه ، فصرت إلى أبي نواس فأخبرته ، فتغير لونه ، وقال : لم أخبرته بما قلت ؟ قد والله أجاد ، ولم يقل فيها سواءًا.

١٠- اجتمع مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو الشيص ودعبل في مجلس فقالوا : لينشد كل واحد منكم أجود ما قاله من الشعر فاندفع رجل منهم كان معهم فقال : اسمعوا مني أخبركم بما ينشد كل واحد منكم قبل أن ينشد ، قالوا : هات ، فقال لمسلم : أما أنت يا أبا الوليد فكأني بك قد أنشدت :

إذا ما علت منا ذؤابة واحد ... وإن كان ذا حلم دعته إلى الجهل
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

فقال له مسلم : صدقت ، ثم أقبل على أبي نواس فقال له : كأني بك يا أبا علي قد أنشدت :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند ... واشرب على الورد من حمراء كالورد
تسقيك من عينها خمرا ومن يدها ... خمرا فما لك من سكرين من بد

فقال له : صدقت ، ثم أقبل على دعبل فقال : يا أبا علي فكأني بك تنشد قولك :

أين الشباب وأية سلكا ؟ ... لا أين يطلب ، ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى

قال : صدقت ، ثم أقبل على أبي الشيص فقال له : وأنت يا أبا جعفر كأني بك تنشد :

لا تنكري صدي ولا إعراضي ... ليس المقل عن الزمان براض

فقال : لا ، ما هذا أردت ولا هذا بأجود شيء قلته ، قالوا : فأنشدنا ما بدا لك ، فأنشدهم قوله :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ... متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمني اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم ... إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغرا ... ما من يهون عليك ممن يكرم

وقال أبو خالد العامري لابن المعتز : من أخبرك أنه كان في الدنيا أشعر من أبي الشيص فكذلك ، والله لكان الشعر عليه أهون من شرب الماء على العطشان ،

وكان من أوصف الناس للشراب وأمدحهم للملوك ، وليس توجد هذه الصفات كما ذكر في ديوان شعره ، ولا هو ساقط ، ولكن هذا سرف شديد .

١١- وقد أكثر أبو نواس من الثورة في شعره على منهج العرب في القصيدة وعاب عليهم بدءها بمساءلة الأطلال فقال :

صفة الطلول بلاغة القدم ... فاجعل صفاتك لابنه الكرم

وقال :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند ... واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقال :

سقيا لغير العلياء فالسند ... وغير أطلال مي بالجرد

وقال :

يا ربع شغلك إني عنك في شغل ... لا ناقتي فيك لو تدري ولا جملي

وقال :

تبكي على طلل الماضين من أسد ... لا در درك قل لي من بنو أسد
لا جف دمع يبكي على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

١٢- وقال بشار في تأييد إبراهيم بن عبدالله بن حسن حينما خرج على المنصور ، نعى فيها على المنصور استبداده في الرعية ، ونصح إبراهيم أن يقيم حكمه على أساس الشورى :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى ... ويصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج ... عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم ... وأمسى أبو العباس أحلام نائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى ... وكان لما أجرمت نزر الجرائم
فأصبحت تجري سادرا في طريقهم ... ولا تتقي أشباه تلك النقائم
تجردت للإسلام تعفو سبيله ... وتعرى معطاه لليوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدين أهله ... فعادوا عليك بالسيوف الصوارم

ثم التفت إلى إبراهيم فقال :

أقول لبسام عليه جلالة ... غدا أريحيا عاشقا للمكارم
إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهوينى للضعيف ولا تكن ... نئوما فإن الحر ليس بنائم

١٣- ومن روائع المحدثين فى الحكمة أرجوزة أبى العتاهية المزدوجة التى سماها ذوات الأمثال . وتبلغ فى الطول ما لم يبلغه شعر قبلها . ويقال إن فيها أربعة آلاف مثل . وقد قال أبو دلف محمد بن هاشم الخزاعى ، تذكروا يوما شعر أبى العتاهية بحضرة الجاحظ ، إلى أن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التى سماها ذوات الأمثال ، فأخذ بعض من حضر ينشدها ، حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابى ... روائح الجنة فى الشباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف ؛ ثم قال انظروا إلى قوله : " روائح الجنة فى الشباب " . فإن له معنى كمعنى الطرب الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير ، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه ، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى هذه الأبيات :

حسبك ما تبتغيه القوت ... ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا ... من اتقى الله رجا وخافا
هى المقادير فلمنى أو فذر ... إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
لكل ما يؤذى وإن قل ألم ... ما أطول الليل على من لم ينم
ما انتفع المرء بمثل عقله ... وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الفساد ضده الصلاح ... ورب جد جره المزاح
من جعل النمام عينا هلكا ... مبلغك الشر كباغيه لكا
إن الشباب والفراغ والجده ... مفسدة للمرء أى مفسده
يغنيك من كل قبيح تركه ... يرتهن الرأى الأصيل شكه
ما عيش من آفته بقاؤه ... نغص شيئا كله فناؤه
يا رب من اسخطنا بجهده ... قد سرنا الله بغير حمده
ما تطلع الشمس ولا تغيب ... إلا لأمر شأنه عجيب
لكل شىء معدن وجوهر ... وأوسط وأصغر وأكبر

مـن لـك بـالمحض وكـل ممـتزج ... وسـاوس والصـدر مـنه تعتـلج
وكـل شـىء لا حـق بجوهـره ... أصـغره متصـل بأكـبره
مـا زالـت الدنـيا لـنا دار أذى ... ممـزوجة الصـفو بـألوان القـذى
الخـير والشـر بهـا أزواج ... لـذا نـتاج ولـذا نـتاج
مـن لـك بـالمحض ولـيس محـض ... يخبـث بعـض ويطيـب بعـض
لكـل إنسـان طبيعـتان ... خـير وشـر وهمـا ضـدان
إنـك لـو تستنشـق الشـحيحا ... وجدتـه أنـتن شـىء ربحـا
والخـير والشـر إذا مـا عـدا ... بيـنهما بـون بعـيد جـدا
عجبـت حـتى غمـنى السـكوت ... صـرت كـأنى حائـر مـبهوت
كـذا قضـى الله فكـيف أصـنع ... الصـمت إن ضـاق الكـلام أوسـع

موازنات أدبية بين أعلام الشعراء

– ١ –

يقول صاحب المثل السائر ، إن مما تقع فيه المفاضلة أن يسلك الشاعران طريقا واحدة فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين ، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .

١ – فما جاء من ذلك قول أبى تمام فى مرثيته لولدين صغيرين :

مجـد تـأوب طارفـا حـتى إذا ... قلـنا أقـام الدهـر أصـبح راحـلا[1]
نجمـان شـاء الله ألا يطلعـا ... إلا ارتـداد الطـرف حـتى يـأفلا
إن الفجـيعة بالـرياض نواضـرا ... لأجـل مـنها بالـرياض ذوابـلا
لهفـى عـلى تلـك الشـواهد فـيهما ... لـو أخـرت حـتى تكـون شمـائلا
إن الهـلال إذا رأيـت نمـوه ... أيقنـت أن سـيكون بـدرا كـاملا
قـل للأمـير وإن لقيـت موقـرا ... مـنه يريـب الحادثـات حـلا حـلا[2]
إن تـرز فـى طـرفى نهـار واحـد ... رزأيـن هاجـا لوعـا وبـلا بـلا[3]
فالـثقل لـيس مضـاعفا لمطـية ... إلا إذا مـا كـان وهمـا بـازلا[4]

---

[1] تأوب أتى ليلا : والطارق الذى يأتى ليلا .
[2] " لقيت موقرا منه " تجريد : ويريب الحادثات يشككها : والحلاحل السيد الشجاع .
[3] ترز : سهلت همزته بالقلب ألفا ثم حذفت للجازم ، والبلابل الوساوس .
[4] الوهم الجمل الذلول فى ضخامة وقوة : والبازل الذى طلع نابه وذلك فى التاسعة من سنيه .

لا غــرو إن فنــنان مــن عــيدانه لقــيا حمامــا للــبرية آكــلا
إن الأشــاء إذا أصــاب مشــذب مــنه اتمهــل ذرا وأث أســافلا[1]
شمخت خلا لك أن يواسيك امرؤ أو أن تذكــر ناســيا أو غــافلا
إلا مواعــظ قادمــا لــك سمحــة إســجاح لــبك سـامعا أو قـائلا[2]
هــل تكلــف الأيــدى بهــز مهــند إلا إذا كــان الحســام القاصــلا[3]

وقال أبو الطيب فى مرثية لطفل صغير[4] :

فان نـك فـى قـبر فـإنك فـى الحشـا وإن تـك طفـلا فالأسـى ليس بالطفل
ومـثلك لا يـبكى عـلـى قـدر سـنه ولكـن عـلـى قـدر الفراسـة والأصـل
ألسـت مـن القـوم الـذى رمـاحهم نداهم ومـن قـتلاهم مهجـة البخل
بمولودهـم صـمت اللسـان كغـيره ولكـن فـى أعطافـه مـنطق الفصـل
تسـليهم علـياؤهم عـن مصـابهم ويشـغلهم كسـب الثـناء عـن الشـغل
عـزاؤك سـيف الدولـة المقـتدى بـه فـإنك نصـل والشـدائد للنصـل
تخـون المـنايا عهـده فـى سـليله وتنصـره بـين الفـوارس والـرجل
بنفسـى ولـيد عـاد مـن بعـد حملـه إلى بطـن أم لا تطـرق بـالحمل[5]
بـدا ولـه وعـد السـحابة بالـروى وصـد وفيـنا غلـة الـبلد المحـل[6]
وقـد مـدت الخـيل العـتاق عـيونها إلى وقت تبديل الركاب من النعل
وريـع لـه جـيش العـدو ومـا مشـى وجاشت لـه الحرب الضروس وما تغلى

فتأمل أيها الناظر إلى ما صنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد وكيف هام كل واحد منهما فى واد منه مع اتفاقهما فى بعض معانيه ، وسأبين ما اتفق فيه وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من المفضول فأقول : أما الذى اتفقا فيه فإن أبا تمام قال :

لهفـى عـلـى تلـك الشـواهد فـيهما لـو أخـرت حـتى تكـون شمـائلا

---

[1] أشاء النخل صغاره واحدته أشاءه : والمشذب مصلح الشجر بالقطع اتمهل اعتدل وارتفع ، وأث كثر والتف .
[2] الإسجاح : السماحة واللين .
[3] القاصل : القاطع .
[4] ابن لسيف الدولة يسمى عبد الله ويكمنى أبا الهيجاء .
[5] يريد بالأم هنا الأرض ومعنى لا تطرق بالحمل لا تخرج الولد من بطنها .
[6] الروى الماء الكثير يروى وينقع ، والغلة العطش .

وأما أبو الطيب فإنه قال :

بمولودهم صمت اللسان كغيره ... ولكن فى أعطافه منطق الفصل

فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ، ومنطق الفصل " . وقال أبو تمام :

نجمان شاء الله ألا يطلعا ... إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا

وقال أبو الطيب :

بدا وله وعد السحابة بالروى ... وصد وفينا غلة البلد المحل

فوافقه فى المعنى وزاد عليه بقوله " وصد وفينا غلة البلد المحل ". لأنه بين قدر حاجاتهم إلى وجودهم وانتفاعهم بحياته . وأما ما اختلفا فيه فإن أبا الطيب أشعر فيه من أبى تمام أيضاً ، وذاك أن معناه أمتن من معناه ومبناه أحكم من مبناه ، وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وتقدمه ، وأبو تمام وإن كان أشعر عندى من أبى الطيب فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع، وبيان ذلك أنه قد تقدم القول على ما اتفقا فيه فإن أبا الطيب قال :

عزاؤك سيف الدولة المقتدى به ... فإنك نصل والشدائد للنصل

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

إن ترز فى طرفى نهار واحد ... رزأين هاجا لوعة وبلابلا

فالثقل ليس مضاعفاً لمطية ... إلا إذا ما كان وهما بازلا

فإن قول أبى الطيب " والشدائد للنصل " أكرم لفظاً ومعنى من قول أبى تمام : إن الثقل إنما يضاعف للبازل من المطايا ، وقوله أيضاً :

تخون المنايا عهده فى سليلة ... وتنصره بين الفوارس والرجل

وهذا أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما :

لا غرو إن فننان من عيدانه ... لقيا حماما للبرية آكلا

إن الأشاء إذا أصاب مشذب ... منه اتمهل منه ذرا وأث أسافلا

وكذلك قال أبو الطيب :

ألست من القوم الذى من رماحهم ... نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

تسليهم علياؤهم عن مصابهم ... ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

وهذان البيتان خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

شمخت خلالك أن يواسيك أمرؤ ... أو أن تذكر ناسياً أو غافلا
إلا مواعظ قادها لك سمحة ... إسجاح لبك سامعا أو قائلا

٢- ومما ينتظم بهذا النوع ما توارد عليه أبو عبادة البحترى وأبو الطيب المتنبى . فى وصف الأسد ، وقصيدتاهما مشهورتان فأول إحدهما [1] :

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا ... خيال إذا ىب الظلام تأوبا

وأول الأخرى [2]

فى الخد إن عزم الخليط رحيلا ... مطر تزيد به الخدود محولا

أما البحترى فإنه ألم بطرف مما ذكر بشر بن عوانة فى أبياته الرائية التى أولها .

أفاطم لو شهدت ببطن خبت ... وقد لاقى الهزبر أخاك بشراً [3]

وهذه الأبيات من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثله ، وكل الشعراء لم تسم قرائحهم إلى استخراج معنى ليس بمذكور فيها ، ولولا خوف الإطالة لأوردتها بجملتها ، لكن الغرض إنما هو المفاضلة بين البحترى وأبى الطيب وفيما أورداه من المعانى فى هذا المقصد المشار إليه .

فما جاء للبحترى من قصيدته :

وما نقم الحساد إلا أصالة ... لديك وفعلا أريحيا مذهبا
وقد جربوا بالأمس منك عزيمة ... فضلت بها السيف الحسام المجربا
غداة لقيت الليث مخدر ... يحدد نابا للقاء ومخلبا
إذا شاء غادى عانة أو غدا على ... عقائل سرب أو تقنص ربربا [4]
شهدت لقد أنصفته يوم تنبرى ... له مصلتاً غاضباً من البيض مقضباً
فلم أر ضرغامين أصدق منكما ... عراكاً إذا الهيابة النكس كذباً [5]

---

[1] هى البحترى يمدح بها الفتح بن خاقان ويصف مبارزته الأسد .

[2] هى للمتنبى فى بدر بن عمار وكان قد هاج أسداً عن بقرة افترسها فوثب الأسد على كفل فرسه فأعجله بضربة من سوطه ودار به الجيش فقتل الأسد .

[3] ذكر البديع قصة بشر هذا فى الملح التى اختتم بها مقاماته وأثبت فيها القصيدة كاملة .

[4] العانة الأتان والقطيع من حمر الوحش . والسرب القطيع من الظباء والربرب القطيع من بقر الوحش .

[5] الهيابة الشديد الخوف ، والنكس بالكسر الضعيف .

هزيراً مشى يبغي هزيراً ، وأغلباً ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدل بشغب ثم هالته صولة ... رآك لها أمضى جنانا وأشغبا[1]
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً ... وأقدم لما يجد عنك مهربا
فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا ... ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف ، لا عزمك انثنى ... ولا يدك ارتدت ، ولا حده نبا

ومما جاء لأبى الطيب المتنبى فى قصيدته :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن أدخرت الصارم المصقولا [2]
ورد إذا ورد البحيرة شارباً ... ورد الفرات زئيره والنيلا[3]
متخضب بدم الفوارس لابس ... فى غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه إلا ظنتا ... تحت الدجى نار الفريق حلولا[4]
فى وحدة الرهبان إلا أنه ... لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفقا من تيهه ... فكأنه آس يجس عليلا[5]
ويرد غفرته إلى يافوخه ... حتى تصير لرأسه إكليلا[6]
قصرت مخافته الخطا فكأنما ... ركب الكمى جواده مشكولا[7]
ألقى فريسته وزمجر دونها ... وقربت قربا خاله تطفيلا
فتشابه القربان فى إقدامه ... وتخالفا فى بذلك المأكولا
أسد يرى عضويه فيك كليهما ... متنا أزل وساعدا مفتولا [8]
مازال يجمع نفسه فى زوره ... حتى حسبت العرض منه الطولا [9]
وكأنما غرته عين فادنى ... لا يبصر الخطب الجليل جليلا
أنف الكريم من الدنية تارك ... فى عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضاض وليس بخائف ... من حتفه من خاف مما قيلا

---

(١) الشغب بالفتح ويحرك تهييج الشر .
(٢) يقال عفره إذا رماه فى العفر بالتحريك وهو التراب والهزبر السىء الخلق .
(٣) الورد الجرىء والبحيرة التى يعنيها هنا بحيرة طبرية . والفرات والنيل معروفان ، وأولهما يقع إلى الشرق منها والثانى إلى الغرب .
(٤) الفريق الجماعة : أكثر من الفرقة ، وحلولا : حالين .
(٥) الآسى الطبيب .
(٦) الغفرة شعر العنق . واليافوخ أعلى الرأس .
(٧) الكمى الشجاع المستتر فى سلاحه ، وشكل الجواد ربطه بالشكال .
(٨) فسر فى العجز العضوين اللذين أرادهما فى الصدر . والأزل الممسوح القليل اللحم .
(٩) الزور عظم الصدر .

خذلـــته قوتـــه وقـــد كافحــته ... فاستنصـــر التســـليم والـــتجديلا[1]

سمــع ابـــن عمـــته بـــه وبحالـــه ... فمضـى يهـرول أمـس مـنك مهـولا

وأمـــر ممـــا فـــر مـــنه فـــراره ... وكقـــتله ألا يمـــوت قتـــيلا

تلـف الـذى اتخـذ الجـراءة خلـة ... وعـظ الـذى اتخـذ الفـرار خليلا

فمعانى أبى الطيب أكثر عددا وأسد مقصدا ، ألا ترى أن البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فى تشبيه بالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ، ولم يأت بشىء سوى ذلك . . وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك فى بيت واحد وهو قوله :

أمعفـــر الليـــث الهزبـــر بســـوطه ... لمـــن ادخـــرت الصـــارم المصـــقولا

ثم أنه تفنن فى ذكر الأسد فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله فى انفراده فى جنسه ، وفى هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته ، وشبه الممدوح به فى الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية ، التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، وأخرج ذلك فى أحسن مخرج وأبرزه فى أشرف معنى ، وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين ، عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه . والبحترى وإن كان أفضل من المتنبى فى صوغ الألفاظ وطلاوة السبك ، فالمتنبى أفضل منه فى الغوص على المعانى ، ومما يدلك على ذلك ، أنه لم يعرض لما ذكره بشر فى أبياته الرائية ، لعلمه أن بشرا قد ملك رقاب تلك المعانى واستحوذ عليها ، ولم يترك لغيره شيئاً يقوله فيها ؛ ولفطانة أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر لأنه قصر عنه تقصيراً كبيراً ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك هذه الطريقة وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزاً .

٣- واعلم أن من أبين البيان فى المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصد من المقاصد ، يشتمل على عدة معان كتوارد البحترى والمتنبى ها هنا على وصف الأسد ، وهذا أبين فى المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا فى بيت من الشعر أو فى بيتين ، ويصوغه الآخر فى مثل ذلك ، فإن بعد المدى يظهر ما فى السوابق من الجواهر ، وعنده يتبين ربح الرابح وخسر الخاسر . فإذا شئت أن تعلم فضل ما بين هذين الرجلين فانظر إلى قصيدتهما فى مراثى النساء التى مفتتح إحداهما :

---

[1] التجديل الانطراح على الأرض .

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب

وهي لأبي الطيب ، ومفتتح الأخرى :

غروب دمع من الأجفان ينهمل وحرقة بغليل الحزن تشتعل

وهي للبحتري فإن أبا الطيب انفرد بابتداع ما أتى به في معاني قصيدته والبحتري أتى بما أكثره غث بارد ، والمتوسط منه لا فرق فيه بين رثاء امرأة أو رجل. ومن الواجب أنه إذا سلك الناظر أو الناثر مسلكاً في غرض من الأغراض ألا يخرج عنه . كالذي سلكه هذان الرجلان في الرثاء بامرأة ، فإن حذاقة الصنعة أن يذكر هنا ما يليق بالمرأة دون الرجل ، وهذا الموضع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحك إلا أبو الطيب وحده ، وأما غيره من مفلقي الشعراء قديماً وحديثاً فإنهم قصروا عنه . وله في هذا المعنى قصيدة أخرى مفتتحها :

نعد المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال[1]

وكفى بهما شاهداً على ما ذكرته من انفراده بالإبداع فيما أتى به . وأبو الطيب أنفذ في المضيق وأعرف باستخراج المعنى الدقيق ، وأما البحتري فإنه أعرف بصوغ الألفاظ وحوك ديباجتها . والحكم بين الشاعرين في اتفاقهما في المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه ، لأنهما مع الاتفاق في المعنى يتبين قولاهما ويظهران ظهوراً يعلم ببديهة النظر ، ويتسارع إليه فهم من ليس بثاقب الفهم ؛ وما اختلافهما في المعنى فإنه يحتاج في الحكم بينهما فيه إلى كلام طويل يعز فهمه ولا ينفطن له إلا بعض الناس دون بعض ، لا بل لا يتفطن له إلا الفذ الواحد من الناس.

– ٢ –

ويقول صاحب المثل السائر عن الشعر في باب السرقات : وكان ختامه على يد الثلاثة المتأخرين ، وهم أبو تمام والبحتري والمتنبي . . ويعد من باب المعاني الجديدة قول المتنبي في عضد الدولة وولديه :

وأنت الشمس تبهر كل عين فكيف وقد بدت معها اثنتان
فعاش عيشة القمرين يحيا بضونهما ولا يتحاسدان
ولا ملكا سوى ملك الأعادي ولا ورثا سوى من يقتلان
وكان ابنا عدو كاثراه له ياءي حروف أنيسيان

[1] قالها في رثاء والدة سيف الدولة ، وقد توفيت بميافارقين سنة ٣٣٩ وجاءه الخبر بحلب .

وهذا معنى لأبي الطيب وهو الذي ابتدعه ، أي أن زيادة أولاد عدوك كزيادة التصغير فإنها زيادة نقص . وما ينبغي أن يقال إن ابن الرومي ابتدع هذا المعنى الذي هو :

يشكي المحب ويلفي الدهر شاكيه   كالقوس تصمى الرمايا وهي مرنان

فإن علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى مبتدع لابن الرومي ، وليس كذلك ولكنه مأخوذ من المثل المضروب وهو قولهم " يلدغ ويصي " ويضرب ذلك لمن يبتدىء بالأذى ثم يشكو ، وإنما ابن الرومي قد ابتدع معاني أخر غير ما ذكرته. وليس الغرض أن يؤتى على جميع ما جاء به هو وغيره من المعاني المبتدعة ، بل الغرض أن يبين المعنى المبتدع من غيره . . ومن شعر بن الخياط بيت في قصيدة أولها :

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه   فقد كاد رياها يطير بلبه

ويزعمون أنه من المعاني الغربية وهو :

أغار إذا آنست في الحي أنة   حذارا عليه أن تكون لحبه

وهذا البيت مأخوذ من شعر أبي الطيب المتنبي في قوله :

لو قلت للدنف المشوق فديته   مما به لأغرته بفدائه

وقول أبي الطيب أدق معنى وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظا . . ولعمارة اليمني:

فهل درى البيت أني بعد فرقته   ما سرت من حرم إلا إلى حرم

وهذا البيت مأخوذ من شعر أبي تمام في قوله مادحاً لبعض الخلفاء ، في حجة حجها ، وذلك بيت من جملة أبيات حسنة :

يا من رأى حرما يسرى إلى حرم   طوبى لمستلم يأتي وملتزم

ثم يقول ابن الأثير : ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفذت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ؟ ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده وتتشعب مقاصده : ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذا المراد من الشعر إنما هو إبداع المعنى الشريف ، في اللفظ الجزل اللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل .

وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس وأبي عبادة الوليد وأبي الطيب المتنبي . وهؤلاء الثلاثة لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء . . أما أبو تمام فإنه رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الأغراب ، وبرز فيه على الأضراب ، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه ، أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام [1]. فخذ مني في ذلك قول حكيم ، ففوق كل ذي علم عليم . وأما أبو عبادة البحتري فإنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينا يكون في شظف نجد ، إذ تشبث بريف العراق ، وسئل أبو الطيب المتنبي عنه وعن أبي تمام وعن نفسه فقال : " أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري " ، ولعمري إنه أنصف في حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن أبا عبادة أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى في معانيه بأخلاط الغالية ، ورقي في ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وأما أبو الطيب المتنبي فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام ، فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظي في شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال ، وأنا أقول قولاً لست فيه متأثماً ، ولا منه ملتئماً ، وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة ، كان لسانه أمضى من نصالها ؛ وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله لك مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه في ذلك تضل بسالكه ،وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان ، فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه ومع هذا فإني رأيت الناس عادلين فيه عن سنن التوسط ، فإما مفرط في وصفه وإما مفرط ، وهو وإن انفرد بطريق صار أبا عذرته ، فإن سعادة الرجل كانت أكبر من شعره. وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء، ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة:

---

[1] امرأة من العرب عرفت بالصدق فيهم حتى ضرب بها المثل .

لا تطلـــبن كـــريما بعـــد رؤيـــته ... ان الكـــرام بأســـخاهم يـــدا ختموا
ولا تـــبالي بشـــعر بعـــد شـــاعره ... قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى، وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى، وجدته أقساما خمسة، خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيره، وخمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره، وخمس من متوسط الشعر. وخمس دون ذلك، وخمس في الغاية المتفهقرة التي لا يعبأ بها؛ وعدمها خير من وجودها، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها. فإنها هي التي ألبسته لباس الملام. وجعلت عرضه شارة لسهام الأقوال. وهؤلاء الشعراء الثلاثة لم أعدل إليهم اتفاقًا، وإنما عدلت إليهم نظرًا واجتهادًا. وذلك أني وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها، حتى لم أترك ديوانًا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك، إلا عرضته على نظري، فلم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة، ولا أكثر استخراجًا منهما للطيف الأغراض والمقاصد، ولم أجد أحسن تهذيبا للألفاظ من أبي عبادة ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكا منه، فاخترت حينئذ دواوينهم، لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعاني والألفاظ، ولما حفظتها ألغيت ما سواها، مع ما بقي على خاطري من غيرها.

أبو العلاء المعرى

٣٦٣ – ٤٤٩ هـ – ٩٧٣ – ١٠٥٧م

أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد سليمان بن داود، ينتهي نسبه إلى النعمان[١] بن عدي. وهو حكيم العربية وشاعرها الكبير، كان جده لأبيه سليمان بن داود يلي قضاء المعرة وحمص ومات سنة ٢٩٠هـ، فولي بعده أبو بكر محمد بن سليمان عم أبي العلاء، فلما مات ولي القضاء بعده أخوه عبد الله بن سليمان والد أبي العلاء فمات سنة ٣٧٧هـ ، وترك أبا العلاء وأبا المجد محمد بن عبد الله وأبا الهيثم عبد الواحد بن عبد الله، وكانوا جميعا من الشعراء .. وأم أبي العلاء من أسرة بحلب شهرت بالكرم والعلم، وهم "آل سبيكة".

[١] لقب النعمان بساطع الجمال ونسبه الأعلى إلى تيم الله الى قضاعة إلى قحطان.

ولد أبو العلاء فى يوم الجمعة ٢٨ ربيع الأول عام ٣٦٣هـ - ٩٧٣م بمعرة النعمان، وكف بصره عام ٣٦٧هـ على إثر جدرى أصابته ذهبت بيسرى عينيه جملة، وغشيت يمناهما ببياض ففقدت ما فيها من قوة الإبصار.

درس على أبيه علوم اللغة والنحو والأدب، ثم رحل إلى حلب حاضرة الحمدانيين، ثم إلى إنطاكية وطرابلس الشام حيث أقام فيها عند أخواله. وبدأ يقرض الشعر وهو فى الحادية عشرة من عمره، وعرف فى اللاذقية من الرهبان بعضا من الفلسفة وعلوم الأوائل وقواعد الأديان. وعاد إلى المعرة بعد أن قضى دراسته فى طرابلس. وتوفى أبوه عام ٣٩٥هـ، فرثاه بشعره، وعاش بعده على غلة وقف لأسرته، كان يدر عليه فى السنة ثلاثين دينارًا، دون أن يتكسب بشعره كشعراء عصره، ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ طلبا للعلم والثقافة، ومكث بها إلى رمضان عام ٤٠٠هـ، وقدم أول قدومه إلى أبى حامد قصيدة يصف فيها متاعب رحلته، ويستعين بها على ضيق يده، ومنها:

وبالعــراق رجـــال قـــربهم شــرف   هاجرت فى حبهم رهطى وأشياعى

وقد بهر المعرى الذين اتصل بهم ببغداد بعلمه وكان يسعى إلى دروس العلماء، ويزور مكتباتها العامة والخاصة، ويتصل بمجامعها العلمية والأدبية والفكرية.

ولكن حقد الحاقدين وحسد الحاسدين جعله يرحل من بغداد، وكذلك ضيق يده، وشقاؤه النفسى، كل ذلك ألجأه إلى العودة للمعرة، مودعا من أهل بغداد أجمل وداع، وبلغه نعى أمه وهو فى طريقه إلى المعرة، فحزن أشد الحزن، واعتزل بعد عودته الناس، وأقام فى داره، وسمى نفسه رهين المحبسين، ولكنه فشل فى طلب العزلة، فقد سعى إليه بالمعرة الأمراء والعلماء والأدباء والشعراء والمتكلمون، وراسله الخلفاء والكبراء فذاعت شهرته فى الآفاق، وهجر أبو العلاء أكل الحيوان والزواج فاتهم بالزندقة، وظل يعيش فى ظلال الهرم والشيوخة، حتى توفى فى ١٣ ربيع الأول عام ٤٤٩هـ - ١٠٥٨.

وكان المعرى شاعرا حكيما من أقدر الشعراء الذين أخضعوا الشعر للفلسفة، وقد أضفى التاريخ على اسم أبى العلاء جلالا ومجدا كان بهما جديرا، فهو علم من أعلام الأدب، وشاعر من أنبه الشعراء ومؤلف من أكبر المؤلفين. وقد ألف "رسالة الغفران" عام ٤٢٤هـ[1] فى أسلوب قصصى خيالى، ردا على رسالة ابن القارح التى

---

[1] يرجح زين لقول المعرى فى الغفران: ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائى سنة أحد أمير حلب فى سنة ٤٢٤هـ اسمه فلان (٨٤ : ٢ الغفران) طبعة كيلانى ، وراجع ٢٥٨ - ٢٧٠ : النثر الفنى.

بعث بها إلى أبى العلاء، وموضوع رسالة الغفران زيارة خيالية للجنة والنار وحوار طريف بين الأدباء والشعراء والمفكرين وتضمنت الرسالة كثيرا من فلسفة أبى العلاء فى الأخلاق والثقافة والأدب، وفى الدين والاجتماع، وفى الشعراء وشعرهم، ويشابهها فى ذلك الكوميديا الإلهية، لدانتى شاعر عصر الإحياء فى إيطاليا.

أما ابن القارح فهو أبو الحسن على بن منصور الحلبى، وتلميذ ابن خالويه وأبى على الفارسى، أقام فى حلب ثم رحل إلى بغداد ومصر، ورسالته التى أرسل بها من مصر إلى أبى العلاء فيها شىء من الهزل والدعابة، وصور فيها آراءه فى الشعراء والأدباء والعلماء والمفكرين، كما صور فيها حياته، وطلب من المعرى أن يجيبه عليها، وكان جواب المعرى عليها هو رسالته الخالدة "رسالة الغفران" التى ناقش فيها آراء ابن القارح فى رسالته فى أسلوب جميل من الحوار مع أهل الجنة وأهل النار، وهو أسلوب جديد فى اللغة العربية. ويظن أن المعرى تأثر فيها برحلة الإسراء والمعراج وبرحلة الموبد الزرادشتى أورده ويران إلى الجنة والنار.

وللمعرى ديوانه "اللزوميات"، وديوان "سقط الزند"، وبعض المؤلفات الأخرى.

أما مسألة : هل سرق دانتى رسالة المعرى؟

فهى مسألة طال حولها الحوار والجدل، ولم نر دليلا ماديا على السرقة أو على البراءة منها، ولكن قوما يردونها .. قال الأستاذ محمد كرد على: أن أعمى المعرة كان معلما لنابغة إيطاليا فى الشعر والخيال. وبعض الباحثين من المستشرقين فى أوروبا على أن دانتى فى روايته الإلهية قد اقتبسها - ولاسيما الجحيم - من رسالة الغفران للمعرة. وقال جورجى زيدان: إن المعرى توفى سنة ٤٤٩هـ ودانتى توفى سنة ٧٢٠هـ، وملتن الإنجليزى توفى سنة ١٠٨٤هـ، فلا بدع إذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه .. وأقدمهما (دانتى) لم يظهر إلا بعد احتكاك الإفرنج بالمسلمين والإيطاليون أسبق الإفرنج إلى ذلك .. ذلك هو رأى جورجى زيدان توسع فيه حتى أدخل ملتن (١٦٠٨ - ١٦٧٤) أيضًا فى الاقتباس من المعرى وحجته تأخر الزمن بدانتى وملتن واحتكاك الإفرنج بالمسلمين، وذلك كله لا ينهض دليلا على اقتباس الفكرة، ولا يكفى برهانا على الأخذ؟ والمسألة لا تعدو الحدس والظن. وإنا لنرى البراهين تنحاز ناحية دانتى فتبعده عن الأخذ وعن الاقتباس. فقد بدأ حياته يتعلم الدين، يكمل ثقافته على يد القديس فرانشسكو، ولقد كان عصره عهد قوة سلطان الباباوات والكهنة، ولن يقوم لهؤلاء سلطان إلا بقوة النزعة الدينية، وإبان

ذلك تتكاثر صور الجنة والنار واردة فى أخيلة الناس وأذهانهم .. أو ليس فى نشأته الدينية. وفى عهده الملئ بالتعصب الدينى ما يكفى فى أن ترد الجنة والنار فى خياله؟ على أن فكرة الجنة والنار والنعيم والجحيم تدور برؤوس الناس منبلج الصباح وأفول الشمس فى كل يوم، فهى حق شائع لجميعهم لا يعده الأدباء أخذا، ولو أنهم عدوه لكان كل شعرائنا وأدبائنا سراقا، ولكان امرؤ القيس سارقا لأنه بكى الديار كما بكاها ابن حذام من قبله، إذ يقول امرؤ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حذام

وإنما الذى يعده الأدباء سرقة هو أخذ الفكرة النادرة التى ينفرد واحد بها. أو الترتيب الذى لا يستطيعه إلا الشواذ والأفذاذ، فهل سرق دانتى الترتيب من رسالة الغفران؟ اللهم لا. فحراس الجحيم فى خيال المعرى ملائكة، وفى خيال دانتى شياطين، وأشخاص الرواية عند المعرى شعراء ورواة، وعند دانتى رجال دين وعصاة ومذنبون، والجنة عند دانتى تسعة أقسام لكل قسم طائفة عملوا الخيرات كل على حسب عمله. وعند المعرى ثلاثة أقسام. "جنة الجن" وجنة (الرجاز) والجنة الأصلية، وقد بلغ المعرى أسمى خياله لدى وصفه الفردوس، كما كان أخصب النواحى خيالا عند دانتى وصف الجحيم.

على انه إن كان لابد من أن نتهم الشاعر الطليانى بالاقتباس. فأولى أن نعتقد أخذه من فرجيليو الذى كان دليله فى رحلته وهاديه فى ظلمات الجحيم. ولفرجليو هو الآخر رحلة فى أعماق الجحيم هى أقرب لخيال دانتى من رسالة الغفران، ولقد كانت لدانتى أحلام فيها ملائكة وفيها موتى، هى إرهاص ومقدمة لرسالته العتيدة، فقد رأى فى حلم من الأحلام أنه ضل فى غابة موحشة فأطلت عليه محبوبته بياتريشى فى سحابة من الملائكة وعليها لهب قرمزى كأنه اللهب المتأجج، وخيل إليه أنه يتغلغل فى عالم الأموات؛ كما تحدث فى بعض أشعاره قائلا: ها أنذا جالس فى مكانى أذكرها وأذكر أيامها السعيدة، فيلوح لى كأن ملائكة من السماء تهبط من عل، وتأخذ أماكنها على المقاعد الموجودة حولى.

فإذا ضممنا لذلك كله أن حبه ألهمه خيال الجنة ليستمتع بمن أحب، وأن بغضه لمن حاربوه، ونفوه وشردوه يوحى إليه أن يتخيلهم فى دركات الجحيم، وأن تلك طبيعة النفس تشره لنيل آمالها ولو عن طريق الخيال، عرفنا براءته من السرقة.

وقد ألف ملتون ملحمته (الفردوس المفقود) عام ١٦٦٧ بعد أن كف بصره. واتخذ مصادرها من التوراة فى رأى بعض الباحثين وهى رحلة إلى السماء والجنة

والجحيم ويصف فيها آدم وحواء والشيطان البطل الحقيقي للقصيدة. وقد صوره يعيش حياة عنيفة غنبة، ممجدا في شخصيته الكبرياء والحرية[1].

وكان أبو العلاء مفرطا في الذكاء والفطنة. ومن ذكاء المعري ما يروى من أنه دخل عليه أبو نصر المنذري[2] المعري في جماعة من أهل الأدب: فأنشد كل واحد منهم من شعره ما تيسر. وأنشده أبو نصر:

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه[3] فحنا علينا ... حنو الوالدات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا[4] ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع[5] حصاه حالية[6] العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء : أنت أشعر من بالشام. ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد، وأبو العلاء لا يعرف منهم أحدًا، فأنشد كل واحد منهم ما حضره من شعره حتى جاءت نوبة المنذري فأنشد :

لقد عرض الحمام لنا بسجع ... إذا أصغى له ركب تلاحى[7]
شجى[10] قلب الخلي فقيل : غنى ... وبرح[8] بالشجي[9] فقيل : ناحا
وكم للشوق في أحشاء صب ... إذا اندملت أجد لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى ... وسكران الفؤاد وإن تصاحى
بذاك بنو الهوى سكرى صحاة ... كأحداق المها مرضى صحاحا

فقال أبو العلاء : ومن بالعراق - عطفا على قوله : من بالشام -! ولكن الشعر الأول يروى لغير المنذري كما يعلم شداة الأدب ودارسوه.

---

(1) ١٠١ - ١٠٦ الأدب الإنجليزي بول دوتان.
(2) المستطرف ص٤٦ ج ١ - والأبيات مشهورة لحمدونة الأندلسية
(3) الدوح : جمع دوحة : الشجرة العظيمة من أي شجر كان.
(4) ماء زلال : عذب. * المدامة : الخمر .
(5) يروع : يفزع.
(6) حليت المرأة : صارت ذات حلى فهي حلية وحالية.
(7) تلاحي : تنازع.
(8) برح به الأمر : جهده.
(9) شجاه : أطربه
(10) الشجي : الحزين

الأمير الشاعر ابن سنان الخفاجى

٤٢٢ – ٤٦٦

-١-

عاش ابن سنان فى حلب، وتنقل بين ربوع الشام وامبراطورية الروم، وورث النزعات الأدبية عن أسرته العربية الصميمة، وعن البيئة الأدبية الخصبة التى عاش فيها. فحلب كانت عاصمة سيف الدولة الحمدانى (٣٠٣ – ٣٥٦هـ)، وعاصمة دولة الحمدانيين عامة، وكانت تموج فى عهدهم بالعلماء والفلاسفة والأدباء والكتاب والشعراء والخطباء. عاش فيها المتنبى حقبة من الزمن، ونشأ عاش فيها أبو فراس الحمدانى الشاعر ٣٥٧هـ ، وأبو عبد الله الحسين بن خالويه م ٣٧٠ وأصله من همذان واستوطن حلبا .. كما أقام فيها حينا أبو الفتح عثمان بن جنى م ٣٩٢هـ. والفارابى الفيلسوف م ٣٣٩هـ. ومن شعرائها : النامى، والناشئ الأصغر، وأبو القاسم الزاهى، وأبو الفرج الببغاء، وكثير من أمراء العرب من بنى حمدان وبنى عامر وبنى عقيل وخفاجة.

وبجوار حلب فى معرة النعمان ولد ونشأ وعاش المعرى الشاعر الفيلسوف م ٤٤٩هـ وهو الذى تتلمذ عليه ابن سنان. هذا فضلاً عن بيئة الشام الأدبية عامة، ومن حفلت بهم من أعلام الأدب والشعر والخطابة : كأبى طالب الرقى والخليع الشامى، وأبى الفرج الوأواء الدمشقى، وعبد المحسن الصورى، وأبى الرقعمق، وسواهم من الشعراء والأدباء .. وكان عبد الرحيم بن نباتة م ٤٠٥هـ خطيب جيوش سيف الدولة المفوه.

فلا عجب أن تبعث هذه البيئة الأدبية فى نفس ابن سنان حب الأدب وتذوقه والإجادة فى نظمه. أما الذى ربى فى نفس ابن سنان حب النقد والبلاغة وملكة التأليف فيها فهو اتصاله بأستاذه المعرى، وعكوفه على كتب الأدب القديمة قراءة وفهما وتذوقًا: كالبيان والتبيين للجاحظ ونقد النثر والموازنة للآمدى. والوساطة للقاضى الجرجانى، والبلاغة وإعجاز القرآن للرمانى، والصناعتين لأبى هلال العسكرى، وإعجاز القرآن للباقلانى. فوق تأثره ببحوث المتكلمين فى إعجاز القرآن الكريم وفصاحته. فلا بدع أن يكون ابن سنان بعد ذلك كله أديبًا ملهمًا وشاعرًا مطبوعًا ، وناقدًا موهوبًا، وعلمًا من الأعلام فى النقد والبلاغة والبيان.

-٢-

وابن سنان كما يدل عليه كتابه سر الفصاحة ناقد ممتاز، تشهد بذلك آراؤه وأحكامه الأدبية فى هذا الكتاب، وإذا ذكرنا الموازنة والوساطة والصناعتين فلابد أن نذكر معها سر الفصاحة لابن سنان، وله فوق ذلك منزلة كبيرة فى البلاغة، فإذا كان ابن المعتز قد ألف كتابه البديع، وقدامة قد ألف نقد الشعر، وأبو هلال قد ألف الصناعتين، وابن رشيق قد ألف "العمدة"، فحسبنا أن نذكر ابن سنان ومؤلفه القيم "سر الفصاحة"، فإنه حلقة بين هذه الكتب وبين كتب عبد القاهر والسكاكى ومدرسته، فابن سنان كعبد القاهر: كلاهما بنى البلاغة العربية صرحًا شاهقًا تعتز به وتفخر، وكلاهما أقام بحوثه للبلاغة على نهج جديد، كان أساسًا لبحوث البلاغيين من بعد، وإذا كانت الفكرة الأولى عند عبد القاهر حين ألف فى البلاغة هى الوصول إلى أسرار إعجاز القرآن الكريم وحقيقته فإنها كذلك هى الإعجاز، وخرج منها صفر اليدين، لم يهتد إلى أمنيته المنشودة ولكن ابن سنان يرى أن سر الإعجاز هو صرف الله الناس عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، وعبد القاهر يرى أن سره هو دقائق ولطائف فى نظم القرآن الكريم أعجزت القائلين وأسكنت صوت المتحدين؛ أو قل إن سر الإعجاز الدفين عنده هو بلاغة القرآن الكريم بكل ما تحتوى عليه هذه الكلمات من معان .

-٣-

وقد ترجم له صاحب فوات الوفيات، فقال : عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان، أبو محمد الخفاجى الشاعر الأديب، كان يرى رأى الشيعة، وكان قد عصى بقلعة عزاز من أعمال حلب، وكان بينه وبين أبى نصر محمد بن الحسن بن النحاس الوزير لمحمود بن صالح مودة مؤكدة، فأمر محمود أبا نصر بن النحاس أن يكتب إلى الخفاجى كتابًا يستعطفه ويؤنسه، وقال لا يأمن إلا إليك، ولا يثق إلا بك، فكتب إليه كتابًا، فلما فرغ منه وكتب إن شاء الله تعالى شدد النون من إن، فلما قرأه الخفاجى خرج من عزاز قاصدًا حلب، فلما كان فى الطريق أعاد النظر فى الكتاب، فلما رأى التشديد على النون أمسك رأس فرسه، وفكر فى نفسه، وقال : إن ابن النحاس لم يكتب هذا عبثًا، فلاح له أنه أراد "إن الملاء يأتمرون بك ليقتلوك، فعاد إلى عزاز، وكتب الجواب : أنا الخادم المعترف بإنعام، وكسر الألف من أنا وشدد النون وفتحها، فلما وقف أبو نصر على ذلك سر وعلم أنه قصد به "إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها"، وكتب الجواب يستصوب رأيه، فكتب إليه الخفاجى:

خف من أمنت ولا تركن إلى أحد	فما نصحتك إلا بعد تجريب
إن كانت الترك فيهم غير وافية	فما تزيد على غدر الأعاريب
تمسكوا بوصايا اللؤم بينهم	وكاد أن يدرسوها في المحاريب

واستدعى محمود أبا نصر بن النحاس، وقال : أنت أشرت على بتولية الخفاجي وما أعرفه إلا منك، ومتى لم يفرغ بالي منه قتلتك، وألحقت بك جميع من بينك وبينه صلة وحرمة. فقال له: مرني بأمر أمتثله، قال: تمضي إليه وفي صحبتك ثلاثون فارسًا، فإذا قاربته عرفه بحضورك، فإنه يلتقيك، فإذا حضر سألك النزول عنده والأكل معه، فامتنع؟ وقل له: إني حلفتك أن لا تأكل زاده، ولا تحضر مجلسه حتى يطيعك في الحضور عندي، وطاوله في الحديث وأخرج هذه الخشكانجتين فكل أنت هذه، وأطعمه هذه، فإذا استوفى أكلها عجل الحضور إلى، فإن منيته فيها، نفعل ما أمره به، ولما أكلها الخفاجي رجع أبو نصر إلى حلب ورجع الخفاجي إلى عزاز، ولما استقر بها وجد مغصا شديدا، ورعدة شديدة، فقال : قتلني والله يا أخي أبو نصر، ثم أمر بالركوب خلفه ورده، ففاتهم، ووصل إلى حلب، وصبح من الغد محمود، فجاءه من عزاز[1] من أخبره أن الخفاجي في الرمق الأخير، ومات . وكانت وفاته في سنة ٤٦٦ هـ، وحمل إلى حلب[2] .

– ٤ –

وثقافة ابن سنان ثقافة واسعة منوعة فهو أديب ملم بالأدب متذوق له، وهو علم من أعلام النقد الأدبي كما يتجلى ذلك من كتابه سر الفصاحة، وهو شاعر مبدع ملهم تتجلى في شعره سمات الشاعرية المجددة الساحرة، وهو فوق ذلك كله عالم ملم بشتى العقائد والفلسفات والمذاهب العقلية والدينية كما يتجلى ذلك في كتابه "سر الفصاحة" وفي كثير من شعره، وكان ينتصر للرأي القائل بأن سبب إعجاز القرآن

---

[1] بلدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب. بينهما يوم، وهي طيبة الهواء عذبة الماء صحيحة لا يوجد فيها عقرب وليس بها شيء من الهوام (٦/١٦٧ معجم البلدان لياقوت ط ١٩٠٦) . وجاء في معجم البلدان لياقوت عند ذكر حلب من رسالة لابن بطلان كتبها سنة ٤٤٠هـ ما نصه : وفيها حدث يعرف بأبي محمد بن سنان قد ناهز العشرين، وعلا في الشعر طبقة المحنكين. فمن قوله:

إذا هجوتكم لم أخش صولتكم	وإن مدحت فكيف الرى باللهب
فحين لم ألق لا خوفا ولا طمعا	رغبت في الهجو إشفاقًا من الكذب

(٣١٣ ج ٣ معجم البلدان لياقوت ط ١٩٠٦).

[2] ٢٩٧ ٣٠٠/ ١ فوات الوفيات لابن شاكر ط ١٢٨٢ هـ - وراجع ترجمة ابن سنان بإفاضة في كتابي "بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي).

هو أن الله عز وجل صرف العرب وسواهم عن معارضته وقد أيد هذا الرأى فى كتابه سر الفصاحة وألف فيه كتابا سماه الصرفة[1] .. وهو فوق ذلك العلم الفذ فى البلاغة، وكتابه يعد أول تأليف مفصل فى علوم البلاغة والبيان وأجمع دراسة لشتى ألوان البلاغة وفنونها وصورها وجميع أسبابها من اللفظ والمعنى والتأليف والنظم، وكل هذه الثقافات تدل على عقلية واسعة عميقة ولا شك أن مما نماها فيه تلمذته على أستاذه أبى العلاء وسواه من علماء العربية وأدبائها، فوق عكوفه على المطالعة والقراءة والبحث والتأليف، وفى أستاذه المعرى يقول من قصيدة رثى بها جماعة من أهله وأصدقائه :

ومقيمًا على المعرة تطويه ... الليالى وذكره منشور[2]

وقد ألفَ ابن سنان الكتب الآتية :

١- سر الفصاحة.
٢- كتاب الصرفة ذكر فيه قضية إعجاز القرآن وأن سبب الإعجاز هو صرف الله العرب عن معارضته[3].

ومذهب الصرفة ينسب إلى إبراهيم بن يسار النظام المعتزلى وقد جرى الكلام به على ألسنة قوم قبله من أشهرهم عيسى بن صبيح المزدار المعتزلى البغدادى. وكان الجعد ابن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين يقول قولا قريبًا من ذلك. وقد رجح هذا المذهب ابن سنان فى كتابه.

٣- وله ديوان شعر صغير، إلى غير ذلك من كتبه المفقودة.

– ٥ –

وابن سنان شاعر مشهور وله ديوان شعر يقع فى ست عشرة ومائة صفحة ويمتاز شعر بامتلائه بالمعانى والأفكار العقلية وبقوته وجمال العاطفة فيه وظهور شخصية الشاعر وغلبتها عليه، وسندرسه دراسة واسعة فى كتاب مستقل إذا وفق الله. ونشير فى هذا المقام إلى أن البارودى قد جعل فى مختاراته ابن سنان من الشعراء الذين نقل عنهم من شعرهم. وكان من الشعراء الذين عاصروا ابن سنان فى حلب: أبو الفتح بن أبى حصينة المتوفى عام ٤٥٦ (راجع ١٨٨ جـ ٤ أعلام النبلاء)، ومنهم

---

[1] راجع ١٣٩ جـ ٣ معجم الأدباء وقد نقل عنه ياقوت.
[2] ص ٣٥ من الديوان .
[3] ١٣٩ جـ ٣ معجم الأدباء.

أبو العباس الملقب بالمشكور (راجع ٣٣٣ و٣٣٤ ج١ أعلام النبلاء) وسواهما من الشعراء. ومن ديوانه نسخة خطية بدار الكتب وطبع الديوان ببيروت في ١١٦ صفحة. وشعر ابن سنان الخفاجي كله مختار جيد لاسيما ما نظمه من بعد عصر صباه وهو مظهر لشخصيته في يأسه وأمله وفقره وغناه وظفره وفشله وفي فضائله الخلقية الكريمة وفي طموحه البعيد الوثاب وفي نظراته الفلسفية التي استمدها من أستاذه أبي العلاء. وهو في رثائه وفي عتابه وفي غزله وفي مدحه وفي وصفه وفي التعبير عن وجدانه وعواطفه، رائع بالغ حدود الجمال الفني والعاطفي. ولا مانع من أن نعرض هنا عدة نماذج لشعر ابن سنان. قال الخفاجي:

أيها النوام ويحكم ... قد حملنا عنكم السهرا
نحن في ظلماء داجية ... مالها صبح فينتظر
فجرها والصبر بعدهم ... ما سمعنا عنهما خبرا

وقال من قصيدة يرثى بها جماعة من أهله وأصدقائه:

طلب الأمن في الزمان عسير ... وحديث المنى خداع وزور
لا تظن الفقيد أفرده البين ... فقد أعجل المقيم المسير
إن في جانب المقطم مهجورا ... ومن أجله تزار القبور
ومقيمًا على المعرة[1] تطويه ... الليالي وذكره منشور
وضريحين بالعواصم مبذولين ... والصبر عنهما محظور
وغريبا بالدير بان له العيش ... وغاض الندى ومات السرور
صارم فلت النوائب حديه ... وغصن تحت الثرى مهجور
أيها الظاعنون لازال ... للغيث رواح عليكم وبكور
لست أرضى بالدمع فيكم فهل ... يملك ري البحور إلا البحور
قد رأينا دياركم وعليها ... أثر من عفاتكم مهجور
وسألنا أطلالها فأجابت ... ومن الصمت واعظ ونذير
عرصات كأنهن ليال ... فارقتها عند الكمال البدور
ياديار الأحباب غيرك الدهر ... فكانت بعد الأمور أمور
أين أيامنا بظلك والشمل ... جميع والعيش غض نضير
نشوة أعقبت خمارًا من الهم ... ولكن قد يفرق المخمور
يا نجوم العلى غربتم وما في ... الليل من بعدكم نجوم تغور

---

[1] هو أستاذه المعري الفيلسوف الشاعر م ٤٤٩ هـ.

حـــــال عمـــــا عهدتمــــــوه ولم يجـر عـلى رسمـه الصـباح المـنير
وعفـــا الجـــود فالكـــريم بخــيل فـــي المـسلمات والغـــنى فقـــير
لا يجـــاوركم الصــــعيد بســـوء فهـــو للـــنازلين بـــنس المجـــير
وســـقاكم مـــن الســـحاب صـــناع الكـف يسـدى فـى روضـكم وينير
مـا أرى الشـعر كافـيًا فـى مراثـيكم ولكــــن قـــد ينفـــث المصــــدور

وقـال :

يـا خجلـتى للطـيف لمـا سـرى فـــى خطـــر اللـــيل إلى ســـاهر
زيـــــارة ضــــاعت ولكـــــنها جـــناية الشـــوق عـــلى الزائـــر

وقال :

لى راحـــة يفـــرق مـــنها الغـــنى لأن مــــــا يـــــنزلها يســـــتباح
لابـــــد أن أعمـــــرها بالقـــــنا فطالمـــــا أقفـــــرتها بالســــماح

وقال :

تجاهلـت حـتى أنكرتـنى خفاجـة وقالت : وهـل ضـل الأعز المشيع ؟

وقال فى صباه :

وحـــى مـــن خفاجـــة رحـــت فـيه عــــلى جــــرداء حالــية الأديـــم
أبـاح الخمـر فـيه حمـى همومـى فأشـــــربها وتفــــتك بالـــــنديم

وقال فى مقامه بديار بكر من قصيدة طويلة :

سقى الهضبة الأدماء من أرض جوشن ســحائب تســدى روضــه وتــنير
وحـل عقـود المـزن فـى حجـراته نســيم بـــأدواء القلـــوب خـــبير
فمـــا ذكـــرته الـــنفس إلا تـــبادرت مدامـــع لا يخفـــى بهـــن ضـــمير

وقال ابن سنان :

هـل تـسمعون شـكاية مـن عاتـب أو تقـــبلون إنابـــة مـــن تائـــب
أم كـل مـا يـتلو الصـديق علـيكم فـى جانـب وقلوبكـم فـى جانـب
أمـا الوشـاة فقـد أصـابوا عـندكم ســوقا تـنفق كـل قـول كـاذب
فمللـــتم مـــن صـــابر، ورقـــدتم عـن سـاهر وزهـدتم فـى راغـب

وقال على مذهب لزوم مالا يلزم :

مضى الصبا وأناس فى الصبا غرقوا أســتودع الله إطـــرابى وأتـــرابى

ولو عقلت لما عنيت بعدهم   نفسي وأتعبت آرابي بآرابي
وكنت في جانب الغبراء معتزلا   عزى قنوعي وحصني ظل محرابي
لا أطلب الرزق من سيف ومن قلم   ولا أفكر في روم وأعراب
أقول حقًا ولكني أخالفه   ولو عقلت لكان الصمت أحرى به

وقال :

من مبلغ اللوام أن مطامعي   صارت حديثا بينهم وقصائدا
ركضت على أعراضهم وهي التي   تطوى البلاد شواردا ورواكدا
مالي أجاذب كل وقت معرضا   منهم وأصلح كل يوم فاسدا
وأقيم سوق المجد في ناديهم   حتى أنفق فيه فضلا كاسدا
أرأيت أضيع من كريم راغب   يدعو لخلته لئيما زاهدا
ومعرس بركابه في منزل   يلقى الصديق به عدوًا حاسدًا
عكس الأنام فإن سمعت بناقص   فاعلم بأن لديه حظا زائدا
وتفاوت الأرزاق أوجب فيهم   أن يجعلوه مصالحا ومفاسدا
ومعدد في الفخر طارف ماله   حتى تلوت عليه مجدا تالدا
طوقته بأوابد ولطالما   أهديت أغلالا بها وقلائدا
مهلا فإنك ما تعد "مباركًا"   خالا ولا تحصي "سنانا" والدا
بيت له النسب الجلي، وغيره   دعوى تريد أدلة وشواهدا

وقال :

أستغفر الله لا فخر ولا شرف   ولا وفاء ولا دين ولا أدب
كأنما نحن في ظلماء داجية   فليس ترفع عن أبصارنا السجف
تزيد بالبحث جهلا إن طلبت هدى   وهل يضيء لعين المدلج السدف
وفي الفلاسفة الماضين معتبر   فطالما قصدوا فيه وما عسفوا
وقد أتوك بمين من حديثهم   يكاد يضحك منه الحبر والصحف
ظن بعيد وأقوال ملفقة   تخفى على الغمر أحيانًا وتنكشف
الأمر أكبر من فكر يحيط به   والعمر أقصر أن يلقى له طرف
أعظم بدائك إن حاولت واضحة   ومت به فعلى هذا مضى السلف
جاءت أحاديث عن قوم أظنهم   عاشوا طويلاً وقالوا بعد ما خرفوا
يدين قوم بأن الشهب خالدة   وعند قوم لها وقت ومنصرف
وما رضيت بعقلي في جدالهم   ولا توهمت إلا غير ما وصفوا

ورب قوم أضاعوني وقد فهموا ... قدري فما أنكروا فضلي ولا اعترفوا

وقال على طريق الشعر المعروف باستغفر واستغفري :

استغفر الله القديم وعذ به ... من شر عاو في الحطام منافس
وافعل جميلا لا يضع لك صنعه ... واسمح بقوتك للضعيف البائس
واقنع ففي عيش القناعة نعمة ... لا تتقى كفي الزمان الخالس
لا تركنن إلى المراء فإنه ... سبب لكل تنافر وتشامس
عاذت بنو حواء من إبليس في الد ... نيا وكم فيهم فنون أبالس
درسوا العلوم ليملأوا بجدالهم ... فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة ... في أخذ مال مساجد وكنائس[1]
إيوان كسرى صار مرتع ثلة ... وديـاره باتت مناخ عرائس
والحيرة البيضاء بدل أنسها ... قدر أطاعته مدائن فارس
يا عقل مالك في اللطائف منهج ... فإذا عثرت فلا لعا للناعس
عندي لقد ذهب الذين تفكروا ... فيها وما ظفروا بغير وساوس
ما قول بطليموس عنها حجة ... عندي ولا المروي من رسطالس
جار الأنام فلا دلالة ناظر ... تشفي العقول ولا إمارة قابس
لا تحفلن بما حوته صحائف ... لهم وإن وجدت بخط دارس
عجبا لهمام ينازع خصمه ... في آل يربوع وأسرة حابس
هيهات ما شرف الأصول بنافع ... حتى يكون ذوائب كمغارس
لا تفخرن وإن فضلت فبالتقي ... ناضل ، وفي بذل المكارم نافس

أسامة بن منقذ

ولد أسامة في يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨هـ - يوليه سنة ١٠٩٥م، من أسرة توارثت إمارة "شيزر" وهي مدينة في الشمال الغربي لحماة تبعد عنها خمسة عشر ميلا، وتقع على هضبة يحيط بها نهر العاصي من جهات ثلاث وتنهض فيها قلعة شامخة حصينة، وكان لهذه القلعة قيمتها في عصر الحروب الصليبية لمركزها الحربي الحصين، ومكانها بين الولايات السورية، فكانت مطمح الطامعين من أمراء المسلمين والصليبيين. ولد أسامة لأب صالح، يقضي وقته بين تلاوة القرآن، والصيد في النهار، ونسخ كتاب الله في الليل، ووالدة شهرت بالشجاعة،

---

[1] وينسب هذا البيت والذي قبله لابن خفاجة الأندلسي (راجع ديوان ابن خفاجة شاعر الأندلس م٥٣٣ طبعة سنة ١٣٦٦ بمصر ص٧٨).

والنخوة، والإقدام، وقد تركه والده منذ صغره يقتحم الأخطار، ويركب الصعب من الأمور، فلا ينهاه عن أن يمضى إلى عمل يريده أو عقبة يقتحمها وهو ثابت رابط الجأش. ولا يحول بينه وبين مصارعة الأسود بشيزر، وقتل ما يصرعه منها .. وهكذا شب جريئا لا يهاب. ومما ساعده على ذلك أنه كان يشترك مع أبيه فى رياضته المفضلة عنده، وهى الصيد.

ومع هذه النشأة التى تعد للحرب والنضال تلقى أسامة الثقافة التى كان يتلقاها الأمراء فى ذلك العصر، فدرس الحديث والأدب والفقه والنحو واللغة وحفظ الكثير من الشعر، وأخذ من ذلك بنصيب واف يشهد له به كتبه وما ضمنت من أحاديث كثيرة منوعة الأغراض.

كان أسامة أثيرا لدى عمه أبى العساكر سلطان حاكم "شيزر" ولما لم يكن له عقب اتخذ أسامة ابنا له، وكان يرى فيه أمير المستقبل لشيزر، ووارث الملك من بعده فكان يكلفه من الأمور ما يتطلب شجاعة وجرأة. واشترك أسامة فى المعارك التى دارت بين أسرته وبين الصليبيين دفاعًا عن مدينتهم شيزر. وعاش أسامة فى تلك المدينة بين حب والده وعطف عمه، غير أن هذا لم يلبث بعد أن رزق أولادا فى آخر أمره، أن دب الوهن والفتور إلى العلاقة التى تربطه بأسامة بدلا من حبه وعطفه عليه. وبدأ الحسد والحقد يأخذان مكانهما من قلبه خوفا على أولاده من مكانة أسامة، وحذرا أن ينول الملك إليه دونهم، فمضى أسامة إلى الموصل لدى عماد الدين زنكى الذى صار أكبر أبطال الحروب الصليبية فى وقته وأول خطر حقيقى داهم للصليبيين، فانتظم أسامة فى جنده وحارب تحت قيادته فى عدة معارك، ولكنه لم ينس وطنه الأول شيزر عندما هاجمه الفرنج والروم سنة ٥٣٢هـ ١١٣٨م، فقد مضى إليه وأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عنه. وربما كان قد عزم على البقاء فى شيزر بين أهله الذين فقدوا والده سنة ٥٣١هـ، غير أن عمه أبا العساكر لم يرض عن مقام أسامة بشيزر فقد أيقن أنه أصبح خطرا على ملكه وأن ليس لأبنائه سلامة إذا ظل أسامة فى شيزر، فأمره وإخوته بالرحيل فتشتتوا فى البلاد، وكان فى ذلك الخير لهم، فإنهم نجوا من الزلازل التى هدمت شيزر وقضت على بنى منقذ بأسرهم وذهبت بملكهم سنة ٥٥٢هـ.

مضى أسامة يوم أخرج من شيزر إلى دمشق، واتصل بحاكمها معين الدين، واعتمد هذا الحاكم على أسامة فى تصريف أمور رعيته بدمشق. ثم سافر إلى القاهرة عام ٥٣٩هـ. وبعد حين عاد لدمشق، وتوفى بها عام ٥٧٨هـ – ١١٨٨م.

وقد ترك أسامة عدة كتب منها :

١- كتاب الاعتبار.

٢- كتاب لباب الآداب.

٣- كتاب العصا، وقد أورد فيه شواهد نثرية وشعرية تتحدث عن العصا منذ عرفت في التاريخ، وأثبت فيه أيضًا كثيرًا من شعره.

٤- كتاب البديع، وقد جمع فيه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين، المصنفة في نقد الشعر، وذكر محاسنه وعيوبه، وقد انتقد هذا الكتاب ابن أبي الإصبع في كتاب بدائع القرآن. ومن الكتاب نسخة خطية بدار الكتب.

٥- كتاب المنازل والديار، قالت عنه دائرة المعارف الإسلامية : إنه ترجمة كتبها عن نفسه عام ٥٦٨ هـ - ١١٧٣م في أثناء إقامته في حصن كيفا، والدافع له على كتابته زلزال أغسطس سنة ١١٥٧م وهو يتضمن شواهد شعرية كثيرة عن المنازل والديار والأطلال والربوع والدمن والرسوم وغيرها ، وبالمتحف الأسيوى بلننغراد نسخة منه.

٦- مختصر مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي.

٧- مختصر مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي أيضًا .. والكتابان مخطوطان بدار الكتب.

٨- تاريخ القلاع والحصون.

٩- أخبار النساء.

١٠- التاريخ البدري، وقد جمع فيه أسماء من شهد بدرًا من الفريقين.

١١- التجائر المربحة والمساعي المنجحة.

١٢- النوم والأحلام .

١٣- الشيب والشباب.

١٤- التأسي والتسلي.

١٥- ذيل يتيمة الدهر.

١٦- أخبار النساء.

١٧- نصيحة الرعاة.

ومن شعر أسامة :

أشكو زمانًا قضى بالجور في، ولم ... يـزل يجـور علـى مثـلي ويعتسـف

وقـد دعوتـك مظلومًـا ومرتجـيًا ... وفي يديك الغنى والعدل والخلف

ومنه :

والذى طبعك الكريم ، فما أهـ ... نى نوالا تنيله وتثيب
جاءنى والبعاد دونى كما جا ... بت فيافى البلاد ريح هبوب
وعجيب أن المواهب تسرى ... ويقيم المسترفد الموهوب

ومن شعره أيضًا :

لما رأيت صروف هـ ... ـذا الدهر تلعب بالبرايا
يعلو بها هذا، ويهبط ... ذا ، وقصرهم المنايا
ورأيته مسترجعًا ... نزر المواهب والعطايا
متغاير الأحوال مخـ ... ـتلف الضرائب والسجايا
لا نعمة فيه تدو ... م . ولا تدوم به البلايا
لم أغتبط فيه بفا ... ئدة ، ولم أخش الرزايا

وقال :

إذ ماعدا خطب من الدهر فاصطبر ... فإن الليالى بالخطوب حوامل
فكل الذى يأتى به الدهر زائل ... سريعًا فلا تجزع لما هو زائل

وقال :

والذى أوهم عينى ... أن فى النوم قذاها
يا ملولا قلما استر ... عى عهودا ، فرعاها
يا ظلوما كلما استعطفته ، صد وتاها
زدت فى تيهك والشىء إذا زاد تناهى
تتقضى دولة الحسن ، وإن طال مداها
راحتى لو سمع الشكوى إليه ، ووعاها
غير أن الصم لا تسمع دعوى من دعاها
وهو لو نادى عظامى رمة لبى صداها

القسم السادس

تراجم الأدباء والكتاب والنقاد

الأصمعي الناقد الراوية

هو الإمام أبو سعيد عبد الملك بن قريب[1] (١٢٢ - ٢١٦هـ)، ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار ، وكان راوية اللغة والأدب، ذواقة الشعر، وإماما في الأخبار والنوادر والملح والغرائب، وكان كثير الحفظ حتى قيل إنه كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة، وأنه لم يكن يدعي شيئا من العلوم إلا وله به معرفة تامة .. وكان حسن العبارة والرواية .. وهو من أهل البصرة، قدم بغداد في أيام الرشيد، وكان المأمون يجله ويكبره، وطلبه أن يأتي إليه فلم يفعل، واحتج بكبره وضعفه فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويرسل به إليه ليجيب عنه. وتوفي بالبصرة وقيل بمرو.

وينسب الأصمعي إلى جده أصمع، وهو من قيس .. ونشأ بالبصرة وتأدب على علمائها وأئمتها، وكان يقول : "أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة"، وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر .. وقد امتاز بطلاوة الأسلوب وجمال الحديث وحلاوة التعبير، حتى قال الشافعي فيه: "ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي". وسئل أبو نواس عنه وعن أبي[2] عبيدة فقال : أما أبو عبيدة فإذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين، وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته" .. وكان ثقة في روايته وأثنى عليه الشافعي وأحمد بن حنبل ووصفوه بالصدق، وكان يفضل خلفا[3] في علم الشعر ونقده، وكان مقصرًا في العروض.. وكان إسحاق الموصلي يعظمه ويأخذ عنه ويتتلمذ له.

وقد تتلمذ الأصمعي على أشياخ عصره، من مثل عبد الله بن عون وشعبة بن الحجاج وحماد بن سلمة وحماد بن زيد والخليل بن أحمد .. وتتلمذ عليه جمهور كثير من الرواة، وفي مقدمتهم ابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله وأبو عبيد بن القاسم بن سلام وأبو حاتم السجستاني وأبو الفضل الرياشي وأحمد بن محمد اليزيدي ونصر بن علي الجهضمي، والتوزي وسواهم.

---

[1] يجعل الذهبي ميلاده عام ١٢٨ هـ (١/٣٧٠ العبر في خبر من غبر).

[2] هو معمر بن المثنى التيمي بالولاء (١١٤ - ٢٠٨هـ)، أخذ عن يونس وأبي عمرو بن العلاء وأخذ عنه كثير من الأعلام .. وكان من أعلم الناس باللغة وأخبار العرب وأنسابها، وهو أول من صنف في غريب الحديث، وكان أعلم الناس بالأنساب والأيام، وكان أبو نواس يتتلمذ عليه، قدم بغداد من البصرة في عهد الرشيد .. وله مصنفات كثيرة.

[3] هو خلف الأحمر المتوفى عام ١٨٢هـ الراوية الأديب الناقد المشهور.

وللأصمعي مؤلفات كثيرة بعضها لا يزال مخطوطا[1]، ومنها كتاب معاني الشعر وكتاب الأجناس، وكتاب الأنواء وكتاب الصفات، وكتاب الميسر والقداح وكتاب جزيرة العرب، وكتاب الغريب وهو مخطوط في الاسكوريال، وكتاب رجز العجاج وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .. ومما طبع من آثار الأصمعي هذه الكتب:

١- كتاب النخل والكرم - طبع ببيروت عام ١٩٠٢.
٢- كتاب النبات والشجر - طبع ببيروت مع مجموعة من كتبه.
٣- كتاب الفرق - وهو مطبوع بفينا.
٤- كتاب الدارات - مطبوع ببيروت في مجموعة من كتبه.
٥- كتاب الشاء مطبوع عام ١٨٩٦م.
٦- كتاب الخيل - مطبوع بفينا.
٧- كتاب خلق الإنسان وهو مطبوع ببيروت مع مجموعة من كتبه.
٨- كتاب الإبل - مطبوع في بيروت.
٩- كتاب أسماء الوحوش - مطبوع.
١٠- كتاب الأصمعيات وهو مجموع مختارات من الشعر، طبعت في لبسك سنة ١٩٠٢م.

ولما توفي الأصمعي رثاه بعض الشعراء بهذه الأبيات :

أسفت لفقد الأصمعي لقد مضى ... حميدا له في كل صالحة سهم
تقضت بشاشات المجالس بعده ... وودعنا إذ ودع الأنس والعلم
وقد كان نجم العلم فينا حياته ... فلما انقضت أيامه أفل النجم

ويقول فيه الشريشي شارح المقامات : "كان الأصمعي حافظا عالما فطنا بارعا بأشعار العرب وأخبارها، كثير التطوف بالبوادي لاقتباس علومها ، وتلقي أخبارها، فهو صاحب غرائب الأشعار وعجائب الأخبار، وقدوة الفضلاء وقبلة الأدباء، قد استولى على الغايات في حفظ اللغات، وضبط العلوم الأدبيات، صاحب دين متين. وعقل رصين، وكان خاصا بالرشيد، آخذا لصلاته".

وللأصمعي كتاب "فحولة الشعراء" وهو كتاب فريد في بابه وموضوعه، وهو أساس لكتب النقد التي ألفت بعد عصر الأصمعي .. وقد عثرنا على نسخة خطية من الكتاب في مكتبة الأزهر ضمن مجموعة محفوظة برقم ١١٨١ مجاميع أباظة ٦٣٢٣.

---

(1) ٨٣ الفرست لابن النديم ، ١٤٧ - ١٥١/ ٢ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان.

كما عثرنا على نسخة خطية أخرى من الكتاب في المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية، وقد نسخت عام ١٣٣٩هـ عن نسخة مكتبة الأزهر غالبًا، لأنها النسخة الوحيدة القديمة المخطوطة في مكتبات مصر، والذي نسخها هو محمد أبو العينين عطية، وخطها خط النسخ الواسع الجيد. وقد توليت نشر الكتاب عام ١٩٥٣ لأول مرة[1].

وهو ثابت النسبة للأصمعي، وقد نقل المرزباني عنه بعض دراساته وآرائه النقدية، وذلك في كتابه المشهور "الموشح".

والكتاب برواية الإمام الجليل الراوية أبي حاتم السجستاني العالم اللغوي الثقة، المتوفى عام ٢٥٥هـ عن الإمام الأصمعي.

وطريقه طريق الحوار والمساءلة، يسأل أبو حاتم الأصمعي عن أحد الشعراء هل هو فحل أو لا؟ أو هل هو من الفحول؟ فيجيبه الأصمعي ويرشده إلى ما يرى، مستدلا على رأيه ببعض ما يؤثر للشاعر من قصائد أو أبيات جيدة تسلكه في عداد الفحول، وينبه على الشاعر الذي لم يبلغ منزلة الفحول، مبينا تقصيره وحاجته إلى الزيادة على ما قال حتى يصير فحلا، وفي بعض الأحيان يتهكم الأصمعي على بعض الشعراء تهكما لاذعا كما فعل مع زهير الشاعر الجاهلي المشهور، الذي قال فيه إنه لا يصلح أن يكون أجيرًا للنابغة، وقد يبالغ الأصمعي في تقدير ما يروقه من آثار أدبية شعرية فيرفعه إلى أعلى منزلة، ويقول : ليس في الدنيا مثل هذا البيت، أو ليس في الدنيا مثل هذه القصيدة. والكتاب على العموم صورة واضحة لنفس الأصمعي وعلمه بالأدب والشعر والنقد.

وموضوع الكتاب، كما علمنا، فحولة الشعراء أو فحولهم. ويجمع الفحل على فحول وفحولة، وفحول الشعراء - كما في اللسان - هم الذين غلبوا على من هاجاهم مثل جرير والفرزدق وأشباههما، وكذلك كل من عارض شاعرا فغلب عليه مثل علقمة بن عبدة، وكان يسمى فحلا لأنه عارض امرأ القيس في قصيدته البائية المشهورة التي يقول فيها "خليلي مرابي على أم جندب"، وذلك حيث يقول في قصيدته : "ذهبت من الهجران في غير مذهب". والفحول أيضًا كما في اللسان الرواة، الواحد فحل . ويريد الأصمعي بالفحل ما كان له مزية على غيره من الشعراء كمزية الفحل على سواه. والكتاب أثر أدبي ونقدي نفيس، وقيمته في تراثنا الأدبي

---

(١) نشره توري أيضا (راجع ١٥٠/ ٢ بروكلمان تاريخ الأدب العربي).

ثمينة للغاية، بل إنه أصل نادر، وكتاب خصب، وكانت المكتبة العربية في مسيس الحاجة إليه، خاصة وأنه أقدم الكتب التي ألفت في النقد ودراسة الشعراء في مطلع العصر العباسي.

وللأصمعي روايات كثيرة مدونة في مصادر الأدب وأصوله، وهي تدور حول الأدب والشعر والنقد واللغة وأخبار العرب وأيامهم، ولا بأس أن نذكر بعضا منها :

قال الأصمعي[1] : قصدت في بعض الأيام رجلا كنت أغشاه لكرمه؛ فوجدت على بابه بوابًا؛ فمنعني من الدخول إليه : ثم قال : والله يا أصمعي ما أوقفني على بابه لأمنع مثلك إلا لرقة حاله، وقصور يده؛ فكتبت رقعة فيها :

إذا كان الكريم له حجاب ... فما فضل الكريم على اللئيم

ثم قلت له : أوصل رقعتي إليه؛ ففعل وعاد بالرقعة، وقد وقع على ظهرها:

إذا كان الكريم قليل مال ... تحجب بالحجاب عن الغريم

ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار. فقلت : والله لأتحفن المأمون بهذا الخبر؛ فلما رآني قال : من أين يا أصمعي ؟ قلت : من عند رجل من أكرم الأحياء، حاشا أمير المؤمنين . قال : ومن هو ؟ فدفعت إليه الورقة والصرة، وأعدت عليه الخبر. فلما رأى الصرة قال : هذا من بيت مالي، ولابد لي من الرجل! فقلت : والله يا أمير المؤمنين إني أستحيي أن تروعه[2] برسلك، فقال لبعض خاصته : امض مع الأصمعي : فإذا أراك الرجل، فقل له : أجب أمير المؤمنين من غير إزعاج ! فلما حضر الرجل بين يدي المأمون قال له : أنت الذي رفعت لنا بالأمس وشكوت رقة الحال، وأن الزمان قد أناخ عليك بكلكله[3]؛ فدفعنا إليك هذه الصرة لتصلح بها حالك؟ فقصدك الأصمعي ببيت واحد ؛ فدفعتها إليه ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين! والله ما كذبت فيما شكوت لأمير المؤمنين من رقة الحال، لكني استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدي إلا كما أعادني أمير المؤمنين، فقال له المأمون : لله أنت ؟ فما ولدت العرب أكرم منك !

وروى[4] الأصمعي قال : لقيت أعرابيا بالبادية فاسترشدته إلى مكان فأرشدني وأنشدني :

---

[1] ثمرات الأوراق للحموي ص٢٣٢ ج١.

[2] روعه : أفزعه .

[3] الكلكل : الصدر.

[4] أمالي المرتضى ص١٤٠ ج٢.

ليس العمى طول السؤال وإنما	تمام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عما عناك فإنما	خلقت أخا عقل لتسأل بالعقل

ثم رجعت إلى البصرة فمكثت بها حينا، ثم قدمت البادية، فإذا الأعرابى جالس بين ظهرانى قوم وهو يقضى بينهم، فما رأيت قضية أخطأت قضية الصالحين من أقضيته، ثم جلست إليه وقلت : يرحمك الله أما من رشوة أما من هدية ! أما من صلة ! فقال : إذا جاء هذا ذهب التوفيق، فشكوت إليه ما ألقى من عذل حليلة لى إياى فى طلب المعيشة، فقال : لست فيها بأوحد وإنى لشريكك، ولقد قلت فى ذلك شعرًا، قلت : أنشدنيه فأنشدنى:

باتت تعيرنى الإقتار والعدما	لما رأت لأخيها المال والخدما
عنف لرأيك ما الأرزاق من جلد	ولا من العجز بل مقسومة قسما
يا أمة الله إنى لم أدع طلبًا	للرزق قد تعلمين الشرق والشأما

وكان الأصمعى كثير العناية بالرواية، يذهب إلى البادية، وإلى كل الجهات، ليسمع خبرًا، أو يرى أثرًا، أو ينصت للهجة، أو يحادث عجوزًا، أو يتحدث مع رجل؛ وكان يتخذ من ذلك مادة لسمره فى مجالس الخلفاء، وقصور الأمراء.

قال الأصمعى[1] : دخلت بعض مقابر الأعراب، ومعى صاحب لى، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال، وعليها من الحلى والحلل مالم أر مثله، وهى تبكى بعين غزيرة وصوت شجى! فالتفت إلى صاحبى فقلت : هل رأيت أعجب من هذه ؟ قال: لا والله ولا أحسبنى أراه، ثم قلت لها : يا هذه إنى أراك حزينة وما عليك زى الحزن! فأنشأت تقول :

فإن تسألانى فيم حزنى فإننى	رهينة هذا القبر يا فتيان
وإنى لأستحييه والترب بيننا	كما كنت أستحييه حين يرانى

ثم اندفعت فى البكاء وجعلت تقول :

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بى	بالا ويكثر فى الدنيا مواساتى
قد زرت قبرك فى حلى وفى حللى	كأننى لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه	أن قد تسر به من بعض هيئاتى
فمن رآنى رأى عبرى مولهة	عجيبة الزى تبكى بين أموات !

---

[1] العقد الفريد ص٢٦ ج١.

وقال الأصمعي[١] : دفعت يومًا في تلمسي بالبادية إلى واد خلاء، لا أنيس به إلا بيت معتنز[٢] ، بفنائه أعنز، وقد ظمئت، فيممته فسلمت، فإذا عجوز قد برزت كأنها نعامة راخم[٣] ، فقلت هل من ماء ؟ فقالت : أو لبن؟ فقلت: ما كان بغيتي إلا الماء فإذا يسر الله اللبن فإني إليه فقير.

فقامت إلى قعب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله ثم جاءت إلى الأعنز فتغبرتهن[٤]، حتى احتلبت قراب[٥] ملء القعب ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وطفت ثمالته[٦] كأنها غمامة بيضاء، ثم ناولتني إياه فشربت حتى تحببت[٧] ريا واطمأننت.

فقلت : إني أراك معتنزة في هذا الوادي الموحش والحلة[٨] منك قريب، فلو انضممت إلى جنابهم[٩] فأنست بهم، فقالت : يا ابن أخي ! إني لآنس بالوحشة وأستريح إلى الوحدة ويطمئن قلبي إلى هذا الوادي الموحش، فأتذكر من عهدت، فكأني أخاطب أعيانهم وأتراءى أشباحهم، وتتخيل لي أندية رجالهم وملاعب ولدانهم ومندى أموالهم.

والله يا بن أخي، لقد رأيت هذا الوادي بشع[١٠] للديدين[١١] بأهل أدواح[١٢] وقباب، ونعم[١٣] كالهضاب، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرماح، يبارون الرياح، ويحمون الصباح، فأحال عليهم الجلاء قما[١٤] بغرقة، فأصبحت الآثار دارسة ، والمحال طامسة، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به.

---

[١] الأمالي ص٧ ج٢.
[٢] معتنز : منفرد.
[٣] الراخم : التي تحضن بيضها.
[٤] تغبرتهن : احتلبت الغبر وهو بقية اللبن في الضرع.
[٥] قراب : قريب.
[٦] الثمالة : الرغوة .
[٧] تحببت : امتلأت .
[٨] الحلة : وجمعها حلال : بيوت الناس.
[٩] الجناب : فناء الدار .
[١٠] بشع : ملآن.
[١١] اللديدان: الجانبان.
[١٢] الأدواج : الأشجار العظيمة.
[١٣] الهضاب: الجبال الصغار.
[١٤] قما : كنسا.

ثم قالت : ارم بعينيك فى هذا الملا[1] المتباطن[2]، فنظرت فإذا قبور نحو أربعين أو خمسين. فقال: ألا ترى تلك الأجداث؟ قلت : نعم. قالت: ما انطوت إلا على أخ أو ابن أخ، أو ابن عم، فأصبحوا قد ألمأت[3] عليهم الأرض. وأنا أترقب ما غالهم. انصرف راشدًا رحمك الله!

وقال الأصمعى[4]: سرت فى تطوافى فى العرب بجبلى طيىء: فدفعت إلى قوم منهم يحتلبون اللبن، ثم يصيحون : الضيف! فإن جاء من يضيفهم وإلا أراقوه فلا يذوقون منه شيئًا دون الضيف، إلا أن يجهدهم الجوع. ثم دفعت إلى رجل من ولد حاتم بن عبد الله، فسألته القرى فقال: القرى والله كثير ولكن لا سبيل إليه، فقلت: ما أحسب عندك شيئا، فأمر بالجفان، فأخرجت مكرمة بالثريد، عليها وذر[5] اللحم، وإذا هو جاد فى المنع، فقلت : والله ما أشبهت أباك حيث يقول:

وأبـــرز قـــدرى بالفـــناء قليـــلها يـــرى غـــير مضـــنون بـــه وكـــثيرها

فقال : إلا أشبهه فى هذا ، فقد أشبهته فى قوله:

أمـــأوى إمـــا مـــانع فمـــبين وإمـــا عطـــاء لا ينهـــنهه[6] الزجـــر

فأنا والله مانع مبين. فرحلت عنه. ودفعت إلى امرأة من ولد ابن هرمة فسألتها القرى، فقالت: إنى والله مرملة مسنتة[7]، ما عندى شىء، فقلت : أما عندك جزور ؟ فقالت : والله ولا شاة ولا دجاجة ولا بيضة! فقلت : أما ابن هرمة أبوك؟ فقالت: بلى والله! قلت: قاتل الله أباك! ما كان أكذبه حيث يقول :

لا أمـــتع العـــوذ[9] بالفصـــال ولا أبـــتاع إلا قريـــبة الأجـــل
إنـــى إذا مـــا البخـــيل آمـــنها باتـت ضـموزًا[8] مـنى عـلى وجـل

ووليت ، فنادت : أربع أيها الراكب، فعله والله ذلك أقله عندنا، فقلت : إلا تكونى أوسعتنا قرى، فقد أوسعتنا جوابًا!

---

[1] الملا : ما اتسع من الأرض.
[2] المتباطن : المتطامن .
[3] ألمأت : احتوت.
[4] ذيل الأمالى ص١١١ - الطبعة الأميرية.
[5] الوذرة من اللحم : القطعة الصغيرة لا عظم فيها.
[6] ينهنهه : يكفه.
[7] أسنتت : أصابتها السنة وهى الجدب.
[8] ضمز البعير : أمسك جرته فى فيه ولم يجتر.
[9] العوذ : الحديثات النتاج.

ابــن المقفـــع

هـو أبـو محمـد عبـد الله بـن المقفـع أحد بلغاء الكتاب الأولين والمترجمين المتأدبين وهو من سلالة فارسية من أهل خوزستان التى سمتها العرب الأهواز، وهى ولاية فارسية شرقى البصرة. وكان أبوه المقفع مجوسيا يسمى داذويه، وسبب تلقيبه بالمقفع أنه كان يعمل فى جباية الخراج لولاة العراق زمن بنى أمية، فاختان بعض مال الخراج فضربه الوالى ضربا تقفعت منه يده، وولد له ابنه هذا حوالى سنة ١٠٦ هـ، وسماه روزبه، فنشأ بالبصرة وهى يومئذ تعج بفصحاء العرب وخطبائها ونحاتها وشعرائها وبالوافدين عليها من فصحاء أعراب البادية، فأخذ ثقافته عن كل هؤلاء وتعلم على أبيه صناعة الكتابة واللغة الفارسية وآدابها، حتى بذ شبان عصره، فاستكتبه داود بن يوسف بن عمر بن هبيرة أحد ولاة بنى أمية على العراق، ثم اتخذه فى عصر الدولة العباسية عم الخليفة أبى جعفر المنصور كاتبا له أيام ولايته على كرمان من بلاد فارس وعلى يديه أسلم، وتسمى عبد الله وتكنى أبا محمد، ثم ألزمه أخوه إسماعيل بعض أولاده ليؤدبهم.

ثم خدم آخر حياته أخاهما سليمان بن على والى البصرة. واتصل بأبى جعفر المنصور وهو فى خدمة أعمامه، فكلفه ترجمة كثير من كتب الأدب والفلسفة اليونانية المنقولة قديما إلى الفارسية، واغتاله خفية سفيان بن معاوية والى البصرة بعد عزل سليمان، لضغينة عليه ولاتهامه بالزندقة والكيد للإسلام وذلك سنة ١٤٢ هـ.

وكان ابن المقفع نادرة فى الذكاء والإحاطة بعلوم اليونان وأدب الفرس، وكان أمة فى البلاغة، مع الإحكام ورصانة القول وشرف المعانى، وعبارته فى كليلة ودمنة ليس لها نظير فى السهولة ورشاقة الأسلوب مع بيان غرض وصحة مبنى، وقد مضى على كتابتها نحو مائتى سنة وألف، ولا يزال شبان مدارسنا يقرؤونها ويفهمونها معجبين بها كأنما كتبت لأطفال هذا العصر خاصة، ولا توصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة حيث يقول : "البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها"، ولكن عبارته فى الحكمة المنقولة من اليونان أو الفرس لا تخلو من تصعب، ولعل لحرصه على المحافظة على المعنى الأصلى أثرا فى جعل عبارته فيها ليست ناصعة البيان. وطبع له فى مصر كليلة ودمنة وكتاب الأدب الكبير وكتاب الأدب الصغير، وله غيرهما رسائل وكتب وضعها أو ترجمها .. ولابن المقفع رسائل بليغة منها الطوال. ومنها القصار.

أحمد بن يوسف

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح أحد فحول كتاب الرسائل في دولة بني العباس . وآل صبيح هم أهل بيت اشتهر بالكتابة والأدب والعمل الرفيع في دواوين الخلفاء أكثر من قرن، وكان جدهم صبيح مولى قبطيا لبني عجل أقام بالكوفة ونشأ بها ابنه القاسم عربي اللسان بليغ الكتابة. وخدم في دواوين بني أمية، وخلفه في صناعته ابنه يوسف، حتى جاءت الدولة العباسية فخدم بها ونشأ له ابنه أحمد أبلغ آل بيته، إذ تخرج على أيدي الرؤساء من البرامكة، وتقلبت به الأحوال حتى صار كاتبا للفضل بن سهل وزير المأمون، ثم اتخذه المأمون رئيس ديوان رسائله، فصدرت عنه أبلغ الكتب والتوقيعات، حتى غضب عليه المأمون غضبة مات في أثرها سنة ٢١٣ .. وكان أحمد بن يوسف أحد الذين يضرب بهم المثل في البلاغة، وأحد الذين ملكوا ناصية الكتابة في الإيجاز والإطناب في جزالة لفظ وسلاسة أسلوب وجودة معنى وهو أول من افتتح المكاتبة في التهانئ بالنيروز والمهرجان[1] . ومن أشهر رسائله الرسالة التي كانت سبب رقيه في دولة المأمون، وقد كتبها على لسان طاهر بن الحسين إلى المأمون يخبره بقتل الأمين وهي: "أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، فقد فرق حكم الكتاب بينه في الولاية والحرمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن إجماع المسلمين. قال الله عز وجل لنوح عليه السلام في ابنه : "يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح". ولا صلة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت في ذات الله. وكتبت إلى أمير المؤمنين، وقد قتل الله المخلوع وأحصد لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له وعده، فالأرض بأكنافها أوطأ مهاد لطاعته، وأتبع شيء لمشيئته".

عمرو بن مسعدة

هو أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول أبلغ كتاب الإيجاز. وهو ابن عم إبراهيم بن العباس الصولي. وجدهما صول تركي من أشراف جرجان، أسلم على يد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة في أثناء فتوحه بخراسان، وخدم أحفاده في دواوين الدولة العباسية، فكان عمرو هذا كاتب التوقيعات بين يدي الوزير جعفر

---

(1) ١ : ٩٥ ديوان المعاني.

البرمكي وزير الرشيد، وظهرت له نجابته وهو صغير، قال عن نفسه : كنت أوقع بين يدى جعفر، فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه فى رواتبهم فرمى بها إلى وقال: أجب عنها فكتبت: "قليل دائم خير من كثير منقطع"، فضرب بيده على ظهرى وقال: أى وزير فى جلدك .. وصدقت الأيام فيه ظن جعفر فصار بعد أحد وزراء المأمون الثقات عنده، وكان يعجبه بلاغته فى إيجازه.

وتوفى فى غزوة من الغزوات التى غزاها المأمون ببلاد الروم ببلدة ادنة سنة ٢١٧ .. ومن رسائله الموجزة : ما كتب به على لسان المأمون إلى أحد عماله وصية بشخص : "كتابى إليك كتاب واثق بمن كتب إليه، معنى بمن كتب له، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية" .. وكتب مرة وهو على رأس جيش نفدت أرزاقه رسالة إلى الخليفة المأمون يستمده بالمال وأرزاق الجند لأنهم هموا بعصيان أوامره:

"كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت لذلك أحوالهم" .. فأعجب المأمون ببلاغته وإيجازه ، وأمر للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر.

وحدث أحمد بن أبى خالد الأحول : أنه سمع المأمون يومًا – وعنده على ابن هشام، وأخواه – قد ذكر عمرو بن مسعدة[1] فاستبطأه، وقال : أيحسب عمرو أنى لا أعرف أخباره، وما يجبى إليه، وما يعامل به الناس! بلى والله! ونهض وانصرفنا. فقصدت عمرا من ساعتى، فخبرته بما جرى، وأنسيت أن أستحله من حكايته عنى؛ فراح عمرو إلى المأمون، فظن المأمون أنه لم يحضر إلا لأمر مهم، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة ، فأذن له.

فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه، وقال : يا أمير المؤمنين، أنا عائذ بالله من سخطه، ثم عائذ بك من سخطك. يا أمير المؤمنين، أنا أقل من أن يشكونى أمير المؤمنين إلى أحد، أو يسر على ضغنا يبعثه بعض الكلام على إظهاره ما يظهر منه! فقال : وما ذاك؟ قال عمرو : فخبرته بما بلغنى ولم أسم له مخبرى، فقال لى: لم يكن الأمر كما بلغك، وإنما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به، وإنما أخرج منى ما خرج معنى تجارينا. وليس لك عندى إلا ما تحب، فليفرخ روعك، وليحسن ظنك، فأعدت الكلام، فما زال يسكن منى، ويطيب من نفسى، حتى تحلل بعض ما كان فى قلبى، ثم بدأ فضمنى إلى نفسه : وقبلت يده، فأهوى ليعانقنى، فشكرته،

---

[1] وزير المامون وأحد الكتاب البلغاء توفى سنة ٢١٧ هـ (١٤٥ - ١٤٨ / ٣ وفيات الأعيان لابن خلكان)، أو ٢١٤ هـ (١٢٧ ١٣١/١٦ معجم الأدباء لياقوت).

وتبينت في وجهه الحياء والخجل مما تأدى إلي. قال أحمد : فلما غدوت على المأمون، قال لي: يا أحمد، أما لمجلسي حرمة؟ فقلت : يا أمير المؤمنين، وهل الحرم إلا لما فضل عن مجلسك! قال: ما أراكم ترضون بهذه المعاملة فيما بينكم! قلت: وأية معاملة يا أمير المؤمنين؟ هذا كلام لا أعرفه، قال: بلى، أما سمعت ما كنت فيه أمس من ذكر عمرو! ذهب بعض من حضر من بني هاشم فخبره به، فراح إلي عمرو مظهرًا منه ما وجب عليه أن يظهره، فدفعت منه ما أمكن دفعه، وجعلت أعتذر إليه منه بعذر قد تبين في الخجل منه! وكيف يكون اعتذار إنسان من كلام قد تكلم به! ألا يتبين في عينيه وشفتيه ووجهه، ولقد أعطيته ما كان يقنع مني بأقل منه، وما حداني عليه إلا ما دخلني من الخساسة، وإنما كان نطق به اللسان من غير روية ولا احتمال مكروه به.

فقلت : يا أمير المؤمنين، أنا أخبرت عمرًا به لا أحد من ولد هاشم، فقال: أنت! قلت : أنا ! فقال : ما حملك على ما فعلت؟ فقلت : الشكر لك والنصح، والمحبة لأن تتم نعمتك على أوليائك وخدمك، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء والبعداء، فكيف الأولياء والأقرباء، ولاسيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل، ومكانه من رأى أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه! سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئا فخبرته به ليصلحه، ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه، ويتلافى ما فرط منه، ولا يفسده مثله، وإنما يكون ما فعلت عيبًا لو أشعت سرا فيه قدح في السلطان، أو نقض تدبير قد استتب، فأما مثل هذا فما حسبته يبلغ أن يكون ذنبا علي.

فنظر إلي مليا، ثم قال: كيف قلت؟ فأعدت عليه، ثم قال: أعد فأعدت، فقال: أحسنت والله يا أحمد! لما خبرتني به أحب إلي من ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف.

وعقد خنصره وبنصره والوسطى، ثم قال : أما ألف ألف فلنفيك عني سوء الظن، وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فلصدقك إياي عن نفسك، وأطلق البنصر، وأما ألف ألف فلحسن جوابك، وأطلق الخنصر، وأمر لي بمال!

الجاحظ شيخ الكتاب والنقاد

-١-

كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية فى النصف الأول من القرن الثالث، وكان مجده الأدبى الذائع يعصف بمجد كل أديب، ويدوى فى كل أفق، ويرن صداه فى سمع كل كاتب وشاعر وخطيب.

وعاش الناس فى عصره وبعد عصره عيالا عليه فى البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة، كما يقول ابن العميد، وعدوا التلمذة عليه شرفا لا يعد له شرف ومجدا يدنيهم من بلاط الملوك، وتعصب له كثير من رجالات الثقافة الإسلامية فى شتى عصورها، فألفوا الكتب فى الإشادة به - كما فعل أبو حيان التوحيدى فى كتابه تقريظ الجاحظ - ، وبالغوا فى الإشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرة الأمة العربية عليه، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ونهج كبار الكتاب نهجه فى الثقافة والبيان، وكان فخر الرجل فى أن يلقب بلقبه، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ويرونها تعلم العقل أولاً والأدب ثانيًا، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الإسلامى بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها فى البيت الحرام وعرفات، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسمهم بميسم الخزى والهوان إلى الأبد. ومن ساء جده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة، سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لا يغفرها الزمن، كما فعل الجاحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتهكمة "التربيع والتدوير" .. وحسبك أن المأمون كان يقرأ تآليف الجاحظ ويثنى عليها ويستجيدها[1].

ومجد الجاحظ الأدبى مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة، وهو مجد بوأه صرحه الخالد : كفاءته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة، فقد عاش الجاحظ محرومًا من كل شىء إلا من مجد الأدب، وشهوة العلم، ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التى كان يصعد إليها فى عهده كثير من الكتاب، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة فى ديوان رسائل الدولة، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه، أو قل إنه حورب فيها من أجله، حذرا من أن يأفل به نجم الكتاب كما كان يرى سهل بن هارون، وهذا الإخفاق فى

---

[1] ٢١١ ج٣ البيان نشر السندوبى ط ١٩٢٧.

الحياة العامة الذى منى به الجاحظ فى عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه فى رسالته "الزوابع والتوابع"، ومما جعله يخطىء من يذهب إلى تقديم الجاحظ على سهل بن هرون، وإن كان تحكيم التوفيق فى الحياة فى وزن الشخصيات وتقديرها ضلالا وغبنا.

ولكن ما سر هذا الإخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة، مع تقدم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس: إما لأنه كان مقصرا فى الكتابة وجميع أدواتها، أو لأنه كان ساقط الهمة، أو لأن دمامته وإفراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شىء قد يكون غريبا، فذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل وقد تجد عالما غير عاقل.

أما أن الجاحظ ينقصه أداة - أيًا كانت هذه الأداة - من أدوات الكتابة، فذلك ما ترده الحقيقة المقررة، فعقل الجاحظ وفنه الأدبى وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك وريب. وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح، لا يتطلع إلى مجد ينشده أو جاه سلطان يناله، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح. وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر فى هذا الإخفاق فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة، حتى إنه ذكر للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

الحق أن الجاحظ كان عربيًا فى روحه ودمه وحياته؛ وكان يتعصب للعرب فى كل شىء حتى فى الثقافة والأدب فى عصر كان النفوذ والسلطان فى الدولة فيه للعناصر الأجنبية لاسيما الفرس؛ وكثيرًا ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب، إلا من اتصل منهم بحبل وزير أو أمير، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات الوزير م سنة ٢٣٣هـ، والذى أهدى له كتابه "الحيوان" وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء، ولم يستطع أو لم يتسن له، أن يستفيد شيئا من وراء هذه الصداقة، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد بن أبى دؤاد الذى سيق إليه الجاحظ مغلولا لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك؛ ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه، وثوقا منه بظرفه وأدبه لا بإخلاصه وولائه.

ثم لا ننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب، لا مواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة، وقد رفعته مواهبه العقلية والعلمية والأدبية

مكانا عليا، ما كان ينتظر أن ترفعه إليه السياسة مهما حلق فى أجوائها، وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه للحياة نفسها، وكان خوضه فى معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض فى ميادين السياسة والاجتماع، وكانت لذته فى الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته فى مجد السياسة وسلطانها؛ فالجاحظ أولا وقبل كل شىء هو رجل الثقافة والأدب، وهو المعتزلى الذى تتلمذ على النظام، ثم عاف تقليد غيره فى العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزليين، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية الذى وعى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات فى شتى علوم الدين والدنيا؛ وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٠ – ٢٥٥هـ)، وكان له فى صدر شبابه فخر التلمذة على شيوخها فى اللغة والأدب وفى علوم الدين والكلام والتفكير والمنطق، كما كان له فخر صداقة رجال الفكر والسياسة فى الدولة؛ وقد استفاد من وراء هذا وذاك نضوجا كبيرا فى عقليته وثقافته، هيأه لأن يكون محور الثقافة الإسلامية فى عصره، لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع.

ولا يضير الجاحظ أن يكون كما قال بديع الزمان الهمدانى: فيه من أحد شقى البلاغة يقطف وفى الآخر يقف[1]، فقد يجيد الرجل فى باب من أبواب الأدب دون باب. ولا يغض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه ؛ ولكن البديع أراد الفخر بنفسه على حساب الجاحظ، وليته وقف عند هذا الحد فلم يرم الجاحظ بأن كلامه بعيد الإشارات، قليل الاستعارات قريب العبارات، وأنه منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معتاصه يهمله، وأنه ليس له لفظة مصنوعة، أو كلمة غير مسموعة[2]. وإنما أراد البديع أنه فوق الجاحظ أدبًا وبيانًا ، وهيهات !

وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة منوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات المختلفة التى مازجت الثقافة الإسلامية فى عصره، فهو عالم من علماء الدين، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة لا تقف عند غاية؛ وقد خاض الجاحظ فى جداول الثقافات الأخرى، التى سرت فى تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثانى الهجرى، وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لا نشك أنها أفادت ذلك من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التى شاعت فى البيئة الإسلامية فى عصر الجاحظ. ولا شك أن عصر الجاحظ، وعقليته وشغفه بالدراسة والبحث

---

[1] ص ٢٨ مقامات البديع المقامة الجاحظية .
[2] ص ٨٢ و٨٣ المرجع.

وعكوفه على القراءة، ونشأته بالبصرة، وتلقيه اللغة عن الأعراب فى المربد والعلماء فى حلقات البصرة ومجامعها العلمية، وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة العربية فى شتى مناحيها، كأبى يوسف القاضى والنظام والأصمعى والأخفش وابن الأعرابى وأبى عبيدة وأبى زيد الأنصارى، كان له أثره فى ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب، المتعددة الألوان.

وشخصية الجاحظ تطالعك فى أدبه وكتبه من كل جانب وناحية؛ وهى شخصية رجل الفكر الواثق بشخصيته وعقليته وثقافته، المؤمن بها، الحريص على كرامته، المعتز بنفسه. يخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم، فلا يفنى شخصيته فى شخصياتهم، بل يراهم إخوانه، ويرى له عليهم حق الصداقة ودالة الأخوة، ولا يجبن عن توجبه العتاب واللوم إليها. وأنت حين تقرأ فى كتب الجاحظ ومؤلفاته تغيب فى جو بعيد تطل عليك فيه شخصية الرجل، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها، وبتوجيهها الساحر لعقل القارئ وفكره وشعوره، حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه، ويشعر شعورا صادقا أنه قد نقل من جوه هو إلى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة، تملك عقلك وعاطفتك، وتروعك بكثرة حفظها وروايتها، كما تروعك بروعة فكرها وجلال بيانها، وتتركك صريعا فى معارك فكرية، ترى الجاحظ فارسها المعلم، وترى قلمه البليغ عصا الساحر المتحدى تسترعى السمع والبصر، وتبهت الفكر والعقل، وتلهب العاطفة والشعور.

والعجيب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته فى تآليفه جعلت كثيرًا ممن لا يفهمون الجاحظ يرونه كاتبا لا شخصية له، تطمس شخصيات من يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه، وتبدو أمام عينيك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم، ولا تلمس آثاره بينهم.

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة فى فكره وفى كتابته وأسلوبه، وفى بحثه وتأليفه، فإذا فكر فبعقل الخاصة، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم، ولمن يفكر فى مجال تفكيرهم، وليس ذلك لأن الجاحظ "يستمسك بفائدته ويضن بما عنده، غيرة على العلم، وشحا بثمرة الفهم، ولذلك كان كتاب "البيان" موقوفًا على أهله، ومن كرع فى حوضه، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه " كما يقول ابن شهيد، إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن يفكر تفكير الخاصة، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شىء، ويرضى شهوته فى تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتابة الموسوعات. كما يرى بعض الباحثين

المعاصرين[1]؛ وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه إلا رجل مثله، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته في كتبه ومؤلفاته، ما داموا لا يستطيعون مجاراته في نواحي ثقافته العقلية والأدبية. وحسب الجاحظ مجدا وخلود ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب : البيان والتبيين.

-٢-

ألف الجاحظ كتابه "الحيوان"، وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار. ثم ألف بعده كتاب "البيان" وأهداه إلى أحمد ابن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان، وكان لظهور "البيان والتبيين" ضجة كبيرة في الأدب والبيان، حتى إنه حمل إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات.

وكتاب "البيان" ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهرة والإعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه، وينال كتابه الذكر والذيوع، ومن كثرة الاستطراد الذي يستدر به الجاحظ نشاط القارئ وإعجابه كما يقول الجاحظ في تعليله له، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكرهم في كتابه ترتيبا يتمشى مع التاريخ بعجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ كبير، فالجاحظ لو أراد لما أعجزه شيء، إنما هو مذهبه في الاستطراد والانتقال.

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله - أو كثيرا منها - محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسغ عليها أحيانًا روحا توائم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى إليه كتابه من تقدير وإجلال، وأسلوب الكتاب الاستطرادي جعل الجاحظ يعدنا في كتابه بأنه سيذكر الشيء ثم لا يذكر ولا يفي بوعده، وهذا الأسلوب الاستطرادي أيضًا جعل الجاحظ ينقد نفسه في ترتيب فصول كتابه، وجعله يرسم منهجه في أجزاء كتابه في آخر الجزء الأول منه، وجعله يضع في أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارئ بمزيد الابتسام، فهو يعنون فصولا بباب البيان، وأخرى يسميها باب الصمت، وأخرى باب اللحن أو باب الزهد، إلى آخر هذه الألقاب، التي نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئا منها ولم يضعها إلا للتغرير بالقارئ، واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته. وكتاب "البيان"، يجمع بين دفتيه الكثير

---

[1] ٤٩ / ٢ النثر الفني.

من بلاغة العرب وسحرهم فى البيان كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم، ورسم فيه صورا صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده؛ والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصره.

ولكتاب البيان كذلك أثره فى النقد الأدبى، فهو سجل حافل للآراء المختلفة فى النقد ممالا يزال إلى الآن موضع البحث والإعجاب. والجاحظ الذى نقد مذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء، وآثر مذهب المطبوعين، كان يضع بذلك أسا كبيرا لعلم النقد وتطوره الأدبى. وعصرنا الحديث يؤمن كل الإيمان برأى الجاحظ ويسير فى تياره الفكرى والأدبى، كما يسير على ضوئه فى البيان العربى وبلاغته.

وكتاب البيان ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة، التى أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب؛ وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والإحاطة التامة بالبيان وبلاغته: وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية الفذ وبطلها الكبير. وأثر "البيان" وقيمته مما يعسر على الباحث تفصيله وإيفاؤه حقه من التقدير والإنصاف ودقة الحكم: فالكتاب أصل من أصول الأدب، وهو فى أسلوبه وفى نهجه وفى رواياته وفى آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين فى أدبها. وقيمته فى البيان العربى خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء فى البلاغة وعناصرها، واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغايتها وأثرها.

والبيان أول كتاب ظهر فى الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه، ويشيد به أبو هلال [1]؛ ويعده ابن خلدون من أركان الأدب[2]؛ والكتاب يبحث فى فنون الأدب والبلاغة، ويتناول النقد واللغة، ويأتى على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين وآثارهم الأدبية، وهو من أجل وثائق الأدب فى الجاهلية والإسلام [3]، ويذكر ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضلا [4]، ويذكر أبو أحمد العسكرى مثلا من تصحيف الجاحظ فيه [5]. وينقد ابن شهيد الكتاب [6] ورد عليه بعض المعاصرين [1].

---

[1] ٦، ٧ الصناعتين.
[2] ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون.
[3] ٣٥ الجاحظ لمردم.
[4] ٢٢٧/ ١ العمدة.
[5] ٥٣ و ٥٤ التصحيف والتحريف.
[6] ١٩٨ / ١ ذخيرة.

والكتاب بجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وأثرها، سواء كانت هذه الآراء من جميع الجاحظ وروايته أم من رأيه وتفكيره، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة [٢]، أو كما يصورها بشر ابن المعتمر [٣]، أو كما يراها ابن المقفع [٤]، ولهذه النصوص قيمة كبيرة، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربى لما جمعه من النصوص التى توضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربى، وتعطينا صورة مجملة لنشأته [٥].

وفى الكتاب كثير من بحوث البلاغة، فهو يعرف الاستعارة [٦]، ويتكلم على السجع [٧]. ويشير إلى التفصيل والتقسيم [٨]، والاستطراد، والكتابة [٩]، والأمثال [١٠]، والاحتراس [١١] و القلب [١٢]، والأسلوب الحكيم [١٣]، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب للكلامى بهذا الاصطلاح [١٤] ، ويرى الجاحظ أن البلاغة فى النظم لا فى المعانى قال : والمعانى مطروحه فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفى صحة الطبع وجود السبك [١٥]، وهو ما ذهب إليه ابن خلدون [١٦] ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شىء والمعنى ليس شيئا مذكورا. وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها، مما لا داعى إلى ذكره هنا

---

(١) ٥٠ / ٢ النثر الفنى.
(٢) ١/٧٩ البيان.
(٣) ١/٤ وما بعدها البيان.
(٤) ١/٩١ البيان.
(٥) ٣ مقدمة نقد النثر.
(٦) ١/١١٦ البيان.
(٧) ١/١٩٤ البيان.
(٨) ١/١٧٠ و ٢/٩١ البيان، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة راجع ٧٨ نقد الشعر، ٣٣٢ صناعتين.
(٩) ١/١٨٠ و ٢٩ و ٣١ و ٣٥ / ٣ البيان.
(١٠) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ / ١ و ٢٢٤ / ٢ البيان.
(١١) ١٦١ / ١ وما بعدها البيان.
(١٢) ١٨٠ / ١ البيان.
(١٣) ٢٠١ و ٢٠٢ ج٣ البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ "اللغز فى الجواب" (١١٦ / ٢ البيان).
(١٤) ١٠١ البديع. ٧٦ / ٢ العمدة.
(١٥) ٣/٤٠ الحيوان.
(١٦) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون.

خوفا من كثرة الإسهاب .. والجاحظ يشيد بالإيجاز ويدعو إليه كثيرا فى بيانه [1]. وبعد فالجاحظ وكتابه "البيان" أثر فى نشأة البيان العربى وأى أثر. ويعد ابن خلدون الجاحظ من السابقين فى التأليف فى البيان [2].

خدم الجاحظ البيان العربى خدمة لا تقدر بالكتابة - فى كتبه - فى شتى بحوثه، وجمع مختلف الآراء والمذاهب فى عناصره وألوانه، ولم نعلم أن باحثا أفرد البيان العربى بتأليف قبل الجاحظ، إنما كان كل ما هنالك آراء مبثوثة متفرقة لكثير من رجال البيان والأدب، وكانت خسارة البيان فى عدم تدوينها تكاد تكون فادحة بالغة منتهاها، وما تجده فى الكتاب لسيبويه ومجازات القرآن لأبى عبيدة والشعر والشعراء لابن سلام فإنما هو قليل من كثير إذا قيس بما جمعه الجاحظ فى كتبه ومؤلفاته، نعم لا يمكن لأى باحث أن ينكر حقيقتين هامتين:

أولاهما أن الجاحظ أظهر من أفراد البيان بمعناه العام بالتأليف فى كتابه الكبير (البيان والتبيين)، وثانيتهما أن له فضل جمع مختلف الآراء والمذاهب فيه، والجمع والإحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد، ومنزلة العالم فى الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها، وإذا قرأت كتب الجاحظ لاسيما "الحيوان" و"البيان" عرفت منزلة الجاحظ فى هذا السبيل. ومن الغريب أن نرى شخصية الجاحظ واضحة فيما يجمعه وضوحها فيما يبتكره من آراء ومذاهب، بعكس كثير من العلماء والباحثين. والجاحظ فوق أثره الكبير فى جمع آراء رجال البيان والبلاغة فى مذاهبهما وعناصرهما فى كتابه "البيان" على الخصوص، له وراء ذلك فضل خاص وجهد مستقل، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدها من عقليته وثقافته، وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين فى البيان العربى وقواعده.

وقد ظهر الجاحظ فى عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان: اتجاه يرمى إلى الظهور بمظهر البداوة التقليدى فى الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهى من الأساليب متناسيا روح العصر وذوقه. واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبألوان الحضارة فى العيش والتفكير. فمال إلى رقة الأسلوب وسهولته، مع حرص على إرضاء الطبع والذوق، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية

---

(1) ٨٠ و ٨٦ و١١٤ و١٥٢ و١٨٧ و٢/١٩٨ البيان .

(2) ٥٥١ مقدمة ابن خلدون.

والأدبية المنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه إلى الاتجاه الأخير وكتابه البيان كله دعوة إلى هذا الرأى.

والجاحظ إمام الكتاب وشيخ البيان وعلم من أعلام الأدب والنقد، وهو من أئمة المعتزلة، تتلمذ على النظام وسواه من فحول عصره، فخرج واسع الثقافة عميق التفكير، كثير الإحاطة والاطلاع على شتى المؤلفات والتراجم المنقولة من جميع اللغات إلى العربية.

اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة، وعن طريق المتكلمين، وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية[1]. كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه، وتوسع فى الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب[2]، وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد بعيد، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة فى الأسلوب استعماله القياس المضمر وهو المذهب الكلامى عند البديعيين[3]، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية، وخاصة كتاب المنطق، بأنه فى أسلوب سقيم، فالجاحظ ولا شك قد تأثر "بالخطابة" لأرسطو[4]، وأنكر باحث آخر أن يكون كتاب البيان متأثرًا بخطابة أرسطو أو صدى له، لأن الجاحظ لم يره[5] وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين[6].

ومن البدهى أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إلمامًا واسعًا، ويبدو لى أنه كان يعرف اللغة الفارسية، ففى البخلاء يحكى الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق: لو خرجت من جلدك لم أعرفك، قال الجاحظ وترجمة هذا الكلام بالفارسية "كراز بوستت بارون بيائى نشاسيم[7] .. وأثر ثقافته الفارسية واضح فى كتبه وفى مؤلفه "البيان" .. أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضًا فى الحيوان وفى كتابه البيان، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب

---

(1) ١/٤٠١ ضحى الإسلام.

(2) ٣٨٧/ ١ المراجع.

(3) ٦٢٠ و٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة فى أسبوع الجاحظ، وإذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابة (٣/١٥ البيان)، فليس ذلك إلا فى مقام الرد على الشعوبيين، وقد يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان.

(4) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦.

(5) ٢٦٢ المرجع السابق.

(6) مقدمة نقد النثر.

(7) ص١٩ البخلاء.

الحيوان واستدل برأى لأرسطو فيه [١] وكان مصدرا كبيرا له فى كتابه "الحيوان"، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيرًا [٢]، ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكىء اللسان مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه [٣]، ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان [٤] ويذكر كتب اليونان فى المنطق، وأن الحكماء جعلتها معيارًا للتفكير [٥]، ويذكر نوادر ريسموس اليونانى [٦] ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم فى الخطابة ذكر [٧] .. وأقسام الدلالة عند الجاحظ [٨] هى من تفكير أرسطو، ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها، ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها فى المنطق، وللهند حكمها وسيرها وعللها، ويرى أنها لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة [٩]. وللجاحظ رسالة فى نقد الكندى [١٠].

ويذكر الجاحظ فى البيان "صناعة الكلام"، ويعنى بها حينًا علم الكلام [١١]، وحينًا آخر البيان [١٢]؛ ويذكر اصطلاحات أخرى: كصناعة المنطق [١٣]، وصناعة الخطابة، ويذكر أحيانًا "أصحاب الخطابة والبلاغة" [١٤].

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو، فدعوته إلى ترك الوحشى والسوقى [١٥] له نظير عند أرسطو الذى دعا إلى هجر الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها إلا العامة، [١٦] وقال "ينبغى ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد فى المتانة مبلغ الأمر الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة

---

(١) ١/٦١ البيان.
(٢) ٦٩ و١/١٢٨ البيان.
(٣) ٣/١٥ البيان.
(٤) ١/٧٥ البيان.
(٥) ٣/٧ البيان.
(٦) ١٦٥ ج٢ البيان.
(٧) ٣/١٥ البيان، والظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شىء من خطابتهم.
(٨) ١/٦٩ البيان، وهى فى ٤٠ الرسالة العذراء، ٩ نقد النثر.
(٩) ٣/٧ البيان.
(١٠) ٤٢ الجاحظ لمردم.
(١١) ٦٩/ ١ البيان.
(١٢) ١٠٨ / ١ البيان. ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٣ج ٤ زهر).
(١٣) ٧٩/ ١ البيان.
(١٤) ١٨٣ / ١ البيان.
(١٥) ١٠٥ و ١١٠ و١٧٦/ ١ البيان.
(١٦) نقلا من الشفاء لابن سينا.

العامية ولا تحوج إلى الكلفة المشنوءة"؛ ودعوة الجاحظ إلى الوضوح [1] لها نظير عند أرسطو حيث يذكر "حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الأغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن في الإغرابات، بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون أسقاط الجمهور" .. واللحن وخروجه عن حد البلاغة [2] موجود في خطابة أرسطو، حيث يوجب أن "يكون اللفظ فصيحا لا لحن فيه"، ويذكر الجاحظ استعمال المبسوط في مواضعه والمقصور – المحذوف الموجز – في مواضعه [3] والإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يوم الإطناب [4]، وأرسطو أول من أشار إلى ذلك كله فذكر الإيجاز والإسهاب وأشار إلى أن لكل منهما مقامًا. وعلى أي حال فمرجع هذا التشابه في الأفكار أرجح أن سببه نقل الجاحظ كثيرًا عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو في النقد، وعلى الأخص الخطابة والشعر. ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيرًا من النظريات التي شرحها أرسطو في كتابيه، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التي ألم بها أرسطو [5] لا يشير إليها الجاحظ في بيانه، وهو على العموم لم يطلع على كتابي أرسطو، ولا نشك في أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في عصره كثيرًا، ونقل عمن اطلعوا على خطابة أرسطو .. ويكفينا ذلك التحقيق في هذا المقام.

عبد الله بن طاهر

كان بمحل من علو المنزلة وعظم القدر ولطف مكان من الخفاء، يستغنى به عن التقريظ له، والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهور عند الخاصة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحل الذي لا يدفع، وفي السماحة والشجاعة مالا يقاربه فيه أحد .. ولد سنة ١٨٢ وتوفي عام ٢٣٠ هـ .. أعطاه المأمون مال مصر لسنة خراجها وضياعها فوهبه كله وفرقه في الناس، ورجع صفرًا من ذلك، فغاظ المأمون فعله، فدخل إليه يوم مقدمه، فأنشده أبياتًا قالها في هذا المعنى وهي:

---

[1] ٦٨ و ١١٠ و١٧٦ ج١ البيان.

[2] ١٢١ / ١ البيان.

[3] ١/٥١ البيان ويشير إلى ذلك في مواضع أخرى من كتابه (١٤١ و١٤٧ و١٦١ و١٨٠/١ البيان).

[4] ١٢٠ رسائل الجاحظ وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للإيجاز مواضعه وللإطالة مواضعها (مقدمة أدب الكاتب).

[5] كدراسته للاستعارة، وللرباطات (حروف العطف)، وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد، وللجناس وسواه، ونظرية أرسطو في الوصل هي التي يفيض عبد القاهر في شرحها في الدلائل .. ونصيب في نقده للكميت في قوله "تكامل فيها الأنس والشنب"لأنه باعد في القول (١٣٤/ الأغاني. ٣٥٥/ ١ الكامل) لا ينم ذلك عن معرفته بأسرار هذه الدراسات البيانية.

نفســي فـداؤك والأعـناق خاضـعة	للنائــبات أبـــيا غــير مهتضـــم
إليك أقبلت من أرض أقمت بها	حولين بعدك في شوق وفي ألم
أقفو[1] مساعيك اللائي خصصت بها	حذو الشراك على مثل من الأدم
فكـان فضـلى فـيها أنـى تـبع	لما سننت من الأنعام والنعم
ولو وكلت إلى نفسي عنيت بها	لكـن بـدأت فـلم أعجـز ولم ألم

فضحك المأمون، وقال : والله ما نفست عليك مكرمة نلتها، ولا أحدوثة حسن عندك ذكرها، ولكن هذا شيء إذا عودته نفسك افتقرت، ولم تقدر على لم شعثك[2] وإصلاح حالك، وزال ما كان في نفسه. ولما فتح عبد الله مصر وأعطاه المأمون خراجها صعد المنبر فلم يزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف ألف دينار أو نحوها فأتاه معلى الطائي[3] وقد أعلموه ما صنع بالناس في الجوائز وكان عليه واجدًا فوقف بين يديه تحت المنبر، فقال : أصلح الله الأمير، أنا معلى الطائي، وقد بلغ مني ما كان منك من جفاء وغلظ، فلا يغلظن على قلبك، ولا يستخفنك الذي بلغك، أنا الذي أقول :

يا أعظم الناس عفوًا عند مقدرة	وأظلم الناس عند الجود للمال
لو أصبح النيل يجري ماؤه ذهبا	لما أشرت إلى خزن بمثقال
تغلي[4] بما فيه رق الحمد تملكه	وليس شيء أعاض الحمد بالغالي
تفك باليسر كف العسر من زمن	إذا استطال على قوم بإقلال
لم تخل كفك من جود لمختبط[5]	ومرهف قاتل في رأس قتال
وما بثثت رعيل[6] الخيل في بلد	إلا عصفن بأرزاق وآجال
إن كنت منك على بال مننت به	فإن شكرك من قلبي على بال
ما زال مقتضبا لولا مجاهرة	من ألسن خضن في صدري بأقوال

فضحك عبد الله وسر بما كان منه وقال: يا أبا السمراء أقرضني عشرة آلاف دينار، فما أمسيت أملكها فأقرضه، فدفعها إليه.

---

[1] أقفو : أتبع .. الشراك : سير النعل على ظهر القدم.
[2] الشعث : من شعث أمر فلان كفرح : انتشر .
[3] معلى الطائي : شاعر مصري كثيرًا ما يذكر في شعره حوادث مصر.
[4] أغلى الشيء : جعله غاليًا.
[5] المختبط : سائل المعروف ، والمرهف : السيف.
[6] الرعيل : القطعة من الخيل.

ولعبد الله ألحان صاغها، ومن مختارها وصدورها ومقدمها لحنه في شعر أخته عاصية، فإنه صوت نادر جيد، صحيح العمل، مزدوج النغم، بين لين وشدة، على رسم الحذاق من القدماء، وهو :

هـلا سـقيتم بـني سـهم أسـيركم نفسي فداؤك من ذي غلة صادي [1]
الطـاعن الطعـنة الـنجلاء يتـبعها مضـرج بعـد مـا جـادت بإزبـاد [2]

ومن غنائه أيضًا :

راح صـحبي وعـاود القلـب داء مـن حبيـب طلابـه لي عـناء
حسـن الـرأي والمواعـيد لايلـ ـفي لشـيء ممـا يقـول وفـاء
مـن تعـزى عمـن يحـب فـإني لـيس لي مـا حييـت عـنه عـزاء

ولما شخص [3] أبو تمام إلى عبد الله بن طاهر، وهو بخراسان، أقبل الشتاء وهو هناك، فاستثقل البلد، وقد كان عبد الله وجد [4] عليه، وأبطأ بجائزته ؛ لأنه نثر عليه ألف دينار فلم يمسسها بيده ترفعا عنها فقال: يحتقر فعلي، ويترفع علي، فكان يبعث إليه بالشيء بعد الشيء، كالقوت. فقال أبو تمام:

لم يـبق للصـيف رسـم ولا طلـل ولا قشـيب فيستكسـى ولا سمـل [5]
عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت يسراه وهـي لـنا مـن بعدهـا بـدل

فبلغت الأبيات أبا العميثل شاعر آل طاهر، فأتى أبا تمام واعتذر إليه لعبد الله ابن طاهر. ثم دخل إلى عبد الله فقال : أيها الأمير : أتتهاون بمثل أبي تمام، وتجفوه ؟ فوالله لو لم يكن له ما له من النباهة في قدره، والإحسان في شعره، والشائع من ذكره، لكان الخوف من شره، والتوقي لذمه، يوجب على مثلك رعايته ومراقبته، فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن، وفراقه السكن، وقد قصدك عاقدا بك أمله، معملا إليك ركابه، متعبا فيك فكره وجسمه، وفي ذلك ما يلزمك قضاء حقه، حتى ينصرف راضيا، ولو لم يأت بفائدة إلا قوله:

---

(1) كالصادي : العطشان.
(2) كالإزدباء : الإتيان بالزبد كما يفعل البعير إذا هدر . والمضرج : المدمى. والنجلاء : الواسعة.
(3) الأغاني ص١٠٣ ج١٥.
(4) وجد عليه غضب.
(5) السمل : الثوب الخلق.

يقول في قومس[٣] صحبي وقد أخذت ... منا السرى وخطا المهرية[١] القود[٢]
أمطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا؟ ... فقلت : كلا ولكن مطلع الجود

فقال له عبد الله : لقد نبهت فأحسنت، وعاتبت فأوجعت، ولك ولأبي تمام العتبي[٤]. ادعه يا غلام فدعاه. فنادمه يومه، وأمر له بألفي دينار وما يحمله من الظهر، وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه، وأمر ببذرقته[٥] إلى آخر عمله.

وقال أبو السمراء: خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين إلى مصر، حتى إذا كنا بين الرملة[٦] ودمشق، إذا نحن بأعرابي قد اعترض، فإذا شيخ فيه بقية، على بعير له أورق[٧]، فسلم علينا فرددنا عليه السلام، وكان معنا إسحق ابن إبراهيم الرافقي، وإسحاق بن أبي ربعي، ونحن نساير الأمير، وكنا يومئذ أفره من الأمير دواب، وأجود منه كسا[٨]. فجعل الأعرابي ينظر في وجوهنا، فقلت : يا شيخ، قد ألححت في النظر! أعرفت شيئا أم أنكرته؟ قال: لا والله ما عرفتكم قبل يومي هذا، ولا أنكرتكم لسوء أراه فيكم؛ ولكني رجل حسن الفراسة في الناس، جيد المعرفة بهم؛ فأشرت له إلى إسحاق بن أبي ربعي، فقلت : ما تقول في هذا؟ فقال:

أرى كاتبًا : داهي الكتابة بين ... عليه وتأديب العراق منير
له حركات قد يشاهدن إنه ... عليم بتقسيط الخراج بصير

ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقي، فقال:

ومظهر نسك ما عليه ضميره ... يحب الهدايا بالرجال مكور
إخال به جبنا وبخلا وشيمة ... تخبر عنه إنه لوزير

ثم نظر إلي، وأنشأ يقول :

وهذا نديم للأمير ومؤنس ... يكون له بالقرب منه سرور
وأحسبه للشعر والعلم راويًا ... فبعض نديم مرة وسمير

---

[١] قومس : إقليم في طبرستان.
[٢] الأبل المهرية : تنسب إلى مهرة: حي في العرب.
[٣] القود : جمع أقود وهو الطويل العنق.
[٤] أعتبه : سرد بعد ما ساءه والاسم العتبي.
[٥] البذرقة : الخفارة.
[٦] الرملة : خمسة مواضع أشهرها بلد بالشام.
[٧] الأورق من الإبل : ما في لونه بياض إلى سواد، وهو من أطيب الإبل لحمًا لا سيرًا.
[٨] جمع كسوة.

ثم نظر إلى الأمير، وأنشأ يقول:

وهذا الأمير المرتجى سيب كفه	فما إن له فيمن رأيت نظير
عليه رداء من جمال وهيبة	ووجه بإدراك النجاح بشير
لقد عصم الإسلام منه بذائد	به عاش معروف ومات نكير
ألا إنما عبد الإله بن طاهر	لنا والد بر بنا وأمير

فوقع ذلك ، من عبد الله أحسن موقع، وأعجبه ما قال الشيخ؛ فأمر له بخمسمائة دينار، وأمره أن يصحبه.

وقال محمد[1] بن الفضل الخراساني : لما قال عبد الله بن طاهر قصيدته التي يفخر فيها بمآثر أبيه وأهله ويفخر بقتلهم المخلوع[2]، عارضه محمد بن يزيد الأموي الحصني[3]، فأفرط في السب، وتجاوز الحد في قبح الرد. فلما ولي عبد الله مصر ورد إليه تدبير أمر الشام علم الحصني أنه لا يفلت منه إن هرب، ولا ينجو من يده حيث حل. فثبت في موضعه، وترك أمواله ودوابه، وكل ما كان يملكه في موضعه، وفتح باب حصنه وجلس عليه، ونحن نتوقع من عبد الله بن طاهر أن يوقع به.

فلما شارفنا بلده، وكنا على أن نصبحه، دعاني عبد الله في الليل، فقال لي: بت عندي الليلة وليكن فرسك معدا عندك. ففعلت، فلما كان السحر أمر غلمانه وأصحابه ألا يرحلوا حتى تطلع الشمس، وركب وركبت معه أنا وخمسة من خواص غلمانه. فسار حتى صبح الحصني، فرأى بابه مفتوحًا، ورآه جالسًا؛ فقصد، وسلم عليه ونزل عنده، وقال له: ما أجلسك هاهنا وحملك على أن فتحت بابك، ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل، ولم تتنح عن عبد الله بن طاهر، مع ما في نفسه عليك وما بلغه عنك؟ فقال : إن ما قلت لم يذهب عني، ولكني تأملت أمري، وعلمت أني أخطأت خطيئة حملني عليها نزق الشباب وغرة الحداثة، وأني إن هربت منه لم أفته، فباعدت البنات والحرم، واستسلمت بنفسي وكل ما أملك، وإني أثق بأن الرجل إذا قتلني، وأخذ مالي شفى غيظه، ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم، ولا يوجب جرمي أكثر مما بذلته. قال: فوالله ما أتقاه عبد الله إلا بدموعه تجرى على لحيته. ثم

---

[1] الأغاني ص١١ ج١٢، وكان محمد بن الفضل الخراساني من وجوه قواد طاهر وابنه عبد الله، وكان أديبًا عاقلا فاضلا.

[2] المخلوع : الأمين.

[3] من ولد مسلمة بن عبد الملك.

قال لـه: أتعرفني؟ قال: لا والله، قال : أنا عبد الله بن طاهر، وقد أمن الله تعالى روعتك، وحقن دمك وصان حرمك، وحرس نعمتك، وعفا عن ذنبك، وما تعجلت إليك وحدى إلا لتأمن هجوم الجيش، ولئلا يخالط عفوى عنك روعة تلحقك: فبكى الحصنى وقام فقبل رأسه، وضمه عبد الله وأدناه، ثم قال له: أما بعد فلابد من عتاب: يا أخى - جعلنى الله فداك - قلت شعرًا فى قومى أفخر بهم لم أطعن فيه على حسبك، ولا ادعيت فضلا عليك، وفخرت بقتل رجل - وإن كان من قومك - فهم القوم الذين ثأرك عندهم، فكان يسعك السكوت!

فقال : أيها الأمير ؛ قد عفوت فاجعله العفو الذى لا يخلطه تثريب، ولا يكدر صفوه تأنيب. قال : قد فعلت، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجب عليك حقًا بالضيافة. فقام مسرورا، فأدخلنا فأتى بطعام كان قد أعده، فأكلنا وجلسنا نشرب فى مستشرف لـه. وأقبل الجيش، فأمرنى عبد الله أن أتلقاهم فأرحلهم، ولا ينزل أحد منهم إلا فى المنزل، وهو على ثلاثة فراسخ، ثم دعا بدواة فكتب له بتسويغه خراجه ثلاث سنين، وقال له : إن نشطت لنا فالحق بنا، وإلا فأقم بمكانك، فقال: فأنا أتجهز وألحق بالأمير، ففعل فلحق بنا بمصر، ولم يزل مع عبد الله لا يفارقه، حتى رحل إلى العراق فودعه، وأقام ببلده!

سليمان بن وهب

هو أخو الحسن بن وهب[1] (١٨٦ - ٢٦٥هـ)، وينتمى إلى بنى الحارث ابن كعب، استوزر سليمان المهتدى ولقبه الوزير حقًا، لأن من كان قبله كان غير مستحق للوزارة ولا مستقل بها، ولما ولاه قام إليه رجل من ذوى حرفته فقال : أعز الله الوزير، خادمك المؤمل دولتك، السعيد من أيامك، المطوى القلب على ودك، المنشور اللسان بمدحك، المرتهن بشكر نعمتك، وقد قال الشاعر:

وفيت كل أديب ودنى ثمنًا ... إلا المؤمل دولانى وأيامى
فإننى ضامن ألا أكافئه ... إلا بتسويغه فضلى وإنعامى

---

(١) هو أبو على الحسن بن وهب بن سعيد الكاتب العالم الشاعر الأديب. وهو من ذلك البيت الذى تسلسل فى الكتابة للأمراء والوزراء والخلفاء من بنى أمية وبنى العباس، وقد ظلت الوزارة فى هذا البيت أيام بنى العباس زمنًا يتوارثونها كابرا عن كابر. وكان الحسن يكتب أولا لمحمد بن عبد الملك الزيات. ثم ترقت به الحلل إلى أن تولى ديوان الرسائل ببغداد، ثم تقلد البريد بالشام فى عهد المتوكل على الله العباسى. وله رسائل مدونة آية فى البلاغة، وشعر غاية فى الجودة، وكان مولده ببغداد سنة ١٨٦هـ وتوفى فى نحو عام ٢٦٥هـ.

وإنى لكما قال القيسى : مازلت أمتطى النهار إليك، واستدل بفضلك عليك، حتى إذا جننى الليل، فقبض البصر، ومحا الأثر، أقام بدنى، وسافر أملى، وإذ بلغتك فهو مرادى فقط. فقال له سليمان : لا عليك فإنى عارف بوسيلتك، محتاج إلى كفايتك، ولست أؤخر عن أمرى النظر فى أمرك، وتوليتك ما يحسن أثره عليك.

ولما استوزر سليمان جلس للناس، فدخل إليه شاعر يقال له هارون بن محمد البسالسى فذكر مظلمة له ببلده، ثم أنشده:

زيد فى قدرك العلى علو ... يابن وهب من كاتب ووزير
أسفر الشرق منك والغرب عن ضو ... ء من العدل فاق ضوء البدور
أنشر الناس غيثكم بعدما كا ... نوا رفاتًا من قبل يوم النشور
شرد الجور عدلكم فسرحنا ... بينكم بين روضة وسرور

فوقع فى ظلامته، ووصله بمائة دينار. قال أحمد بن الخصيب: لمهدى بيزيد ابن محمد المهلبى عند سليمان بن وهب بعدما استوزره المهدى، وقد أجلسه إلى جانبه وهو ينشد قوله:

وهبتم لنا يا آل وهب مودة ... فأبقت لنا جاها ومجدا يؤثل[1]
فمن كان للآثام والذل أرضه ... فأرضكم للأجر والعز منزل
رأى الناس فوق المجد مقدار مجدكم ... فقد سألوكم فوق ما كان يسأل
يقصر عن مسعاكم كل آخر ... وما فاتكم ممن تقدم أول
بلغت الذى قد كنت أملته لكم ... وإن كنت لم أبلغ بكم ما أؤمل

فقطع عليه سليمان الإنشاد، وقال له: يا أبا خالد فأنت والله عندى كما قال عمارة ابن عقيل لابنه :

أقهقه مسرورًا إذا أبت سالما ... وأبكى من الإشفاق حين تغيب

فقال له يزيد : فيسمع منى الوزير آخر الشعر لا أوله، وتمم فقال :

ومالى حق واجب غير أننى ... بجودكم فى حاجتى أتوسل
وأنكم أفضلتم وبررتم ... وقد يستتم النعمة المتفضل
وأوليتم فعلا جميلا مقدمًا ... فعودوا فإن العود بالحر أجمل
وكم ملحف قد نال مارام منكم ... ويمنعنا من مثل ذاك التجمل

---

[1] يؤثل : يتأصل ويثبت.

وعودتمونـا قـبل أن نسـأل الغـنى ... ولا بـذل لـلمعروف والوجـه يـبذل

فقال لـه سليمان : لا تبرح والله إلا بقضاء حوائجك كائنة ما كانت، ولو لم أستفد مـن كتبة أمير المؤمنين إلا شكرك، لرأيت جنابى بذلك ممرعا، وغرسى مثمرًا، ثم وقع له فى رقاع كثيرة.

ومن قوله وقد نكبه الواثق:

نوائـــــب الدهـــــر أدبتـــــنى ... وإنمـــــا يوعـــــظ الأديـــــب
قـــد ذقـــت حلـــوًا وذقـــت مـــرًا ... كـــذاك عـــيش الفـــتى ضـــروب
مامـــــر بـــــؤس ولا نعـــــيم ... إلا ولى فـــــيهما نصـــــيب

ومن قوله يرثى أخاه الحسن[1] (١٨٦ - ٢٦٥هـ) :

مضى مذ مضى عز الليالى وأصبحت ... لآلى الحجى والقول ليس لها نظم
وأضـحى نجـى الفكـر بعـد فـراقه ... إذا هـم بالإفصـاح مـنطقه كظـم[2]

ومن قوله وفيه غناء :

أمـــــين الخـــــالق الـــــبارى ... وراعـــــى كـــــل مخلـــــوق
أدر راحـــــك فـــــى المعشـــــو[3] ... ق مـــــن راحـــــة معشـــــوق

ولما قبض الموفق على سليمان بن وهب وابنه عبد الله تذاكر جماعة أنه إنما استكتبهما ليقف منهما على ذخائر موسى بن بغا وودائعه؛ فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما، فقال ابن الرومى وكان حاضرًا:

ألم تـــر أن المـــال يـــتلف ربـــه ... إذا جـــم[4] آتـــيه وســـد طـــريقه
ومـــن جـــاور المـــاء الغزيـــر مجمـــه ... وســـد مغـــيض المـــاء فهـــو غـــريقه

ومات سليمان فى محبسه وهو مطالب عام ٢٧٢هـ[5] ، وله أخ يسمى سعيد بن وهب كان من كتاب البرامكة، وأكثر شعره فى الغزل وتوفى فى عصر المأمون[6].

---

(1) راجع : ١٧٧ فهرست، ٥٠٦ : ١ سمط اللآلى ٢٤٨ ابن الرومى العقاد ، ٤٤ : ٣ زهر الآداب ٢٢١ - ٢٢٣ : ٣ معجم الأدباء لياقوت وفى معجم الأدباء أنه ولد عام ١٨٦ ومات فى آخر خلافة المتوكل أى عام ٢٤٧هـ.

(2) كظم : سكت وصبر .

(3) المعشوق : قصر عظيم بالجانب الغربى من دجلة قبالة سامراء فى وسط البرية، عمره المعتمد على الله.

(4) جم الماء كنصر وضرب : كثر واجتمع.

(5) ٢٤٩ ابن الرومى للعقاد، ١٧٧ فهرست، ١٥٤ - ١٦٠ : ٧ مهذب الأغانى ٥٠٦ : ١ :سمط اللآلى، ٤٨٥ معجم الشعراء، ٣٨٦ : ١ وفيات الأعيان، ٤٦ : ٣ زهر الآداب .

(6) ١ : ١٠٥ الحيوان للجاحظ .

أبو العيناء

١٩١ – ٢٨٣ هـ[1]

يقول الرواة أن أبا العيناء ولد في آخر المائة الثانية وتوفي سنة ٢٨٢، أو سنة ٢٨٣هـ؛ فمن ثم يكون قد أظلته خلافة المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد، وصدر من خلافة المعتضد بالله الذي تولى سنة ٢٧٩ وتوفي سنة ٢٨٩هـ. ولقد كانت الحياة في عصر أبي العيناء كلها ترف ولذة، يسودها المجون والخلاعة، ويروج فيها العبث واللهو، وقد روى لنا المؤلفون كثيرًا من مجالس لهوهم ومنادمتهم، ومساجلات الشعراء في خلواتهم.

اتصل أبو العيناء بالمتوكل اتصالاً شديدًا، وسنعلم إلى أي حد أثر فيه هذا الاتصال، ولم يقتصر اتصاله بالخلفاء على المتوكل، وإنما اتصل بغيره كما اتصل به، ولكن المتوكل هو الذي رفع له الحجاب، وجعل يصغي لأحاديثه، ولقد بهره منه تلك البديهة الحاضرة، وذاك الذكاء الوقاد، حتى رأيناه يمزح معه في كثير من مجالسه، ويرفع الكلفة بينه وبينه.

ويظهر من أقوال الرواة أن أبا العيناء حينما ارتحل إلى بغداد كان الخليفة المأمون على رأس الدولة، فاتصل به، وعرف وزيره الحسن بن سهل، وأخذ منهما الصلات والعطايا، ولقد أثر ذلك المعروف في نفسه، حتى قال لما بلغه موت الحسن بن سهل: والله لئن أتعب المادحين، لقد أطال بكاء الباكين، والله لقد أصيب بموته الأنام، وخرست لفقده الأقلام. قال أبو العيناء: حصلت لي ضيقة شديدة قد خلت يوما على يحيى بن أكثم فقال : إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصاص، فهل لك في الحضور؟ قلت نعم ومضيت معه، فلما دخلنا أجلسه وأجلسني، ثم قال يا أبا العيناء: بالألفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ فأنشدته:

لقد رجوتك دون الناس كلهم	وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم تكن لي أسباب أعيش بها	ففي العلا لك أخلاق هي السبب

فقال لغلامه : انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال بقية من مال. قال فادفع له منها مائة ألف، وابعث له بمثلها في كل شهر. فلما كان بعد

[1] راجع ٤٦٦ – ٤٧٠ : ٣ وفيات الأعيان لابن خلكان.

أحد عشر شهرًا مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه، فقال له بعض أولاده : يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء. فقال:

شيئان لو بكت الدماء عليهما	عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما	فقد الشباب وفرقة الأحباب

وبرواية أخرى : قال أبو العيناء :[1] حصلت لى ضيقة شديدة، فكتمتها عن أصدقائى، فدخلت يومًا على يحيى[2] بن أكثم، فقال : إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم فهل لك فى الحضور؟ قلت : نعم ! فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسنى، ثم قال : يا أبا العيناء، ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم	وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم تكن لى أسباب أعيش بها	ففى العلا لك أخلاق هى السبب

فقال : لخازنه، انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين؟ فقال : بقية من مال! قال : فادفع إليه مائة ألف درهم، وابعث له بمثلها فى كل شهر ! فلما كان بعد أحد عشر شهرًا مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه، فدخل عليه بعض أولاده؛ فقال : يا أبتاه ! بعد ذهاب العين، ماذا ينفع البكاء؟

ولأبى العيناء شعر ورسائل مشهورة فى البلاغة.

المبرد

٢١٠ – ٢٨٥هـ

المبرد عالم جليل من أعلام اللغة العربية، عاش فى القرن الثالث (٢١٠ – ٢٨٥هـ)، يخدم اللغة والثقافة، ويدرس مذهبه فى النحو وآراءه فيه لتلامذته، ويبحث ويكتب ويؤلف ويعلم، حتى أصبح بحق شيخ العلماء والنحاة وإمام العربية وقطبها .. وأهم مؤلفات المبرد هو كتابه الكامل، الذى يعد من أهم مصادر الأدب العربى، وضمنه آراءه فى الأدب والنقد والبيان، وأشار فيه إلى بعض آرائه فى النحو العربى

(١) ثمرات الأوراق للحموى ص٢٤٥ ج٢.

(٢) ابن يحيى أكثم : قاض رفيع القدر، عالى الشهرة، مات سنة ٢٤٢ هـ.

ودراسته، وكتاب الكامل مجموعة كبيرة من الأدب العربي؛ شعره ونثره؛ في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي وصدر عصر المحدثين، ساقها المبرد على غير نظام ولا ترتيب، وأضاف إليها شروحا وتعليقات وتفسيرات وتوجيهات قيمة في دراسة الأدب العربي، ونحن يعنينا هنا أن ندرس كل ما يتصل بالبلاغة والبيان في كتاب "الكامل للمبرد" لنتبين أثره في هذا الميدان .. والبيان العربي أو قل البلاغة العربية دراسة خطيرة لأصول التعبير والأداء والذوق الأدبي في اللغة العربية، وقد ساعد على إنضاج هذه الدراسات مجهود العلماء المتواصل إلى آخر القرن الثالث الهجري، في كشف أسرار البلاغة العربية، ودراسة أصولها وعناصرها وألوانها، ولكن مجهود هؤلاء كان مفرقا موزعًا على المناسبات، يأتي عرضًا حين تحليل بيت أو ذكر قصيدة، وأهم العلماء الذين كان لهم أثرهم في بدء نواة هذه البحوث البيانية هو الجاحظ صاحب البيان والتبيين، ثم جاء المبرد، وألف كتابه "الكامل" فجاء فيه كثير من الآراء في البيان والبلاغة : بعضها استنبطه وابتكره ، وبعضها الآخر تابع فيه الباحثين قبله : كالجاحظ وابن قتيبة وسواهما، هذا فضلاً عن أنه ألف كتاب "قواعد الشعر" وكتاب "البلاغة[1]"، مما لا شك في أثره واتصاله بالبيان ودراسات البلاغة في مرحلة نشأتها الأولى .. ونحن نشير هنا إلى أهم هذه الآراء التي وردت في "الكامل":

أشار المبرد إلى أسلوب القلب[2] في كامله، وذهب إلى جوازه في الكلام للاختصار إذا لم يدخله لبس[3]، وعلى نهج المبرد في ذلك سار ابن فارس في الصاحبي[4]، ويسمي قدامة هذا الأسلوب (المقلوب)، ويجعله من عيوب ائتلاف المعنى والوزن معا[5].

وأشار المبرد في "الكامل" إلى أسلوب "الالتفات[6]"، قال : والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب.

وقد سبق أبو زيد في "جمهرة أشعار العرب" المبرد إلى ذكر هذا الأسلوب[7]، وسار على نهجه ابن فارس[8].

---

(1) ٨٨ فهرست ابن النديم.

(2) ١ /٢١٧ الكامل للمبرد، وص٣٨ من كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم للمبرد.

(3) ١ /٢١٧ الكامل للمبرد، وص٣٨ من كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم للمبرد.

(4) ص١٧٢ / الصاحبي في فقه اللغة العربية.

(5) ١٣٠ نقد الشعر.

(6) ١ /١٧١ ، ٢ /٣٠ الكامل للمبرد.

(7) ص٣ الجمهرة ط١٩٢٦.

(8) ١٧٢ الصاحبي.

وعرف المبرد السجع بأنه ائتلاف أواخر الكلام على نسق، كما تأتلف القوافي[1]. وهو روح كلام الجاحظ الذى عرف السجع بأنه الكلام المزدوج على غير وزن[2]. والسجع يذكره أرسطو فى خطابته، ويوجب أن "يكون كل واحد من المصاريع مسوقا إلى المصراع الذى يليه والذى إنما يتم به المعنى[3]، ويذكر الجاحظ آراء رجال البيان فى السجع وأثر المطبوع منه[4]، كما أشار الجاحظ إلى الازدواج[5]. ويذكر قدامة فى نقد النثر أن "من أوصاف البلاغة السجع فى موضعه وعند سماح القريحة به، وأن يكون فى بعض الكلام لا فى جميعه[6].

وقسم المبرد فى "كامله" الكلام إلى الاختصار المفهم والأطناب المفخم، وقال: "وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغنى عند ذوى الألباب .. وإن قيل: بل الكلام القبيح فى الحسن أظهر، كان ذلك، ولكن يغتفر السيء للحسن، والبعيد للقريب.

ويشير المبرد إلى التعقيد اللفظى فى بيت الفرزدق:

وما مثله فى الناس إلا مملكا ... أبو أمه حى أبوه يقاربه

ويشرح البيت وينقده . ويشير إلى أسلوب الاستعارة التمثيلية فى قولك "فلان عليه دين أو ركبه دين" تريد أن الدين علاه وقهره، ويذكر مثلا للتمثيل كقوله تعالى "والسموات مطويات بيمينه" وسواه. ويشير إلى مثل للاستعارة ويحللها، ويشير أيضًا إلى الاستعارة ويقول : "والعرب تستعير من بعض لبعض"، وقد سبقه الجاحظ بتعريف الاستعارة[7] الذى هو روح تعريف المبرد.

ويحلل المبرد فى الكامل مثلا من أمثلة التجريد .. ويشير إلى أسلوب اللف والنشر، فيقول : "والعرب تلف الخبرين المختلفين ثم ترمى بتفسيرهما جملة، ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره إلخ"، وسار على نهجه الصاحبى[8]، وقدامة يسمى ذلك صحة التفسير[9]. ويشير المبرد إلى مثل للكناية الاصطلاحية[10]، ويسميها ابن فارس فى

---

(1) ٣٨٢/ ١ الكامل.
(2) ١٣٣/ ١ البيان والتبيين ط١٩٢٧.
(3) الخطابة من كتاب الشفاء لابن سينا.
(4) ١/١٩٤ وما بعدها من البيان والتبيين.
(5) ٢/٩٦ و١٦ / ٣ البيان.
(6) ١٠٧ نقد النثر.
(7) ١١٤ ج١ البيان والتبيين.
(8) ٣٠٦ الصاحبى.
(9) ٨١ نقد الشعر.
(10) ٧٧ و١٦٦ / ١، ٢٩٢ و ١٨١ / ٢ الكامل.

الصاحبي الإيماء[1]، ويقسم الكلام إلى مصرح وما يكنى عنه بغيره وما يقع مثلا فيكون أبلغ في الوصف، ويذكر أقسام الكناية[2] وإن كان المبرد يقصد الكناية اللغوية لا الاصطلاحية، وكذلك فعل ابن فارس في الصاحبي[3]. ويشير المبرد إلى أسلوب التغليب: كالقمرين للشمس والقمر، والعمرين لأبي بكر وعمر .. إلى ما سوى ذلك من الآراء البيانية التي تضمنها الكتاب.

وبعد فلا شك أن هذه الآراء كلها وردت مبثوثة مفرقة في الكامل، وخالية من الاصطلاحات العلمية، وحينا يقف عند أسلوب من أساليب البيان ويحلله ويعجب به ولا يسميه، لأن علماء البيان والأدب لم يكونوا قد وضعوا له اسما، وإنما بلاغته وسحره لا يخفيان على متذوق.

أبو العباس ثعلب

٢٠٠ – ٢٩١ هـ

إمام الكوفيين في النحو واللغة، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن يسار الشيباني، المعروف بثعلب[4]، الإمام النحوي اللغوي المشهور.

ولد في الكوفه عام ٢٠٠هـ ونشأ بها، والكوفة يومئذ مدرسة جامعة من مدارس العربية والشعر والأدب والنحو، وعلماؤها لهم منزلتهم العلمية عند العلماء، ومكانتهم الكبيرة في قصور الأمراء والخلفاء والوزراء. وأخذ حب العربية يغلب عليه، فعكف على دراستها وتفرغ لها وهو في سن السادسة عشرة، وما بلغ سن الخامسة والعشرين حتى طار صيته في النحو والعربية، وذاع ذكره، واختلف الناس إليه[5]. أخذ عن ابن الأعرابي م٢٣١هـ اللغة. وعن سلمة بن عاصم م ٢٣٧هـ النحو، وروى عن ابن نجدة كتب أبي زيد الأنصاري، وعن الأشرم كتب أبي عبيدة، وعن أبي

---

(1) ٢١٠ الصاحبي.

(2) ٥ و٦ ج٢ الكامل.

(3) ٢١٨ و٢١٩ الصاحبي.

(4) راجع ترجمته في : ص١١٠ – ١١١ فهرست ابن النديم . و٢٩٣ نزهة الالبا في طبقات الادبا، و١٣٣ – ٢/١٥٤ معجم الأدباء نشر مرجليوث، و١٠٢ – ٥/١٤٦ معجم الأدباء نشر فريد رفاعي، و١/٥١٢ وفيات الأعيان لابن خلكان، و٢/١٨٠ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان، و٤/٢١٦ وما بعدها مروج الذهب للمسعودي، و٨٤ /١ كتاب الأعلام و٤١ كتاب طبقات المفسرين،و٤٥ كتاب غاية النهاية و١٧٢ بغية الوعاة للسيوطي.

(5) ٥/١٤٠ معجم الأدباء.

نصر كتب الأصمعي، وعن عمر بن أبي عمرو كتب أبيه أبي عمرو بن العلاء، وحفظ كتب القراء كلها وسنه لم تتجاوز الخامسة والعشرين. وكان ثعلب يدرس كتب الفراء م٢٠٧هـ والكسائي .. وثعلب من أعلام الكوفيين في النحو[١]؛ وكان يعاصر ثعلبا من أئمة النحويين: أبو عبيدة م٢١٣هـ والأصمعي م٢١٥هـ وأبو زيد الأنصاري م٢١٥هـ وابن سلام الجمحي م٢٣١ هـ والأخفش الأوسط م٢١٨هـ، والجرمي م٢٢٥هـ، والتوزي م٢٣٨هـ، والمازني م٢٤٩هـ والزيادي م٢٤٩هـ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥هـ، والرياشي م٢٥٧هـ والمبرد م٢٨٥هـ. كما كان يعاصره من أئمة النحويين الكوفيين: ابن حازم المعروف باللحياني م٢٢٠هـ، وأبو عبيد القاسم ابن سلام م٢٢٣ هـ، وابن الأعرابي م٢٣١هـ، وابن سعدان م٢٣١هـ، والطوال م٢٤٣هـ، وابن السكيت م٢٤٤هـ، وأبو جعفر محمد بن قادم م٢٥١هـ. كما عاصره: ابن دريد (٢٢٣ – ٣٢١)، وسواه من العلماء. وكان من أساتذته: محمد بن زياد الأعرابي ولزمه بضع عشرة سنة[٢]، وسلمة ابن عاصم، ومحمد بن سلام الجمحي، والزبير بن بكار م٢٥٦هـ، وغيرهم؛ وكان يعنى بالنحو أكثر من عنايته بغيره، فلما أتقنه أكب على الشعر والمعاني والغريب، وقدم الرياشي البصري بغداد عام ٢٣٠، فأخذ عنه ثعلب أيام الناس والأخبار والأشعار[٣]. وكان ثعلب ثقة دينًا، مشهورًا بصدق اللهجة، والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم، مقدمًا بذ الشيوخ وهو حدث، ثقة بعلمه وحفظه، أصدق أهل العربية لسانًا، وأعظمهم شأنًا، وأبعدهم ذكرًا، وأرفعهم قدرًا، وأوضحهم علمًا، وأرفعهم مقامًا، وأثبتهم حفظًا، وأوفرهم حظًا في الدين والدنيا[٤]، وكان ثقة متقنًا حجة، كما يقول أبو الطيب في مراتب النحويين[٥]، وتبحر في مذهب البصريين[٦]، فوق إمامته في النحو على المذهب الكوفي. وكان مشهورًا بغزارة حفظه، ومع ذلك لم يكن موصوفًا بالبلاغة؛ وإذا كتب إلى بعض إخوانه من أصحاب السلطان لا يخرج عن طبع العامة، فإذا أخذ في الغريب والشعر ومذهب الفراء والكسائي رأيت من لا يفي به أحد، وكان هو والمبرد عالمين ختم بهما تاريخ الأدب[٧]؛ وإليه وإلى المبرد انتهى الاجتهاد في النحو[٨]؛ كما انتهى علم الكوفيين إلى ابن السكيت وثعلب وكانا

---

[١] راجع ٥/١٤٣ المرجع نفسه.

[٢] ٥/١٠٩ معجم الأدباء.

[٣] ٥/١٣٢المرجع.

[٤] ١٩٣ وما بعدها نزهة الألبا.

[٥] ٥/١١٩ معجم الأدباء.

[٦] ٥/١٢٠ المرجع.

[٧] ٥/١٢٢ المرجع.

[٨] نشأة النحو للشيخ محمد طنطاوى.

ثقتين، كما يقول أبو الطيب في مراتب النحويين[1]. وتتلمذ عليه كثير من العلماء وفي مقدمتهم: الأخفش م٣١٨هـ، وابن عرفة نفويه م٣٢٣هـ، والزجاجي البغدادي النحوي م٣٠٧هـ، والزجاج م٣١١، وابن الأنباري. كما تتلمذ عليه ابن المعتز[2] م ٢٩٦هـ، وقدامة م٣٣٧هـ، والصولي م٣٣٦هـ، وسواهم من الأدباء والعلماء والشعراء والأمراء. وكان علي بن محمد الكوفي أحد أعيان تلاميذه[3]؛ وكان أبو علي أحمد بن جعفر النحوي ختنه زوج ابنته .. ومع ذلك كان يختلف إلى المبرد ويأخذ منه[4].

وكان بين المبرد وثعلب الكثير من المناظرات؛ وتعصب لكل منهما كثير من العلماء. واختلف الناس في تفضيل أحدهما على الآخر؛ والمنصفون من العلماء ينوهون بالرجلين ويرفعون من شأنهما، وسئل أبو بكر بن السراج تلميذ المبرد م٣١٦ هـ عنهما أيهما أعلم؟ فقال : ما أقول في رجلين العالم بينهما[5].

عاصر ثعلب المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي، وعاش مبجلاً عند الأمراء والخلفاء والعلماء وعامة الناس، وجمع ثروة كبيرة، وكان مع ذلك مقترا على نفسه، ولم يرزق غير بنت واحدة، وتوفي ليلة السبت لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى عام ٢٩١ هـ في خلافة المكتفي، ودفن بمقابر باب الشام، وقبره هناك معروف[6] .. ولشاعر في رثائه :

مات ابن يحيى فماتت دولة الأدب	ومات أحمد أنحى العجم والعرب
فإن تولى أبو العباس مفتقدًا	فلم يمت ذكره في الناس والكتب

وترك ثعلب ثروة علمية كبيرة وكتبا مشهورة متداولة بين الناس في عصره، منها:

١- شرح ديوان زهير، ومنه نسخة خطية في الاسكوربال.
٢- شرح ديوان الأعشى، ومنه نسخة خطية في الاسكوربال.

---

[1] راجع ٥/١٢٧ معجم الأدباء.
[2] ٣٠١ نزهة الألبا، ٣٤١ فوات الوفيات، ٥/١٤٠ التمدن الإسلامي ، ١٠/٩٥ تاريخ بغداد، ١٠٧ و١١٤ و١١٦ الأوراق للصولي قسم أشعار أولاد الخلفاء ، ١٧٢ أدب الكتاب الصولي.
[3] ٥/١٢٧ معجم الأدباء.
[4] ٥/١٢٠ المرجع.
[5] ١٣٨ ج٥ المرجع.
[6] ١٠٥ ج٥ معجم الأدباء.

٣- كتاب الأمالي ذكره صاحب المزهر وصاحب خزانة الأدب. ومنه نسخة خطية في مكتبة برلين[1]، وفي المكتبة الخديوية نسخة منه[2] باسم "مجالس ثعلب" في ١٣٢ صفحة، وسننشره إن شاء الله.

٤- كتاب الفصيح؛ ويعرف بفصيح ثعلب، وقد نشرناه عام ١٩٤٨م.

٥- قواعد الشعر، وقد نشرناه من مدة قريبة، وقد طبع بليدن عام ١٨٩٠م طبعة سقيمة محرفة فيها الكثير من الأخطاء. وفيه آراء كثيرة في النقد والبيان.

٦- ومن كتبه أيضًا: حد النحو، غريب القرآن، معاني الشعر، المصون في النحو، اختلاف النحويين؛ وغيرها من نفائس المؤلفات التي بددتها الأيام.

وبعد ؛ فثعلب إمام من أئمة العربية، مقدم عند العلماء. وله مع ذلك كله روايات كثيرة في الأدب، تجد بعضها في الموشح لمرزباني؛ كما أن له ذوقا في فهم الشعر ونقده، عاب قول قيس بن الخطيم: "كأنها عود بانة قصف":

لأن المرأة تشبه بالعود المتثني لا المتقصف[3]. وكان يفضل جريرًا على الفرزدق[4]، وكان هو وابن الأعرابي يتعصبان على أبي تمام[5]. ويشرح ثعلب بيت العباس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا   وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

بأن الإنسان قد يفارق محبوبه رجاء أن يغنم في سفره فيعود إلى محبوبه مستغنيًا عن التصرف، فيطول اجتماعه معه[6].

وهكذا كان ثعلب بحق إمامًا جليلاً، وشيخًا معدودًا من شيوخ اللغة والأدب والشعر والعربية؛ فرحمه الله وأجزل مثوبته كفاء خدمته للعلم والدين ولغة الكتاب الحكيم.

ولثعلب كتاب قواعد الشعر .. وقواعد الشعر أحد مؤلفات هذا العالم الكبير، وللمبرد كتاب اسمه: "قواعد الشعر" أيضًا، لا ندري عنه ولا عن موضوعه شيئًا، ولا نعلم من منهما الذي سبق بتأليف كتابه، وإن كان يغلب على ظني أن ثعلبا هو السابق

---

[1] ١٨٠ ج ٢ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان.

[2] بنمرة ٢٣ ش لأبي مقسم النحوي، وهي مجموعة مجالس يروي أكثرها عن أستاذه ثعلب. مجلد مخطوط.

[3] ٣٤٧ الموشح للمرزباني.

[4] ١١٧ الموشح للمرزباني.

[5] ٣٢٩ الموشح للمرزباني.

[6] راجع ١٣٤/ ٥ معجم الأدباء.

بتأليف كتابه لتقدمه فى السن، والكتاب جديد فى شتى نواحيه: أما من حيث موضوعه فقد درس ثعلب فى الكتاب هيكل الشعر العربى دراسة عامة جيدة جميلة مبتكرة؛ فتكلم على قواعد الشعر العامة وأنها أربع : أمر ونهى وخبر واستخبار، ولا شك أن ذلك لا يختص بالشعر وحده، بل النثر مثله فيه؛ كما عرض لفنون الشعر وقسمها إلى: مدح وهجاء ومرثية واعتذار وتشبيه وتشبيب واقتصاص أخبار. وذكر شواهد التشبيه الجيد، وشواهد لرائع المديح. ثم تحدث عن : المبالغة (الإفراط فى المعنى)، وذكر شواهد لها من الشعر العربى؛ وعن لطافة المعنى (التعريض والكناية بدل التصريح) وشواهدها؛ والاستعارة ومثلها؛ وحسن الخروج أو التخلص كما يقول البلاغيون، ومجاورة الأضداد أو الطباق كما يسميه البلاغيون؛ والمطابق وهو نوع من الجناس مع ذكر نماذج لكل باب من هذه الأبواب من جيد الشعر الجاهلى والإسلامى والأموى، دون أن يتخطى ذلك فى الاستشهاد إلى شعر المحدثين؛ ثم عرف الجزالة فى الشعر؛ وتكلم على اتساق النظم ومحترزاته. وأخيرًا تجده يقسم الشعر خمسة أقسام، ويتحدث عن كل قسم ويحدده ويوضحه، ويذكر شواهد كثيرة له.. وبذلك ينتهى الكتاب.

والكتاب أول أثر علمى لعالم من علماء القرن الثالث يتحدث فيه مؤلفه عن الشعر بهذا اللون من الدقة والتحديد والوضوح والفهم للشعر والأدب والتذوق لهما، والوقوف على أثر بلاغتهما. و"البديع لابن المعتز" م٢٩٦هـ لا يشارك كتابنا "قواعد الشعر" فى هذا، لابن المعتز ألف "البديع" ليتحدث فيه عن ألوان البديع العامة كما كان يعرفها هو ويعرفها عصره، لا ليتحدث عن الشعر بمثل هذا الحديث الجيد النقدى. و"الرسالة العذراء" لابن المدبر م٢٧٩هـ لا تشارك "قواعد الشعر" فى ذلك أيضًا، لأنها إلى البلاغة أقرب منها الحديث عن الشعر، و"الكامل" للمبرد م٢٨٥هـ ليس فيه أثر للتخصص فى دراسة الشعر أو البديع أو البلاغة بوجه عام. و"البيان" للجاحظ وما فيه من دراسات عن الشعر أو النقد أو البيان هى دراسات عامة لا تخصص فيها، والكتاب لم يؤلف لها، وأحكامه الأدبية والبيانية أحكام مقاربة، ليس فيها مثل هذا الوضوح ولا مثل تلك الدقة.

وأما أثر الكتاب فى البيان فهو ولا شك أثر كبير، فنحن نجد أنفسنا لأول مرة أمام عالم يؤلف ويكتب ويتحدث عن كثير من ألوان البديع والبيان: كالتشبيه، والاستعارة، ولطافة المعنى، أو التعريض والكناية كما نقول نحن، وكالإفراط فى المعنى (المبالغة)، وحسن الخروج ومجاورة الأضداد (الطباق)؛ والمطابق (لون من أول الجناس). والثلاثة الأنواع الأولى هى أصل علم البيان وباقى الأنواع هى أبرز

ما فى البديع من فنون. وابن المعتز من غير شك أفاد من أستاذه ثعلب فى هذه الدراسة، ونحن نكاد نجزم بأن ثعلبًا ألف هذا الكتاب قبل أن يؤلف ابن المعتز كتابه "البديع" عام ٢٧٤هـ لأن ثعلبًا عالم معمر، ولأنه لو كان ابن المعتز كتابه "البديع" عام ٢٧٤هـ لأن ثعلبًا عالم معمر، ولأنه لو كان ابن المعتز قد سبقه بالتأليف لما أمكن ثعلبًا أن يقف عند هذا الحد فى عرض ألوان البيان والبديع الساحرة فى الشعر العربى والتى ألم بها ابن المعتز، مثل الالتفات والاعتراض وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن الابتداء وحسن التضمين وتأكيد المدح بما يشبه الذم والمذهب الكلامى وغيرها. إذ كان ثعلب ولا شك سيستفيد من دراسات ابن المعتز - لو كان ابن المعتز قد ألف كتابه "البديع" قبل أن يؤلف أستاذه "قواعد الشعر" - وسيحاول أن يقتبس منها بعض الاقتباس فى كتابه .. ومن الغريب أن لا يشير ابن المعتز فى "البديع" إلى كتاب "قواعد الشعر"، مع أنه ساق بعض الشواهد الواردة فى "قواعد الشعر"، ومع أنه قريب فى تحديد الاستعارة وغيرها من أستاذه ثعلب. بل ومن الغريب أيضًا أن يخالفه فى تسمية "المطابق" الذى سماه ثعلب "مجاورة الأضداد"، وفى تسمية "الجناس" الذى سمى ثعلب نوعا منه "المطابق"، ولكن لا ضير فى اختلاف الاصطلاحات، فلكل مؤلف أو مفكر الحق فى تسمية ما يشاء بما يشاء، ومن قبل ذكر أرسطو أنه مطلق لكل أحد احتاج إلى تسمية شىء ليعرفه به أن يسميه بما شاء من الأسماء[1]. ولكن الغريب حقًا أن يقول ابن المعتز عن نفسه "وما جمع فنون البديع ولا سبقنى إليه أحد[2]"، فلا شك أن لثعلب الفضل فى أنه جمع فى "قواعد الشعر" بعض ألوان البديع التى ذكرها ابن المعتز فى كتابه مثل: التشبيه والاستعارة ولطافة المعنى والتعريض ومجاورة الأضداد والمطابق .. وهذه الأنواع هى أهم ما فى كتاب "البديع" لابن المعتز من ألوان البديع، و"قواعد الشعر" يمتاز بأنه يعرض لأصل هام فى البلاغة العربية بتقسيمه الشعر: إلى خبر واستخبار وأمر ونهى.

وأما أثر الكتاب فى الأدب والشعر فلا شك فيه لوضوحه، فهذا الحديث عن الشعر بهذا الأسلوب قد أفاد دراسات الأدب جميعًا. فوق ما فى الكتاب من شواهد كثيرة من جيد الشعر العربى تبلغ نحو المائتين. فوق هذا العرض الجميل لفنون الشعر وألوانه العامة. وأما أثره فى النقد الأدبى بمعناه العام، فالكتاب نراه يتحدث عن الجزالة فى الشعر، وعن اتساق النظم، وعن أقسام أخرى للشعر، فى أسلوب جيد.

---

(1) ٧٤ نقد النثر ط ١٩٣٧.

(2) ١٠٦ البديع.

وعرض هـو إلى النقد أقرب منه إلى الشعر أو البلاغة: مما لا شك فى قيمته فى النقد. فوق قيمته فى دراسات الشعر.

نقد النثر وقدامة

-١-

"نقد النثر" كتاب رائع فى البيان وأساليبه وفنونه. من نثر وشعر وخطابة وجدل ومحادثة، وفى البلاغة وحقيقتها وأوصافها ومظاهر الجمال فيها. والكتاب ينطق عن ثقافة مؤلفه الواسعة، وإلمامه البعيد بالكثير من علوم الدين والعربية وعلوم الفلسفة والكلام. وقد تأثر مؤلفه فيه أكثر ما تأثر بكتاب الخطابة لأرسطو، وكتاب البيان للجاحظ، وهو أول مؤلف كامل فى البيان يطلعنا على التطور التأليفى فى هذا العلم، وقد تولت كلية الآداب نشره فى عام ١٩٣٢، وكتب أستاذان من أساتذة مقدمتين له، وقد اعتمدا فى نشره على صورة فوتوغرافية للنسخة الوحيدة المخطوطة والمحفوظة بمكتبة الاسكوريال تحت رقم ٢٤٢. وقد ثارت ضجة كبيرة حول مؤلف هذا الكتاب، واختلف فى ذلك العلماء اختلافًا كبيرًا، فالمرحوم الأستاذ الشنقيطى[1] والأستاذ العبادى[2] يتابعان بعض المستشرقين فى أن الكتاب لقدامة بن جعفر م سنة ٣٣٧هـ، ولكن بروكلمان ودر نبودرغ[3] يريان أن الكتاب لتلميذ لقدامة ورد اسمه على الصفحة الأولى من النسخة الخطية للكتاب، وهو أبو عبد الله بن أيوب. ويتابعهما فى ذلك هيوار .. أما الأستاذان لفى دلا فيدا وكرتشوفسكى فيريان أن ابن أيوب رجل أندلسى عاش بعد قدامة بعهد طويل، وإنه استمد نقد النثر من مؤلفات قدامة: ولكن بعض المستشرقين يقفون فى بحثهم موقف الشك، ويتابعهم فى ذلك الدكتور طه حسين.. وبين هذا الاختلاف الكثير، يجد الباحث مشقة عسيرة فى الوصول إلى نتيجة حاسمة فى ذلك المجال الغامض العسير، ولكن متابعة البحث والإفادة من البحوث التى كتبها الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة، والتى اتجه فيها إلى نفى نسبة الكتاب لقدامة، ودمغ ذلك بحجج قوية، كل ذلك يؤدى بنا إلى ثلاث نتائج أولاً: أن الكتاب ليس لقدامة، ولا يمكن أن يكون له. وأدلنا على ذلك:

---

[1] تقرير رقم ٣٤٣ مكتبات بدار الكتب المصرية.

[2] ص٤٢ مقدمة نقد النثر للأستاذ العبادى. الطبعة الثانية.

[3] دائرة المعارف الإسلامية مادة قدامة.

أ - لم يذكر عن قدامة فيما وصل إلينا من كتبه أن له كتابا بهذا الاسم ولا فى ذلك الموضوع نفسه، وقد أرخ لقدامة علماء كثيرون كابن النديم - وهو أقربهم عهدا به وكالخطيب البغدادى وابن خلكان وسواهم، ولم يذكر أحد منهم أن له كتابا بهذا العنوان، مع أنهم ذكروا كتابه "نقد الشعر"، وعنوا به، وحفزوا بهذه العناية بعض العلماء لشرحه والتعليق عليه.

ب- ومن العسير أن يؤلف مؤلف كتابين فى موضوع واحد كالنقد، ثم لا يحيل القارئ فى أحد كتابيه على الآخر، مع أن مؤلف "نقد النثر" يحيل على كتبه الأخرى كثيرًا.

جـ- على أن شك العلماء والباحثين فى نسبة الكتاب لقدامة، وجزم بعضهم جزمًا يعتمد على الدليل بأن الكتاب ليس له، كل ذلك ينفى أن يكون الكتاب لقدامة.

د - وشخصية قدامة شخصية المستقل فى آرائه، المجدد فى بحوثه، كما نعرفه فى كتابه "نقد الشعر" الثابتة نسبته له، أما شخصية مؤلف نقد النثر كما تبدو من الكتاب فهى شخصية المحتذى لغيره، يظهر ذلك فى احتذائه للجاحظ وكتابه "البيان والتبيين" وأخذه الكثير عنه فى كل فصل وباب، كما يظهر ذلك فى احتجاجه بآراء أرسطو واقتباسه من كتاب "الخطابة".

هـ- والاتجاه السياسى والدينى لمؤلف نقد النثر هو الاتجاه الشيعى فهو يشيد بعلى وذريته كالحسن والحسين والباقر والصادق والرضا. وقدامة بعيد كل البعد عن ذلك الاتجاه ومظهر ذلك كتابته التأليفية فى "نقد الشعر"، على أن مكانته البارزة فى الدولة العباسية ومهامه الإدارية فى ديوانها كانت تحول بينه وبين الانضمام إلى أعداء الدولة من الشيعيين، وليس من المعقول أن يكون ذلك جديدًا على قدامة، قد اضطرته إليه الأحداث السياسية التى حدثت فى آخر حياته باستبداد بنى بويه بالخلافة العباسية سنة ٣٣٤هـ، فخلق قدامة وقصر المدة بين وفاته وقيام الدولة الجديدة مما كان يحول بينه وبين هذا الانقلاب .

و - وثقافة قدامة ثقافة عقلية صبغت بصبغة الأدب ؛ وهو فى نقد الشعر أعمق بحثًا أو أكثر فهما للشعر وعناصره، وهو فيما وضع من موازين للنقد متأثر باتجاهه العقلى الفلسفى، وكثيرًا ما يخطىء فى تطبيقه الموازين العقلية الجامدة على الشعر، كما يظهر ذلك فى كتاب "نقد الشعر". أما ثقافة مؤلف نقد النثر، فهى ثقافة أدبية علمية صبغت بصبغة الفلسفة، واتجاهه العقلى أكثر تأثرًا بثقافة المتكلمين منه

بثقافة الفلاسفة، وثقافته الدينية واسعة فهو مؤلف فى أكثر علومها، حتى لقد حاول الاستفادة من ورائها فى فهم البيان ودراسته، وهذه ناحية جديدة بعيدة عن قدامة كل البعد.

ز – ومنهج قدامة فى النقد – كما تراه فى "نقد الشعر" – منهج تفصيلى طريف، فقد عنى فيه أولاً بإحصاء مظاهر الأداء البيانى التى تمس الفكرة وترضى العقل وتتجه إلى سلامة المعنى، مما تأثر به ابن سنان الخفاجى من بعده فى بحثه البيانى فى البلاغة والمعانى. ولكن منهج مؤلف "نقد النثر" فى نقد البيان منهج إجمالى خصب، اتجه فيه صاحبه إلى بحث ألوان البيان وفنونه عامة، وإلى بحث البلاغة وعناصرها، وإلى تطبيق نظرية المطابقة لمقتضى الحال على الشاعر والناثر والخطيب، وهو فى هذا الاتجاه الإجمالى لا يجيد البحث التفصيلى فى مظاهر الجمال.

ح – وأسلوب قدامة أسلوب مرسل بعيد عن السجع والازدواج. أما أسلوب مؤلف "نقد النثر" فاسلوب أديب حريص على السجع، فإن لم يواته السجع واتاه الازدواج[1]. والتفاوت بين أسلوبين دليل قوى على أن الكتابين لشخصيتين محتلفتين، وشتان بين أسلوب رجلين: فيلسوف يتأدب، وأديب يتفلسف، والموازنة بين البحوث المشتركة فى الكتابين تؤدى إلى ما نذهب إليه – وإن قل ما بينهما من اشتراك –: فبين كل من الكتابين تباين كثير فى الموضوعات المشتركة : فى الاتجاه والروح وفى العرض والتحليل، فبحث كالتشبيه فى نقد الشعر مباين لنفس هذا البحث فى نقد النثر[2]، والاستعارة عند مؤلف نقد الشعر غيرها عند مؤلف نقد النثر[3]، وجمال الشعر عند قدامة غيره مؤلف نقد النثر، ومن العسير على الباحث أن يأخذ هذا الاتفاق فى الموضوعات على علاته كدليل على أن الكتابين لمؤلف واحد، فالدراسة المقارنة لهذه البحوث المشتركة، هى وحدها الحكم فى شخصية المؤلفين، ومصدر الكتابين.

ثانيـــــا :

---

(1) راجع مثلا ص٥ نقد النثر.

(2) ٦٥ نقد الشعر، ٥٨ نقد النثر.

(3) ١٠٤ ١٠٦ نقد الشعر، ٧٠ نقد الشعر.

أ – أبو عبد الله محمد بن أيوب بن محمد الذى ورد اسمه فى الصفحة الأولى من النسخة الخطية للكتاب، والذى لم يهتد لشخصيته الكثير من الباحثين، والذى زعم بعض المستشرقين أنه مؤلف الكتاب، هو فقيه وقاض أندلسى عاش ما بين ٥٣٠ – ٦٠٨هـ[1]، فليس هو تلميذا لقدامة كما ذهب إليه بروكلمان وسواه.

ب – وليس ابن أيوب هذا هو مؤلف الكتاب كما ذهب إليه درنبورغ : وهيوار ولفى دلافيدا وكرتشو فسكى وسواهم. ودليلنا على ذلك:

١ – ثقافة الكتاب وروحه واتجاهه وبحوثه والأعلام الواردة فيه تؤكد لنا تأكيدا جازما بأن الكتاب من إنتاج أول القرن الرابع على أقصى تقريب.

وقد ورد فيه أعلام كابن دريد وكتابه "الملاحن"[2]، وابن دريد علم لغوى عاش من ٢٢٣ – ٣٢١، وكابن التسترى[3] وهو قريب العهد من صنائع بنى الفرات[4]. وكان أديبًا يلتزم السجع ويستعمل الغريب ويتقعر فى منطقه[5]. وعاش فى أواخر القرن الثالث[6]، ولعله أبو سهل عبد الله التسترى المتوفى عام ٢٨٢هـ. وليس فى ذكر المؤلف لابن دريد ولا لابن التسترى ومشاهدته إياهما تناقض مع ما نقول.

٢ – يأخذ ابن سنان الخفاجى فى كتابه سر الفصاحة وعبد القاهر الجرجانى فى كتابيه الأسرار والدلائل بعضا من الآراء المبسوطة فى الكتاب، فنهج عبد القاهر فى الدفاع عن الشعر[7] وفى تقسيم التشبيه[8] هو منهج مؤلف نقد النثر[9]. والرأى الذى ناقشه ابن سنان – من أن للإيجاز مواضع وللإطناب مواضع هو الرأى الذى بسطه مؤلف نقد النثر[10] .. ولا يعقل أن يأخذ هذان العالمان من ابن أيوب وهما فى القرن الخامس وهو فى السادس والسابع.

---

[1] تكملة الصلة لابن الآبار ج١ ص٢٩٧ – ٢٩٩.
[2] ٦٩ نقد النثر.
[3] ١٠٨ نقد النثر.
[4] ١٩٣ فهرست.
[5] ١٠٨ نقد النثر.
[6] هامش ١٠٨ نقد النثر.
[7] ص١٣ وما بعدها دلائل الإعجاز.
[8] ٧٠ وما بعدها أسرار البلاغة.
[9] ٥٨ و٧٧ و٧٩ – نقد النثر.
[10] ٩٧ نقد النثر.

٣- وليس لابن أيوب صلة بالكتاب سوى أن هذا الكتاب قد نسخ له في آخر القرن السادس الهجري وكتب الناسخ اسمه على النسخة التي كتبها، كما ترشدنا إلى ذلك العبارة في عنوان هذه النسخة الخطية التي حيرت في فهمها الباحثين؛ وهي كتاب "نقد النثر" مما عنى به أبو الفرج "قدامة بن جعفر" الكاتب العراقي رضي الله عنه وأرضاه للفقيه المكرم أبي عبد الله محمد بن أيوب بن محمد نفعه الله به، وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان.

ثـــالثـــاً:

وإذا كان الكتاب ليس لقدامة، ولا لابن أيوب فلمن هو إذًا من العلماء؟ لقد واليت البحث في ذلك، وخلت أن الكتاب قد يكون لتلميذ لقدامة تأثر فيه بآراء أستاذه في النقد والبيان، فحمل بعد عصره على أن الكتاب لأستاذه، وسمي "نقد النثر"، وإن كان اسمه في الحقيقة "البيان"، ولكن البحوث التي قمت بها أثبتت خطأ هذا الظن، وقد يكون الكتاب لوالد قدامة: "جعفر بن قدامة بن زياد" المتوفى سنة ٣١٩هـ، وليس لابنه قدامة. وجعفر هذا هو أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم وافر الأدب حسن المعرفة، وله مصنفات في صنعة الكتابة وغيرها[1]، والأدلة التي تؤكد هذا الرأي هي:

١- ثقافة الكتاب العلمية لا تدل على أنه من معين ثقافة القرن الرابع الواسعة وإنما تدل على أنه قد ألف بعد عصر الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ وفي أواخر القرن الثالث الهجري، والأعلام الواردة في الكتاب والتي لا تتجاوز ذلك التاريخ أصدق شاهد على ما نقول، وتأليفه في معارضة كتاب البيان للجاحظ[2] مما يزيد ذلك قوة.

٢- وكثير من مؤلفات جعفر قد نسب لابنه قدامة خطأ[3]، كما أن بعض الباحثين قد شك في نسبة بعض كتب قدامة له، ورأى أنها لأبيه، كالمطرزي شارح المقامات المتوفى سنة ٦١٠هـ.

٣- وصنعة الكتابة التي قال الخطيب البغدادي إن لجعفر مؤلفات فيها ترادف كلمة نقد النثر وكلمة البيان، وهي اصطلاحات كانت تدل في ذلك العصر

---

(١) ج ٧ ص٢٠٥ تاريخ بغداد.

(٢) ص ١ نقد النثر.

(٣) ٤٠ نقد النثر - مقدمة العبادي.

على قواعد البيان التى يضعها العلماء للكتاب، يفصلون لهم فيها مشكلات البيان العربى وبلاغته، ويرسمون فيها المذاهب الأدبية التى يجب على الكتاب احتذاؤها، وذلك كله ما نراه مبسوطا فى "نقد النثر" مما يدل على أنه من مؤلفات جعفر فى صنعة الكتابة.

٤- وظاهرة التشيع التى نراها فى نقد النثر لا تنبع إلا من قلب رجل لم يخلص للدولة إخلاص قدامة، وعاش بعيدًا عن مناصبها كما عاش جعفر.

-٢-

فنحن لا نشك - ولا يستطيع باحث أن يشك - فى أن الكتاب ليس لابن أيوب، بعدما بسطناه من أدلة دامغة. أما نفى نسبة الكتاب لقدامة فهو ما أيدناه بالحجج الكثيرة القوية، رغم أن كثيرًا من الباحثين يرون غير ما رأيناه، وقد قرأت أخيرًا فى الجزء الثانى من الإمتاع والمؤانسة تأليف أبى حيان التوحيدى الذى ظهر من حين - نصًا جديدًا أراه حريًا بالفهم والبحث والتحقيق [1]: قال أبو حيان فى أثناء كلامه على بلاغة الشعر وبلاغة النثر - ما نصه : "وما رأيت أحدًا تناهى فى وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر فى المنزلة الثالثة من كتابه. قال لنا على بن عيسى الوزير : عرض على قدامة كتابه سنة عشرين وثلثمائة، وخبرته فوجدته قد بالغ وأحسن، وتفرد فى وصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة، بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى، مما يدل على المختار المجتبى والمعيب المجتنب، ولقد شاكه فيه الخليل بن أحمد فى وضع العروض، ولكنى وجدته هجين اللفظ ركيك البلاغة فى وصف البلاغة، حتى كأن ما يصفه ليس ما يعرفه وكأن ما يدل به غير ما يدل عليه .. وهذا لا يكون إلا من غزارة العلم وحسن التصور ".. فأبو حيان على لسانه حينا، وعلى لسان ابن عيسى الوزير حينا آخر يقرر:

١- أن قدامة بذ سابقيه فى وصف النثر وفنون البلاغة من طريق اللفظ والمعنى فى المنزلة الثالثة من كتابه.

٢- أنه بتأليفه هذا الكتاب وابتكاره لبحوثه يضارع الخليل بن أحمد فى سمو مكانته وابتكاره لعلم العروض.

٣- أن كتابه هذا عرض على على بن عيسى الوزير سنة ٣٢٠هـ.

---

[1] ص١٤٥ و١٤٦ ج٢ الإمتاع والمؤانسة - طبع لجنة التأليف.

٤- أن أسلوب قدامة فى كتابه هجين اللفظ ركيك البلاغة فى وصف البلاغة، واعتذار الوزير عنه فى ذلك رائع ممتع دال على مدى مكانة قدامة عند معاصريه من المفكرين، ولكن ما هو هذا الكتاب استحق هذا التقدير والإعجاب من رجلين يعدان من أعظم رجال الفكر الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى : أهو نقد النثر أم سواه؟ أجزم جزمًا قاطعًا بأنه ليس هو "نقد النثر"، إنما هو كتاب آخر سأذكر اسمه بعد قليل:

١- ذلك أن كتاب نقد النثر - من ناحيته التأليفية - لم يرتب منازل، وليس فيه منزلة ثالثة فى وصف فنون البلاغة من طريق اللفظ والمعنى مما يدل على الجيد أو الردىء من الكلام، كما يقول الوزير، إنما هو فى البيان الذى يقسمه إلى بيان بالحال، وبيان بالاعتقاد وبيان بالكتابة وبيان باللسان. والبيان باللسان عنونه المؤلف بهذا العنوان : "البيان الرابع العبارة[1]"، وتكلم فيه على خصائص الأسلوب العربى التى تتفق العربية واللغات الأخرى فيها، وعلى الخصائص الأخرى التى تنفرد بها العربية، من: اشتقاق وتشبيه ولحن واستعارة ولغز ووحى ومبالغة وحذف وتقديم وتأخير واختراع، كما تكلم فيه على تأليف العبارة[2]، بالتحدث عن أوصاف الشعر، وأوصاف النثر بسائر ألوانه: من خطابة وترسل ومجادلة وحديث .. أما ما ذكره الوزير فموضوع نجده مفصلا فى "نقد الشعر"، وقد يكون فى كتب أخرى لقدامة. فأما نقد النثر فليس له بذلك صلة، وليس فيه وصف لفنون البلاغة من طريق اللفظ أو المعنى كما يقول، وليس فيه تحليل لمذهب قدامة فى النقد كما يرى.

٢- على أن التوحيدى يرى أن قدامة قد استبد بكتابه - الذى لم يسمه أبو حيان - بشرف، يسامى الشرف الذى ناله الخليل بابتكاره علم العروض، فهل يبوىء قدامة هذه المنزلة: "نقد النثر" إن كان هو الذى يريده أبو حيان أو الوزير؟ لا، فإن نقد النثر ليس من الابتكار الفكرى فى شىء، كما كان كتاب الخليل فى العروض، وكما نرى قدامة فى "نقد الشعر"، إنما هو

---

(١) ٤٣ نقد النثر .

(٢) ٨٤ المرجع السابق.

لـون مـن الاحـتذاء الفكـرى لأرسطو والجـاحظ، وتدويـن لعناصر البيان الأولى التى أثيرت فى عصر قدامة وقبل عصره بقليل.

٣- علـى أن الأسلوب الـذى ذمه الوزير هـو الأسلوب المـنطقى المأثور عن قدامـة، الـذى يرشـدنا إليه كـتابه نقد الشعر"، أما أسلوب نقد النثر فأسلوب بليغ ممتع فيه إشراق البيان. وعليه رونق البلاغة: فلو كان "نقد النثر" هو الـذى عـناه الوزير لما نقـد أسـلوبه هـذا الـنقد اللاذع المرير .. وإذا فليس "نقد النثر" هـو الكـتاب الـذى عـناه أبـو حيان والوزير .. ويحق لنا إذا أن نتطلع لمعرفته، حتى يبعد اللبس، وتستبين السبيل، ويخلص لنا الدليل.

رأيى أنـه كـتاب آخـر – ولا شـك – غير "نقد النثر" الذى لا يمت إلى قدامة بصلة وغير نقد الشعر، الثابت النسبة إليه والذى نقده الآمدى، وشرحه عبد اللطيف ابـن يوسـف .. وقدامـة لـه – غير "نقد الشعر – كتاب فى صنعة الكتابة[1] وهو غير "نقد النثر"، لأن هذا المرجع قد ذكر نقد النثر، وجعله مؤلفا آخر سواه[2]، وإن كان قد نسبه إلى قدامـة، ويذكـر صاحب كشف الظـنون أن لقدامـة كـتابًا اسمـه "سـر البـلاغة فـى الكتابة"[3]، وكذلك يذكر اليزدادى فى كمال البلاغة أن لقدامة تأليفًا فى الكتابة (ص ١٦ كمـال البـلاغة) .. فليس مـن المستبعد إذا أن يكـون التوحـيدى وعـلى بن عيسى الوزير قد قصدا كتابا من هذين الكتابين: صنعة الكتابة وسر البلاغة فى الكتابة، وقد يكـون هـذا الاسمـان عـنوانا لكـتاب واحـد لقدامة فـى بلاغـة الكتابة، وعلى كل حال فالذى نـراه ونجزم به أن نقد النثر لا يمت إلى أحد هذين الكتابين بصلة، ولبس هو أيضًا مـن مؤلفات قدامـة فـى البيان، ومما يؤيد ذلك وصف اليزدادى لكتاب قدامة، وأنه "فصول مستخرجة من رسائل الكتاب إلخ" (١٦ و ١٩ كمال البلاغة)

ولكـن ما مدى صحة نسبة الكتاب لجعفر والد قدامة ؟ من الواجب على أن أقرر أن هـذه الفكـرة لا تجـد إلى الآن الدليل المـادى الملموس الذى يؤيدها بقوة الحجـة، إنمـا هـى استنتاج رأيته، ووجدت من وثاقة أسبابه فى نظرى ما يكتفى لأن أومـن بـه وأذهـب إليه ، ولـم أجـد – للأسف – شيئا من مؤلفات جعفر – التى قال عنها

---

[1] راجع ٢٠٢ ج٢ كتاب الأدب العربى لجورجى زيدان.
[2] راجع ١٧٣ ج٢ نفس المرجع.
[3] راجع ٤٧٠ ج١ كشف الظنون.

الخطيب البغدادى : إن لـه مؤلفات فى صنعة الكتابة[1] - اتخذه موضوعًا لدراسة نقدية بينه وبين كتاب نقد النثر لمعرفة شخصية المؤلف، والاستدلال عليها بدلالة الأسلوب وثقافة التأليف، واتجاه المؤلف فيه. وقد يقال إن جعفر عاش نصرانيًا، فمن الغريب أن يتشيع - مع نصرانيته - لآل على، ومن الغريب أن يكون له مؤلفات مثل: الإيضاح أو التعبد أو الحجة، ولكن من الواجب أن نعرف أن كثيرًا من النصارى فى العراق وإيران، كانوا يتشيعون لأغراض شخصية أو سياسية، يريدونها ويعملون لها، على أن الروايات التاريخية الصحيحة لا تثبت لنا أن جعفرًا عاش على نصرانيته.

وبعد كتابة كل ما تقدم نشر الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر مقالة فى الرسالة عدد ٨ - ١١ - ١٩٤٨، ذكر فيها ما يلى:

١- كتاب البرهان فى وجوه البيان" لأبى الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، طبع جزء منه قدر ثلثه باسم "نقد النثر"، حرره وأخرجه الدكتور طه حسين، والأستاذ عبد الحميد العبادى، منسوبًا إلى أبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى المتوفى سنة ٣٣٧هـ. وقد اعتمد مخرجا "نقد النثر" على مخطوطة بمكتبة الأسكوريال رقم ٢٤٣. وقد عثرنا على مخطوطة لهذا الكتاب بمكتبة تشستربيتى رقم ٧٦٧ تحت عنوان "كتاب البرهان فى وجوه البيان"، وعند المقابلة بينها وبين كتاب "نقد النثر" المطبوع وجدناهما يتفقان فى القدر المطبوع، وتزيد المخطوطة التى بأيدينا على المطبوعة بمقدار ثلثى الكتاب تقريبًا. ولم نشك فى أن هذا القدر الزائد إنما هو جزء أصلى من الكتاب قد سقط منه فى المخطوطة الأسكوريالية، ذلك أن المؤلف قد بنى كتابه على أربعة وجوه البيان : البيان بالاعتبار، البيان بالاعتقاد، البيان بالعبارة، البيان الرابع بالكتاب، وهو غير موجود فى النسخة المطبوعة، وقد علل محقق هذه النسخة المبتورة هذا النقص بادعائه أن المؤلف قد ضمن الباب الثالث (وهو العبارة) الكلام على الوجه الرابع وهو الكتاب. وفى النسخة المخطوطة التى بأيدينا، جاء فيها ذكر البيان الرابع وهو الكتاب، واستغرق من أصل الكتاب جزءًا كبيرًا، كما جاء فيها الكلام على باب المعمى وذكر العروض والقافية بتفصيل كامل. وكذلك جاء فيها ما بقى من وجوه الحديث وجهًا وجهًا، وكذلك مراتب

[1] ٢٠٥ ج٧ تاريخ بغداد، ٤١٢ ج٢ معجم الأدباء طبعة مرجليوث.

المستمعين لـه مرتبة مرتبة، فكانت مخطوطتنا بهذا التحقيق هي النسخة الكاملة للكتاب.

٢- وأهمية مخطوطتنا لا تنحصر في أنها النص الكامل للكتاب كما كتبه مؤلفه، بل إن لها أهمية أخرى أكبر، وهي معرفة مؤلف هذا الكتاب على التحقيق. وهو أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، مما يبطل نسبة الكتاب إلى قدامة بن جعفر، كما أن مخطوطتنا تحمل الاسم الصحيح للكتاب، وهو "البرهان في وجوه البيان". ويؤيد ذلك أيضًا أدلة أخرى منها:

أولاً : نسب إلى قدامة كتاب في الكتابة، وليس هو "البرهان" أو "نقد النثر" وإنما اسمه "كتاب الخراج وصناعة الكتابة"، وتوجد مخطوطة منه بمكتبة كوبرلي بالآستانة، وقد استخرج دي غويه نبذا منها وطبعها تحت عنوان "كتاب الخراج"، وهذه النبذ هي الأبواب الثاني والثالث والرابع والخامس والحادي عشر من المنزلة الخامسة، والبابان السادس والسابع من المنزلة السادسة. وقد وصف ياقوت هذا الكتاب في ترجمة قدامة بقوله : "وله كتاب في الخراج وصناعة الكتابة"، رتبة مراتب وأتى فيه بكل ما يحتاج الكاتب إليه، على تسع منازل، وكان ثمانية فأضاف إليه تاسعًا، ويقول المطرزي في كتاب الإيضاح شرح مقامات الحريري - مخطوطة المتحف البريطاني -: "وله تصانيف كثيرة منها كتاب "الألفاظ" وكتاب "نقد الشعر"، وهو حسن للغاية طالعته ونقلت منه أشياء، وقيل هو لوالده جعفر. ومنها كتاب صناعة الكتابة ظفرت به وعثرت فيه على ضوال منشودة، وهو كتاب يشتمل على سبع منازل، وكل منزلة منها تحتوي على أبواب مختلفة ضمنها خصائص الكتاب والبلغاء: وقال ابن الجوزي في المنتظم في حوادث سنة ٣٣٧ بمناسبة موت قدامة ما نصه . "وله كتاب حسن في الخراج وصناعة الكتابة". وهذا الوصف لا يتفق مع تبويب كتاب "البرهان" أو "نقد النثر"، إذ أنه على أربعة أبواب تناولت كل ما قصد المؤلف كتابته عن الخراج وصناعة الكتابة، وفضلاً عن هذا فنحن إذا وزنا الجزء المطبوع من كتاب قدامة الخاص بالخراج ألفيناه مختلفًا عن القسم الخاص بالخراج في كتابنا "البرهان". والنتيجة البديهية هي أن قدامة وأبا الحسين كتب كل منهما كتابا في الموضوع، ولكن كلا منهما سلك مسلكه الخاص في علاج الموضوع. وقد ألف قدامة كتابه قبل سنة ٣٢٠، أما أبو الحسين فألف كتابه بعد سنة ٣٣٥ حسب ما جاء من نصوص تاريخية في ثنايا الكتاب.

ثانيًا : من الكتب المعروفة على وجه التحقيق لقدامة (نقد الشعر)، وقد عالج فيه الشعر وفنونه بوجه خاص: وقد عالج صاحب "البرهان" فى كتابه الشعر أيضًا، فلو أنه كان لقدامة لما احتاج إلى معالجة هذه الموضوعات مرة أخرى بمثل هذا البيان الكافى، وفضلا عن ذلك فإن معالجة الشعر فى (البرهان) تختلف اختلافًا جوهريًا عنها فى كتاب (نقد الشعر) من الناحية الفنية والموضوعية.

ثالثًا : وصاحب كتاب (البرهان) يصر فى كل مناسبة على ذكر الرجال المشهورين من آل وهب، معظما لهم فخورا بهم، كأن يقول : "وقد كان شيخنا أبو على الحسن بن وهب رحمه الله .. وقال أبو أيوب رضى الله عنه. وكان أبو أيوب رحمه الله رجلا مشهورًا بالبلاغة .. ولو لم نتقدم من ذكر البلاغة إلا بهذا القول من شيخنا رحمه الله لكفى وأجزى .." وأبو أيوب هذا هو سليمان بن وهب عميد آل وهب وجد المؤلف.

رابعًا : وهناك أمر يجب التنويه به وهو أن البطليوسى فى كتابه (الاقتضاب شرح أدب الكتاب) قد كتب فصولا طويلة بنى عليها مقدمته فى شرح الكتاب (ص٦٦ - ٩٠)، وهذه الفصول تتفق فى لفظها مع بعض فصول كتاب البرهان، ولكن البطليوسى لم ينسبها إلى أبى الحسين ولا إلى قدامة، وإنما أشعر بنسبتها إلى على بن مقلة (م٣٣٢هـ)، ولا يمكن أن يقال إن هذا الكتاب (البرهان) هو لابن مقلة لأنه ألف بعد سنة ٣٣٥ وبعد وفاة ابن مقلة بنحو ثمانى سنين، والقدر المتيقن أن البطليوسى لم يحتسب على أى حال قدامة بن جعفر مؤلفا للكتاب الذى نقل عنه على فرض أنه نقل فصوله من كتابنا هذا. ومن المحتمل أن يكون البرهان قد نسب مرة إلى على بن مقلة كما نسب إلى قدامة بن جعفر وجهل أمر صاحبه، ومن المحتمل أيضًا أن يكون البطليوسى ومؤلف كتابنا هذا كلاهما نقل نقولا من كتاب لابن مقلة فى هذا الموضوع، وهو أمر لم تساعدنا الظروف على تحقيقه؛ ومن غريب الأمر أن هذا الكتاب قد نسب إلى قدامة بن جعفر فى طرة المخطوطة الاسكوريالية، وكذلك فى طرة المخطوطة التى بأيدينا مع ورود اسم المؤلف فى أثناء الكتاب، وهو أمر غفل عنه الناسخ، وتفسير هذا التناقض يسير، فإن الوراقين كانوا يعرفون قيمة قدامة الأدبية ويعرفون شهرة كتابه فى الأدب، فلا يستبعد عليهم أن يضعوا اسمه على هذا الكتاب، لتسهيل بيعه وتداوله، وهذه طريقة معروفة عند النساخ والوراقين، لا تخفى على المحققين.

أبو بكر محمد بن دريد[1]

٢٢٣ - ٣٢١هـ

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد "بن عتاهية بن حنتم بن الحسن بن حمامي ابن جرو بن واسع بن وهب بن سلة بن حاضر بن حنتم بن ظالم بن فراهيد بن مالك ابن فهم بن غنيم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران" الأزدي العماني.

إمام عصره في اللغة والأدب والشعر الفائق، تقف عند كلامه الفحول، وتستعير آيات بلاغته الفصحاء، وتستمد من كلامه الخطباء، وترجع إلى حقائق علمه الأدباء، قال المسعودي: كان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل فيها، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين، وكان يذهب بالشعر كل مذهب، وشعره أكثر من أن نحصيه أو نأتي على أكثره. ولقد كان ابن دريد منذ شهرته صاحب منزلة كبيرة بين فحول العلم وقد ترجم له غير واحد، فأظهروا علو مقامه وطول باعه في العلوم العربية، حتى فاق سائر أقرانه، إلا أنهم لم يعتنوا فيما رأيت بذكر أرومته ونبعته كما ينبغي.

كان أبو بكر بن دريد علما من أعلام اللغة والأدب والرواية والشعر. ومقصورته التي قالها في مدح الشاه ابن ميكال تعد من غرر الشعر العربي وعيونه، وهو من الشخصيات التي تستحق الدراسة والتقدير في الأدب العربي.

وقد اتفق جميع مؤرخي ابن دريد أن ولادته كانت في مدينة البصرة سنة ٢٢٣ هجرية في خلافة المعتصم بالله العباسي، ونقل الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد : "أخبرني محمد بن علي الأصبهاني قال : نبأنا الحسن بن عبد الله بن سعيد اللغوي قال : سمعت ابن دريد يقول : مولدي بالبصرة بسكة صالح سنة ٢٢٣، واسمه محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي.

يتفق مؤرخو ابن دريد على أنه نشأ في البصرة وتأدب فيها، وتعلم اللغة وأشعار العرب وقرأ على علمائها، ثم صار بعد ذلك إلى عمان. ولكن ابن الأنباري

---

[1] ٤٤٨ - ٤٥٣ ج٣ وفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

والخطيب البغدادى يشذان عن هذا الإجماع، ويذكران إنه نشأ بعمان .. وبقى ابن دريد فى البصرة يتأدب على كبار المشايخ فيها مثل الرياشى والسجستانى، فلما وقعت فتنة الزنج فى البصرة سنة ٢٥٧هـ ودخلها على بن محمد صاحب الزنج واكتسحها وخربها خرج منها ابن دريد مع عمه الحسين بن دريد.

ويقول معظم المؤرخين لابن دريد أن انتقاله من البصرة فى فتنة الزنج كان إلى عمان، وينفرد ابن خلكان بالقول بأنه انتقل إلى بغداد أولا مع عمه، ثم إلى عمان بعد ذلك.

بقى ابن دريد فى عمان اثنى عشرة سنة، ثم عاد إلى البصرة فسكنها زمنا، ثم خرج منها فتنقل زمنا فى جزائر البحر، ثم عاد إلى البصرة. وفى أثناء إقامته الثانية هذه بالبصرة تقلد عبد الله بن محمد بن ميكال ولاية الأهواز من قبل الخليفة المقتدر بالله. وكان ابنه أبو العباس إسماعيل صبيا، فاستدعى ابن دريد لتأديبه فأجابه وخرج إلى فارس يؤدب إسماعيل بن ميكال ويخدم أباه الشاه ابن ميكال. وهناك ألف لهم كتاب الجمهرة فى سنة ٢٩٧، وقال فى مدحهم مقصورته الفريدة، وبقى معهم حتى صرفوا عن ولاية فارس، فذهب إلى بغداد ودخلها فى سنة ٣٠٨، وبقى فيها يدرس الأدب والشعر والرواية، ويحدث فى ذلك أكبر علمائها، ويجلسون إليه إلى آخر عمره، حيث أصابه فالج وهو فى حدود التسعين، وعاش مع الفالج عامين ثم استشفى منه بالترياق فشفى وصح وعاد إلى أفضل أحواله، ثم تناول - بعد عام - غذاءاً ضاراً فعاوده الداء. وبقى يتمرض حتى مات بعد عذاب ومرض طويل وكانت وفاته فى يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٣٢١هـ ببغداد، ودفن فى مقبرة الخيزران - وهى مقبرة أم الرشيد، ودفن فيها جمهور عظيم من علماء بغداد.

وياقوت فى معجم الأدباء والسيوطى فى بغية الوعاة يخالفان هؤلاء المؤرخين ويحددان زمن وفاته بيوم الأربعاء الثامن عشر من رمضان فى نفس السنة، أما أبو الفداء فيذكر فى تاريخه وفاة ابن دريد فى حوادث سنة ٣٢١ وأنها كانت فى شعبان من غير أن يحدد يومًا .

ويتفق هؤلاء المؤرخون على أنه دفن فى مقبرة الخيزران، أم الرشيد : ولكن ابن خلكان يقول إنه "دفن بالمقبرة المعروفة بالعباسية من الجانب الشرقى ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم". وينقل ياقوت ذلك منسوبا بصيغة

التضعيف إلى المرزباني، وينفرد الجلال السيوطي بالقول بأنه مات بعمان. قال : "ثم صار إلى عمان فأقام بها إلى أن مات".

والذى نرجحه أن وفاته كانت فى الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٣٢١هـ. وأنه دفن فى مقبرة الخيزران، لأن الخطيب البغدادى يروى قصة دفنه عمن شهد جنازة ابن دريد ومشى فيها إلى المقبرة. وهو ينص على أنه دفن فى الخيزرانية، فكان ابن دريد مات عن ثمان وتسعين سنة، ولكن البستانى يقول فى دائرة المعارف: "وقيل بل عاش ثلاثا وتسعين سنة لا غير".

هذه خلاصة لحياة ابن دريد وتقلبه فى البلاد وقد نشأ ابن دريد كما مر فى البصرة أول القرن الثالث. وتلقى العلم على كبار المشايخ فيها ، ثم انتقل إلى عمان فبقى يسمع اللغة من الإعراب اثنتى عشرة سنة ثم انتقل إلى جزائر البحر وفارس وبغداد، وهذا التنقل له ولا شك أثر فى تكوين شخصيته، ونجد فى أساتذة ابن دريد طائفة من أعظم الرجال فى اللغة والأدب والرواية، فقد سمع وحدث عن أبى حاتم السجستانى، وأبى الفضل الرياشى وعبد الرحمن بن قريب - ابن أخى الأصمعى - وأبى عثمان الاشناندانى .. وقد ولد هو ونشأ فى أسرة شريفة فيها رئاسة كما رأينا، وكان عمه الحسين بن دريد عالما جليلا وهو الذى تولى تربيته كما ذكر ابن دريد نفسه، وكذلك روت عن ابن دريد وسمعت عليه طائفة عظيمة جليلة، وكان ابن دريد قوى الحافظة جيدها، يقول ياقوت: قال الخطيب عمن رأى ابن دريد أنه قال: كان واسع الحفظ جدًا، ما رأيت أحفظ منه وما رأيته قط قرئ عليه ديوان شاعر إلا وهو يسابق إلى روايته لحفظه له"، ويقول أبو الطيب اللغوى عنه فى كتابه "مراتب النحويين": وكان أحفظ الناس .. ويروى الخطيب البغدادى عن حدة حفظه فى صباه هذه القصة العجيبة : "حدثنى على بن الحسن بن يوسف الأزرق قال : حدثنى جماعة أن ابن دريد قال : كان أبو عثمان الاشناندانى معلمى وكان عمى الحسين بن دريد يتولى تربيتى، فكان إذا أراد الأكل استدعى أبا عثمان يأكل معه، فدخل يومًا عمى وأبو عثمان يروينى قصيدة الحرث بن حلزة التى أولها "آذنتنا ببينها أسماء"، فقال لى عمى : إذا حفظت هذه القصيدة وهبت لك كذا وكذا ثم دعا المعلم ليأكل معه فدخل إليه فأكلا وتحدثا بعد الأكل ساعة، فإلى أن رجع المعلم حفظت ديوان الحرث بن حلزة بأسره. فخرج المعلم فعرفته ذلك فاستعظمه وأخذ يعتبره على فوجدنى قد حفظته، فدخل إلى عمى فأخبره، فأعطانى ما كان وعدنى به"، وهذه القصة بعينها يرويها ياقوت.

يقول الخطيب البغدادي : "حدثني علي بن محمد بن نصر . قال سمعت أبا بكر الأبهري المالكي يقول : جلست إلى جنب ابن دريد وهو يحدث ومعه جزء فيه ما قال الأصمعي. فكان يقول في واحد : حدثنا الرياشي. وفي آخر : حدثنا ابن أخي الأصمعي؛ يقول كما يجيء في قلبه، وقال غيره: كان ابن دريد قد أملى الجمهرة في فارس ثم أملاها في البصرة وبغداد من حفظه" - ياقوت - "وقال بعضهم: أملى ابن دريد الجمهرة من حفظه سنة ٢٩٧ فما استعان عليها بالنظر في شيء من الكتب إلا في الهمزة والألف"، "وذكر أبو علي البيهقي في كتاب النتف والطرف أنه صنف كتاب الجمهرة للأمير أبي العباس أيام مقامه بفارس، فأملاه عليه إملاء. ثم قال : حدثني أبو العباس الميكالي قال : أملى علي أبو بكر الدريدي كتاب الجمهرة من أوله إلى آخره حفظا في ٢٩٧ فما رأيته استعان عليه بالنظر في شيء من الكتب إلا في باب الهمزة واللفيف - لعله الألف - فإنه طالع له بعض الكتب ثم قال : وكفاك بها فضيلة وعجيبة أن يتمكن الرجل من علمه كل التمكن ثم لا يسلم - مع ذلك - من الألسن" .. وقال ابن دريد الشعر في مبتدأ شبابه في حدود العشرين، يقول الخطيب البغدادي: أخبرنا أحمد بن علي المحتسب، قال أنبأنا إسماعيل بن سعيد المعدل، قال أنشدنا أبو بكر بن دريد، وقال هذا أول شيء قلته من الشعر:

ثوب الشباب علي اليوم بهجته   فسوف تنزعه عني يد الكبر

وكان ابن دريد حجة في اللغة، بارعا في الشعر، وكانت له الصدارة في عصره، فاعترف له معاصروه بالتقديم، يقول المسعودي[1]: وكان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن أحمد"، ويقول ابن خلكان: "إمام في عصره في اللغة والأدب والشعر الفائق"، ويقول الخطيب البغدادي: "وكان رأس هذا العلم والمقدم في حفظ اللغة والأنساب وأشعار العرب"، ويقول ياقوت: "كان رأس هذا العلم"، وقال أبو الطيب اللغوي عنه في كتاب مراتب النحويين: انتهت إليه لغة البصريين. وكان أوسع الناس علما وما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد"، ويقول عنه ابن تغري بردي : "طلب الأدب واللغة حتى صار رأسا فيهما وفي أشعار العرب". ويقول ابن الأنباري: "وكان من أكابر علماء العربية مقدما في اللغة وأشعار العرب وأنسابهم". ووصف ابن دريد بالتقديم والأستاذية والرياسة مما أجمع عليه كل

---

[1] مروج الذهب ج٢ ص٥١٨.

مؤرخيه، حتى هو نفسه كان يعتز بعلمه وصدارته، ويرى أنه كان نسيج وحده، ووحيد دهره، وأنه وارث علم الأصمعي، "وقال أبو الحسن الدريدى[1]، حضرت وقد قرأ أبو على بن مقلة وأبو حفص كتاب المفضل ابن سلمة - الذى يرد فيه على الخليل بن أحمد - على أبى بكر بن دريد، فكان يقول : "صدق أبو طالب" فى شيء إذا مر به، و"كذب أبو طالب" فى شيء آخر؛ ثم رأيت هذا الكلام وقد جمعه أبو حفص فى نحو مائة ورقة فابن دريد هنا ينصب نفسه فى منصب الميزان والحكم بين العلماء، ولا يحجم حتى عن تخطيء الخليل .. وقال تلميذه أبو على القالى: قال لى مرة وقد سألته عن بيت الشعر: لئن طفئت شحمتا عينى، لم تجد من يشفيك من العلم؛ هكذا قال لى أبو حاتم. وكذلك قال لى الأصمعى وقد سألته.

وليس ابن دريد لغويا وراوية فقط، بل هو شاعر مكثر بارع مبتكر فى طريقته الشعرية. كان يقال عنه إنه أعلم الشعراء وأشعر العلماء، وله شعر كثير منه الجزل ومنه الرقيق، يقول ابن خلكان عن شعره: وله نظم رائق جدًا؛ وكذلك يقول البغدادى فى خزانة الأدب، ويقول عنه المسعودى فى مروج الذهب : وكان يذهب فى الشعر كل مذهب فطورا يجزل وطورا يرق. وشعره أكثر من أن نحصيه، أو نأتى على أكثره، أو يأتى عليه كتابنا هذا، ولكن الدكتور زكى مبارك يقول: إنه كان شاعرًا مقلاً.

ونال ابن دريد فى حياته مكانة كبيرة عند معاصريه من العلماء والوزراء والملوك، وقد رأينا طرفا من ذلك، ويدل عليه ما قدمناه من أن الشاه ابن ميكال اختاره لتأديب ولده إسماعيل. وقد نال عندهما حظوة حتى قلداه ديوان فارس، فكانت الكتب لا تكتب إلا عن رأيه ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه .. وقد بلغ من تبريز ابن دريد فى عصره وتقدمه، بل سطوته على جيله، أنه أخمل طائفة من العلماء المعاصرين له، قال ابن خالويه فى شرح المقصورة كان ببغداد عباد بن عمر ابن الحليس الكرمانى صاحب لغة، وكان يطعن على ابن دريد وينقض عليه الجمهرة؛ فجاء غلام لابن دريد فقال : "اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، قال أبو بكر ابن دريد أعزه الله تعالى : عننت الفرس إذا حبسه بعنانه، فإن حبسته بمقوده فليس بمعن، قال الكرمانى الجاهل: أخطأ ابن دريد لأنه إن كان من عننت فيجب أن يكون معنونا. وإن كان من أعننت يجب أن يكون معنا، وأخطأ لكذا وكذا، فوقف شاعر على الحلقة فقال : اكتبوا :

أذللـــت كـــرمان وعرضـــتها   لجحفـــل مـــثل عديـــد الحصـــى

---

[1] كان وراق ابن دريد وإليه صارت كتبه بعد موته.

وابـــن دريـــد غــرة فـــيهم	فـــي بحـره مـثلك كـم غوصـا
جـثا عـلى الركـبة حـتى إذا	أحـس نـزرا قعـد القرفصـا
والله إن عـــاد إلى مثــلها	لأصـــفعن هامـــته بالعصـــا

فلم يلتفت إليه الكرماني بعد ذلك، ولما دخل ابن دريد بغداد احتفى به أهلها، وأنزله الوزير على بن محمد في جواره وأفضل عليه، وعرف الخليفة المقتدر مكانه من العلم، فأجرى عليه في كل شهر خمسين دينارا لم تزل جارية عليه إلى أن مات، ويقول أبو الطيب اللغوى: تصدر ابن دريد في العلم ستين سنة، روى فيها عنه وتعلم طائفة عظيمة وجليلة من كبار العلماء، منهم أبو سعيد السيرافي وأبو بكر ابن شاذان وأبو عبد الله المرزباني وعمر بن محمد بن سيف وأبو الفرج صاحب الأغاني وأبو على القالي .. ويكاد يكون كتاب "الأمالي" كله من أحاديث ابن دريد وروايته.

وقد ذكر أبو إسحاق الحصرى في زهر الآداب أن ابن دريد أغرب بأربعين حديثا استنبطها من ينابيع صدره واستنتجها من معادن فكره إلخ .. وهذه الأحاديث الأربعون غير معروفة، وقد التفت إليها الدكتور زكى مبارك، وذهب إلى أنها البذرة الأولى لفن المقامات، وأن ابن دريد سبق بها بديع الزمان، فهو يقلده فيها، فإن صح ما يراه الدكتور - وهو غير بعيد - فإن فضلا جديدا يضاف إلى ابن دريد، ويثبت له تبريز جديد في الأدب فوق ما قاله فيه من تفوق وتبريز، وكان ابن دريد بصرى المذهب في النحو، بل رأينا فيما سبق أن أبا الطيب اللغوى يقول عنه : وانتهت إليه لغة البصريين، وقد ولد هو في البصرة ونشأ بها وتعلم على مدرستها وسمع من كبار لغوييها كما تقدم، وبين مدرستى البصرة والكوفة معارك حامية في اللغة.

وكما نال ابن دريد الصدارة في حياته، كذلك بقى اسمه مذكورا، وذكره معروفا، ومنزلته فائقة في جميع العصور بعد ذلك، فمقصورته يعتنى بها خلق كثير من المتقدمين والمتأخرين بالشرح، وبالكلام عن ألفاظها، ويعارضه بمثلها كثير من الشعراء. والمعرى يذكره في رسالة الغفران ويلقبه بشيخ الازد ويجعله نديما من ندامى الأدباء في الفردوس، وفي كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب إشارة في خبر. تدل على أنه كان معروفا ومذكورا بالصدارة في بلاد الأندلس للقرن الرابع والخامس، وقل أن نجد كتابا من الكتب المعتبرة في الأدب مما ألف في حياته أو بعد موته لم يرد فيه اسمه - بكثرة مفسرا أو راوية أو شاعرًا.

وألف ابن دريد طائفة كبيرة من الكتب يذكرها الجلال السيوطى ويذكر بعضها ابن تغرى بردى، وبعضها صاحب خزانة الأدب. وبعضها ياقوت،وهى :

الجمهرة فى اللغة، ويقول عنه المسعودى وهو من الكتب المعتبرة فى اللغة - الأمالى - اشتقاق أسماء القبائل - المجتبى - الملاحن - الوشاح - على حذو المحبر لابن حبيب - المقتبس - المقصور والممدود - الخيل الكبير - الخيل الصغير - غريب القرآن "لم يتم" - الأنواء - فعلت وأفعل - السلاح - المطر أدب الكاتب. على مثال كتاب ابن قتيبة، "ولم يجرده من المسودة فلم يخرج منه شىء" - زوار العرب - السرج واللجام - تقويم اللسان - المقصورة.

وكتاباه المجتبى والوشاح يقول عنهما ابن خلكان: إنهما "صغيران كثيرا الفائدة مفيدان"، ولم يبق معروفا لنا من كتب ابن دريد هذه إلا شىء يسير أشهره المقصورة وكتاب الملاحن وهما مطبوعان، وفى دار الكتب المصرية بعض كتب مخطوطة لابن دريد، وقد ذكر عبد القادر المغربى كتب الجمهرة والسرج والجام وكتاب الانواء والمجتبى، ثم قال: "وهذه الكتب عندى والحمد لله والمنة". وهذا يدل على أن هذه الكتب كانت معروفة متداولة وأنها بقيت موجودة إلى عصر عبد القادر البغدادى - ١٠٣٠هـ - ويذكر عبد القادر هذه الجملة عند ذكر بقية كتب ابن دريد.

ومع هذه المنزلة الكريمة التى نالها ابن دريد عند معاصريه وعند من خلفهم لم يكن بثقة عند طائفة من معاصريه لها خطرها فى الحكم والتقدير، قال أبو منصور الأزهرى فى مقدمة كتاب التهذيب: "وممن ألف فى زماننا الكتب فرمى بافتعال العربية وتوليد الألفاظ وإدخال ما ليس من كلام العرب فى كلامها، أبو بكر محمد ابن دريد صاحب كتاب الجمهرة وكتاب اشتقاق الأسماء والملاحن، وسألت عنه إبراهيم بن عرفة، فلم يعبأ به ولم يوثقه فى روايته، وقد تصفحت أنا كتابه الذى أعاره اسم الجمهرة فلم أقف، على معرفة ثاقبة، ولا قريحة جيدة" ويقول ابن خلكان: "سئل عنه الدارقطنى - سأله حمزة بن يوسف فقال : تكلموا فيه، وقيل كان يتسامح فى الرواية فيسند إلى كل واحد ما يخطر له" ويقول المسعودى فى مروج الذهب : "وأورد أشياء فى كتب اللغة لم توجد فى كتب المتقدمين"، وكما طعن فيه بالانتحال والوضع: كذلك رمى بالسرقة فى شعره وفى تأليفه ، قال فيه شاعر معاصر له:

ابن دريد بقره	وفيه عى وشره
ويدعى من حمقه	وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين	إلا أنه قد غيره ..

وقائل هذه الأبيات الثلاثة هو أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة المحدث النحوي المشهور بنفطويه، ولابن دريد عليهم جواب ظريف سنذكره، ويقول أبو الفرج أنشدني عمي رحمه الله أبياتًا لابن دريد يمدح بها رجلا من أهل البصرة:

يا من يقبل كف كل مخرق   هذا ابن يحيى ليس بالمخراق
قبل أناملــه فلســن أنــاملا   لكــنهن مفــاتح الأرزاق

فقال : يا بني هذا سرقه هو وابن الرومي جميعًا من إبراهيم بن العباس يمدح الفضل ابن سهل:

لفضــل بــن ســهل يــد   تقاصــر عــنها الأمــل
فباطــنها للــندى ..   وظاهــرها للقــبل
وبســطتها للغــنى ..   وســطوتها للأجــل

وسرقها ابن الرومي .. إلخ .

ويصف ابن دريد في مقصورته مسيره إلى فارس ويتشوق إلى البصرة، ويمدح الشاه ابن ميكال، وعدد أبياتها ٢٢٩ بيتا. وأجود شروحها شرح السبتي المعروف بابن هشام اللخمي المتوفى بعد سنة ٥٥٧هـ، وممن شرحها القزاز، وابن خالويه النحوي المتوفى عام ٣٧٠هـ، والسيرافي المتوفى عام ٣٦٨هـ، وابن الصائغ الدمشقي م٧٢٠هـ، والتبريزي م٥٠٢هـ، والصغاني م ٦٥٠ هـ. والسخاوي المتوفى بعد سنة ١٠٢٥هـ.

وفي كتاب الأنساب للعلامة الصحاري العتبي أن لابن دريد قصائد في وقعة الروضة[1] المشهورة بعمان في عهد الإمام راشد بن النضر والعلامة موسى بن موسى ابن علي مرجع هذا الإمام ورئيس الحل والعقد لديه - تبين تلك القصائد مقدار صلة ابن دريد بقومه والتعلق بأمورهم، مما يدلنا على أنه لم يكن بعيد النشأة عنهم؛ ولا مباين النزعة لهم، وما مبارحته لبلاد عمان إلا في سبيل العلم، حيث كان من صفات العلماء الفحول الخاصة الشغف ببث العلم والدخول في ميادينه، ولا سيما ما هم ممتازون به متفوقون على الأقران فيه.

وفي الأنساب قصيدتان من قصائد ابن دريد، وهما على جانب من التحريف عظيم، نقتطف من واحدة منهما بعض أبيات لبيان اتصاله بقومه وارتباطه بأرومته الأزدية العمانية .. مطلعها :

---

[1] الروضة موضع قرب بلد تنوف من جهة الغرب بين نزوى عاصمة الإمامة الجبل الأخضر بحبوحة عمان، وكانت الوقعة بين العتيك واليحمد وفراهيد وبني فم وبين غيرها من قبائل عمان.

نــبه نابــه وخطــب جلــيل	بــل رزايــا لهــن عــبء ثقــيل
يــا بــنى مــالك بــن فهــم قتــيلا	لا يــباريه فــى الأنــام قتــيل
أى طــرف سمــا إلــيكم بكــيد	لم تــردوه وهــو عــنكم كلــيل
أقلــيل عزيــزكم فــتقولوا	إنــنا فــى الوغــى نفــير قلــيل
أم ضــعاف عــن ثــأركم فــتلذوا	مشــرب الــذل والمضــيف ذلــيل
أم عبــيد لراشــد ولموســى	أى هــذى الأضياف أنــتم فقولـوا[1]
لــيس يســعى لهــا امــرؤ وســدته	معصــميها الوهانــة العطــبول
وفراهــيد الــذى عــلى الــرو	ضــة مــن خيــلهم دمــاء تسـيل
وحمــاة الــزمان مــن آل دهــ	ــنان إذا يــبرز الــبرى والحجــول
وبــنو العــم مــن جديــد خصوصــا	وعمــادى فــى الشــدة المــأمول
وبــنو ظــالم يــدى ولســانى	وحســامى المهــند المصــقول
يــا بــنى مــالك بــن فهــم قتــيلا	بدهــاريس غــرهن اللــيول
أى يــوم لــبأس موســى بــن موســى	ذاك يــوم لــو يعــلمون طويــل
يــوم لا يــنفع اتصــال بقــربى	يــوم لا العــذر عــنده مقــبول
فــلحا الله مــانع الــروع مــنا	حيث يستصحب الضليل الضليل

ومكانته فى الشعر يومئذ لا تقل عن مكانته العلمية، فله المقصورة المشهورة التى مطلعها:

أمــا تــرى رأســى حــاكى لونــه	طــرة صــبح تحــت أذيــال الدجــى

تبارى شرحها أكابر العلماء وسارت بها الركبان فى سائر النوادى العلمية.. قيل إنها احتوت على أكثر المقصور فى اللغة العربية. وكان مدح بها الشاه بن ميكائيل وولديه من أمراء فارس، وكان ذا منزلة لديهم حتى تقلد ديوان فارس، وكانت الكتب منه تصدر عن رأيه، ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه، ونال ثروة عظيمة من ابن ميكائيل، وانتقل إلى بغداد بعد عزلهما عن ولاية فارس وانتقالهما إلى خراسان، وكان انتقال ابن دريد إلى بغداد فى عهد المقتدر بالله، ونزل على على بن محمد الخوارى فأكرم جواره ورفع مكانه، وعرف خبره الإمام المقتدر ومكانته من العلم فأجرى عليه خمسين دينارا مرتبا شهريا، ولم تزل جارية عليه إلى أن مات. عرف بالسخاء والكرم حتى لا يمسك درهما مع كثرة استفادته .. ولابن دريد خاصة امتاز بها وهى قوة الحفظ حتى لم يدانه أحد فيها، وكان يقرأ عليه دواوين العرب فيسابق

---

[1] راشد هو الإمام راشد بن النضر، وموسى هو العلامة موسى بن موسى ابن على.

إلى إتمامها من حفظه، وكان واسع الرواية، قال بعض العلماء: ابن دريد أعلم الشعراء وأشهر العلماء .. وتآليفه كثيرة والمشهور منها بضعة عشر كتابًا سبق ذكرها وهي:

أدب الكاتب، والاشتقاق في تفسير الأعلام وأسماء القبائل، والأنواء، والجمهرة من الكتب المعتبرة في اللغة، والخيل الكبير، والخيل الصغير، وزوار العرب، والسرج واللجام، والسلاح، وغريب القرآن لم يكمله، وكتاب اللغات، والمجتنى في شرح أحاديث المصطفى، والمقتبس، والمقتنى، والملاحن، والوشاح صغير وهو مفيد جدا.

وقد أخذ عن أبي حاتم السجستاني، والرياشي، وعبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن أخي الأصمعي، وأبي عثمان سعيد بن هارون الأشنانداني صاحب كتاب المعاني، وغيرهم .. وأخذ عنه كثير منهم أبو سعيد السيرافي، وأبو عبيد الله المرزباني، وأبو علي القالي صاحب كتاب الأمالي، وروى أبو علي أن ابن دريد أصيب بالفالج في آخر عمره فتداوى منه فشفاه الله ثم عاوده، ومع ذلك كان ثابت الذهن كامل العقل يرد فيما يسأل عنه ردًا صحيحًا، قال: وكنت أسأله شكوكي في اللغة وهو بهذه الحال، فيرد بأسرع من النفس بالصواب، قال : وآخر شيء سألته عنه جاوبني بأن قال لي : يا بني حال الجريض دون القريض، وكان هذا الكلام آخر ما سمعته منه، وكان كثيرا ما يتمثل بقوله:

فواحـــزني أن لا حـــياة لذيـــذة   ولا عمـــل يرضـــى بـــه الله صـــالح

ذكر العتبي عن العتكي أنه قال : دخلت على ابن دريد قبل موته فسمعته يقول : ولدت ليلة الجمعة في أحد الربيعين سنة خمس وعشرين ومائتين .. ومات يوم الأربعاء لثمان عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ثلاثمائة واحدى وعشرين - وهي السنة التي خلع فيها القاهر بالله أبو منصور محمد المعتضد، وبويع فيها الراضي بالله أبو العباس ابن المقتدر بالله - وكان موت ابن دريد وموت أبي هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي متكلم المعتزلة في يوم واحد، فقال الناس: اليوم مات علم اللغة وعلم الكلام. ويكون عمره سبعة وتسعين سنة، وقيل عاش ثمانيا وتسعين، وموته ببغداد ودفن بمقبرة العباسية من الجانب الشرقي في ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم أو بسواها .. ورثاه البرمكي ..

وقد جمع لابن دريد علامة اللغة الشيخ محمود الشنقيطي كثيرًا من مفردات المسائل اللغوية وطرائفها، وسماها : "أخبار ابن دريد" ، وهي موجودة في مكتبته

بالكتبخانة السلطانية. سئل الدارقطني عن ابن دريد أثقة هو أم لا؟ فقال : تكلموا فيه، وزعم بعض أنه كان يتسامح في الرواية يسند إلى كل واحد ما يخطر له، واتهموه باللهو والخمر، حتى رووا عنه في هذا أشياء ، الله أعلم بصحتها، ولم أر لمن ذكره من أصحابنا أنه نسب له شيئا من تلك التهم.

أبو القاسم الآمدى

المتوفى عام ٣٧١هـ

-١-

هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى الأصل، البصرى المنشأ، ولد بالبصرة فلما بلغ سن الشباب توجه إلى بغداد واختلف إلى مجالس العلماء يتلقى عنهم اللغة والنحو والأدب، ثم عاد بعد حين إلى البصرة كاتبا للقضاة من بنى عبد الواحد، ثم برز في الأدب وطارت له شهرة واسعة فيه، وانتهت إليه رواية الشعر القديم والأخبار في آخر عمره، وقد ألف كتبا كثيرة في اللغة والنقد ذكرها ياقوت في الترجمة التى عقدها له، وكان فوق ذلك شاعرا مجيدا رويت له مقطعات شعرية كثيرة، وتوفى أخيرًا بالبصرة سنة ٣٧١هـ (ص٧٥ - ٩٣ ج ٨ معجم الأدباء - بغية الوعاة).

ومن مؤلفات الآمدى : كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء؛ وكتاب تفضيل امرىء القيس على الجاهليين، وكتاب معانى شعر البحترى، وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام، وكتاب فرق بين الخاص والمشترك من معانى الشعر، وكتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر، وكتاب ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ. على أن أهم كتبه هو كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى، وهو موضوع دراستنا:

ظهر الآمدى في القرن الرابع والدولة الإسلامية واسعة الرقعة، والثقافة العربية بعيدة المدى، قد هضمت شتى الثقافات وأحالتها غذاء عقليا سائغا، فدرس الآمدى وبحث وثقف عقله وهذب نفسه بهذه الثقافة العربية في روحها، المتنوعة في ألوانها .. والآمدى كما نراه في موازنته ذو عقل بعيد وفكر ناضج وثقافة واسعة، وهو لا يسير وراء العلماء والأدباء، وإنما يجىء في الطليعة مجددا لا مقلدا، ومتبوعا لا تابعا، سواء في اللغة أم الأدب أم النقد.

وهو من الذين يؤثرون في الأدب الروح الشعرية المطبوعة التي تميل إلى إيثار اللفظ والأسلوب، فهو لا يرى الشعر إلا صحة تأليف وعذوبة لفظ وجمال نظم، وهو لا يرى هذا الرأي في الشعر وحده، بل يجعل البلاغة كذلك قاصرة على جمال اللفظ والأسلوب وحدهما وموافقتهما للنهج العربي في صحة التأليف وجودته، أما المعاني وسموها والحكمة الإنسانية وروعتها، والخيال وإغراقه، فذلك الترف الزائد عن الحاجة، والذي إن ألم به الشاعر أو الخطيب فقد زاد في حسن صنعته وبهائها، وإلا فالصنعة باقية قائمة بنفسها ومستغنية عما سواها[1].

وهو في هذا الاتجاه الأدبي تابع للجاحظ وأضرابه ممن يؤثرون الروح الشعرية المطبوعة على المعاني الشعرية المبتدعة؛ ويقولون "عليك أن تجتنب السوقي والوحشي، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني، وفي الاقتصاد بلاغ"[2]، ولكنه يباين قدامة الذي ينادي بضرورة العناية بالمعنى كما نعني باللفظ، ويجاهر بأن البلاغة في شيئين. معنى مبتدع، ونظم ساحر. وهو لذلك يجعل مادة الشعر المعاني (ص١٤ س١٦ نقد الشعر). أما الآمدي فقد جعل مادته هي الألفاظ (ص١٨٣ س٧ موازنة).

وقد كان هذا الاتجاه الأدبي الذي اتجهه الآمدي سببا فيما نراه في موازنته من مظاهر إيثار البحتري وتفضيله والإشادة بشعره مما سنقص عليك نبأه.

ونقد الآمدي لشعر الطائيين ليس نقدا للروح الشعرية بما فيها من جوانب شتى ومظاهر متنوعة وآراء ذهب إليها الشاعر، وشخصية فرضت نفسها على إنتاجه، وحياة تلون هذا الإنتاج بلونها، وعقلية نبع ذلك الشعر من ينابيعها، واتجاهات جديدة اتجه إليها فنه. ونغمات جديدة أضافها إلى التراث الشعري، وإنما هو نقد الفكرة الشعرية المجردة، ولأسلوبها الشعري الذي ظهرت فيه، إذا كانتا بعيدتين عن النهج العربي، فهو تحكيم للنهج العربي في أسلوب الشاعرين وألفاظهما ومعانيهما، فيرد منها ما يرده الطبع العربي، ويقبل ما يقبله، مع عناية باستقصاء سرقاتهما الشعرية الكثيرة. فهو نقد عقلي ولغوي أكثر منه نقدًا أدبيًا شعريًا. على أن الآمدي لا يكتفي في النقد بالناحية السلبية فقط، بل كثيرا ما يتجه اتجاها إيجابيا جميلا. فيأتي بالأبيات التي وقع فيها الخطأ - أيًا كان نوعه - مصححة أبدع تصحيح.

---

(1) ١٨٢ و١٨٣ موازنة.

(2) ١٧٦ ج١ بيان.

وتعطينا الصورة السابقة التي رسمناها للآمدي فكرة عن كتابه "الموازنة"، ولكن لا ضير علينا أن ننتقل من هذا الإجمال إلى البحث التفصيلي التحليلي للكتاب من جميع نواحيه.

ألفت الموازنة في فترات متقطعة، يدلنا على ذلك عدم تساوق كل جزء من أجزائها في التأليف مع الذي يليه، وأن روح الآمدي مختلفة في ثناياه، فهو يذكر في آخر كل فصل من كتابه أنه سيضيف إلى البحث ما سيعثر عليه من أخطاء أو سرقات، وسيلحقه بما كتب. وهو حين يقرر في أول كتابه (ص٢٣ موازنة) أنه سيوازن بين شعر الشاعرين فيما يتفقان فيه في الموضوع والوزن والقافية وإعرابها، يعود فيجعل الموضوع فقط هو أساس الموازنة (ص١٨٤ موازنة). وهو يكرر كثيرًا من آرائه ونقده؛ فبيت ذي الرمة:

أنخت بها الوجناء لا من سآمة ... لثنتين بين اثنين : جاء وذاهب

يشرحه في ص١٦٣ و١٨٦ . وبيت البحتري :

يخفي الزجاجة لونها فكأنها ... في الكف قائمة بغير إناء

ينقده في ص١٤ و١٦٤، وبيت أبي تمام: طلل الجميع لقد عفوت حميدا. ينقده في ص٩٦ و١٩١، إلى غير ذلك من التكرار الكثير: فشخصية الآمدي العلمية لم تستطع جعل الموازنة وحدة تأليفية بارزة في روحها التأليفية، ويصح لنا أن نقول: لقد جاء على ذلك أغلب التآليف العربية، فلا داعي للوم الآمدي وحده، والنسخة التي بين أيدينا والتي طبعت في مصر ناقصة، فليس فيها من الموازنة بين الشاعرين إلا الموازنة في معنى واحد من معانيهما، وهو بكاء الديار وما يتبعه، وليس فيها ذكر لما انفرد به كل من الشاعرين من المعاني، ولا ذكر لما وقع في شعريهما من التشبيه والأمثال، مع أن الآمدي نفسه ذكر في موازنته أنه سيلم بجميع ذلك (ص٢٣ موازنة) على أن عبد القاهر الجرجاني أورد في أسرار بلاغته جملا من الموازنة لا نراها في النسخة المطبوعة (ص٣٢٩ أسرار)، وعلى أن ياقوت ذكر أن الكتاب في عشرة أجزاء، وليس الذي بين أيدينا يبلغ هذا المقدار (ص٨٧ ج٨ معجم الأدباء).

والموازنة مع ما أخذنا عليه من هنات ضئيلة في التأليف من أجل الكتب التي ظهرت في النقد والموازنة : ولقد وضع هذا الكتاب أساس نقد الشعر والموازنة بين الشعراء، وهو بحق من أمهات كتب النقد الأدبي وأصوله: وهو أيضًا مصدر من

مصادر البيان العربى ومرجع من مراجعه، وقد اعتمد عليه علماء البيان كما سنفصل ذلك إن شاء الله. ونحن حين نقول إنه مرجع من مراجع علم البيان لا نقول إنه كتاب بيان وبلاغة كما زعم ابن الأثير فى مثله السائر فأخطأ فى ذلك ثم بنى على هذا الخطأ نقده للموازنة بأن صاحبها أهمل كثيرًا من مباحث علم البيان لم يستوف بحثا أو لم يذكرها أصلاً (ص٢ مثل سائر)، فالموازنة إنما هو نقد أدبى، وموازنة بين شاعرين، وليس بحثا فى البيان العربى وبلاغته ..

والكتاب مقسم إلى خمسة أقسام، وكل قسم يسميه المؤلف جزءا :

١- فالجزء الأول (من ١ - ٦٠)، ويورد فيه الآمدى آراء النقاد فى شعر أبى تمام والبحترى، ويستقصى رأى المتعصبين لهذا أو ذاك، ويطلق لهذا الفريق الحرية فى مجادلة ذلك الفريق، ثم يحصى فيه فى إفاضة سرقات أبى تمام الشعرية:

٢- والجزء الثانى من (٦٠ - ١١١)، وقد ذكر فيه أخطاء أبى تمام فى المعانى والألفاظ والأساليب :

٣- والجزء الثالث يذكر فيه قبيح استعاراته ومستهجن جناسه ومستكره طباقه، وما ورد فى شعره من سوء النظم وتعقيد التركيب ووحشى الألفاظ مما خلا من بهاء الرونق وعذوبة المسمع، ومما حمل التعسف على ديباجته، وظهرت فجاجة التصنع فى أعطافه، ويذكر ما وقع فيه من كثرة الزحافات التى ضيعت موسيقى أوزانه الشعرية، حتى قال فيه دعبل : إن كلامه بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر الموزون (ص١١١ - ١٣١).

٤- والجزء الرابع يحلل فيه بإيجاز عيوب شعر البحترى مكتفيًا من ذلك ببيان بعض سرقاته مع نفى الكثير منها عنه بدعوى أن الاحتذاء كان فى معان عامية لا خاصية حتى ينسب إليه السرقة فيها. ويذكر قليلا من أخطائه فى المعانى مزيفا بعضها، وبيتا واحدا مما تعسف فيه النظم وعقد فيه التركيب، قائلا إنه لا يعرف له سواه، وقليلا مما جاء به من رديء التجنيس أو من اضطراب الوزن واختلاله (ص١٣١ - ١٧٦):

٥- والجزء الخامس يوازن فيه بين الطائيين فى المعانى التى اتفق موضوعها فى شعرهما، ويبدأ تلك الموازنة بكلمة يبين فيها صعوبة نقد الشعر، وأن لهذا الميدان أبطاله ممن عنوا بكثرة النظر فى الشعر والارتياض فيه وطول الملابسة له مع الطبع المطيع والملكات المواتية، وأنه يجب أن يكون إلى هؤلاء المرجع

فى نقد الشعر وصناعته وهو متأثر فى هذا الرأى بابن سلام الجمحى ومقتبس منه (راجع طبقات الشعراء لابن سلام ص٣ والعمدة ج١ ص٩٩، والموازنة ص١٧٨ س٥)، ثم يبين الآمدى اتجاهه الأدبى الذى تأثر به فى الموازنة وهو الاتجاه الذى جعله لا يرى بلاغة الشعر إلا فى نظمه وأسلوبه وصحة طبعه، ذاكرًا أن الذين قدموا البحترى إنما قدموه لأن لـه من ذلك ما ليس لسواه وإن كانوا لا ينكرون على أبى تمام إجادته فى المعانى وكثرة استنباطه لها وإغرابه فيها ولا مكانه البارز فى حومتها، ولكنهم يقولون إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقديم ألفاظه مع كثرة غرامه بالجناس والطباق والاستعارة والمقابلة وسواها من ألوان البديع مما ذهب بماء شعره فصار غير متشابه الأطراف ولا متآلف الروح الشعرية، فهم يسلمون لـه - كما يسلم له أنصاره - ضالة الشعراء جميعًا من لطف المعانى وعمقها، وتنوعها، وبديع الوصف وجودة التشبيه والتمثيل، وسمو الحكمة وإغراق الخيال، وهى التى قدم بها امرؤ القيس فى الجاهلية : ألا ترى عمارة بن عقيل ينشد رائيته فى الواثق:

عـــرف الديـــار رســـومها قفـــر ... لعبـــت بهـــا الأرواح والقطـــر

فلما أتمها قيل له : ما سمعنا أحسن من هذه الرائية، فقال : والله لقد عصفت رائية طائيكم بكل شعر فى لحنها، أفلا تسمعون:

الحـــق أبـــلج والســـيوف عـــوارى ... فحـــذار مـــن أســـد العـــرين حـــذار

وأنشدها رجل فى المجلس فلما أتمها قال عمارة : "لله دره لقد وجد ما أضلته الشعراء حتى كأنه كان مخبوءًا له": ولكن خصوم أبى تمام يستكثرون عليه من أجل ذلك أن يسمى شاعرا ويقولون له: فلتكن إن شئت حكيمًا، ولندعك إن أردت فيلسوفًا، أما الشاعر فالبحترى : ويفيض الآمدى فى الإشادة بمذهب البحترى وأنه الشعر وأنه السحر وأنه روعة البلاغة وسحر البيان، ويقر أن ليس الشعر ولا البلاغة إلا نظمًا وأسلوبًا، وأن أبرز عناصرهما النظم والأسلوب. ثم ينتقل بعد ذلك إلى الموازنة بين الشاعرين فى بكاء الديار والوقوف عليها ووصف الدمن والأطلال وما إليها وما تبعثه من جوى فى صدور الواقفين بها والمسلمين عليها. وفى الحنين إلى الربوع والبكاء لفراقها، ويستمر فى هذه الموازنة مفضلاً هذا أو ذاك مكافئًا بينهما حسب جودة كل شاعر، ويشرح كل ذلك فى إفاضة بيان وقوة عارضة وحسن نقد وعدالة حكومة .. وإلى هنا ينتهى الكتاب . وهذا الجزء من ١٧٦ - ٢٠٨:

والآمدي في معظم ما كتب كان ناقدا محيطًا بأسرار اللغة ودقائق البيان، فهو يقف في نقده عند البيت في دقة ملاحظة وسعة اطلاع، إذا وجد فيه خطأ في لفظ أو فسادا في تركيب أو إحالة في معنى أو بعدا عن النهج المألوف، مما سنفصله بعد حين، وإن كان قد ذلل له هذه الأبحاث من سبقه من النقاد والعلماء.

رأي ياقوت في الموازنة ونقده لها: يقول ياقوت في معجم الأدباء ما نصه: كتاب الموازنة بين الطائيين في عشرة أجزاء وهو كتاب حسن وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه ونسبه إلى الميل مع البحتري فيما أورده والتعصب على أبي تمام فيما ذكره، والناس بعد فيه على فريقين: فرقة قالت برأيه حسب رأيهم في البحتري وغلبة حبهم لشعره، وطائفة أسرفت في التقبيح لتعصبه وأنه جد واجتهد في طمس محاسن أبي تمام وتزيين مرذول البحتري، ولعمري إن الأمر كذلك وحسبك أنه بلغ في كتابه إلى قول أبي تمام – أصم بك الناعي وإن كان أسمعًا – فشرع في إقامة البراهين على تزييف هذا الجوهر الثمين[1]، ولو أنصف وقال في كل واحد بقدر فضائله لكان في محاسن البحتري كفاية عن التعصب بالوضع من أبي تمام[2] ونحن نرى أن ياقوت مصيب في ذلك إلى حد ما، وسنفصل ذلك في كلامنا.

بعض مآخذنا على الموازنة:

١ – انتصاره لعلماء الأدب، المتعصبين للقديم المنكرين فضل المحدثين، ودفاعه عنهم، كما فعل مع الأصمعي فيما روى عنه من أن إسحاق الموصلي أنشده:

هـــل إلى نظـــرة إلـــيك ســـبيل	فـــيروى الصـــدا ويشـــفى الغلـــيل
إن مـــا قـــل مـــنك يكـــثر عـــندي	وكـــثير ممـــن تحـــب القلـــيل

فقال لمن تنشدني، فقال لبعض الأعراب، فقال هذا والله هو الديباج الحسرواني، فقال إسحاق إنهما لليلتهما فقال الأصمعي لاجرم والله إن أثر الصفة والتكلف بين عليهما.

ودفاع الآمدي عنه دفاع ضعيف متكلف، وهل يسوغ لمنصف أن يقول إن ذلك غير منكر من الأصمعي وابن الأعرابي لأن "الذي يورده الأعرابي وهو محتذ على غير مثال أجلى في النفوس وأشهى إلى الأسماع وأحق بالزيادة والاستجاده مما يورد سواه على الأمثلة، كما يحاول الآمدي أن يلقي ذلك في روعنا، ولو أنه

---

(1) لا يوجد هذا بالنسخة المطبوعة.

(2) ٨٧ و٨٨ معجم ج٨ .

اعتذر لهما ولأمثالهما بأنهم كانوا جلة الرواة وشيوخ اللغة والحفاظ على العربية وأنه لا يجدر بهم وهم فى منزلتهم العلمية الكبيرة أن يزلوا عن شممهم وكبريائهم ويرووا شعر المحدثين الناشئين أو يسيروا بشعرهم فى مناهج البحث العلمى، نعم لو قال الآمدى ذلك وذهب إليه لوجدنا له عذرًا مقبولاً معقولاً. ولقد عرض الصولى لهذه الخصومة فى كتابه (١٧٥ و١٧٦ أخبار أبى تمام)، وقال ابن المعتز : إنها عيب قبيح ومن فعل ذلك فإنما غض من نفسه ثم جعل هذا ناشئًا عن جهل بنقد الشعر وتمييزه. ولكن صاحب الوساطة عرض لهذا التحامل الظاهر ورده إلى سببه الصحيح وهو تعصب علماء اللغة ورواتها للشعر القديم وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم (٤٩ و٥٠ وساطة).

٢- : إيثاره للبحترى وجنوحه إلى تقديمه وانتصاره له ويتجلى ذلك فى ثنايا كتابه فى مظاهر شتى، فهو حينا يذهب إلى أن جيد البحترى أكثر من جيد أبى تمام، وكلما أمعنت النظر فى ديوان البحترى تنبهت إلى كثير من جيده الذى غاب عنك قبل حسنه، بينما لا تظفر إذا أمعنت النظر فى ديوان أبى تمام من جيد إلا بالقليل (٢٢ موازنة)، وهو حين ينقد البحترى يمسه برفق ويقف فى كثير من الأحيان موقف المدافع دونه، أما إذا تعرض لأبى تمام قبض على أخطائه بيد لا تلين، يزيف كثيرًا من معانيه ويظهر مجافاتها للذوق العربى القديم، ويبهرج كثيرًا من أساليبه التى لا يسيغها النهج العربى القويم، ثم هو يظهر نصرته للذين رأوا البلاغة سحر نظم وجمال سبك ويرى بعد ذلك أن الشاعر البحترى، أما أبو تمام وأضرابه مثل المتنبى فهم حكماء، وهو يدفع كثيرًا من سرقات البحترى التى أخذها من أبى تمام، وينكر أن تكون سرقة بحجة أن معانيها عامية لا خاصية.

ونحن لا يمكننا - ولو سلمنا بأن هذه معان عامية - أن ننكر احتذاء البحترى الظاهر - فى هذه المثل وسواها مما يكثر تعداده - لأبى تمام؛ ولا نستسيغ أن نقول إنه لم ينهل من المنهل الذى شرعه أبو تمام ولم يشرب من عبابه ولا أن نقول إنه لم يكن فى ذلك عيالا على أبى تمام وتابعًا له، ثم ما للآمدى رضى الله عنه- لا يترك مؤاخذة أبى تمام على سرقاته فى المعانى العامية - كما فعل مع البحترى - مع أن أبا تمام فى كثير مما أخذ يستبد بشرف المعنى لجودة نظمه وحسن تأتيه وارتفاعه بالزيادة على ما أخذه والتأنق فى صوغه .. أفليس قول أبى تمام:

أحلى الرجال من النساء مواقعًا .. من كان أشبههم بهن خدودًا - الذى زعم أنه مأخوذ من قول الأعشى: وأرى الغوانى لا يواصلن أمرًا: فقد الشباب وقد يصلن الأمردا.

أليس هذا اشتراكا فى معنى عام فلم يعده سرقة؟. وأليس قوله: "ما الحب إلا للحبيب الأول" الذى قال الآمدى إنه مأخوذ من قول كثير: "إذا وصلتنا خلة كى نزيلها .. أبينا وقلنا الحاجبية أول". أليس هذا معنى عاميا مشتركا وهذا يدفع أن يكون سرقة. وهكذا شأن كثير مما أخذه الآمدى على أبى تمام فيما يأخذه من المعانى؟

وكيف وقد جرى حكم نقاد الشعر وجهابذة المعانى على أن الشاعر إذا سرق معنى فأداه بأبلغ مما أداه به صاحبه انفرد به ولم يعد ذلك عليه عيبا، وكان صاحب هذه الزيادة بالتفضيل أحق وبالتزكية أولى (١٥١ وساطة). ولعمرى لقد كان دعبل يضع من شأن أبى تمام فقال مرة فى مجلس: إنه كان يتبع معانى فيأخذها فطلب منه رجل فى المجلس أن يذكر مثالاً لذلك: فقال دعبل لقد قلت : شفيقك فاشكر فى الحوائج إنه .. يصونك عن مكروهها وهو يخلق"، فأخذه أبو تمام وقال: وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعة : من جاهه فكأنها من ماله". فقال الرجل أحسن والله، فقال دعبل كذبت قبحك الله، فقال الرجل: والله لئن كان أخذهذا المعنى وتبعته فما أحسنت وإن كان أخذه منك فلقد أجاده فصار به أولى منك؛ فغضب دعبل وقام.

٣- تحامل الآمدى فى كتابه على أبى تمام، وذلك ظاهر كما أسلفنا من روح الموازنة واتجاهها، وقد خضع الرجل فى ذلك لحكم ثقافته الأدبية القديمة العربية الخالصة .. على أن ذلك ليس تعصبا أعمى على أبى تمام كما يرى كثير من الناس. وكما ذهب إليه صاحب معجم الأدباء وسواه، إنما هو رأى رآه الآمدى، ومذهب ذهب إليه فأيده ودافع عنه للحق لا للعصبية، وكان عادلا فى مواضع كثيرة من حكومته .. منصفًا أكثر من كثير ممن سواه، مقرًا بفضل أبى تمام غير منكر له.

٤- يقبل الآمدى ما وضعه دعبل على أبى تمام، مع معرفته بحقيقة موقفه منه، ومع ظهور تحامله عليه، فهو مثلاً يتبع دعبلاً فى أن قصيدة أبى تمام :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

مأخوذة من قول أبى سلمى المزنى فى رثاء ذفافة :

أبعد أبى العباس يستعتب الدهر	وما بعده للدهر عتبى ولا عذر
ألا أيها الناعى ذفافة ذا الندى	تعست وشلت من أناملك العشر
ولا مطرت أرضا سماء ولا جرت	نجوم ولا لذت لشاربها الخمر
كأن بنى القعقاع يوم وفاته	نجوم سماء خر من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذفافة	وأصبح فى شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله	وذخرًا لمن أمسى وليس له ذخر

إلى آخر هذه الأبيات، مع ظهور التفاوت فى خيال هذه الأبيات، والتباين بين معانيها القريبة والبعيدة، والحضرية والبدوية، مما ينبىء عن وضع واختلاق أو جمع وتلفيق. ونحن لن نذهب إلا أن دعبلاً قد اختلق هذه الرواية ليغض من شأن أبى تمام، ولكننا نرى ما رأى الحسن بن وهب من قبل من أن لأبى سلمى مرثية رائية من الطويل، ولكن دعبلا خلط أبياتها بأبيات من قصيدة الطائى لينفى عن الرجل أن يكون هو المستبد بهذا الإحسان، والظافر بشرف تلك الروعة، وفضيلة ذلك السحر الساحر والشعر الشاعر.

٥- يحكم الآمدى فى النقد عاطفته الدينية تارة وعقله تارة أخرى، تاركا ذوقه الأدبى يتأثر بهذه الحكومة الجائرة، وعقله يفسد على ذوقه حكمه. ويتجلى أثر عاطفته الدينية فى كتابه فى نقده بيت أبى تمام :

سأحمد نصرًا ما حييت وإننى	لأعلم أن قد جل نصر عن الحمد

حيث أخذ على البيت[1] أن الشاعر رفع فيه ممدوحه عن الحمد الذى ندب الله عباده إليه بأن يذكروه به وينسبوه إليه. كما يتجلى جور عقله على ذوقه فى نقده بيت أبى تمام :

من حرقة أطلقتها فرقة أسرت	قلبا، ومن عذل فى نحره غزل

فهو لا يستسيغ هذا البيت لا لظهور أثر كلفة الصنعة عليه وإضاعة البديع ماءه ورونقه، ولكن لأن الفرقة لا تأسر القلب إنما يأسره الشوق. وعقل الآمدى البعيد الأفق يجور فى حكومته على العاطفة الشعرية والمعنى الشعرى بهذا النقد العقلى البعيد. أفينكر الآمدى أن الفرقة تدع القلب الوفى فى حبه أشد لوعة وأكثر هلعا من الشوق والحبيب حاضر والخليل مقيم؟ وهل يجدر بذلك المعنى شىء سوى كلمة الأسر

---

(١) ٩١ موازنة.

وأن يقع القلب في إسار الفراق وفي لظى الحزن وسعير الذكرى ووثاق اليأس والرجاء؟ وكذلك ينقد الآمدي بيت أبي تمام:

ورحب صدر لو أن الأرض واسعة   كوسعه لم تضق عن أهلها بلد

نقدا ضئيلاً، ومن ناحية غير أدبية بل عقلية محضة، يقول الآمدي ما خلاصته: "إن كل بلد يضيق بأهله وليس ضيقه من جهة ضيق الأرض، إنما ذلك على حسب ما أدى إليه الاجتهاد والاختيار ممن أسس كل بلدة ومصر كل مصر، وأيضًا فإن الجزء من الأرض هو ما يكون فيه من الحيوان والنبات، ومقداره على ما يقول علماء الهندسة الربع من الأرض وأقل من الربع، والمسكون من جملة ذلك لعله لا يكون جزاء من ألف جزء من ذلك، فما معنى جعله ضيق البلدان الضيقة إنما هو من أجل ضيق الأرض؟!".

ولعمري لقد أسرف الآمدي في إخراج البيت من دنيا الأدب، إلى عالم الجغرافيا والهندسة، وعذره في ذلك غير مقبول.

٦- ينقد الآمدي بيت أبي تمام :

إلى المفدى أبي يزيد الذي   يضل غمر الملوك في ثمده

وهو من المنسرح، فيقول : إن أبا تمام أفسد البيت بكثرة الزحاف. والصواب أن الذي يؤخذ على البيت شيء آخر هو عدم طي عروض هذا البيت مع وجوب ذلك في المنسرح، لا كثرة الزحاف لعدم وجوده في البيت[1].

هذه هي بعض المآخذ التي نأخذها على الآمدي.

ولا شك في تأثر الآمدي بآراء النقاد قبله، فهو يعتمد على آرائهم ويستدل بحكومتهم في النقد، وهو يروي الكثير عنهم في كل صفحة من صفحات الكتاب وكل موضوع من موضوعاته؛ نقل عن الأصمعي وعن ابن الأعرابي وأستاذهما أبي عمرو بن العلاء، ونقل عن ابن سلام وابن قتيبة وسواهما من أئمة الأدب وعلماء اللغة، وهل هذه الانتقادات الكثيرة التي شحن بها الكتاب إلا صورة لآراء كثير من النقاد التي جمعها الآمدي في موازنته؟ فأصول كتب الموازنة ترجع إلى نقاد القرن الثالث[2] ومؤلفيه، وقد صرح الآمدي بما يدل على ذلك في أكثر من موضع من كتابه: وفضل الآمدي إنما هو في تدوينها وتنسيقها وإضافة آراء معاصريه إليها.

---

[1] راجع ص١٣٠ موازنة.

[2] النقد الأدبي لطه إبراهيم.

وتدبيجها بكثير من آرائه هو، وتعليل ما لم يعلل، فقد هضمت عقلية الرجل كل ذلك فرتبته وأحسنت جمعه والاستدلال به، والزيادة عليه فى التحليل والتعليل، ولذلك قيمة كبيرة، لاسيما أن كتب النقد فى القرن الثالث قد فقد أكثرها.

ولا شك أيضًا فى أن الآمدى فيما سار عليه من مناهج فى النقد والموازنة قد تأثر باتجاهات النقاد قبله ومناهجهم فيما ينقدون، وهل كان نقد النقاد قبل الآمدى إلا تحكيما للنهج العربى فى نثر الأديب ونظم الشاعر؟ وهل كان ابن العلاء وخلف وحماد والأصمعى وابن الأعرابى وسواهم من الأدباء والنقاد يميزون جيد الشعر من رديئه إلا بعرضه على ميزان الطبع العربى وتحكيم الأسلوب العربى فيما ينقدون؟ وكذلك فعل الآمدى، فقد رجع إلى اللغة العربية فجعلها كل شيء أو أهم شيء فى النقد، فهو ينقد شعر أبى تمام وينقد البحترى بتحكيم النهج العربى فى شعر الشاعرين، وتحكيم الذوق العربى فى كلامهما، والأساليب العربية فى أساليبهما الشعرية، فيرد ما ترده ويقبل ما تقبله، فللعرب طريق خاص فيما ينطقون به من أساليب وتراكيب ونظم، وفيما يتكلمون به من أفكار ومعان، وخيالات، وفيما ينظمون فيه شعرهم من أوزان، ولهم نهج خاص فى مجازاتهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وتمثيلاتهم، وفيما يتفننون فيه من مقابلة أو طباق أو جناس أو سجع إلى غير ذلك، وذلك النهج العربى الخاص هو ما يجب على الشاعر أن يلتفت إليه ويسترشد به ويحتذى حذوه وينظم شعره على مثاله، ثم هو ميزان النقد وأساسه، والناقد يحكم ذلك النهج الخاص فيما ينقد من شعر، فيفطن لما فيه من جمال وما فيه من قبح، ثم هو يدرك ذلك بطبعه وذوقه، وقد لا يجد إلى تصوير ما فى نفسه من شعور بالقبح أو المحال سبيلاً.

وكذلك رأى الآمدى النقد، وعلى هذا الضوء سار فى نقد الطائيين؛ فقد عرض شعرهما هذا العرض، وفلاه هذه التفلية، وأخذ يظهر ما فيه من عيوب وأخطاء، ثم وازن بينهما فيما لهما من روائع وحسنات، حريصًا على وحدة الموضوع إذا تعسر عليه مع ذلك مراعاة وحدة الوزن والقافية وإعرابها.

وقد سار نقاد الشعر العربى بعد عهد الآمدى فى النقد على هذه الطريقة وذلك المذهب، وصار ذلك الاتجاه خطه علميه مقررة، وأصبح هو النهج الفنى لنقاد العرب جميعًا؛ ومن الواضح أن هذا المنهج بعيد الصلة عن منهج قدامة بن جعفر سنة ٣٣٧م الذى فصله فى كتابه "نقد الشعر"، والذى بناه على أساس عقلى بعيد مع عناية بجمع مظاهر الترف الأدبى فى التعبير والبيان وجعلها مظهر البلاغة وسر سحر

الأداء: نعم لقد حكم قدامة قواعد العقل والمنطق فصدر عن حكمها في النقد، أما الآمدي فقد حكم الذوق الأدبي وحده والروح العربية والاتجاهات الخاصة بالعرب وبلغتهم العربية.

أما تأثر الآمدي بقدامة في بحوث البيان ونظرياته فقليل: لاختلاف ثقافة الرجلين واتجاههما، فالآمدي أديب لغوي وقدامة أديب متفلسف، والآمدي يقف من قدامة موقف الند للند، فهو مؤلف كتاب ينقد فيه قدامة ويبين غلطه في كتابه "نقد الشعر[1]"، وهو ينقد رأى قدامة في الطباق وحقيقته وتسميته نقدا لاذعا[2] تبعه فيه ابن الأثير[3]، والآمدي يذهب إلى أن البلاغة للفظ وقدامة يجعلها للفظ والمعنى معا، ويجعل الآمدي مادة الشعر هي الألفاظ ويجعلها قدامة هي المعنى[4]. ولكن الآمدي على كل حال أفاد من نقد الشعر لقدامة واقتبس منه :

فهو يجعل الشعر صناعة ككل الصناعات كما فعل قدامة ومن قبلهما ابن سلام[5].

ويعرف الآمدي الحوشي من الكلام بما عرفه به قدامة[6].

ورأى الآمدي في أن الاستعارة إنما تحسن بقربها من الحقيقة وتبعد ببعدها عنها هو رأى قدامة[7].

وكتاب الموازنة سجل حافل لشتى مناهج النقد ومذاهب النقاد في تحليل شاعرية أبي تمام والبحتري، وإن كان الآمدي ينتصر للبحتري في مواقف كثيرة.

والصلة بين الآمدي والقاضي أبو الحسن الجرجاني صاحب الوساطة م٣٩٢ هـ لم يتكلم عنها باحث، وبمتابعة البحث وجدت بين الرجلين اتفاقا في كثير من الآراء في النقد والأدب والبيان، وكثيرا ما نرى أسلوبهما في شرح بعض الأبيات واحدا أو متقاربا، على أن اتجاه الرجلين في النقد واحد أيضًا، فاتجاه الجرجاني في نقد شعر المتنبي هو اتجاه الآمدي في نقد شعر الطائيين، فهو يحصي ما أخذ على

---

(1) ١٢٥ موازنة.
(2) موازنة ١٢٤.
(3) ٢٨٣ مثل سائر.
(4) ١٨٣ موازنة و١٤ نقد الشعر.
(5) ١٧٧ – ١٧٩ موازنة و ١٤ نقد الشعر.
(6) ١٢٥ موازنة و١٠٢ نقد الشعر.
(7) ١١٤ موازنة و١٠٤ - ١٠٦ نقد الشعر.

المتنبى من سرقات، وما أخذ عليه من أخطاء ترجع إلى التكلف والتعقيد، أو إلى الإفراط فى المبالغة، أو إلى بعد الاستعارة وعدم وضوحها، أو غموض المعنى والتعثر فى أدائه أو إلى اللحن فى الأداء والخطأ فى التركيب، وهذا هو الاتجاه الذى اتجهه الآمدى فى موازنته مع فوارق ضئيلة، وهو رجوع بالنقد إلى النهج العربى والذوق الأدبى دون ما عداهما، وكل ذلك يدلنا على وجود صلة أدبية بين الرجلين رغم تباين موطنيهما (البصرة وجرجان). ومن المرجح عندى أن صاحب الوساطة قد تأثر بالموازنة دون العكس، وأن الموازنة كانت خطوة أولى فى النقد الأدبى كعلم، ثم تلتها الوساطة كخطوة ثانية فى مضماره، يرشدنا إلى ذلك دراسة فن التأليف فى كلا الكتابين فالرقى التأليفى فى كتاب الوساطة المتجلى فى جمال عرضها وتهذيب تأليفها وحسن أسلوبها أكبر دليل على ما أذهب إليه، ويصعب علينا أن نفسر ما بين الرجلين من تقارب كثير بأنهما عاشا فى عصر واحد وتثقفا بثقافة عصرهما المتحدة، فإن اختلاف بيئة الرجلين وحياتهما مما لا يجعل لذلك التفسير قوته ولا وجاهته.

القاضى الجرجانى

المتوفى عام ٣٩٢ هـ

حياته وثقافته :

إذا كان للمتنبى ولأدبه عاصفة من الثورة السياسية فى بلاط ملوك الشرق الإسلامى على عهده، وكان له دويه فى حلقات العلم ونوادى الأدب فى شتى أرجاء العالم العربى حينذاك، فإن هناك شخصية جليلة لعبت دورًا خطيرًا فى تطور النقد الأدبى فى القرن الرابع. وفى إنصاف المتنبى من ثورة خصومه الناقدين والحاقدين، تلك هى شخصية القاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب كتاب "الوساطة بين المتنبى وخصومه"، الذى يعد سجلا أدبيًا هامًا للنقد فى القرن الرابع ولا يزال كما كان عنصرًا من عناصر الثقافة الأدبية.

ولد الجرجانى فى أوائل القرن الرابع بجرجان، وهى موطن خالد من مواطن الثقافة الإسلامية فى بلاد فارس إذ ذاك، وسلك أبو الحسن السبيل التى كان يسلكها الطامحون من الشباب فى هذه البيئة العلمية الحافلة، فأخذ فى دراسة علوم الدين واللغة والأدب، وانتقل فى سبيل دراسته بين جرجان وبغداد والشام حتى

صار ناضج الثقافة والعقلية، ناضجا فى روحه الأدبى نضجه فى ثقافته الدينية. ووطدت الصلات الثقافية والأدبية صلات الصداقة بينه وبين الصاحب بن عباد، فاشتد اختصاصه به، وحل منه محلا بعيدا فى رفعته كما يقول الثعالبى[1]، ومدح الجرجانى صديقه الصاحب بقصائد ساحرة، وقلده الصاحب قضاء جرجان، وبعد حين رفعه إلى منصب قاضى القضاة بالرى عاصمة الملك الذى يسوسه ابن عباد، واستمر فى القيام بأعبائه حتى بعد وفاة الصاحب، إلى أن توفى سنة ٣٩٢.

وثقافة الجرجانى الدينية يدل عليها ثقة الصاحب به، وتوليته إياه مناصب دينية خطيرة، فوق مؤلفاته فى الفقه التى ذكرها الشيرازى فى طبقات الشافعية.

وثقافته الأدبية تتجلى فى الآثار الباقية من شعره، التى حفظها الثعالبى فى يتيمته، كما تتجلى فى الوساطة بأجلى مظاهرها، وفى كتابته الجيدة فيها عن الشعر ومذاهبه.

وشعر الجرجانى صورة صادقة لشخصيته التى بالغ الرجل فى الاعتزاز بها. وفى الاعتداد بكل فضائل الحياة الاجتماعية، والنفور من رذائلها. كره الملق والرياء والزلفى :

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى	وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال بابان حرما	على الغنى : نفسى الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه	مواقف خير من وقوفى بها العسر
إذا قدموا بالخير قدمت دونهم	بنفس فقير كل أخلاقه وفر

وكذلك كان صورة صادقة للمثل العليا التى لا يحرص عليها إلا القليلون، كما كان صورة لنبل عواطفه وجمال طبعه وسعة ثقافته فى الأدب، وهو ينبع من نفس غذيت بنعيم الحضارة وعاشت فى ألوان من المدنية؛ فتركت البداوة التقليدية فى الشعر، وأنست إلى رقة الأسلوب الذى يفيض قوة وشعورا، ويسرى فيه روح قوى وعاطفة شاعرة، ترسم كل ما يحيط بنفس الشاعر من مؤثرات وذكريات؛ وله ديوان، ذكره الشيرازى فى طبقاته، وابن خلكان فى وفياته، وضاع مع ما ضاع من تراثنا الأدبى القديم.

والجرجانى الذى يقول فيه الثعالبى : إنه "كان يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى"، قد ضاع نثره الأدبى، ولكن كتابه : "الوساطة" يرشدنا

---

[1] اليتيمة ٢٨٣ ج٣.

إلى خصائص فنه الأدبي: من دقة التعبير، وتمثيل الأسلوب لثقافته الأدبية التي ترتفع إلى ثقافة الخاصة من الأدباء في عصره، كما يتجلى فيها الجنوح إلى إيثار الألفاظ والصيغ الرقيقة، والبعد عن ترف البيان المتكلف في شتى صوره وألوانه البديعية، وعدم إيثاره من السجع إلا ما ساوق الطبع واستدعاه المعنى. ولذلك تردد أسلوبه بين السجع والازدواج، والإرسال، والتساوق بينه وبين طبعه وعقله الزاخر بشتى الفكر والآراء الدقيقة، وتركه أسلوب الرسائل الأدبية التي تنحو نحو الإطناب والتفصيل والمبالغة. ثم أسلوبه كذلك صورة لاستقلاله الفكري وجنوحه إلى الحجاج.

شاهد الجرجاني آثار الخصومة الأدبية بين المتنبي وخصومة من النقاد، وسمع وقرأ الكثير مما دبجه يراع علماء الأدب في نقده، كما سمع حجاج أنصار المتنبي وآراءهم في شعره، ولما ظهرت رسالة الصاحب بن عباد قرأها الجرجاني، فرأى فيها جورا على الحق، وإسرافًا في الخصومة. وشططا في النقد، ففكر وقدر، ثم ألف بعد حين كتابه "الوساطة" ينصف فيه المتنبي من خصومه، ويعرض آراءهم نقد شعره ويحللها ثم يناقشها، ويعرض بجانب الصورة الباهتة التي رسمها هؤلاء لأبي الطيب صورة مشرقة فيها تقدير وإنصاف، وذلك مثل جديد في سمو نزعات القاضي الخلقية واستقلاله في الرأي، وعدم نزوعه إلى الإيمان التقليدي برأي سواه، ولو كان من أشد من يؤثرهم ويحفظ لهم أو في الذكريات.

والوساطة من أصول كتب الأدب، وأسلوبها البياني مثل يحتذى، وكان لظهورها دوى بعيد في عالم الأدب والأدباء، وحسبنا رأي الثعالبي وابن خلكان[1] إشادة بها، ورجل الأدب المثقف في العصر الحديث بحاجة ماسة إلى الوساطة ليعرف مناهج الكتابة، ووزن الأساليب. وقد عرضت الوساطة كثيرًا من المشكلات الأدبية عرضا ساحرا، أملاه الذوق والطبع والوجدان .. وللوساطة أثرها الكبير في النقد، ويعدها الباحثون من القدامى والمعاصرين، من أروع مؤلفاته[2]، وصاحبها يفهم الشعر فهما جيدا يتجلى في كتابته عنه وعن مذاهبه.

وترسم الوساطة المنهج الحق في النقد، بعرض ما أحسن أو زل فيه الشاعر، ثم الموازنة والمفاضلة. مع الرجوع في أحكام النقد الأدبي إلى الذوق المطبوع،

---

[1] ص د و هـ مقدمة الوساطة طبع صبيح .

[2] ١٧١ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

الذى هذبته الفطرة الأدبية السليمة وثقفه المران والبحث[1]، وذلك ما سار عليه أئمة نقاد الأدب والبيان[2]، فما النقد عند ثقات النقاد إلا دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بما يشابهها أو يقابلها، ثم الحكم عليها ببيان درجتها وقيمتها، والنقد الأدبى عند المحدثين هو التقدير الصحيح لأى أثر أدبى وبيان قيمته ودرجته بالنسبة إلى سواه[3]، وذلك هو ما فهمه الجرجانى، وسار عليه فى وساطته.

والجرجانى حين يجعل الذوق الأدبى هو الحكم فى مشكلات النقد والبيان يرجع إلى مذهب العرب فى بيانها، وما تسير عليه من مناهج فى الأداء والتعبير، ليقوم بذلك ذوق الناقد، ويوسع جوانب ثقافته فى النقد، ويقول صاحب الوساطة : وإنما تفاضل العرب بين الشعراء فى الجودة والحسن، بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته .. فعناصر الشعر - التى يدور حولها النقد فى نظره هى : المعنى وصحته، والغرض وإصابته، واللفظ واستقامته، والإنتاج وكثرته وجودته، وهذه العناصر هى التى يجب أن تجعل الحكم فى الحكم على الشعراء والجرجانى فيما عرضه إجمالاً من موازين النقد يتحدث بفطرته الأدبية الخالصة التى لم تستفد من البحوث القوية التى فصلها قدامة فى "نقد الشعر". وأكثر تأثر القاضى على العموم إنما هو بعلماء اللغة والأدب من أولى الثقافات العربية المحضة كالآمدى وسواه.

أبو هلال العسكرى

عاش أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى فى القرن الرابع، وتوفى فى آخره، وامتاز بحبه الفضائل الخلقية، وإيثاره المثل العليا فى الحياة، فعاش مجاهدا يعمل بساعده ليتمكن من الحياة، مؤثرًا ذلك على زخرف الجاه والمنصب، متصلا برجال النهضة الفكرية والأدبية والسياسية فى عهده اتصال صداقة وأخوة، وكان ممن اتصل بهم الصاحب بن عباد الوزير المتوفى عام ٣٨٥هـ. وقد قنع أبو هلال بصداقته، ولم يتطلع إلى ما فى يده من مجد وجاه ومال، واتصال أبى هلال به جعله من مؤيدى مذهبه الفكرى والأدبى، وبتأثيره ساء رأى أبى هلال فى أبى

---

(1) ١٢ الوساطة .

(2) ٩٠ ١٠٠ لدراسة بلاغة العرب .

(3) راجع أصول النقد الأدبى للشايب .

الطيب المتنبي الشاعر، وقد عرض بذمه في مواضع كثيرة من كتابه الصناعتين .. وأبو هلال في كتابه كثير الإشادة بالصاحب وأدبه من شعر ونثر، فكثيرًا ما يستشهد بأدبه كلما عن له موضع استشهاد، ويذكره حينا بالصاحب، وحينا بكافي الكفاة، وحينا بالأستاذ، وله قصائد كثيرة في مدحه[1]، وتراه يمدح البحتري باختيار القوافي المناسبة لموضوع القصيدة كما مدحه الصاحب من قبل[2].

وقد نشأ أبو هلال في عصر نضوج الثقافة الأدبية والفكرية في الشرق فاغترف من ينابيعها المتدفقة، وتتلمذ على كثير من رجال الفكر والأدب، وكان أظهر أساتذته خاله أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري المتوفى عام ٣٨٢هـ صاحب كتاب التصحيف والتحريف الذي ينقل عنه كثيرًا من شتى الروايات في الأدب والبيان .. وأدب أبو هلال أدب أوحت به إليه عقليته الناضجة التي وعت دقائق الحضارة في عهده، وجمعت شتى ألوان الثقافات المعروفة في عصره، وتأثرت بألوان كثيرة من المدينة والعمران والترف العقلي والمادي جميعًا .. فهو أدب عميق الفكرة، دقيق المعنى والخيال، ساحر في أسلوبه العذب الرقيق الساحر الموشى بألوان البيان وفنون الأداء، سواء في ذلك نثره وشعره، وكثيرا ما ينقل أبو هلال منه في كتابه، ونثره الأدبي تستطيع أن تعرف خصائصه من القطع التي ذكرها في كتابه[3] .. ونثره العلمي يدلك عليه أسلوبه في كتاب "الصناعتين"، وقد نجد فروقا بين النثرين: فالأول نثر فيه كثير من دقة الفكرة وجمال الأداء وسحر البيان وترف التعبير، والثاني يترك فيه صاحبه كثيرًا من التعبير العاطفي والخيالي ويلجأ إلى أسلوب يعبر عن الحقائق تعبيرًا يظهرها لك ممثلة واضحة .. وشعره يفيض بكثير من المعاني والأخيلة ، وفيه دقة وبعد، وله روعة وسحر، وينقل منه كثيرًا في كتابه أيضًا وعلى العموم فهو شعر شاعر ذي ثقافة عقلية كبيرة .. وثقافته ثقافة متكلم أجاد اللغة والأدب وكثيرًا من العلوم العقلية، أما أنه متكلم فيدلك عليه أنه كثيرًا ما ينقل في كتابه مثلا لبلاغة المتكلمين، ولا ينسى أن يذكر في أول كتابه أنه سلك به مذهب علماء الأدب لا المتكلمين. وأما إجادته للأدب واللغة والبيان فذلك ما ليس للشك فيه سبيل، وتجده ينقل في الصناعتين من جميع مصادر الأدب والنقد والبيان شارحًا وناقدًا ودارسًا، حتى كليلة ودمنة فقد نقل منه مثلا للتشبيه الجيد.[4] .. وأبو هلال

---

[1] تجد آثارا منها في ص٤٤٤ و٤٤٥ الصناعتين.
[2] ١٤٢ صناعتين، ١٠ رسالة الصاحب في الكشف عن مساوىء المتنبي.
[3] ٣٥٨ و٣٨٧ صناعتين.
[4] ٢٣١ - ٢٣٣.

متأثر بالجاحظ كثير الإفادة منه ومن كتابه "البيان والتبيين"، وكتابه يسير فى السبيل الذى عبده الجاحظ[1]، كما تجد كثيرًا من آرائه فى البلاغة والبيان مأخوذة منه، وله ميزة شرحها والتعليق عليها وقد ينقلها، وقد يستدل بها، فالأصول الأولى لعلم البيان الذى ذكرها أبو هلال وأضاف إليها ماجد بعد عهد الجاحظ من آراء فى الأدب والنقد والبيان هى الأصول التى دونها الجاحظ من قبل، ويقول باحث محدث : "ليس أبو هلال إلا شارحًا للجاحظ فى كتاب الصناعتين، جامعا للمتفرق منه، وقد تحدث عن كتاب البيان والتبيين بعد أن أورد طرفًا من تخليط بعض المتحدثين فى البلاغة. فقال : ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل؛ ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب "البيان والتبيين" لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمرى كثير الفوائد، جم المنافع؛ إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تصاعيفه، ومنتثرة فى أثنائه، فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابى هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه فى صنعة الكلام: نثره ونظمه، ويستعمل فى محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال. وهذا لون من ألوان التأثير الإيجابى للجاحظ[2].

وكتاب الصناعتين ألفه أبو هلال وانتهى من تأليفه عام ٣٩٤[3]، فإذا يكون من المحقق أن أبا هلال قد ألف كتابه بعد ظهور الوساطة بزمن يسمح له بالتأثر بها واتخاذها مصدرًا من مصادر كتابه، إن أراد، ولكن هل فعل ذلك أبو هلال. وهل اتخذ الوساطة من مراجع كتابه الحافل؟ الجواب لا، فقد كان بين الرجلين فوارق كثيرة:

أ – فاتجاههما العقلى والثقافى مختلف، فالجرجانى أديب يستمد أدبه من ثقافة عربية خالصة، وأبو هلال أديب يستمد أدبه من ثقافته العربية وثقافته العقلية التى يحذر فيها حذو قدامة وابن العميد والصاحب.

ب– ومشكلات المنافسة بين الرجلين كانت عاملا فى عدم انتفاع أبى هلال بوساطة الجرجانى، بل كانت سببا فى إظهار السخرية بها وبمؤلفها، وإن كان ذلك لم يخف على أحكام ذوقه الأدبى فى تقدير ما يستحق التقدير من شعر القاضى،

---

(1) ٦ و٧ صناعتين.

(2) ١٧٣ البلاغة العربية فى دور نشأتها – سيد نوفل – طبع النهضة ١٩٤٨م.

(3) الصناعتين ط صبيح ص٤٤٥.

كما نرى فى ديوان المعانى[1]، حيث روى أبياتًا للجرجانى واستحسنها. ولكن تجد فى الصناعتين[2] نصا غريبا يستوقف النظر :

قال أبو هلال وهو يعدد أنواع البديع : "فهذه أنواع البديع التى ادعى من رواية له ولا دراية عنده أن المحدثين ابتكروها، وأن القدماء لم يعرفوها، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين". فمن هو هذا الرجل الذى يعرض به أبو هلال؟ هو القاضى الجرجانى أبو الحسن صاحب الوساطة، وليس فى ذلك ريب عندى:

أ - فالجرجانى هو الذى نوه فى وساطته بالمحدثين، وهتف باسمهم وأشاد بمكانتهم، فذهب إلى أن وقوعهم فى الخطأ لا يحط من منزلتهم، لأنه قد وقع فيه الجاهليون والإسلاميون، كما ذهب إلى أن يسيرهم أحق بالاستكثار، وصغيرهم أولى بالإكبار.

ب- والجرجانى هو الذى يرى أن المحدثين فطنوا لجمال ألوان البديع التى ألم بها القدامى إلمامًا فتكلفوا الاحتذاء عليها (٢٧ الوساطة طبع صبيح)، وتكلم على شتى ألوان البديع وذكر أن المحدثين هم الذين مهدوا سبيلها؛ وغيروا اتجاهها الأدبى، كما ترى مثلا فى كلامه على السرقة ودقة المحدثين فى إخفاء الأخذ، وفى كلامه على الإفراط وأنه مذهب عام فى المحدثين[3]، وفى الاستعارة وإبعاد مرماها على يد المحدثين[4]، إلى غير ذلك من ألوان الإشادة بالمحدثين فى كتابه.

ج - وثقافة القاضى دينية، وأدبية مستمدة من الذوق والطبع أكثر من استمدادها من العقل أو النقل كما يقول أبو هلال.

على أن أبا هلال قد تحامل فى كلمته على القاضى، فأسرف فى رميه إياه بأنه لا رواية ولا دراية عنده، وفهم من إعجاب الجرجانى بالمحدثين أن ذلك تعصب لهم، كما فهم من كلام الجرجانى عن أبواب البديع وفضل المحدثين فى الفطنة إليها أنه يرى أن القدماء لم يعرفوها بأى شكل من أشكال المعرفة، مع أنه رأى أن القدماء عرفوا بعضها معرفة فن وأدب، وأن المحدثين قد عرفوها معرفة علم وفن ومذهب، ولهم الفضل فى تطور صورها وألوانها، ودقة أخذها وروعة سحرها.

---

(1) ١٦٨ ج١.

(2) ٢٨٥.

(3) ٣١١ الوساطة.

(4) ص٣١٧ المرجع.

فأبو هلال كان يتتبع حياة القاضي وإنتاجه، وينظر إليه بعين المنافسة، وقرأ الوساطة، ولكنه لم يعول عليها، ولذلك لا تجد ظلا لتأثر أبي هلال بها في الصناعتين مع أنه تأثر بالجاحظ وبيانه، وقدامة وكتابه "نقد الشعر" وبالآمدي وموازنته، والبحوث المشتركة في الكتابين نرى في اتجاه الرجلين في بحثها بونا كبيرا، فميزان النقد عند الجرجاني[1] مباين له عند أبي هلال[2]، وآراء أبي هلال في الاستعارة والتشبيه ليس فيها أي أثر لوساطة القاضي، وكذلك بحوثه في السرقات الأدبية[3] ليس فيها أي أثر خاص لآراء الجرجاني، وخفاء السرقة عند الجرجاني بالنقل أو القلب أو تغيير النهج والترتيب، وهو عند العسكري يجعل النثر نظما والنظم نثرا وبتغيير الموضوع[4]. وإذا كان تعليق أبي هلال[5] على البيت:

كنتم كمن أدخل في جحر يدا ... فأخطأ الأفعى ولاقى الأسودا

هو تعليق صاحب الوساطة[6] في نقده له، فليس ذلك مظهرا لتأثر، أو دليلا على احتذاء.

كتاب الصناعتين وأثره الأدبي:

وكتاب "الصناعتين" كتاب مفيد جدًا في الأدب والنقد والبيان: فأسلوبه أنيق جميل، وعرضه منظم، مما يدل على عقلية صاحبه الكبيرة. والثقافة التي يمثلها ثقافة عميقة، تدل على علم غزير وإحاطة واسعة.

وهو كتاب تطبيقي على قواعد البيان، ممتاز بكثرة شواهده ومثله كثرة فائقة، مع حرص على جودة الاختيار، وسلامة الطبع، مما يرشدنا إلى لون من ثقافة أبي هلال وعقليته، حتى لقد حار بعض الأدباء في تسمية الصناعتين كتاب أدب أو كتاب نقد أو كتاب بلاغة وبيان. والآراء التي جمعت فيه في النقد هي خلاصة ثقافات علماء الأدب والشعر حتى وسط القرن الرابع، وتمتاز بأنها صادرة عن ذوق وطبع وشعور أدبي، وعن حكم العقل والفكر أيضًا. ولذلك كان الكتاب مادة غزيرة ينتفع بها كل باحث ودارس للأدب والنقد والبيان.

---

(1) ٢٧ الوساطة.
(2) ٥٤ صناعتين.
(3) صناعتين ١٨٩ – ٢٢٥.
(4) ١٩٢ صناعتين طبع صبيح.
(5) ١٩ صناعتين.
(6) ص١٠.

وإن كانت الصبغة الأولى للكتاب، والهدف الأول من تأليفه، أن يكون كتابا في أصول قواعد البيان العربي، وقد نحا أبو هلال فيه نحوا جديدا في التأليف فتكلم على البلاغة، وما يحتاج إليه الأديب والكاتب والشاعر، ورسم المذاهب الأدبية والمناهج البيانية التي تسمو بالأديب إلى ذروة البلاغة .. ونلاحظ أن علماء الأدب في القرن الرابع امتازوا في مطلع هذا القرن بالكتابة عن الأدب والنقد كما فعل قدامة في نقد الشعر، والصولي في كتاب أخبار أبي تمام، وأبو الفرج في الأغاني، والقالي في كتابه الأمالي، ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان، كما فعل الآمدي في الموازنة، والقاضي الجرجاني في كتاب الوساطة، ثم أفادوا من دراسات النقد في بحوث البيان، فظهر أول كتاب كامل في موضوع البيان، ووافٍ بجميع بحوث البلاغة، مع الإيجاز وقرب الفكرة وقلة التحليل وهو "الصناعتين".

وخلاصة ما نقول أن كتاب الصناعتين صورة كاملة للبيان العربي حتى آخر القرن الرابع الهجري، وأن هذه الصورة اشترك في تلوينها علماء الأدب والنقد والبيان قبل أبي هلال وفي عصره من شتى الطبقات والثقافات والعناصر ..

وإن ما وصل إليه فن البيان حتى آخر القرن الرابع إنما هو بحوث موجزة تتصل بملكات البيان والأدب والنقد، ويكثر فيها الاستشهاد والتمثيل، ويعوزها السير في البحث إلى خاتمة المطاف ونهاية الشوط، ففن البيان في القرن الرابع كان يشمل ألوان البديع أيضًا، ومع ذلك فقد حاول أبو هلال أن يرسم منهجا جديدا في نقد الشعر بعد المنهج الذي رسمه قدامة في كتابه نقد الشعر، ولكنه لم يظفر بما ظفر به قدامة من نجاح كامل وتوفيق كبير، في هذه الغاية العسيرة، بل لقد كان عالة على قدامة وكتابه وعلى كل حال فللعسكري الفضل كل الفضل في إفراد صناعة الكلام بالتأليف والبحث، مع العناية بالجمع والشرح والاستقصاء في المثل والشواهد. ومع إجادة في العرض، وتنسيق في الدراسة، وحسن الإبانة عن غرضه ..

بديع الزمان الهمذاني

القرن الرابع الهجري عصر الدول المستقلة في العالم الإسلامي: من أمثال البويهيين، والسامانيين، والدولة الغزنوية، والزيارية، والصفارية. وقد عاش البديع في ظلال أربعة ملوك من ملوك السامانيين وفي عهد جماعة من ملوك بني بويه: عضد الدولة (٣٦٧ – ٣٧٢هـ)، وفخر الدولة، ومجد الدولة، وشمس الدولة، وكان لهم سلطان

على همذان والبلاد التى أقام بها البديع. وكانت هذه الدول تتنافس فى تشجيع العلم والأدب تنافسا كبيرا، ولمع فى هذا العصر اسم ابن العميد والصاحب ابن عباد والخوارزمى والميكالى والثعالبى والبيرونى والصابى والعتبى والقاضى الجرجانى وأبى هلال العسكرى وشمس المعالى قابوس وابن نباتة السعدى الخطيب والحسن بن على التنوخى .. كما لمع اسم المتنبى والمعرى وأبى فراس الحمدانى والرضى ومهيار والبستى والنامى والناشى والزاهى والسرى والببغا وسواهم.

ومدينة همذان يشرف عليها جبل أورند فى سهل خصب، وهى شديدة البرد، ظاهرة الخصب.

وكان البديع من أسرة ذات مكانة فى همذان، وقد ولد فى ١٣ من جمادى الثانية سنة ٣٥٨هـ، من أسرة عربية، وكثيرًا ما يقول البديع فى رسائله : "ومضر المحتد"، أو : "تغلبى النجار" .. وقد عاش أبواه إلى أن كبر وترك همذان، وكان له أخ أصغر منه هو أبو سعيد وكان أبو سعيد مفتى همذان، وكان له كذلك ابن صغير اسمه أبو طالب، وقد غاب البديع عن أبيه أحد عشر عامًا.

نشأ أحمد بن الحسين فى هذه البيئة، يدرس الدين واللغة وعلوم الأدب، حتى نبغ فيها.

وهاجر من همذان سنة ٣٨٠هـ إلى حضرة الصاحب، وكان زاره قبل ذلك وعرف به نفسه، قدم جرجان إذا وأقام بها مدة يتصل بالاسماعيلية ويعيش فى رعايتهم، ثم قصد نيسابور عام ٣٨٢هـ وفى الطريق خرج عليه الأعراب وسلبوه كل ما معه.

ورد نيسابور فكتب إلى أبى بكر الخوارزمى، وهو شيخ أدبائها وأحد أغنيائها: "أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه كما طرب النشوان مالت به الخمر ومن الارتياح للقائه، كما انتفض العصفور بلله القطر ومن الامتزاج بولائه، كما التقت الصهباء والبارد العذب ومن الابتهاج بمرآه كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب، فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتى العراق وخراسان، بل ما بين عتبتى نيسابور وجرجان، وكيف اهتزازه لضيف فى بردة جمال وجلدة حمال :

رث الشـــمائل مـــنهج الأثـــواب بكـــرت علـــيه مغـــيرة الأعـــراب

وهو أيده الله ولي إنعامه، بإنقاذ غلامه، إلى مستقري، لأفضي إليه بسري، إن شاء الله تعالى". ويؤخذ من كلام البديع أنه ذهب إلى دار الخوارزمي فلم يحس لقاءه، أو لم ترض نفس الهمذاني بهذا اللقاء، فكتب إليه فرد الخوارزمي ردًا حسنًا.

وسعا سعاة السوء بين الرجلين، ثم جمع بينهما الشيخ أبو الطيب فلم يحمد ذلك الاجتماع. ثم كانت بينهما المناظرة الأولى في دار السيد أبي علي أحد الكبراء في نيسابور، فتناظرا في ارتجال الشعر مناظرة ظهر فيها غلب البديع وقد غضب من قطع الخوارزمي إنشاده عليه فصمت برهة .. يقول الهمذاني : "ثم عطفت عليه وقلت يا أبا بكر : إن الحاضرين قد عجبوا من حلمي أضعاف ما عجبوا من علمي، وتعجبوا من عقلي، أكثر مما تعجبوا من فضلي، وبقي الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عي، وإن تكلفي للسفه أشد استمرار من طبعك، وغربي في السخف أمتن عودا من نبعك، وسنقرع باب السخف معك، ونقترع من ظهر السفه مفترعك؛ فتكلم الآن. فقال لي أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همذان مع قلته، فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته، فقلت : أما قولك دية أهل همذان فما أولاني أن لا أجيب عنه، لكن هذا الذي نتمدح به ونتبجح ونتشرف ونتصلف، من أنك شحذت فأخذت، وسألت فحصلت، واجتديت فاقتنيت، فهذا عندنا صفة ذم ياعافاك الله". ذهب البديع إلى بيت الخوارزمي واصطلحا. ثم شاع بين الناس أن البديع غلب، فكتب إليه الخوارزمي يتهمه بأنه أشاع هذا الكلام، ويقترح مناظرة أخرى، فكانت المناظرة الثانية في بيت الشيخ أبي القاسم الوزير. وحضرها عظماء نيسابور، وكانت مباراة في الارتجال والترسل والنحو واللغة، وقضي بالفلج للهمذاني، فلما خرج لقيه الناس بالتقبيل ولم يستطع الخوارزمي الخروج حتى جنه الليل.. وفي رسائل الهمذاني تفصيل المناظرة التي قضت له بالفلج. وينبغي ألا ينسى القارئ أن هذا أحد الخصمين، ولست أتهم الهمذاني بالكذب الصراح، ولكني لا أبرئه من محاباة نفسه. ثم نتذكر أن الخصمين ليسوا سواء: أحدهما شيخ طائر الصيت يخشى أن يؤخذ عليه ما ينقص من قدره، والآخر شاب طامح إلى الصيت يريد أن يبني مجده على هزيمة قرنه. وهو لا يخسر كثيرا إن غلب، وهذا مظنة أن يستعظم الحاضرين ظفر البديع ولو كان قليلا وهفوة الخوارزمة ولو كانت مما يغتفر أمثالها. ثم أظن أن بعض النيسابوريين كانوا يحسدون الخوارزمي، ويودون أن يذهب بمجده ذلك الضيف الشاب الجميل الطلعة، الخفيف الروح.

لم تكن المناظرة في صميم الأدب من الشعر والترسل، بل كانت في البديهة والارتجال والحفظ. قال الهمذاني وهو يتحدى خصمه: "ومثال ذلك أن

أقول لك أكتب كتابا يقرأ منه جوابه؟ أو أقول لك أكتب كتابًا على المعنى الذى أقترح لك، وأنظم شعرًا فى المعنى الذى أقترح، وأفرغ منهما فراغا واحدا هل كنت تمد له ساعدًا؟ وأقول لك اكتب كتابًا فى المعنى الذى أقول وأنص عليه، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تثاقل ولا تغافل، حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره إلى أوله، وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله، هل كنت تفوق لهذا الغرض سهما أو تحيل قدحا أو تصيب نجحا، أو قلت لك اكتب كتابا إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتابًا، فإن عكست سطوره مخالفة كان جوابا إلخ" .. وقد أجاب الخوارزمى على هذا كله بقوله : "هذه الأبواب شعبذة" وهى إن لم تكن شعبذة فهى ليست من الأدب، وإن دلت على توقد الذكاء وسرعة البديهة .. اغتبط بديع الزمان بنيسابور، ولقى من سراتها حفاوة وإكرامًا، يقول فى رسالة إلى أبيه عن صديق كان قد وعده اللحاق به: "وكان سألنى أن أرود له منزلا ماؤه روى، ومرعاه غذى، وأكاتبه لينهض إليه راحلته. فهاك نيسابور ضالته التى نشدتها، وقد وجدتها، وخراسان منيته التى طلبتها، وقد أصبتها: وهذه الدولة بغيته التى أردتها، فقد وردتها، فإن صدقنى رائدًا، فليأتنى قاصدًا .. وأما أنا وأخبارى بهذه الناحية فمتقلب فى ثوب العافية، موقر بهذه الحضرة، مرموق بعين القبول .. وقد كتب كثيرًا من رسائله إلى جماعة من رؤساء نيسابور وهى تدل على ما كان بينه وبينهم من مودة: وفى نيسابور لقى بنى ميكال ومدحهم، وفى رسائله واحدة إلى أبى جعفر الميكالى يشكو فيها تقصيره فى تعظيمه.. ونجد الهمذانى فى نيسابور يكتب إلى الشيخ العميد مستنجزا وعده فى توليته بعض الأعمال: "فهل للشيخ أن يلطف بصنيعته لطفا يحط عنه درن العار، وسمة التكسب والافتقار، ليخف على القلوب ظله، ويرتفع عن الأحرار كله، ولا يثقل على الأجفان شخصه، بإتمام ما كان عرضه عليه من أشغاله، ليعلق بأذياله، وليستفيد من خلاله، فيكون قد صان الفضل عن ابتذاله ، والأدب عن إذلاله، واشترى حسن الثناء بجاهه كما يشتريه بماله ".. وفى نيسابور أملى المقامات سار التى ذكرها على وجه الزمان ثم فارق البديع نيسابور سنة ٣٨٣هـ إلى مرو ثم سرخس، ولم يسم الأمير الذى نزل بحضرته فى سرخس، والظاهر أنه أحد أمراء السامانية، وقد أكرم الأمير مثواه كما قال فى آخر الرسالة نفسها عن الخوارزمى: "وأما مسألة الأمير ألا يخرطنى فى سلكه ولا يمكننى من بساط ملكه، قد شملتنى على رغمه أطراف النعم، وبلتنى سحائب الهمم، وللراغم التراب، وللحاسد الحائط والباب ".. وفى سنة ثلاثمائة وثلاث وثمانين مات الخوارزمى! يقول الثعالبى : "وأجاب الخوارزمى داعى ربه فخلا الجو للهمذانى، وتصرفت به أحوال جميلة، وأسفار كثيرة".

وأكثر البديع أسفاره بعد مفارقة نيسابور : يقول الثعالبي : "ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها وجنى ثمرتها، واستفاء خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا استمطر منه بنوء، وسرى معه في ضوء، ففاز برغائب النعم، وحصل على غرائب القسم" .. ويقول الهمذاني في رسالته إلى القاسم الكرجي. "فإني وإن كنت في مقتبل السن والعمر، قد حلبت شطرى الدهر، وركبت ظهرى البر والبحر، ولقيت وفدى الخير والشر، وصافحت يدى النفع والضر"، وفي رسالة أخرى : "وإني أيد الله القاضي، على قرب العهد بالمهن قطعت عرض الأرض وعاشرت أجناس الناس."[1] .. وليس يمكن بما عندنا من الرسائل غير المرتبة أن نتتبع أسفاره في خراسان وسجستان وغزنة وبوشنج، وهراة التي مات فيها.

لقي بديع الزمان عصا التسيار في هراة، واتخذها موطنا وأمضى بها بقية عمره .. يقول الثعالبي : "وما زال يرتاد للوصلة بيتا يجمع الأصل والفضل، والطهارة والستر القديم والحديث، حتى وفق التوفيق كله، وخار الله له في مصاهرة أبي على الحسين بن محمد الخشنامي، وهو الفاضل الكريم الأصيل، الذي لا يزاد اختبارا إلا زيد اختيارا. فانتظمت أحوال أبي الفضل بصهره، وتعرفت القرة في عينه".

ويقول الثعالبي : "حين بلغ أشده، وأربى على الأربعين سنة ناداه الله، فلباه وفارق دنياه سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة .". ويقول جامع الرسائل في عنوان رسالة له في تهنئة فتح الجابية بباب بلخ: وهذا آخر كتاب أنشأه. ومات يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة".

وهكذا مات البديع، بعد أن عاش أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني أربعين عاما، أمضى شطرها نائيا عن بلده وعشيرته في طلب المجد والغنى، فبلغ ما أراد. نبه ذكره واتصل بمعظم الأمراء والوزراء في الشرق: شمس المعالي قابوس بن وشمكير، وخلف بن أحمد، وبني فريغون، وبني ميكال، والسلطان محمود، والصاحب بن عباد، والفضل بن أحمد، وأبي نصر من وزراء الدولة الغزنوية.. وعرف كثيرا من رؤساء نيسابور، وطوس، وسرخس، ونسا، وبلخ، وهراة. وصار مطمح أصحاب الحاجات يتوسلون به إلى أولي السلطان والجاه، يتبين ذلك في كثير من رسائله.

وكان سني الاعتقاد يكره المعتزلة ويلعنهم[2] .. قال في الديوان متغزلاً:

---

[1] الرسائل ص٤٨، ١٦٣ .

[2] ص ١٦١ المرجع .

ولـه قصيدة يرد فيها على الخوارزمى قوله فى الصحابة؛ ومن أجل ذلك اتهم فى نيسابور بميله عن العلويين، فبرأ نفسه وروى لهم من شعره فى رثاء الحسين، فهو على حبه آل البيت لا يذهب مذهب الشيعة فى الخلافة وما يتصل بها .. يقول فى الديوان:

يقولـــون لى لا تحـــب الوصـــى ... فقلـــت الـــثرى بفـــم الكـــاذب

أحـــب النـــبى وأهـــل النـــبى ... واخـــتص آل أبـــى طالـــب

وأعطـــى الصـــحابة حـــق الـــولاء ... وأجـــرى عـــلى الســـنن الواجـــب

فـــإن كـــان نصـــبا ولاء الجمـــيع ... فـــإنى كمـــا زعمـــوا ناصـــبى

وإن كـــان رفضـــا ولاء الوصـــى ... فلا يبرح الرفض من جانبى. إلخ

وفى رسائله واحدة كتبها إلى بعض الوزراء يشكو من ظهور التشيع فى هراة، ويحذر أن يصيبها ما أصاب نيسابور وقم والكوفة.

وكان أحمد بن الحسين الهمدانى أعجوبة فى ذكائه وحفظه، فتيسر له علم واسع باللغة والأدب. وهو يقول فى حديثه عما شجر بينه وبين أبى بكر الخوارزمى: "فقلت يا أبا بكر : هذه اللغة التى هددتنا بها وحدثتنا عنها، وهذه كتبها وتلك مؤلفاتها. فخذ غريب المصنف إن شئت، وإصلاح المنطق إن أردت، وألفاظ ابن السكيت إن نشطت، ومجمل اللغة إن اخترت، فهو ألف ورقة، وأدب الكاتب إن أردت، واقترح على أى باب شئت من هذه الكتب حتى أجعله لك نقدًا، وأسرده عليك سردًا".. وقد أعجب الناس بذكائه وبديهته، وتحدى هو الناس بهما، فجاء كثير من منشآته عفو البديهة، ولو روى فيه لجاء خيرا من ذلك. قال الثعالبى فى اليتيمة: "ولم يرو أن أحدًا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب، وبدائع وغرائب، فمنها أنه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط، وهى أكثر من خمسين بيتًا، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها، لا يخرم حرفا ولا يخل معنى، وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذ بها من ظهر قلبه هذًا، ويسردها سردًا. وهذه حاله فى الكتب الواردة عليه وغيرها. وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة فى معنى بديع، وباب غريب، فيفرغ منها فى الوقت والساعة والجواب عنها فيها. وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا إلى الأول، ويخرجه كأحسن شىء وأملحه، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة

الشريفة من إنشائه، فيقرأ من النظم والنثر، ويروى من النثر والنظم، ويعطى القوافى الكثير فيصل بها الأبيات الرشيقة، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله فى أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه، ونفس لا يقطعه؛ وكلامه كله عفو الساعة .. وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع .. إلى عجائب لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى". وبقى من آثار الهمذانى ديوانه ورسائله ومقاماته. فأما الديوان فيتضمن زهاء ثلاثمائة وألف بيت، منها ست وثلاثون قصيدة وقطعة فى المدح، مدح بها من الملوك والأمراء: شمس المعالى قابوس بن وشمكير، والسلطان محمود الغزنوى، وبنى فريغون، وخلف بن أحمد، وبنى ميكال، ومن الوزراء الصاحب بن عباد، وأبا نصر بن زيد .. ومدح جماعة من رؤساء جرجان ونيسابور ونسا وهراة. وهو يجرى فى المدح على السنن المعروف، ولكنه لا يلتزم الغزل فى أول المدائح، ولا يطيل (فى معظمها. ومن جيد شعره فى المدح القصيدة التى أولها:

على ألا أريح العيس والقتبا	وألبس البيد والظلماء واليلبا

وقوله فى بنى فريغون :

ألم تر أنى فى نهضتى	لقيت الغنى والمنى والأميرا
ولما التقينا شممت التراب	وكنت امرأ لا أشم العبيرا
لقيت أمرأ ملء عين الزما	ن يعلو سجايا ويرسو ثبيرا
لآل فريغون فى المكرمات	يد أولا واعتذار أخيرا
إذا ما حللت بمغناهم	رأيت نعيما وملكا كبيرا

وأما الغزل فله غير ما فى قصائد المدح ست قطع تحوى واحدًا وعشرين بيتا، والبديع ليس غزلاً، ولكنه حاكى الشعراء فى ضرب ألفوه وافتنوا فيه وعدوه من فروض الشعر، وله قطع فى وصف: الأسد، والليل. وقطعته فى وصف الليل نموذج من شعره المرتجل. ارتجلها حين اقترح عليه الموضوع والقافية:

أنعت ليلا ذا سواد كالسبج[1]	مخدر الصبح خدارى الدعج
لو أدرج العالم فيه لا ندرج	أو نسج الحرمان منه لانتسج
ليلا حرون النجم قارى النهج	العمر فيه نقطة لو انفرج
والدهر من أجزائه ولا حرج	أيسر ما فيه الشهور والحجج - إلخ

---

[1] السبج : معدن أسود يتخذ منه مادة الكحل لعلاج العين.

ويجود شعر الهمذاني في الرثاء والمواعظ. وفي ديوانه ست؟ ويقول في قصيد يمدح فيها أبا جعفر الميكالي :

نستبيح الدهر ، والأيام منا تستبيح
ضاع ما نحميه من أنفسنا ، وهو يبيح
نحن لاهون وآجال المنى لا تستريح
يا غلام الكأس فاليأس من الناس مريح
أنا يا دهر بأبنائك شق وسطيح

وللهمذاني قطع كثيرة في الألغاز والمعميات، وكان الرجل نادرة في الذكاء والبديهة، فكان يختبر الناس ويختبرونه بهذا الضرب، وفي الديوان منه اثنان وعشرون .. ويكثر في شعره الترجمة عن الفارسية وفي الديوان ثلاث عشرة قطعة مترجمة عن هذه اللغة، وكانت الترجمة بين العربية والفارسية سنة شائعة بين متأدبي المسلمين في إيران وما يجاورها، إذ كان الشعر الفارسي قد بلغ أشده، وكانت العربية لا تزال لغة العلم والأدب .. وكثير من شعراء هذا العصر وما بعده نظم باللغتين، ولقب لذلك بذي اللسانين، وفي يتيمة الثعالبي أمثلة من هذا، وهذه الترجمة تهم دارس الأدبين العربي والفارسي، ولكن يقلل خطرها أننا نجد الترجمة ولا نجد أصلها، ولا يعرف من الشعر الفارسي الذي ترجمه البديع إلا قطعة أثبتها محمد عوفي في كتاب لباب الألباب في ترجمة المسطقي الشاعر الفارسي، ويقول عوفي : إن الصاحب بن عباد أمر البديع بترجمتها، فقال على أية قافية؟ فقال الطاء، قال ومن أبي بحر؟ قال أسرع يا بديع، في البحر السريع، فترجمها ارتجالاً:

سرقت من طرته شعرة حين غدا يمشطها بالمشاط
ثم تدلحت بها مثقلاً تدلح النمل بحب الحناط
قال أبي من ولدي منكما كلا كما يدخل سم الخياط

ويرى أنه تصرف في ترجمة البيت الثالث. وأصله : ذهبت إلى الدار بالشعرة فقال أبي : منصور أي الاثنين؟. وفي الديوان بيتان قبل هذه الثلاثة. ومن الترجمة التي يتجلى فيها أسلوب الفارسية هذان البيتان:

فؤادك أين ؟ سباه بماذا بمقلته، من؟ غزال ربيب
سلابا. نعم . أين؟ وسط الطريق متى ؟ اليوم هذا سلاب غريب

وهي تذكر دارس الأدب الفارسي بمطلع قصيدة محتشم من شعراء الدولة الصفوية في رثاء آل البيت.

وفى الديوان قطعة فيها كلمات وشطرات فارسية، والشعر المنظوم بلغتين أو أكثر يسمى الملمع فى عرف أدباء الفرس أو الترك وهو كثير عندهم .. ويكثر فى شعره المجزوء، ولاسيما الهزج والكامل. وسنعود إلى هذا حين الكلام فى سجعه.

ويبدو أن بديع الزمان نظم معظم شعره فى أوائل حياته. ففى الديوان أبيات نظمها وهو فى الثانية عشرة، وهو يذكر سن العشرين فى بعض شعره:

إنـــى بعشــــرين تصـــاريف مـــا   بعـــــد الـــــثمانين تعرفـــــتها

ويذكر الخامسة والعشرين وهو يمدح خلف بن أحمد :

ألم يك فى خمس وعشرين حجة   تســنمتها هـــاد لمثـــلى الطـــرائق

ثم هو يلعن النظم فى كلامه عن الخوارزمى فى بعض رسائله، وذلك دليل على أنه مال عن الشعر : "هو خوارزمى، ولست من خوارزم، وهو شاعر ولعن الله النظم"

ويلحق بالديوان شعره فى الرسائل والمقامات وذلك فى معظمه قطع قصيرة جيدة. وشعر البديع عامة سهل جيد المعانى منقح الألفاظ، يتجلى فيه تهذيب الكتاب، إذا استثنينا الشعر المرتجل وشعر الألغاز ونحوه مما لا يقام له فى الأدب وزن، ولكنه لا يبلغ الدرجة العليا إلا قليلاً، وبديع الزمان عند نفسه وعند الناس كاتب يقول الشعر، ولكنه يرى أن البليغ من أجاد الصناعتين: يقول فى المقامة الجاحظية : "إن الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطف. وفى الآخر يقف. والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يذر كلامه بشعره، فهل ترون للجاحظ شعرًا رائعًا ..

كتابة الهمدانى :

فى القرن الرابع الهجرى بلغت الكتابة العربية درجة من الصناعة والتأنق لم تخل بسلامتها ولم تذهب بمعانيها - تولاها كتاب قادرون صرفوها فى أغراض شتى واختاروا من الألفاظ والأساليب الجميل المحلى، دون إغراب ولا إخلال بالمعانى، وتناولت الكتابة كثيرًا من فنون الشعر كالمدح والهجاء والغزل والوصف : إلى ما كان لها قبلا من الموضوعات، فاتسع المجال لذوى الفكر الثاقب والقلب الشاعر، لم يقيدهم فى النثر ما قيد الشعراء من الأوزان والقوافى والاصطلاحات. وكان كثير من الكتاب يلتزم السجع، ومنهم من يكتفى بالازدواج، وقليل منهم يرسل الكلام إرسالاً، وفى هذا العصر نبغ أئمة الكتابة كابن العميد والصاحب والصابى والمهلبى وقابوس، والخوارزمى، وبديع الزمان. ولم يكن بديع الزمان كمعظم هؤلاء وزيرا أو ذا منصب،

فلم تستغرق كتابته أمور الدولة، وكثرت في رسائله الموضوعات الخاصة والعامة. واستبانت نواح من عصره في السياسة والأخلاق، والآداب وغيرها. والبديع يلتزم السجع إلا قليلا. وهو في الرسائل أسجع منه في المقامات، وجمله قصيرة وسجعه متقارب. وذلك أحسبه نتاج الطبع الذكي الحساس، الذي يود أن يسمع الأنغام متتابعة رنانة. وذلك ما جعله يؤثر في كثير من شعره الأوزان المجزوءة. وهو في الرسائل يترك السجع أحيانًا إلى المزاوجة أو الإرسال كقوله في رسالته إلى أبي الطيب عن الأمير خلف بن أحمد : "فلما أيفع وارتفع، طالبته الهمة العلياء يرفض الدنيا. حتى يؤدي فرض الله في الحج، فقام عن سرير الملك، إلى سبيل النسك، فحج البيت، ودرس العلم حتى علم ناسخ الكتاب ومنسوخه، ومباحه ومحظوره إلخ" وكذلك في المقامات يترك السجع أحيانًا ولاسيما في رواية عيسى بن هشام. وقد يأتي بثلاث سجعات متواليات أو أربع، بل يتابع في الرسائل عشر سجعات أحيانًا كقوله: "ونادمته والمنادمة رضاع ثان، وطاعمته والمواكلة نسب دان، سافرت معه والسفر والأخوة رضيعا لبان، وقمت بين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان، وأثنيت عليه. والثناء من الله تعالى بكل لسان، وأخلصت له والإخلاص محمود من كل إنسان". ثم أربع سجعات أخرى على هذا الروي[1]، وقد يجعل السجع مركبا على رويين في أربع فواصل أو ست كقوله في رسالة خلف بن أحمد: "وكأن هذا العالم قد أحسن عملاً فجعل هذا الملك ثوابه، وكأن هذا الملك قد أساء مثلا فجعل هذا العالم عقابه"، وقوله : فكان ما أضعناه، كأنا زرعناه، فأنبت سبع سنابل، وكان ما فقدناه، كأنا أقرضناه هذا الملك العادل .. وقد يسجع في أثناء الجملة قبل تمام المعنى كقوله: "حقا أقول إن التمرة، بالبصرة، أقل خطرا من البدرة، بهذه الحضرة، وأني أيد الله القاضي على قرب العهد، بالمهد، قطعت عرض الأرض، وعاشرت أجناس الناس"[2]، ومما يكثر في نثر البديع تحليته بالشعر، وقد قال الثعالبي في ذلك: "ويوشح القصيدة الفريدة من قوله، بالرسالة الشريفة من إنشائه، فيقرأ من النثر والنظم، وهو لا يكتفي بتفصيل نثره بأبيات من الشعر، بل يصل النثر بالشعر حتى يتوقف معنى كل منهما على الثاني، كرسالته إلى الخوارزمي التي ذكرناها فيما تقدم. وكقوله في مدح أبي جعفر الميكالي:

ولــــو نظمــــت الـــثريا	والشــــعريين قريضـــــا
وكـــــامل الأرض ضــــربا	وشــعب رضـــوى عروضـــا

[1] الرسائل ص١٣٠.
[2] الرسائل ص١٦٣ و١٦٤.

وصــــغت للــــدر ضـــدا	أو لـــــلهواء نقيضـــا
بـــل لـــو جلـــوت علـــيه	ســـود النوائـــب بيضـــا
أو ادعيــــت الـــــثريا	لأخمصــــيه حضيضـــا
والـــبحر عـــبد لهـــاه	عـــند العطـــاء مغيضـــا

لما كنت إلا في ذمة القصور، وجانب التقصير[1]. ومن أحسن افتنانه في ذلك المقامة الوعظية التي لاءم فيها بين المنثور والمنظوم أحسن ملاءمة، ويجد قارئ الرسائل والمقامات قطعا من إحداها في الأخرى؛ فمقامة الوصية التي يوصي فيها تاجر ابنه معظمها في إحدى رسائله[2]، وبعض المقامة النيسابورية ومعظم العلمية، في رسالة إلى أبي القاسم الكرجي التي وصف فيها بعض القضاة. وبعض المقامة الملوكية التي مدح بها خلف بن أحمد في رسالة يمدح فيها الملك نفسه، وكذلك نجد في الديوان والرسائل والمقامات وصف وقائع واحدة، كلقاء الأسد في الديوان والمقامة الأسدية، وقطع الأعراب طريقه في هذه المقامة والرسائل. وذلك يثبت أن المقامات تمثل كثيرًا من حوادث زمانه.

نشأ البديع في عصر بلغ فيه الأدب العربي أوجه، وازدهر فيه الأدب الفارسي، وقد عرفنا أنه ترجم كثيرًا من الأبيات الفارسية في ديوانه. فهل ظهر أثر الفارسية في معانيه وألفاظه؟ أثر قليل؛ فمن المعاني الشائعة في الأدب الفارسي قوله: "أو لم يكفنا الجرح، حتى ذر عليه الملح، وقوله: "أنا العبد قرطك في أذنه مطيعا، وطوقك في عنقه"، فهي عبارة فارسية شاعت حتى كني عن العبودية بالحلقة في الأذن، وقوله : "هيفاء لا تسع العيون جمالاً"، فتسع هنا تشبه كنجد بالفارسية، ومن الألفاظ الفارسية أو العربية المستعملة على الأسلوب الفارسي قوله في مدح السلطان محمود:

إذا مـــا ركـــب الفـــيل	لحـــرب أو لمــــيدان
رأت عيــــناك ســــلطانا	عـــلى كـــاهل شـــيطان

ويجمع نثر بديع الزمان الرسائل والمقامات .. أما رسائله فهي ثلاث وثلاثون ومائتا رسالة تناول فيها أغراضا كثيرة. والبديع مخترع هذه القصص الخيالية التي عرفت في الأدب العربي باسم المقامات، وأما روايات اللغويين فقد رويت على أنها حقائق وأريد بها رواية اللغة قبل أي شيء آخر، وحديث الراوي فيها مرسل لا صناعة

---

[1] الرسائل ص٤٣.
[2] الرسائل ص١٧١.

فيه، ولا يقصد في الرواية، على حين يستوى في المقامة أو يتقارب من حيث البلاغة والفصاحة حديث عيسى بن هشام وكلام أبى الفتح الإسكندرى. وأما تسمية هذه القصص بالمقامات، فلأن أبا الفتح يقوم فيها واعظا أو مستجديًا أو محتالاً وهلم جرا، وفى القرآن "عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا". وفى شعر لبيد:

ومقـــام ضـــيق فرجـــته   بلســـان وبـــيان وجـــدل

وقد استعملت كلمة "مقامة" فى معنى مقام. وفى رسائل الخوارزمى "ولكل مقامة مقالة"[1]. وفى شرح الشريشى لمقامات الحريرى "والمقامات : المجالس واحدتها مقامة. والحديث يجمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا؛ لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس، ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى، قال الأعلم: المقامة لمجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير." والهمذانى نفسه يبين ذلك بقوله فى المقامة الوعظية "قال عيسى ابن هشام فقلت لبعض الحاضرين من هذا؟ قال شخص قد طرأ لا أعرفه. فاصبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينبىء عن علامته" يقول الثعالبى إن بديع الزمان أملى المقامات فى نيسابور، ويظهر أنه أملى معظمها هناك، وأنه أملى بعد مقامات أخرى كالمقامات الست التى مدح بها خلف بن أحمد أمير سجستان. والحصرى يدلنا على تاريخ المقامة الحمدانية، يقول : إن البديع أملاها فى شهور سنة خمس وثمانين وثلاثمائة: وأظنه أملى معظم المقامات قبل هذا. ويروى الشريشى عن بعض أشياخه أن البديع ارتجل المقامات، وأنه كان يقول لأصحابه اقترحوا غرضا نبنى عليه مقامة فيقترحون ما شاءوا فيملى عليهم المقامة ارتجالا. ولا أحسب هذا حقًا، فبديع الزمان نفسه لم يدع هذا، وقد فخر بالمقامات على الخوارزمى وتحداه أن يأتى بمثلها، ولم يتحد بذكر الارتجال، بل قال أملاها والإملاء لا يقتضى ارتجالاً. وأراد البديع بمقاماته أن يدل على تمكنه فى اللغة ومكانته من البلاغة، وقدرته على تصريف القول فى فنون شتى هذا غرضه الأول، وقد سلك إلى هذا الغرض موضوعات كثيرة. وليست الكدية موضوع المقامات كلها، بل كثير منها لا كدية فيه، وفى كثير منها لا يقف أبو الفتح موقف المستجدى، وأما عيسى بن هشام وأبو الفتح الإسكندرى فيقول الحريرى فى مقدماته : "وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعرف.[2]" وكأنه يريد أن يقول إنهما

---

[1] ص ٨٠ ط القاهرة.

[2] كشفت لأول مرة عن شخصية أبى الفتح الإسكندرى وأنه هو مسعر بن مهلهل الملقب بأبى دلف الخزرجى (راجع كتاب أبو دلف الخزرجى عبقرى من ينبع للمؤلف، وكتاب أبو الفتح الإسكندرى بطل مقامات بديع الزمان وشخصيته المجهولة للمؤلف أيضًا أو الخفاجى).

ليسا كأبي زيد السروجي، عيسى بن هشام لا ينتسب إلى بلد، وفي بعض المقامات كلام يمكن أن يؤخذ منه أنه ينتسب إلى الازد، وأبو الفتح انتسب في المقامة العراقية إلى عيسى، وهو منسوب إلى الإسكندرية من الثغور الأموية وهي نسبة غريبة.ماذا يريد بالثغور الأموية؟. يرى شارحو المقامات أنها ثغور الأندلس، وكانت بها إذ ذاك دولة بني أمية. وهذا غريب كذلك فما عرف في كتب التاريخ أو تقويم البلدان اسم الثغور الأموية، ولا الظن بالبديع أنه ينسب صاحبه إلى الأندلس ويسميها الثغور الأموية، وهو رجل يكره الأمويين كما يؤخذ من شعره. نرى في المسألة وجها آخر لا أجزم به؛ ولكني أرجحه. ذلك أن تقرأ (الثغور الأموية). نسبه إلى مدينة آمو أو أموية وهي مدينة آمل الشط على نهر جيحون أو نسبة إلى جيحون وهو يسمى آموديا أي نهر آمو. ويقول ياقوت في معجم البلدان. وهو يعدد المدن التي سميت الإسكندرية: "ومنها الإسكندرية التي على شاطئ النهر الأعظم." هذا إلا أن يكون البديع نسب صاحبه الذي لا يستقر في مكان نسبة لا يعرفها أحد. وبعض المقامات لا يسمى فيها أبو الفتح، وإن عرف بصفاته كالأهوازية والبصرية، وبعضها يخلو من أبي الفتح اسما وفعلا كالمقامة البغدادية والنهدية. وأحيانًا يأتي أبو الفتح في آخر المقامة بعد مضي معظم حوادثها كالمقامة الأسدية التي تصف لقاء عيسى بن هشام وأصحابه الأسد، ثم قاطع طريق ثم لقاء أبي الفتح بعد ورودهم حمص.

ويقول باحث معاصر[1] عن نشأة المقامات : ويظن أن (الحريري) هو أول من تحدث عن المنشيء الأول للمقامة، فقد كتب في مقدمة مقاماته : "وبعد فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه، وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان، وعلامة همذان، رحمه الله؛ وعزا إلى أبي الفتح الإسكندري نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها؛ وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا يتعرف، إلى أن قال : هذا مع اعترافي بأن البديع سباق غايات، وصاحب آيات، وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قدامة، لا يغترف إلا من فضالته، ولا يسري ذلك المسري إلا بدلالته ولله در القائل.

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة	بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهاج لي البكاء	بكاها فقلت : الفضل للمتقدم "

---

[1] الأستاذ على العماري (مجلة الأزهر ١٩٤٣)، وهو متأثر في هذا الرأي بزكي مبارك في كتابه النثر الفني (١: ٣٣٨- ٣٥١).

هذا ما قاله الحريرى، وجرى عليه كثير من المؤلفين، غير أن هذا الرأى لا يثبت للنظرة الأولى، فإن ابن فارس صاحب كتاب المجمل، وأستاذ البديع، كان قد وضع مقامات، ولا تزال منها المقامة الفقهية المتضمنة نحو المائة مسألة، وبدهى أن التلميذ يترسم خطا أستاذه وينسج على منواله. لكن الباحثين لم يقفوا عند هذا الحد، فذهبوا يفتشون فى بطون الكتب علهم يجدون من هو أسبق من البديع ومن أستاذه، وقد كان نص الحصرى فى زهر الآداب مصباحا اهتدى به بعض الباحثين، فأسند نشأة المقامة إلى أبى بكر بن دريد صاحب الجمهرة، وهذا هو النص "ولما رأى - يعنى البديع - أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد أغرب بأربعين حديثًا وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، فى معارض عجمية، وألفاظ حوشية، إلخ".

وقال الدكتور زكى مبارك معلقا على هذا : "مؤدى هذا الكلام أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات، وأنه حاكى ابن دريد فى أحاديثه" ورأى الدكتور طه حسين : أن مقامات ابن دريد قد تكون هى هذه الأحاديث الصغيرة المروية عنه فى كتاب الأمالى لأبى على القالى. ولا نقف طويلاً عند هذا الرأى أو ذاك، فقد كفانا الحصرى نفسه مؤونة هذه الوقفة حين قال: "ولا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى" وإذن فلم يبق إلا أن ابن دريد تخيل بعض الأحاديث على ألسنة الأعراب وهكذا فعل البديع، وما نظن أن هذا كاف فى سلب البديع فضل السبق فى هذا، على أنى أظن أن هذه المقالة وقعت للحصرى من بعض أعداء البديع الذين كانوا يكرهونه، ولا يقدرون على نقده ولا مجابهته، فدسوا هذه الكلمة ليغضوا من شأن مقاماته، وهذا جهد الحاسد العاجز. على أننا نرجع إلى عصر ابن دريد فنجد رجلا يشبه البديع والبديع يشبهه إلى حد بعيد؛ ذلك الرجل هو المطهر الأزدى[1] مؤلف (حكاية أبى القاسم البغدادى التميمى) التى يقول فيها[2]: ولعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلثمائة" وقد طبعها آدم ميترا الألمانى. نطالع هذه القصة ثم نطالع بعدها مقامات البديع وآثاره الأدبية فلا يخالجنا شك فى أن الثانى أخذ من الأول وحذا حذوه لعدة أسباب:

١- نظن أن الأزدى أول من أطلق كلمة مقامة على ما يحكى فى مجلس من المجالس، وقد وردت هذه الكلمة فى مقدمة رسالته قال "هذا الذى أحصله من

---

[1] هو محمد بن أحمد المطهر الأزدى وهو فى المائة الخامسة لا المائة الرابعة، وهذا ما ينفى كلام العمارى وكلام الدكتور زكى مبارك راجع ص١٤٨ : ٣ الأدب العربى لبروكلمان.

[2] ليس هو القائل إنما هذا رواية عن شخص آخر يتحدث عن نفسه.

أدب غيرى وأقتنيه، وأتحلى به وأدعيه وأرويه، من ملح ما تنفسوا به وتنافسوا فيه، ويصدق شاهدى عليه أشعار لنفسى دونتها، ورسائل سيرتها، ومقامات حضرتها، ثم إن هذه حكاية رجل بغدادى كنت أعاشره برهة من الدهر، فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستقبحة، وعبارات عن أهل بلده مستفصحة ومستفضحة، فأثبتها خاطرى لتكون كالتذكرة، فى معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم، وكالأنموذج المأخوذ من عاداتهم".

ومحمد بن أحمد المطهر الأزدى فى المائة الخامسة للهجرة قص حكاية أبى القاسم البغدادى التميمى مصورًا بذلك نموذجًا بغداديا أصيلاً من العادات والتقاليد، إذ يعرض حياة شيخ بغدادى طفيلى وقح، ولكنه فصيح ذرب اللسان، ويقص مغامراته وأحاديثه فى يوم كامل ببغداد، ونشر "حكاية أبى القاسم" آدم متر فى هايدلبرج سنة ١٩٠٢ عن نسخة فى المتحف البريطانى أول رقم ١١٢٧، وانظر كتاب النثر الفنى لزكى مبارك ١: ٣٣٨ - ٣٥١، ١٤٨/ ٣ بروكلمان.

٢- شخصية أبى القاسم البغدادى، وشخصية أبى الفتح الإسكندرى، وهما الراويتان فى القصتين متشابهتان حتى فى التسمية، وهما خرافيتان، وكل منهما جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق، فترى الواحد منهما يدارى أهل المجلس وينافقهم، فيلبس ثوب التقى والصلاح، حتى إذا رآهم على استعداد للهزل انقلب لاعبا متمردا عارفا بغرائب الخلاعة والمجون[1].

٣- ولعلنا نضع يد القارئ على أقوى دليل حين ننقل له كلمة لكل من الرجلين بينهما مشابهة قوية نرى فيهما كيف يسرد كل منهما الشتائم المستغربة والمستملحة، وكيف يتفقان أحيانًا على المعنى الواحد، وقد وصفا ثقيلاً فقال البغدادى: "يا أول ليلة الغريب إذا بعد عن الحبيب، يا طلعة الرقيب، يا يوم الأربعاء فى آخر صفر، يا لقاء الكابوس فى وقت السحر! إلى آخر ما قال على هذا النمط. ويقول البديع: يا أم حنين، يا غداة البين، يا رمد العين، يا فراق المجبين، يا ساعة الحين، يا ثقل الدين.

---

[1] يقول بروكلمان: إن المطهر الأزدى صور بذلك نموذجًا بغداديًا أصيلاً من العادات والتقاليد، إذ يعرض حكاية شيخ بغدادى طفيلى وقح ولكنه فصيح ذرب اللسان، ويقص مغامراته وأحاديثه فى يوم كامل ببغداد. وقد نشر آدم متز هذه الحكايات فى هايدلبرج سنة ١٩٠٢ عن نسخة فى المتحف البريطانى أول رقم ١١٢٧ ١٤٨ : ٣ بروكلمان.

٤- والناظر في أسلوب الرجلين يجد الطريقة واحدة؛ فكلاهما رقيق الأسلوب عذب العبارة. يكاد يلتزم السجع والازدواج، حتى عدد الفقرات يكاد يتساوى عندهما، كما أن سجع كل منهما قصير الفقرات.

٥- وصف كل منهما الحياة الاجتماعية في عصره؛ فحكاية أبي القاسم وصف لحياة بغداد وما فيها من خلاعة ولهو، وتدوين لكثير من عادات أهلها، وقد دون مظاهر الحضارة في عصره، وكذلك فعل البديع في مقاماته، وكما دونا كثيرا من العادات، دونا كثيرا من الألفاظ الجارية على الألسنة، ولهما صور فنية رائعة قصدا إليها رغبة في الدعابة.

٦- ينتقل المطهر من فن إلى فن في دعابة وظرف والحكاية كلها مجلس واحد، ولكنها فنون شتى، وكذلك نرى البديع ينتقل من حال إلى حال.

ويروي كتاب التراجم وعلماء الأدب الذين كتبوا عن بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ أن مقاماته تبلغ أربعمائة مقامة، ومن بين هؤلاء الثعالبي م٤٢٩[١]. وياقوت م٦٢٦[٢]، وابن خلكان م٦٨١[٣] .. ولكن الدكتور زكي مبارك يرجح أنها خمسون مقامة فقط، بدعوى أنه لم يحفظ له سواها، وأن الحريري حين عارض البديع لم ينشيء في معارضته غير خمسين مقامة، وأن البديع قد عارض ابن دريد بأحاديثه الأربعين، والمعارضة تتقارب[٤]. ولكن شكوك الدكتور لا تعتمد على دليل حسن مقبول ولا تنتهي إلى نتيجة حاسمة. وقد آن أن نصحح رأي علماء الأدب بأدلة دامغة تجعلنا نقبل روايتهم ويثق بها، وأهم هذه الأدلة أن هذا الإجماع الأدبي والتاريخي على أن مقامات البديع أربعمائة مقامة ينفي كل شبهة وظن؛ ثم إن البديع نفسه يروي لنا أن مقاماته أربعمائة مقامة، وإن شئت فراجع رسالة البديع إلى أبي المظفر يحذره من إسراف والده في التعصب عليه، واقرأ الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة :

"ومن أملى من مقامات الكدية أربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لفظا، ولا معنى، حقيق الإنهاج لكشف عيوبه[٥]". فستزداد بعد ذلك يقينا على يقين بأن المقامات أربعمائة لا خمسون.

---

(١) ج٤ ص١٦٧ يتيمة الدهر.
(٢) ج١ ص٩٤ معجم الأدباء.
(٣) ج١ ص٣٩ ابن خلكان.
(٤) ٢٠٦ ج١ النثر الفني.
(٥) ٢٢٧ رسائل البديع.

وهذه مقامة منها، هي المقامة القريضية للبديع:

حدثنا عيسى بن هشام، قال: "طرحتني النوى مطارحها، حتى إذا وطئت جرجان الأقصى، فاستظهرت على الأيام بضياع، أجلت فيها يد العمارة، وأموال وقفتها على التجارة، وحانوت جعلته مثابة، ورفقة اتخذتها صحابة. وجعلت للدار حاشيتي النهار، وللحانوت ما بينهما، فجلسنا يوما نتذاكر القريض وأهله، وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد، وكأنه لا يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم. حتى إذا مال الكلام بنا ميله، وجر الجدال فينا ذيله. قال : "قد أصبتم عذيقه، ووافيتم جذيله، ولو شئت للفظت وأفضت، ولو قلت لأصدرت وأوردت، ولجلوت الحق في معرض بيان، يسمع الصم، وينزل العصم"، فقلت: "يا فاضل، أدن فقد منيت، وهات فقد أثنيت". فدنا، وقال : "سلوني أجبكم، واسمعوا أعجبكم" .. فقلنا : "ما تقول في امرئ القيس؟" قال: "هو أول من وقف بالديار وعرصاتها، واغتدى والطير في وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، لم يقل الشعر كاسبًا، ولم يجد القول راغبًا - ففضل من تفتق للحيلة لسانه، وانتجع للرغبة بنانه" قلنا : "فما تقول في النابغة؟" قال : ينسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، ولا يرمي إلا صائبًا" قلنا: "فما تقول في زهير؟" قال : "يذيب الشعر والشعر يذيبه، ويدعو القول والسحر يجيبه" قلنا: "فما تقول في طرفة؟" قال : "هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تفتح أغلاق خزائنه" قلنا: "فما تقول في جرير والفرزدق؟ وأيهما أسبق؟" فقال : "جرير أرق شعرًا، وأغزر غزرًا، والفرزدق أمتن صخرًا، وأكثر فخرًا، وأشرف يومًا، والفرزدق أكثر رومًا، وأكرم قومًا، وجرير إذا نسب أشجى، وإذا ثلب أردى، وإذا مدح أسنى، والفرزدق إن افتخر أجزى، وإذا احتقر أزرى، وإذا وصف أوفى" قلنا : "فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟" قال : المتقدمون أشرف لفظًا، وأكثر من المعاني حظًا، والمتأخرون ألطف صنعًا، وأروق نسجًا" قلنا : "فلو أريت من أشعارك، ورويت لنا من أخبارك" قال : "خذهما في معرض واحد" وقال :

"إمـا تـروني أتغشـى طمـرا ... ممتطـيًا فـي الضـر أمـرًا مـرا
مضـطبنًا عـلى الليـالي غمـرًا ... ملاقـيًا مـنها صـروفًا حمـرا
أقصـى أمـاني طلـوع الشـعرى ... فقـد غنيـنا بالأمـاني دهـرا
وكـان هـذا الحـر أعـلى قـدرًا ... ومـاء هـذا الوجـه أغـلى سـعرا
ضـربت للسـرا قـبابًا خضـرا ... فـي دار "دارا" وإوان "كسـرى"
فانقلـب الدهـر لـبطن ظهـرًا ... وعـاد عـرف العـيش عـندي نكـرا

لم يـــبق مـــن وفـــرى إلا ذكـــرا	ثـــم إلى الـــيوم هـــلم جـــرا
لـــولا عجـــوز لى بســـر مـــن را	وأفـــرخ دون جـــبال بصـــرى
قـــد جلـــب الدهـــر علـــيهم ضـــرا	قتلـــت، يـــا ســـادة، نفســـى صـــبرا

قال عيسى بن هشام : "فأنلته ما تاح، وأعرض عنا فراح. فجعلت أنفيه وأثبته، وأنكره وكأنى أعرفه، ثم دلتنى عليه ثناياه، فقلت: الإسكندرى والله. فقد كان فارقنا خشفًا، ووافنا جلفًا. ونهضت على إثره، ثم قبضت على خصره، وقلت : ألست أبا الفتح؟ ألم نر بك فينا وليدا، ولبثت فينا من عمرك سنين؟ "فأى عجوز لك بسر من را". فضحك إلى، وقال:

ويحـــك هـــذا الـــزمان زور	فـــلا يغـــرنك الغـــرور
لا تلـــتزم حالـــة ولكـــن	در باللـــيالى كمـــا تـــدور

ولقد كان ابتكار البديع الهمذانى (٣٥٨ - ٣٩٨هـ، ٩٦٩ - ١٠٠٧م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقامة حدثًا أدبيًا جديدًا فى الأدب العربى.

فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها. ونزعة القصة فيها، وهذا الحوار الذى طالما دار بين بطلها أبى الفتح الإسكندرى وراويتها عيسى بن هشام، كما بهرهم هذا النموذج الفنى الرفيع الذى تمثل شخصية الساسانى أبى الفتح البطل.

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتانًا شديدًا.

وليس هناك إلا البديع نفسه، فهو أبو المقامة فى الأدب العربى، وصاحب الفضل فى إنشائها، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاسم بن على البصرى (٤٤٦-٥١٦هـ) فى مقدمة مقاماته، فقد جعل ابتداع المقامات راجعًا إلى بديع الزمان، وعلامة همذان، وكذلك جعل الثعالبى فى "اليتيمة" البديع أبا عذرتها، والواضع لأصولها وخطتها ويتابعهم فى ذلك كثيرون منهم مارون عود مثلاً، إذ يقول[1] إن خطة المقامات من عمل البديع، فهو الذى ألبسها هذا الطراز، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف عام، وعبثًا يحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع.

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول[2]: فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى.

---

[1] ٢٤ "بديع الزمان" لمارون عبود.
[2] ص١٦ "مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته" - مازن مبارك.

هذا هو الرأى السائد فى نشأة المقامة. ولكن الحصرى صاحب كتاب "زهر الآداب" يذهب فى كتابه[1] إلى أن البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١هـ)، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك[2] أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامة، وإن كان له فضل فى نشأتها، وينفى مؤلف كتاب "بديع الزمان رائد القصة القصيرة" وهو الدكتور مصطفى الشكعة[3] أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع.

ويجعل آخرون البديع محتذيًا حذو أستاذه ابن فارس (٣٩٥هـ) فى رسائله الحوارية.

ويذكر آخرون، ومن بينهم الدكتور شوقى ضيف[4] أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن أهل الكدية، ومع جواز ذلك فى المضمون، فإن شكل المقامة الفنى يبقى جديدًا كل الجدة عند البديع : وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة فى أى عمل أدبى أو غير أدبى.

ويجعل بعض المستشرقين أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات، ويذكر آخر أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر فى نشأة المقامة، وهذا كله كلام يعوزه الدليل "ولا تنهض به الحجة"[5].

ويذهب آخرون إلى أن المقامة مقتبسة من أصل : فارسى، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت فى الأدب الفارسى قبل بديع الزمان، إذ لم تعرف المقامة فى الأدب الفارسى إلا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان. فأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخى الذى بدأ بكتابتها عام ٥٥١هـ وتوفى بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨هـ/ ١١٦٤م) كما يقول براون، ويؤكد محمد تقى بهار[6] أن المقامة من اختراع البديع، وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان له صداه فى الادب الفارسى، وأن حميد الدين قلد

---

[1] ١: ٢٣٥ "زهر الآداب"

[2] "النثر الفنى" لزكى مبارك.

[3] ص٢٠٧ "بديع الزمان" للشكعة.

[4] ٢٠ "المقامة" للدكتور شوقى ضيف - طبع دار المعارف.

[5] راجع ١٤٦ "الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى" للمؤلف.

[6] "تاريخ تطور النثر الفارسى" - محمد تقى بهار.

البديع والحريرى فى مقاماته ويذكر الأنورى إعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين.

إن هذه القصة الحوارية القصيرة، ذات المنهج الفنى الملتزم، والصياغة الطريفة، والصنعة الجديدة، والفكرة الساسانية. التى دعيت مقامة، قد أنشأها بديع الزمان الهمذانى، لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة فى عصره.

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلاً ساسانيًا هو أبو الفتح الإسكندرى، وهو الذى مثل كل أدوارها، ونهض بجميع فصولها وقام بكل أحداثها.

وشخصية أبى الفتح - كما تبدو من خلال المقامات - شخصية رائعة حقًا، فهو بطل الموقف كله فى المقامة، وهو - كما يصوره الهمذانى - عالم وأديب وشاعر، وهو ناقد بليغ، ومغامر محتال ماهر، مشرد فى الآفاق، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد أمامه إلا الكدية والاحتيال بكل أسلوب من أجل المال أو الطعام. وهو إلى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها وعركها وعركته يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية، ويهز الناس بفصاحته وبلاغته.

وكنية أبى الفتح لعل البديع رمز بها إلى فتوحات هذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية.

أما وصف الإسكندرى الذى لازمه فقد يكون معززًا لذلك المعنى على أنه نسبة إلى الإسكندر، فتكون فتوحات أبى الفتح فى أموال الناس شبيهة بفتوحات الإسكندر.

وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر فى مقاماته قوله "إسكندرية دارى"[1] نسبة إلى الإسكندرية لا إلى الإسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م). ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين، فتكون نسبته إلى الإسكندرية مقصودًا بها إلى الرمز إلى شبهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الإسكندر التى تنسب إلى مدينته.

ويقودنا ذلك إلى التساؤل: أية إسكندرية كان يعنى البديع، وكان ينتسب إليها أبو الفتح الساسانى؟

---

[1] راجع مثلا فى المقامة الأربعين - العلمية - قول البديع :

إسكنـدرية دارى   لو قر فيها قرارى

فى المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثًا عن نفسه: إنى امرؤ من أهل الإسكندرية من الثغور الأموية، وفى المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول: من الثغور الأموية والبلاد الإسكندرية ويكرر أبو الفتح نسبته إلى الإسكندرية فى مواضع كثيرة أخرى.

فإذا رجعنا إلى ياقوت[1] وجدناه يذكر أن الإسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه، ثم تغيرت أسماؤها بعده، فمنها : إسكندرية مصر، والإسكندرية التى صار اسمها سمرقند، والتى صارت مرو، والتى سمت بعد باسم بلخ، وإسكندرية الأندلس التى على النهر الأعظم – نهر إشبيلية وهى التى رجحها الإمام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس فى القرن الرابع الهجرى عصر البديع إلا أنى وجدت رحالة عربيًا فى القرن الرابع – هو أبو دلف – يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند، ويقول عنها : إن الخليفة الأموى مقيم بها[2]، فهل كانت هذه المدينة قديمًا تسمى الإسكندرية أيضًا، ليصبح أمامنا احتمال جديد آخر، ويذكر باحث عراقى أن الإسكندرية بين بغداد والحلة[3]، ولكن ما صلتها إذن بالثغور الأموية؟.

ويذهب د. عبد الوهاب عزام إلى أن صحة الكلمة "الآموية" نسبة إلى نهر آموى[4] – جيحون – وبذلك تكون الإسكندرية المقصودة هى مدينة الإسكندر على نهر آموى .

ومع ذلك كله فلا نزال نسير فى بيداء سحيقة.

فمن هو أبو الفتح الإسكندرى إذًا؟

١- هناك رأى سائد أنه شخصية أسطورية خيالية محضة، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام، يقول الحريرى فى مقدمة مقاماته :

كلاهما مجهول لا يعرف "ونكرة لا تتعرف" وهذا ما رجحته منذ عشرين عامًا فى كتابى "الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى"[5] ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسى إيوار، فيقول : وضع البديع شخصًا خياليًا ابتكره وسماه أبا الفتح،

---

(١) ١/ ٢٣٥ معجم البلدان.

(٢) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٥/ ٣٠٩ معجم البلدان.

(٣) يعد رسالة دكتوراه عن مقامات الحريرى، وهو طارق العوسج، وهو مدرس بمكة المكرمة حاليًا.

(٤) ٢٣٤ بديع الزمان للشكعة نقلا عن محاضرات د. عزام فى كلية الآداب عام ١٩٤٤م.

(٥) ص١٤٧ الكتاب المذكور طبع القاهرة ١٩٥٧.

وذهب بعض الباحثين إلى أن عيسى بن هشام راوية المقامات كان شيخًا للبديع، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩هـ) مؤلف تاريخ همذان، وينقل ذلك عنه ياقوت في معجم الأدباء ولعل ذلك وهم ناشيء من قول البديع في مطلع كل مقامة من مقاماته: حدثنا عيسى بن هشام، ولو ذهبنا إلى أن أبا الفتح هو الذى كان أستاذًا للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث، وأكبر انطباقًا على الموضوع.

وممن ذهب إلى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب "بديع الزمان" الدكتور الشكعة الذى يقول: حاولنا أن نجد لبطلي المقامات صدى تاريخيًا فلم نعثر لهما على أثر والغالب أنهما من ابتكار خيال البديع نفسه[1].

٢- وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ويذهب إلى ذلك بعض المستشرقين "إلا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية.

وأنا معهم فى ذلك. ولكنى أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبى الفتح بطل المقامات البديعية.

يذهب باحث عراقى[2] سبق الإشارة إلى أن أبا الفتح هو البديع نفسه، ومن قبل قلت ذلك فى كتابى "الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى"[3] حيث ذكرت أنه قد يكون فى حياة أبى الفتح شيء من صفات البديع نفسه، وشيء من أخلاقه. ولكنى أخالف ذلك اليوم، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل.

ويذهب باحث آخر[4] إلى أن الكدية أو الساسانية التى كانت صناعة أبى الفتح "نجد من أعلامها فى عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة: كابن الحجاج (تـ ٣٩١هـ)، وابن سكرة (تـ ٣٨٥) وأبى الورد، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبى حيان التوحيدى، بل البديع نفسه، ومن يشبهه كل الشبه كأبى دلف والأحنف العكبرى" .. ومجمل هذا الرأى أن أشباه أبى الفتح الإسكندرى كثيرون فى عصر البديع، وأن أقربهم شبهًا به هو أبو دلف والأحنف. وهذا الرأى لا يأتى لنا بجديد ولا بأمر مؤكد فى البحث على أية حال، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين له.

---

(١) بديع الزمان ص٢٣٢.

(٢) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريرى.

(٣) ١٥٧ و١٥٨ الكتاب المذكور.

(٤) ص٢٣٤ "الأدب فى ظل بنى بويه" للزهيرى – طبع مصر ١٩٤٩.

٣- ورأيي الذى أذهب إليه اليوم هو أن أبا الفتح إنما هو شخصية تاريخية معروفة في عصر البديع، وهو أبو دلف الخزرجي وحده.

وهذا الرأى لا يسبقنى فيه باحث، وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب فى القرن الرابع .. ودليلنا عليه هو ما قاله الثعالبى فى "يتيمة الدهر"[١] قال:

أنشدنى بديع الزمان لأبى دلف، ونسبه فى بعض المقامات إلى أبى الفتح الإسكندرى.

ويحك هذا الزمان زور	فلا يغرنك الغرور[٢]
لا تلتزم حالة ولكن	در بالليالى كما تدور

ومع هذا النص نعرف الحقائق الآتية :

١- أنشد البديع الثعالبى شعرًا لأبى دلف.
٢- وهذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته إلى أبى الفتح، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتح هو أبو دلف نفسه بإقرار البديع.
٣- كان البديع راوية لشعر أبى دلف، ويبدو لى أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم.

وإذن يكون أمامنا رأى جديد نجزم به، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف أستاذه وصديقه ومعاصره بطلا للمقامات، وكنى عنه بأبى الفتح، وكان أبو دلف أروع نموذج ساسانى يصلح بطلا للمقامات لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صوره البديع فى شخص أبى الفتح الإسكندرى، ولأن شهرة وتجارب أبى دلف كانت تصلح معينًا يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قد كان.

بل إنى أضيف إلى أن ذلك أن البديع الهمذانى حين سمع قصص أبى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد واستمع إلى فكاهات هذا الشيخ وسمره فى مجالس الملوك والوزراء رأى أن هذه الصورة الفنية تصلح أساسًا لفن جديد ابتكره وسماه "المقامة"، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب

---

[١] ٣: ٢٥٤ اليتمة .
[٢] هذا الشعر فى المقامة القريضية إحدى مقامات البديع.

الذكى بابتكار فن المقاومة فى الأدب العربى، فى القرن الرابع، وفى عصر أبى دلف.

-٤-

وقد أطلعت بعد نشر هذا الرأى والانتهاء منه بزمن على دليل آخر يؤيدنى فى هذه القضية، ففى كتاب "النماذج الإنسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة يقول مؤلفه د. محمد غنيمى هلال ما نصه:

على أن ثمة شخصية تاريخية واقعية استملى منها الهمذانى نموذجه الأدبى وهو الشاعر أبو دلف، وكان معاصرًا لبديع الزمان، وكان بديع الزمان يعجب به ويستدعيه إلى مجلسه، ويحسن إليه ويحفظ من شعره، والجانب الواقعى من أبى دلف قد أمد - دون ريب - بديع الزمان بالمادة الغفل لمقاماته ماثلة فى شخصية الشاعر المذكور وأدبه، وقد ترك هذا الجانب الواقعى كذلك أثرًا فى تصوير باطن نفسى لنموذج أبى الفتح.

ومع ما فى هذه الجملة القصيرة من ذهاب إلى ما قلناه، من أن شخصية أبى دلف هى شخصية أبى الفتح الإسكندرى بطل مقامات البديع، فإن فيها على قصرها أخطاء كثيرة هى:

أولاً : قوله : وكان - أى أبو دلف - معاصرًا لبديع الزمان.

فإن الأولى أن يقال : وكان البديع معاصرًا لأبى دلف لأن أبا دلف كان قد بلغ الستين على حين كان البديع ابن عامين، وكان أبو دلف نديم الملوك ومسامرهم ومحدثهم، والذى تفتح له أبوابهم دون حجاب.

ثانيًا : قوله : وكان - أى بديع الزمان يستدعيه - أى أبا دلف - إلى مجلسه أليس الأولى العكس، أيستقيم أن يذهب شيخ عظيم كبير السن إلى شاب صغير.

ثالثًا : قوله : وكان أى البديع - يحسن إليه، أى إلى أبى دلف. أبو دلف العظيم محدث الملوك وطرفة الدنيا، أكان فى حاجة إلى إحسان شاب صغير فقير.. كلا فقد كان أبو دلف فى ثراء مما ناله من عطاء الملوك ورفدهم عندما كان البديع لا يزال شابًا مجدًا طالبًا للشهرة وللمال معًا.

ألوان من شعر البديع الهمذانى:

قال يمدح أحد أمراء :

طـــربًا لقــــد رق الظـــلا ... م ورق أنفـــــاس الصـــــباح
وســـرى إلى القلــب العلـــيل ... علـــيل أنفـــاس الـــرياح
وملـــيحة تـــرنو بـــنر ... جســـة وتبســـم عـــن أقـــاح
قامـــت وقـــد بـــرد الحـــلى ... تمـــيس فـــى ثـــنى الوشـــاح
تشـــدو وكـــل غـــنائها ... بـــرد عـــلى كـــبد الوشـــاح
يالـــيل هـــل لـــك مـــن صـــبا ... ح أم لـــنجمك مـــن بـــراح
ســـأريق مـــاء شـــبيبتى ... مـــا بـــين ريحـــان وراح
فـــيم العـــتاب ولا لهـــم ... غـــيرى ولا لهـــم صـــلاحى
ولعـــاذلاتى فـــى الملـــي ... حـــة عـــاذلاتك فـــى الســـماح
وهـــواى للبـــيض الصـــبا ... ح هـــواك للبـــيض الصـــفاح
وولـــوع كفـــى بـــالقدا ... ح ولـــوع كفـــك بالـــرماح
وعلـــيك إدمـــان الـــندى ... وعـــلى إدمـــان امـــتداحى
فلـــيعل رأيـــك إنـــه ... يلـــوى يـــد القـــدر المـــتاح
وأفخـــر فـــإنك فـــى العلـــو ... ك لـــك المعـــلى فـــى القـــداح

وقال يمدح السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى صاحب السندو خراسان، المتوفى سنة ٤٢١. وقد كان بديع الزمان يتتبع خطواته، ويتعرف حركاته وسكناته، ويهنئه بفتوحاته .. ومما قال فى مدحه قصيدة شهيرة هى :

تعـــالى الله مـــا شـــاء ... وزاد الله إيمـــــــانى
أأفـــريدون فـــى الـــتاج ... أم الإســـكندر الـــثانى
أم الرجـــعة قـــد عـــادت ... إليـــنا بســـليمان
أظلـــت شمـــس محمـــود ... عـــلى أنجـــم ســـامان
وأمســـى أهـــل بهـــرام ... عبـــيدًا لابـــن خاقـــان
إذا مـــا ركـــب الفـــيل ... لحـــرب أو لمـــيدان
رأت عيـــناك ســـلطانًا ... عـــلى منكـــب شـــيطان
فمـــن واســـطة الهـــند ... إلى ســـاحة جـــرجان
ومـــن قاصـــية الســـند ... إلى أقصـــى خراســـان
عـــلى مقتـــبل العمـــر ... وفـــى مفتـــتح الشـــان

فيوما رسل الشاه ... ويوما رسل الخان
فما يغرب بالمغرب ... عن طاعتك اثنان
لك السرج إذا شئت ... على كاهل كيوان
أيا والي بغداد ... ويا صاحب غمدان
تأمل ما أتى فيل ... على سبعة[1] أركان
يقلبن أساطين ... ويلعبن بثعبان[2]

وقال يمدح ابن فريغون من الأمراء :

ألم تر أني في نهضتي ... لقيت المنى والغنى والأميرا
ولما التقينا شممت الترا ... ب وكنت امرأ لا أشم العبيرا
لقيت امرأ ملء عين الزما ... ن يعلو سحابًا ويرسو ثبيرا
لآل فريغون في المكرما ... ت يد أولا واعتذار أخيرا
إذا ما حللت بمغناهم ... رأيت نعيما وملكا كبيرا

ومما قاله في مدح بني ميكال الفضلاء :

يا غلام الكأس فاليأ ... س من الناس مريح
يا بني ميكال والجو ... لعلاتي مريح
شرفا إن مجال الفضل ... فيكم لفسيح
وعلى قدر سنا الممدوح ... ح يأتيك المديح
فهناك الشرف الأر ... فع والطرف الطموح

ومن جيد مدحه قوله :

وكان يحكيك صوب الغيث منسكبًا ... لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت ... والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

---

[1] أراد بالسبعة أركان الجيش وهي القلب والميمنة والميسرة والجناحان والساقة والمقدمة.
[2] الغرض من الثعبان هو خرطوم الفيلة لأنه يشبه الثعبان في طوله وتلويه.

أبو القاسم الحريرى البصرى

٤٤٦ - ٥١٦هـ

كـان أديبـا فاضـلاً نحويـا منشـئًا، ومـن مصـنفاته درة الغـواص فـى أوهـام الخواص، وملحة الإعراب وشرحها والمقامات المشهورة، وجاء بها إلى بغداد وادعاها فـلم يصـدقه أدباؤهـا. وهذه المصنفات مطبوعة ومشهورة، وكان يقول نقلاً عن شيخه: إذا قلت مااسود زيدا وما اسمر عمرا وما اصفر هذا الطائر وما ابيض هذه الحمامة وما احمر هذه الفرس فسدت كـل مسألة منها من وجه وصحت من وجه، فيفسد جميعها إذا أردت التعجـب مـن الألـوان، وتصـح جميعها إذا أردت التعجـب مـن سـودد زيـد وسمـر عمـرو وهـو الحديـث بالليل خاصة، ومن صفير الطائر وكثرة بيض الحمامة ومن حمر الفرس وهو أن ينتن فوها .. ومن شعره:

ولمـا تعـامى الدهـر وهـو أبـو الـورى ... عـن الرشـد فـى أنحائـه ومقاصـده
تعاميـت حتـى قيل إنـى أخو العمى ... ولا غرو أن يحـذو الفتى حذو والده

وتوفـى سنة ٥١٦ ببنـى حرام مـن البصـرة، وقد شرح الشريشى المتوفى عام ٦٥٢هـ مقامـات الحريـرى شـرحا واسعًا وتـرجم ابـن خلكـان للحريرى، فقال : هو أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى البصر الحرامى، كان أحد أئمة عصـره، ورزق الحظـوة التـامة فى عمله المقامات، وقد اشتملت على كثير من بلاغات العرب فـى لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها، ومن عرفها حق معرفتها استدل بها على فضـل هـذا الـرجل وكـثرة اطلاعه وغزارة مادته .. وكان سبب وضعه لها ما حكاه ولده أبـو القاسم عبـد الله قـال : كـان أبـى جالسـا فـى مسجد بنـى حـرام فدخـل شيخ ذو طمـرين عليه أهبـة السـفر رث الحـال فسيح الكلام حسن العبارة، فسألته الجماعة من أيـن الشيخ؟ فقـال : مـن سـروج، فاسـتخبروه عـن كنيته، فقـال : أبـو زيـد، فعمـل أبـى المقامـة الثامـنة والأربعـين المعـروفة بالحرامـية، وعـزاها إلى أبـى زيـد المذكـور، واشتهرت، فـبلغ خـبرها الوزيـر شـرف الديـن أبـا نصر أبـو شـروان بن خالد بن محمد الفاشـانى وزيـر الإمـام المسترشـد بالله، فلما وقف عليها أعجبته، فأشار على والدى أن يضـم إلـيها غيرها فأتمها خمسين مقامة، وإلى الوزير المذكور أشار الحريرى فى خطبة المقامـات بقولـه: "فأشـار مـن إشـارته حكـم، وطاعـته غنم، إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع. وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع". هكذا وجدته فى عدة تواريخ، ثم رأيـت فـى بعـض شـهور سنة ست وثمانين وستمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات،

وجميعها بخط مصنفها الحريري، وقد كتب أيضًا بخطه على ظهرها أنه صنفها للوزير جلال الدين عميد الدولة أبي الحسن علي بن أبي العز علي بن صدقة وزير المسترشد أيضًا، ولا شك أن هذا أصح من الرواية الأولى لكونه بخط المصنف، والله أعلم، وتوفي الوزير المذكور في رجب سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، فهذا كان مستنده في نسبته إلى أبي زيد السروجي. وذكر القاضي الأكرم كمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني القفطي وزير حلب في كتابه الذي سماه "إنباه الرواة على أنباء النحاة" أن أبا زيد المذكور اسمه المطهر بن سلار، وكان بصريا نحويا لغويا، وصحب الحريري واشتغل عليه بالبصرة وتخرج به. وروى عنه القاضي أبو الفتح محمد بن أحمد بن المنداري "ملحة الأعراب" للحريري وذكر أنه سمعها منه عن الحريري، وقال قدم علينا واسط في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة،فسمعتها منه وتوجه منها مصعدا إلى بغداد فوصلها، وأقام بها مدة يسيرة وتوفي بها رحمه الله تعالى، كذا ذكره السمعاني في الذيل، والعماد في الخريدة وقال : لقبه فخر الدين وتولى صدرية المشان، ومات بها بعد عام أربعين وخمسمائة، وأما تسمية الراوي لها بالحرث بن همام، فإنما عنى به نفسه، هكذا وقفت عليه في بعض شروح المقامات، وهو مأخوذ من قول النبيﷺ : "كلكم حارث وكلكم همام"، فالحارث الكاسب، والهمام الكثير الاهتمام، وما من شخص إلا وهو حارث وهمام، لأن كل واحد كاسب ومهتم بأموره.

وقد اعتنى بشرحها خلق كثير، فمنهم من طول ومنهم من اختصر، ورأيت في بعض المجاميع أن الحريري لما عمل المقامات كان قد عملها أربعين مقامة، حملها من البصرة إلى بغداد، وأبداها، فلم يصدقه في ذلك جماعة من أدباء بغداد وقالوا: إنها ليست من تصانيفه، بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت أوراقه إليه فادعاها، فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته، فقال أنا رجل منشيء، فاقترح عليه إنشاء رسالة في واقعة عينها، فأخذ الدواة والورقة وانفرد في ناحية من الديوان ومكث زمانا كثيرا فلم يفتح الله عليه بشيء من ذلك فقام وهو خجلان، وكان في جملة من أنكر دعواه في عملها أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر، فلما لم يعمل الحريري الرسالة التي اقترحها عليه الوزير أنشد هذين البيتين، وقيل إنهما لأبي محمد بن أحمد المعروف بابن جكيتا الحريمي البغدادي الشاعر وهما :

شيخ لنا من ربيعة الفرس	ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان كما	رماه وسط الديوان بالخرس

وللحريرى تآليف حسان، منها درة الغواص فى أوهام الخواص، ومنها ملحة الإعراب المنظومة فى النحو، وله أيضًا شرحها، وله ديوان رسائل، وشعر كثير غير شعره الذى فى المقامات، فمن ذلك قوله وهو معنى حسن:

قال العواذل ما هذا الغرام به	أما ترى الشعر فى خديه قد نبتا
فقلت والله لو أن المفند لى	تأمل الرشد فى عينيه ما ثبتا
ومن أقام بأرض وهى مجدبة	فكيف يرحل عنها والربيع أتى

ومنه ما ذكره عماد الدين الأصبهانى فى كتاب الخريدة:

كم ظباء بحاجر	فتنت بالمحاجر
ونفوس نفائس	حذرت بالمحاذر
وتثن الخاطر	هاج وجد الخاطر
وعذار لأجله	عاذلى عاد عاذرى
وشجون تضافرت	عند كشف الضفائر

وله قصائد استعمل فيها التجنيس كثيرا، ويحكى أنه كان دميما قبيح المنظر، فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ عنه شيئا؛ فلما رآه استزرى شكله ففهم الحريرى ذلك؛ فلما التمس منه أن يملى عليه قال له اكتب :

ما أنت أول سار غره قمر	ورائد أعجبته خضرة الدمن
فاختر لنفسك غيرى إننى رجل	مثل المعيدى فاسمع بى ولا ترنى

فخجل الرجل وانصرف. وكانت ولادة الحريرى فى سنة ست وأربعين وأربعمائة؛ وتوفى سنة عشر وقيل خمس أو ست عشرة وخمسمائة بالبصرة.

ألوان جديدة من الأدب
فى العصر العباسى

ظهر فى العصر العباسى الكبير كثير من الألوان والفنون الأدبية الجديدة: وفى مقدمتها :

١- أدب المقامة.
٢- الأدب الصوفى.

٣- أدب الزهد.
٤- أدب السخرية كما نراه فى :"رسالة التربيع والتدوير" للجاحظ ؛ وفى قصائد ابن الرومى وغيره من الشعراء.
٥- أدب القصة الخيالية : كما فى رسالة الغفران وغيرها.
٦- أدب الحكمة المزدوجة بألوان عميقة من الفلسفة والتفكير العقلى.
٧- أدب النقد والموازنة الأدبية.
٨- النقد الاجتماعى.
٩- أدب الطبيعة.
١٠- أدب السمر والقصة.
١١- أدب الخطابة الدينية.
١٢- أدب الغلمان بما يشتمل عليه من غزل بالمذكر وسواه.

وهذه الألوان العديدة، قد عرضنا لها فى ثنايا فصول هذا الكتاب، والذى لم نتعرض له منها فلأنه موضوع بحوث مستقلة، ستنشر فى كتب أخرى غير هذا الكتاب.

وإنى فى غنى عن أن أقول : إن العصر العباسى قد أحدث آثارا عميقة فى الأدب، ووجهه توجيهًا جديدًا، ودراسة ذلك كله هى التى حفزتنى إلى إخراج هذا الكتاب، وسيحفزنى لإخراج كتب أخرى مكملة لبحوثه، ومتتمة لدراساته، إذا وفق الله، وسدد الخطى، وأرشدنا إلى سواء السبيل.

القسم السابع

صور من الأدب العباسي

صور من الأدب العباسي

-١-

دخل رجل[١] بدوى عليه شعث السفر، على داود[٢] المهلبى - وكان إذا حضر الطعام يتقدم بصرف البوابين، ولا يمنع من الوصول إلى طعامه - فلما فرغ من الطعام وثب قائمًا وأومى إليه، وقال : من أنت يا فتى ؟ قال : شاعر، قصدتك بأبيات من الشعر. قال داود: مهلا قليلا، ثم دعا بقوس فأوترها[٣]، وأومى إليه وقال له: قل، فإن أنت أحسنت خلعت وأجزلت، وإن أخطأت رميتك بهذا السهم يقع فى أى موضع يقع فيه، فتبسم البدوى، وقال :

أمنـــت بـــداود وجـــود يميـــنه	من الحدث المرهوب والبؤس والفقر
وأصبحت لا أخشـى بـداود نـبوة	ولا حدثانـا إن شـددت بـه أزرى
لـه حكـم لقمـان وصـورة يوسـف	وملـك سـليمان وصـدق أبـى ذر
فتى تهرب الأموال من جود كفه	كما يهرب الشيطان من ليلة القدر
فقوسك قوس الجود والوتر الندى	وسهمك فيه الموت فاقتل به فقرى

فضحك داود ورمى بسهمه مع القوس من يده، وقال : يا فتى العرب، بالله هل كان ذكر القوس فى الأبيات ؟ فقال : لا والله ! ففرح بذلك، وقال . يا فتى العرب بالله أيهما أحب إليك : أعطيك على قدرك أم على قدرى؟ قال : بل على قدرى قال : كم على قدرك؟ قال : مائة ألف درهم، فأمر له بها، ثم قال : ما منعك أن تقول على قدرى؟ فقال : أيها الأمير، أردت أن أقول ذلك. فإذا الأرض لم تساو قدر الأمير، فطلبت على قدرى! فقال : لله درك! والله إن نثرك لأحسن من نظمك! وأمر له بمائة ألف ثانية، وأمره ألا ينقطع عنه.

---

[١] المختار من نوادر الأخبار - مخطوط.

[٢] هو داود بن زيد بن حاتم المهلبى . كان واليا على افريقية. ثم ولاه الرشيد السند. فاتسقت له أمورها. واستمر بها إلى أن توفى سنة ٢٠٥هـ.

[٣] أوتر قوسه : جعل لها وترا.

وقال العتابى: كنا بباب الفضل بن يحيى البرمكى أربعة آلاف ما بين شاعر وزائر، وفينا فتى[1] يحدثنا ونجتمع إليه؛ فبينما هو ذات يوم قاعد إذ أقبل إليه غلام له! فقال له: يا مولاى؛ أخرجتنى من بين أبوى، وزعمت أن لك صلة بالملوك، فقد صرنا إلى أسوأ ما يكون من الحال. فإن رأيت أن تأذن لى فانصرف إلى أبوى فعلت! فاغرورقت عينا الفتى، ثم قال: ائتنى بدواة وقرطاس، فأتاه بهما فقعد؛ فكتب رقعة، ثم قام إلى مجلسه، ثم قال للغلام: انصرف إلى وقت رجوعى إليك. فبينما نحن كذلك إذ جاء رجل يستأذن على الفضل، فقام إليه الفتى، فقال: توصل رقعتى هذه إلى الأمير؟ قال: وما فى رقعتك؟ قال: أمدح نفسى، وأحث الأمير على قبولى، قال: هذه حاجة لك دون الأمير، فإن رأيت أن تعفينى فعلت! قال: قد فعلت. فعاد إلى مجلسه، فخرج الحاجب فقام إليه، فقال له مثل مقالته الأولى. فاستظرفه الحاجب، وقال: إن رجلا يمدح نفسه ولا يمدح الفضل عجيب! فأخذ منه الرقعة فلوحيا للفضل. فقرأ منها سطرين، وهو مستلق على فراشه، ثم استوى قاعدًا، وتناول الرقعة، فقرأها، فلما فرغ قال للحاجب: أين صاحب الرقعة؟ قال: أعز الله الأمير: والله لا أعرفه لكثرة من بالباب؛ فقال الفضل أنا أنبذ لك الساعة: يا غلام! اصعد القصر: فناد أين مادح نفسه؟ فقام الغلام فصاح؛ فقام الفتى من بيننا بغير رداء ولا حذاء! فلما مثل بين يدى الفضل، قال له: أنت القائل ما فيها؟ قال: نعم قال: أنشدنى، فأنشأ الفتى يقول:

أنا من بغية[3] الأمير وكنز ... من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب ... ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريـ ... ـشة مما يكون تحت الجناح[2]
لى فى النحو فطنة واتقاد ... أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعلم ... بقول منور الإفصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشعر ... وقول النسيب والأمداح
وظريف الحديث فى كل فن ... وبصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت عندى حديثا ... هو عند الملوك كالتفاح

---

(1) الأوراق للصولى ص٤.

(2) الشاعر المفلق: المبدع، وأخف الريش وأدقه ما يكون تحت الجناح، وأراد بالخفة خفة الروح.

(3) من بغيته مطالبه. يريد أن الأمير لو اصطنعه واصطفاه لرأى فيه خيرا كثيرا. وقد عدد مزايا نفسه فى البيتين بعده.

فبمثلي تخلو الملوك وتلهو وتناجي في المشكل الفداح
أيمن الناس طائرا يوم صيد لغدو دعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجواهر والخيل وبالخرد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد لله على أنني ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيه ولا الماجن الخليع الوقاح
إن رمى بي الأمير أصلحه الله رماحا ثلمت حد الرماح
ما أنا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدي ذي السماح

حتى أتى على آخرها. فقال له الفضل:

كاتب، حاسب، خطيب، أديب، ناصح زائد على النصاح؟!

قال: نعم! أصلح الله الأمير، فقال الفضل: يا غلام، الكتب التي وردت من فارس! فأتى بها، فقال للفتى: خذها فاقرأها وأجب عنها، فجلس بين يدي الفضل يكتب، فقال له الحاجب: اعتزل يكن خيرا لك! فقال: ههنا الرأي أجمع بحيث الرغبة والرهبة. فلما فرغ من الكتب عرضها على الفضل، فكأنما شق عن قلبه، فقال الفضل: يا غلام، بدرة، بدرة، فقال الفتى للغلام: أعز الله الأمير، دنانير أو دراهم، قال: دراهم! قال: دنانير يا غلام! فلما وضعت البدرة بين يديه قال الفضل: احملها بارك الله لك فيها. قال الفتى: والله – أيها الأمير – ما أنا بحمال وما للحمل خلقت! فإن رأى الأمير أن يأمر بعض غلمانه يحملها على أن الغلام لي! فأشار الفضل إلى بعض الغلمان، فأشار الفتى إليه: مكانك! ثم قال: إن رأى الأمير – أيده الله أن يجعل الخيار إلي في الغلمان كما فعل بين البدرتين فعل. فقال: اختر! فاختار من أحسنهم غلاما! فقال: احمل، فلما صارت البدرة على منكب الغلام بكى الفتى، فاستفظع الفضل ذلك، وقال: ويلك! استقلالاً؟ قال: لا – والله – أيدك الله ولقد أكثرت، ولكن أسفًا أن الأرض توارى مثلك! قال الفضل: هذا أجود من الأول، يا غلام، زده كسوة!

-٣-

كان داود بن يزيد[1] بن حاتم المهلبي يجلس للشعراء في السنة مجلسًا واحدًا، فيقصدونه لذلك اليوم وينشدونه، فوجه إليه مسلم راويته بقصيدته التي أولها:

---

[1] أمير من الشجعان العقلاء ولاه الرشيد السند وتوفي فيها سنة ٢٠٥هـ.

لا تدع بى الشوق إنى غير معمود　　　نهى النهى عن هوى الهيف الرعاديد[1]

فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ولحقهم عقب خروجهم عنه، فتقدم إلى الحاجب وحسر لثامه عن وجهه، ثم قال: استأذن لى على الأمير؛ قال : ومن أنت؟ قال شاعر، قال : قد انصرم وقتك وانصرف الشعراء وهو على القيام، فقال له : ويحك! إنى قد وفدت على الأمير بشعر ما قالت العرب مثله، وكان مع الحاجب أدب يفهم به ما يسمع، فقال : هات حتى أسمع، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك إليه؛ فأنشده بعض القصيدة، فسمع شيئا يقصر عنه الوصف، فدخل على داود فقال له: قدم على الأمير شاعر بشعر ما قالت العرب مثله، فقال : أدخل قائله! فلما مثل بين يديه سلم، وقال: قدمت على الأمير - أعزه الله - بمدح يسمعه، فيعلم تقدمى على غيرى ممن امتدحه؛ فقال : هات! فلما افتتح القصيدة وقال : "لا تدع بى الشوق" استوى جالسا، وأطرق حتى أتى الرجل على آخر الشعر، ثم رفع رأسه إليه، فقال : أهذا شعرك؟ قال: نعم أيها الأمير! قال : فى كم قلته يا فتى؟ قال: فى أربعة أشهر أبقاك الله، قال : لو قلته فى ثمانية أشهر لكنت محسنا، وقد اتهمتك لجودة شعرك وخمول ذكرك، فإن كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعة أشهر فى مثله، وأمرت بالإجراء عليك فإن جئتنا بمثل هذا الشعر وهبت لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك، فقال: أو الإقالة - أعز الله الأمير - قال: قد أقلتك؛ قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره، فقال : أنا ابن حاتم! إنك لما افتتحت شعره فقلت : لا تدع بى الشوق إنى غير معمود[2] سمعت كلام مسلم ينادينى، فأجبت نداءه واستويت جالسًا؛ ثم قال: يا غلام: أعطه عشرة آلاف درهم، واحمل الساعة إلى مسلم مائة ألف درهم!

-٤-

خرج مسلم[3] بن الوليد ذات يوم، فلقى زيد بن منصور الحميرى بباب الرشيد، فسلم؛ فرد عليه السلام، ورحب به، وسأله عن شأنه فخبره، وسأله أن يقربه من الخليفة. وأن يحتال حتى يعد فى ممازحيه، ومن يجرى عليه أرزاقه! فقال له الحميرى. سأتأتى لوصولك إلى أمير المؤمنين!

---

(1) أى لا تدعنى مشتاقا، وسأله دعبل عن معنى ذلك، فقال لا تدعنى صريع الغوانى. فلست كذلك، وكان لهذا اللقب كارهًا، والمعمود: المشغوف عشقا. والهيف الضامرات الخصور، وامرأة رعديدة: يترجرج لحمها من نعمتها وكذلك الرخصة الناعمة.

(2) انظر القصيدة فى عصر المأمون ص٢٨٢ ج٢.

(3) المحاسن والمساوئ ص٢٥٣ طبع ليبزج.

فدخل الحميرى فأصاب أمير المؤمنين لقس[1] النفس. فد اشتمل عليه الفكر فى سرعة تقضى أمور الدنيا، وأنه لا يتشبث منها بشىء إلا كان كالظل الزائل، والسراب الخادع! فقال له جعفر بن يحيى : يا أمير المؤمنين أفتظن أن هذا الفكر يحبس عليك الأيام، ويمنعك مما لا تستمتع به، إنما هذا الذى أنت فيه عارض عرض لك، وقد كان ملك من الملوك حكيمًا، يقول: الهم مفسدة للنفس، ومضلة للفهم، ومدهشة للقلب؛ ومن أعظم الخطأ التشاغل بما لا يمكن دفعه!

وقال له سليمان بن أبى جعفر : يا أمير المؤمنين، قد قال لقمان الحكيم : من يملك يستأثر، ومن لا يستشر يندم، والهم نصف الهرم؛ والفقر الموت الأكبر. فكأن الرشيد نشط، واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدم إليه الحميرى، وقال: يا أمير المؤمنين، خلفت بالباب آنفا رجلا من أخوالك الأنصار متقدما فى شعره وأدبه وظرفه، أنشدنى قصيدة يذكر فيها أنسه ولهوه ولعبه ومحادثته إخوانه، ويذكر مجالس اتصلت له، بأبلغ قول وأحسن وصف وأقرب رصف، يبعث والله على الصبابة والفرح، ويباعد عن الهم والترح، وكأنه قد وفق - بيمن أمير المؤمنين، وسعادة جده - لأن يكون مبرئا من هذه الشكوى، زائدا فى سرور أمير المؤمنين، مستدعيا له صلة رحمه، والتشرف بخدمته.

فاستفزه السرور والقلق إلى دخوله، واستماع قصيدته، وجعل يتابع الرسل بعضهم فى إثر بعض، حتى دخل، وكان حلو الشمائل، فوصل إليه فى وقت قد كان خرج فيه من رسم الشباب وشرته، ولم يكن فى عداد من قد اضطرب سنا، وكان - ناهيك من رجل - معه فهم وتجربة وتمييز ومعرفة، فأمهل حتى سكن، ثم أذن له فى الجلوس، فانبرى مسلم ينشد قصيدته التى يقول فيها:

أديرا على الكأس لا تشربا قبلى	ولا تطلبا من عند قاتلتى ذحلى[2]
فما جزعى أنى أموت صبابة	ولكن على من لا يحل لها قتلى
أحب التى صدت وقالت لتربها:	دعيه، الثريا منه أقرب من وصلى!
بلى ربما وكلت عينى بنظرة	إليها تزيد القلب خبلا على خبل
كتمت تباريح الصبابة عاذلى	فلم يدر ما بى، واسترحت من العذل

---

[1] لقس النفس : لقست نفسه من الشئ : غثت وخبثت.
[2] الذحل : الثأر.

إلى أن قال :

إذا مــا علــت مــنا ذؤابــة واحــد ... تمشت بـه مشـى المقيد فـى الوحـل
فـلا نحــن متــنا موتــة الدهــر بغــتة ... ولا هــى عــادت بعـد عـل[1] ولا نهـل
ســأنقاد للــذات متــبع الهــوى ... لأمضـى همــا أو أصيب فـتى مثـلى
هـل العـيش إلا أن تـروح مـع الصبا ... وتغدو صريح الكأس والأعين النجل؟

فجعل الرشيد يتطاول لها، ويستحسن ما حكاه من وصف شراب ولهو وغزل وسهولة ألفاظ، فأمر له بمال، وأمر أن يتخذ لـه مجلس يتحول إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته، فسماه يومئذ - بآخر بيت من شعره - صريع الغواني!

-٥-

كان هارون الرشيد[2] يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم، وكان مسلم بن الوليد - صريع الغواني - قد رمى عنده بالتشيع، فأمر بطلبه، فهرب منه، ثم أمر بطلب أنس بن أبى شيخ كاتب البرامكة، فهرب منه، ثم وجد هو ومسلم بن الوليد عند قينة ببغداد. فلما أتى بهما، قيل لـه: يا أمير المؤمنين؛ قد أتى بالرجلين! قال : أى الرجلين؟ قيل أنس بن أبى شيخ، ومسلم بن الوليد. فقال الحمد لله الذى أظفرنى بهما، يا غلام أحضرهما، فلما دخلا عليه نظر إلى مسلم، وقد تغير لونه، فرق له، وقال : إيه يا مسلم، أنت القائل :

أنـس الهـوى ببـنى علـى فـى الحشا ... وأراه يطمــح عــن بــنى العــباس

قال : بل أنا الذى أقول - يا أمير المؤمنين:

أنس الهوى ببنى العمومة فى الحشا ... مستوحشــا مــن ســائر الأنــاس[3]
وإذا تكاملــت الفضــائل كنــتم ... أولى بذلــك يــا بــنى العــباس

فعجب هارون الرشيد من سرعة بديهته، وقال لـه بعض جلسائه : استبقه يا أمير المؤمنين، فإنه من أشعر الناس، وامتحنه فسترى منه عجبًا! فقال لـه : قل شيئا فى أنس فقال: يـا أمير المؤمنين؛ أفرخ[4] روعى أفرخ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك، فإنى لم أدخل على خليفة قط، ثم أنشأ يقول:

---

[1] العل : الشرب بعد الشرب تباعا، أو الشربة الثانية، والنهل محركة أول الشرب.
[2] العقد الفريد ص٤٢٩ ج١.
[3] الأناس : الناس.
[4] أذهب روعى وفزعى.

تلمظ[1] السيف من شوق إلى أنس | فالموت يلحظ والأقدار تنتظر
فليس يبلغ منه ما يؤمله | حتى يؤامر فيه رأيك القدر
أمضى من الموت، يعفو عند قدرته | وليس للموت عفو حين يقتدر

فأجلسه هارون وراء ظهره، لئلا يرى ما هم به، حتى إذا فرغ من قتل أنس قال له: أنشدني أشعر شعر لك، فكلما فرغ من قصيدة قال : التي تقول فيها "الوحل" فإني رويتها وأنا صغير، فأنشده شعره الذي أوله:

أديرا على الراح لا تشربا قبلي | ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي[2]

حتى انتهى إلى قوله:

إذا ما علت منا ذؤابة شارب | تمشت بنا مشي المقيد في الوحل

فضحك هارون، وقال : عليك! أما رضيت أن قيدته حتى يمشي في الوحل: ثم أمر له بجائزة وخلى سبيله.

-٦-

قال علي بن جبلة في القاسم بن عيسى

المنايا في مقانبه[3] | والعطايا في ذرا حجره
ملك تندى أنامله | كانبلاج النوء عن مطره
مستهل عن مواهبه | كابتسام الروض عن زهره
جبل عزت مناكبه | أمنت عدنان في نفره
إنما الدنيا أبو دلف | بين مبدأه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف | ولت الدنيا على أثره
كل من في الأرض من عرب | بين باديه إلى حضره
مستعير منه مكرمة | يكتسيها يوم مفتخره

فغضب المأمون واغتاظ، وقال : لست لأبي إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه، ثم قال: اطلبوه حيث كان، فطلب فلم يقدر عليه، ولما اتصل به الخبر هرب إلى

---

[1] أصل التلمظ تحريك اللسان في الفم كأنه يتتبع بقية الطعام بين أسنانه، ويقال تلمظت الحية: إذا أخرجت لسانها لتلمظ الأكل.
[2] الذحل : الثأر.
[3] المقانب ، جمع مقنب وهو جماعة الخيل تغير .

الجزيرة، فكتب إلى الآفاق فى طلبه، فهرب من الجزيرة إلى الشام، وظفروا به هناك، وأخذوا وحمل إلى المأمون، ولما وصل إليه سبه وقال له: أنت القائل للقاسم بن عيسى:

كل من فى الأرض من عرب	بين باديه إلى حضره
مستعير منك مكرمة	يكتسيها يوم مفتخره

جعلتنا ممن يستعير المكارم منه! فقال له: يا أمير المؤمنين، أنتم أهل بيت لا يقاس بكم أحد، لأن الله جل وعز فضلكم على خلقه، واختاركم لنفسه، وإنما عنيت بقولى فى القاسم أشكال القاسم وأقرانه، فقال: والله ما استثنيت أحدًا، ولست استحل دمك لذاك، ولكنى أستحله بقولك وكفرك فى شعرك، حيث تقول القول الذى أشركت فيه:

أنت الذى تنزل الأيام منزلها	وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددت مدى طرف إلى أحد	إلا قضيت بأرزاق وآجال

كذبت، وما يقدر على ذلك أحد إلا الله عز وجل، الملك الواحد القهار، ثم أمر بعقابه!

-٧-

وقال الكسائى[1] دخلت على الرشيد، فلما قضيت حق التسليم والدعاء، وثبت للقيام، فقال : اقعد، فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه، ولم يبق إلا خاصته، فقال لى: يا على، ألا تحب أن ترى محمدًا وعبد الله[2]؟ قلت: ما أشوقنى إليهما يا أمير المؤمنين، وأسرنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين! فأمر بإحضارهما فلم ألبث أن أقبلا ككوكبى أفق، يزينهما هدوء ووقار، وقد غضا أبصارهما، وقاربا خطوهما، حتى وقفا على باب المجلس، فسلما على أبيهما بالخلافة، ثم قالا تمم الله على أمير المؤمنين نعمه، وشفعها بشكره، وجعل ما قلده من هذا الأمر أحمد عاقبة، ولا كدر عليه منه ما صفا، فقد صرت للمسلمين ثقة، إليك يفزعون فى أمورهم، ويقصدون فى حوائجهم، فأمرهما بالدنو منه، فصير محمدًا عن

---

(١) المسعودى ص٢٧١ ج٢، معجم الأدباء ص١٧٣ ج١٣، المحاسن والمساوئ ص٤٤٠، والكسائى اسمه على بن حمزة وأصله من فارس، أشهر نحاة الكوفة وأحد القراء السبعة. استقدمه الخلفاء العباسيون ليعلم أبناءهم. وألف كثيرا من الكتب فى النحو والقراءات والأدب والنوادر، وتوفى سنة ١٨٩هـ.

(٢) محمد الأمين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد.

يمينه وعبد الله عن يساره، ثم التفت إلي فقال : يا علي، مازلت ساهرا مفكرًا في معاني أبيات قد خفيت علي .. قلت : إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنيها فأنشدني:

قد قلت قولا للغراب إذ حجل   عليك بالقود المسانيف الأول

تغد ما شئت على غير عجل

فقلت : نعم يا أمير المؤمنين، إن العير إذا فصلت من خيبر، وعليها التمر، يقع الغراب على آخر العير، فيطردها السواق، يقول هذا: تقدم إلى أوائل العير، فكل على غير عجل، والقود، الطوال الأعناق والمسانيف، المقدمة .. ثم أنشدني:

لعمري لئن عشرت من خشية الردى   نهاق الحمار إنني لجهول

قلت : نعم يا أمير المؤمنين، كان الرجل من العرب إذا دخل خيبر أكب على أربع وعشر تعشير الحمار، وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حمى خيبر .. ثم أنشدني قول الآخر:

أجاعل أنت بيقورا[1] مضرمة   ذريعة لك بين الله والمطر

قلت : نعم، كانت العرب إذا أبطأ المطر شدت العشر[2] والسلع، وهما ضربان من النبت، في أذناب البقر وألهبوا فيه النار، وشردوا البقر تفاؤلا بالبرق والمطر ثم أنشدني لرجل آخر:

وسرب ملاح قد رأيت وجوههم   إناث أدانيه، ذكور أواخره

قلت : إنه يعن الأضراس .. ثم أنشدني لآخر:

فإني إذن كالثور يضرب جنبه   إذا لم يعف شربا وعافت صواحبه

قلت : نعم ، كانت العرب إذا أوردت البقر الماء، فشربت الثيران وأبت البقر ضربت الثيران حتى تشرب البقر، وهو كما قال : كالثور يضرب لما عافت البقر ثم أنشدني :

ومنحدر من رأس برقاء حطه   مخافة بين أو حبيب مزايل

قلت : نعم ، يعني الدموع، والبرقاء: العين، لأن فيها سوادا وبياضا، وحطه : أسأله، وحبيب : محبوب، ومزايل: مفارق، فوثب الرشيد فجذبني إلى صدره، وقال : لله در أهل الأدب! ثم دعا بجارية، فقال لها : احملي إلى منزل الكسائي خمس بدر

---

[1] اسم جمع لبقرة.

[2] شجر لم يقتدح الناس في أجود منه.

على أعناق خمسة أعبد يلزمون خدمته، ثم قال لى : استنشدهما - يعنى ابنيه - فأنشدنى محمد الأمين:

وإنـى لعـف الفقـر مشترك الغنـى	وتـارك شـكل لا يوافقـه شـكلى
وشـكلى شـكل لا يقـوم بمـثله	من الناس إلا كل ذى نيقة[1] مثلى
ولى نيقة فى المجد والبذل لم يكن	تأنقهـا فـيما مضـى أحـد قبـلى
وأجعـل مـالى دون عرضـى جـنة	لنفسـى واستغنى بما كان من فضلى

وأنشدنى عبد الله المأمون :

بكـرت تلومـك مطلـع الفجـر	ولقـد تلـوم بغـير مـا تـدرى
مـا إن ملكـت مصـيبة نزلـت	إذ لا يحكـم[2] طائعـا أمـرى
ملـك الملـوك عـلى مقـتدر	يعطـى إذا مـا شـاء مـن يسـر
فلـرب مغتـبط بمـرزئة	ومفجـع بنوائـب الدهـر
ومكاشـح لى قـد مـددت لـه	نحـرًا بـلا ضـرع[3] ولا غمـر
حـتى يقـول لنفسـه لهفًـا :	فـى أى مذهـب غايـة أجـرى
وتـرى قـناتى حـين يغمـزها	غمـز الـثقاف بطيـئة الكسـر

ثم أمرنى أن أسألهما، ففعلت، فما سألتهما عن شىء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه، فسر بذلك الرشيد، حتى تبينته فيه، ثم قال : يا على، كيف ترى مذهبهما وجوابهما فقلت، يا أمير المؤمنين هما كما قال الشاعر :

أرى قمـرى مجـد وفـرعى خلافـة	يزيـنهما عـرق كـريم ومحـتد
يسـدان آفـاق السـماء بشـيمة	يؤيدهـا حـزم وعضـب مهـند
سـليلى أمـير المؤمـنين وحائـزى	مواريـث مـا أبقـى النـبى محمـد

يا أمير المؤمنين، هما فرع زكا أصله، وطاب مغرسه، وتمكنت فى الثرى عروقه، وعذبت مشاربه، أبوهما ملك أغر نافذ الأمر، واسع العلم، عظيم الحلم، فهما يستضيئان بنوره، وينطقان بلسانه، ويتقلبان فى سعادته، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما، فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء، وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب[4] منهما لسانا، ولا أعذب كلاما، ولا أحسن ألفاظا، ولا أشد

---

(1) النيقة : اسم من تنوق فى الأمر : تجود وتأنق فيه.

(2) حكم الأمر : أحكمه.

(3) الضرع : من ضرع . إذا ذل وخضع، والغمر، من لم يجرب الأمور وبالتحريك الحقد.

(4) الذرب : الحديد اللسان.

اقتدارا على تأدية ما حفظا ورويا، ودعوت لهما دعاء كثيرا، وأمن الرشيد على دعائي.. ثم ضمهما إليه، وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره، رقة عليهما وإشفاقا، ثم أمرهما بالخروج. فلما خرجا أقبل علي، فقال: كأنك بهما - وقد حم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وبلغ الكتاب أجله وانتهى الأمر إلى وقته المحدود، وحينه المسطور الذى لا يدفعه دافع، ولا يمنع منه مانع - قد تشتت أمرهما، وافترقت كلمتهما، وظهر تعاديهما، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء، وتكثر القتلى، وتهتك ستور النساء.

- ٨ -

حكى أبو حامد أحمد بن محمد الاسفرايني الفقيه الشافعي[1]، قال : كنت يوما عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة، فدخل عليه الرضى أبو الحسن[2]، فأعظمه وأجله، ورفع من منزلته، وخلى ما كان بيده من القصص والرقاع، وأقبل عليه يحادثه إلى أن انصرف. ثم دخل بعد ذلك المرتضى أبو القاسم، فلم يعظمه ذلك التعظيم، ولا أكرمه ذلك الإكرام، وتشاغل عنه برقاع يقرؤها وتوقيعات يوقع بها، فجلس قليلا، وسأله أمرًا فقضاه، ثم انصرف. قال أبو حامد: فتقدمت إليه، وقلت له: أصلح الله الوزير! هذا المرتضى هو الفقيه المتكلم صاحب الفنون، وهو الأمثل[3] الأفضل منهما، وإنما أبو الحسن شاعر، فقال لي: إذا انصرف الناس، وخلا المجلس أجبتك عن هذه المسألة، قال : وكنت مجمعا على الانصراف، فجاءني أمر لم يكن في الحسبان فدعت الضرورة لملازمة المجلس إلى أن تقوض الناس واحدا فواحدا، فلما لم يبق إلا غلمانه وحجابه دعا بالطعام، فلما أكلنا وغسل يده وانصرف عنه أكثر غلمانه، ولم يبق عنده غيري، قال لخادم له:

هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذ أيام، وأمرتك أن تجعلهما في السفط[4] الفلاني، فأحضرهما فقال : هذا كتاب الرضى، اتصل بي أنه قد ولد له ولد فأنفذت إليه ألف دينار، وقلت : هذه للقابلة - فقد جرت العادة أن يحمل الأصدقاء إلى أخلائهم، وذوي مودتهم مثل هذا في هذه الحال، فردها، وكتب إلى هذا

---

[1] ابن أبي الحديد ص١٣ ج١.

[2] هو أبو الحسن محمد بن الطاهر، كان أبوه نقيب الطالبين، وصارت إليه النقابة وأبوه حي. أجمع النقاد على أنه أشعر قريش. وكان عالما بعلوم القرآن واللغة والنحو، وله فيها المؤلفات النافعة - ٣٥٩ - ٤٠٦هـ.

[3] فلان أمثل بني فلان : أي أدناهم للخير.

[4] السفط : الجوالق، أو كالقفة.

الكتاب، فاقرأه. قال : فقرأته، وهو اعتذار عن الرد، وفي جملته : إننا - أهل بيت لا يطلع على أحوالنا قابلة غريبة، وإنما عجائزنا يتولين هذا الأمر من نسائنا، ولسن ممن يأخذن أجرة. ولا يقبلن صلة. قال : فهذا ، هذا ، وأما المرتضى فإننا كنا قد وزعنا وقسطنا[1] على الأملاك تقسيطًا نصرفه في حفر فوهة النهر المعروفة بنهر عيسى، فأصاب ملكا للشريف المرتضى عشرون درهما، وقد كتب إلى منذ أيام في هذا المعنى هذا الكتاب فاقرأه، فقرأته، وهو أكثر من مائة سطر يتضمن من الخضوع والخشوع والاستمالة والطلب والسؤال في إسقاط هذه الدراهم على أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه. قال فخر الملك: فأيهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل : هذا العالم المتكلم الفقيه الأوحد، ونفسه هذه النفس، أم ذلك الذي لم يشتهر إلا بالشعر خاصة ونفسه تلك النفس؟ فقلت : وفق الله الوزير، فمازال موفقًا وما وضع الأمر إلا في موضعه، ولا أحله إلا في محله.

-٩-

للطغرائي في وصف غدير :

عجنا إلى الجزع الذي مد في ... أرجائه الغيم بساط الزهر
حول غدير ماؤه المنتمي ... إلى نبات المزن يشكو الخصر
لو لاذت الريح سموما به ... لانقلبت وهي نسيم السحر
حصباؤه در، ورضراضه ... سحالة العسجد حول الدرر
وقد كسته الريح من نسجها ... درعا بها يلقى نبال المطر
وألبسته الشمس من صبغها ... نورا به يخطف نور البصر
كأنه المرآة مجلوة ... على بساط أخضر قد نشر

-١٠-

ولابن النبيه المصري :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا ... ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه ... حلوا فقد جهل المحبة وادعى
يا أيها الوجه الجميل تدارك الصبـ ... ـر الجميل فقد عفا وتضعضعا
هل في فؤادك رحمة لمتيم ... ضمت جوانحه فؤادا موجعا؟
هل من سبيل أن أبث صبابتي ... أو أشتكي بلواي أو أتوجعا؟
إني لأستحيي كما عودتني ... لسوى رضاك إليك أن أتشفعا

---

[1] قسط الشيء : فرقه .

خاتمة الكتاب

هذه الدراسات المستفيضية للأدب العباسي، وأصوله، وألوانه، ومذاهبه، وأعلامه، التي يتضمنها هذا الكتاب، أجد نفسي في غنى عن أن أبين للقارئ الواعي المثقف جدتها وأهميتها معا، فإن في إدراك القارئ الفطن ويقظته ما يغنيني عن ذلك كله.

ولم تقتصر هذه الدراسة على عرض الأدب العباسي وفق المنهج التاريخي في دراسة الأدب، بل إن المنهج النقدي أظهر على الكتاب: بما يشتمل عليه من نقد وموازنة، وتحليل، وشرح وتوجيه، وبيان لخصائص أدب المحدثين وميزاته ومذاهبه.

والأعلام العديدة التي ترجمنا لها في هذا الكتاب، لم نقتصر في دراستها على عرض جوانب من حياتها، بل درسناها كقطعة حية من صميم الأدب العباسي المزدهر الحي، المشرق بالأصالة والابتداع.

وكذلك أصول الثقافات التي كونت الأدب العباسي، والعناصر المختلفة التي لونت هذا الأدب، تجد لها إيضاحًا وافيًا في هذه الدراسات الواسعة .. مع توخي الدقة، والإشارة إلى جميع المصادر، وإلى أصول هذا البحث العديدة.

ولا أجد ما أقوله للقارئ إلا أن هذا الكتاب هو النواة، التي ستنبع منها بحوث جديدة أخرى حول الأدب العباسي، أرجو أن تظهر في دراسات منوعة في القريب، بين أيدي القراء، بعون الله.

ولا أملك شيئًا من الأمر إلا أن أكرر ما قلته من أني لا أعتمد على شيء، إلا على ذوق القارئ المثقف الواعي، ويقظته وعطفه. وبالله التوفيق، ومنه السداد، وهو عوني، نعم المولى، ونعم النصير ..

المؤلف

الفهرس